كلاسيكيات أثر Athar Classics

إيدث وارتون

عصر البراءة

ترجمة نوف الميموني

أثر

الطبعة الأولى: 2015/1436
ردمك: 978-9938-833-43-0

أثر

المملكة العربية السعودية- الدمام
تلفون : 00966505774560
الموقع الالكتروني : www.darathar.net
Email: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا االكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو اية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

إيدث وارتون

عصر البراءة

رواية

ترجمة

نوف الميموني

أثر

الجزء الأول

الفصل الأول

في مســاء أحد أيام يناير في بداية السبعينيات، كانت كريستين نيلسون تصدح بصوتها في مسرحية «فاوست» في أكاديمية الموسيقى في نيويورك.

ورغم أن الحديث كثُر عن إنشاء دار أوبرا جديدة في الشارع الأربعين على مبعدة مـن قلب المدينـة الراقي، تضاهي في ترفها وتألقها الدُورَ المشـيّدة في العواصم الأوروبية العظيمة، فإن أعيان المجتمع كانوا قانعين بالاجتماع في كل شـتاءٍ في المقصـورات الحمراء المذهّبة المتهالكة في هذه الأكاديمية القديمة. فالمتحفظّون يحبونها لصغرها وضيقها، ما يعني أنها لا تجذب «الناس الجدد» الذين تخشاهم نيويورك رغم انجذابها إليهم، والعاطفيون يتمسـكون بها لدلالاتها التاريخية، أمـا أصحـاب الحس الموسـيقي فيهوونها لما تتمتع بـه القاعة مـن مزايا صوتية ممتازة، وهذه مشكلة أبدية في القاعات المصممة لسماع الموسيقى.

كان هذا الظهور الأول لمدام نيلســون في موسم الشتاء ذاك، وقد التف لسماع غنائهـا «حضور لفيف لم يُشـهد من قبل» كما اعتـادت الصحف اليومية على وصـف الجمهـور الـذي جاء مـن كل حـدب وصـوب لسـماعها، متخطين الشـوارع المثلجة الزلقة في عربـات (بروم) الخاصة ذات الحصان الواحد، أو في عربات (لاندو) التي تسـع الأسرة عن بكرة أبيهـا، أو في عربات (كوبيه) المريحة رغم تواضعها والتي يؤجّرها السـيد براون. كان الوصول إلى الأوبرا عـلى متن عربة (كوبيه) وسـيلة تنقـل راقية تضاهي ذهاب الشـخص بعربته الخاصـة، وللإياب بالوسـيلة نفسـها ميزة عظيمة ألا وهي أن الشـخص (في تعريـض هزلي للمبادئ الديموقراطية) يسـتطيع ركـوب أول عربة في صف عربـات بـراون، بـدلاً من أن يتحـرى رؤية أنف سـائقه المحتقن مـن الزكام وشرب الجـن يلتمـع تحـت أنوار مدخـل الأكاديميـة المسـقوف. لقد حقق أصحـاب الاصطبلات العامة اكتشـافًا حاذقًا عندما أدركـوا أن الأمريكيين

يتلهفون للفرار من أماكن الترفيه أكثر حتى من تلهفهم لقصدها.
عندما فتح نيو لاند آرتشر الباب الخلفي لمقصورة النادي، كانت الستارة قد رُفعت لعرض مشهد الحديقة. ولم يكن هناك في الحقيقة أي سبب يحول دون حضور الشاب إلى الأوبرا مبكرًا، فقد تناول العشاء عند السابعة مع والدته وأخته فقط، ثم توانى في الحضور لتدخين سيجار في مكتبته القوطية بأرففها المصنوعة من خشب الجوز الأسود المصقول والكراسي المصمّعة الأطراف، لأنها الحجرة الوحيدة في المنزل التي تسمح فيها السيدة آرتشر بالتدخين. غير أن نيويورك مدينة عصرية في المقام الأول، ومن المعلوم أنه ليس من الوجاهة في شيء أن تصل إلى الأوبرا مبكرًا. وأصول الوجاهة تلعب دورًا مهمًا في حياة نيو لاند آرتشر في نيويورك لا يماثلها هيبةً ولا قداسةً سوى الرهبةِ الغامضة التي كان يلقيها وثنٌ في قلوب أسلافه منذ آلاف السنين فيتحكم في أقدارهم. أما السبب الثاني الذي دفعه للتأخر في الحضور فهو سبب شخصي. لقد تباطأ في تدخين سيجاره لأنه كان في قرارة نفسه رجلٌ ذو هوى، والتفكير في المتعة يمنحه غالبًا رضا أكبر من التلذذ بها. وهذا ما يحدث خصوصًا إن كانت المتعة رغيدة كما هي متعه في غالبها. وفي ذلك المساء، كانت اللحظة التي يتطلع إليها لحظة نادرة ونفيسة حتى إنه... حتى إنه لو أقّت حضوره بالاتفاق مع مدير المسرح لما دخل الأكاديمية في وقت أنسب من اللحظة التي كانت تصدح فيها مغنية الأوبرا الأولى: «يحبني.. لا يحبني.. يحبني!» وهي تنثر بتلات الأقحوان المتساقطة مع نغمات بعذوبة قطرات الندى.
غير أنها كانت تقول «يحبني!» بالإيطالية لا الإنجليزية، لأن لعالم الموسيقى قاعدة راسخة لا عدول عنها توجب أن يُترجم النص الألماني في مسرحيات الأوبرا الفرنسية التي يؤديها الفنانون السويديون إلى اللغة الإيطالية كي يتسنى للجماهير التي تتحدث الإنجليزية فهمها. وهذا عُرفٌ من جملة الأعراف التي يسلّم بها نيو لاند وتشكّل حياته، مثل استعمال فرشاتين فضيتين مزخرفتين بأحرف اسمه المطلية بالمينا الزرقاء كي يفرق شعره، وألا

يظهـر أبدًا أمام الناس في مجتمعه دون زهـرة تزّين عروة معطفه (ويا حبذا لو كانت زهرة الغاردينيا).

غنّـت المطربة العظيمة: «يحبني... لا يحبنـي» ثم رفعت صوتها بكلمة واحدة «يحبنـي!» تعلـن بها انتصـار الحب، وهـي تضغـط الأقحوانـة المتغضنة على شـفتيها، ثم رفعت عينيها النجلاوين لتنظر إلى طلعة فاوسـت البهية (وكان يقوم بدوره كابول[١]) بصدريته الضيقة من القطيفة الأرجوانية وقبعته المزيّنة بالريش، وهو يحاول عبثًا أن يبدو ببراءة ضحيته الغرّة وطهارتها.

كان نيو لاند متكأً على الجدار الخلفي لمقصورة النادي. أشاح بصره عن خشبة المسرح وأجاله في الناحية المقابلة من دار الأوبرا. أمامه مباشرةً كانت مقصورة حرم السـيد مانسـون مينغت التي منعتها بدانتهـا المفرطة من حضور الأوبرا منـذ فترة طويلـة، ولكن دائمًا ما كان ينوب عنها في الأمسـيات الرائقة بعض أفراد أسرتها الأصغر سـنًا. وفي ذلك المسـاء، ضمـت مقصورتها زوجة ابنها السـيد لوڤيل مينغت، وابنتها السـيدة ويلند، ووراء هاتـين المرأتين المتأنقتين كانت تنكفئ فتاة بفستان أبيض وعينين متسمرتين بحبور شديد في العاشقين على المسرح. وحينما صاحت مدام نيلسـون بكلمة «يحبني!» في أرجاء المسرح الصامـت (وكان أصحاب المقصورات يكفّون دائمًا عن الحديث أثناء «أغنية الأقحوانة»)، تخضب خديّ الفتاة بحمرةٍ تجاوزت حاجبيها لتصل إلى منابت ضفائرها الشـقراء، وأشربت صدرها النضر حتى وصلت حد قميص التول الحريري الناعم الذي لا يطرّزه سوى زهرةِ غاردينيا واحدة. أرخت ناظريها إلى باقتهـا الضخمة من زهور زنابق الوادي التي وضعتها على ركبتها، ورأى نيو لاند أناملها المكسـوة بالقفاز الأبيض تتحسـس الأزهار بنعومة، فجذب نَفَسًا من صدره بزهوٍ ورضا عن نفسه، وأعاد بصره إلى خشبة المسرح.

لم يُدّخـر أي مـالٍ في إعـداد هذا المشـهد المسرحـي، وقد أقـر بجماله الخلاّب أولئـك الذيـن اعتادوا على ارتياد دور الأوبرا في باريـس وڤيينا مثل نيو لاند.

---

(١) ڤيكتور كابول: مطرب أوبرالي فرنسي.

كانـت مقدمـة المسرح مغطـاة بقـماش أخضر زمـرديّ يصل حتـى الأضواء الأمامية، وقد شـكّلت أكوام الطحالب الصوفية الخضراء التي تحيط بأطواق الكروكيت في المنتصف قاعدةً لشـجيرات مصممة لتبدو كأشجار البرتقال، ولكنهـا موشّـاة بورودٍ حمـراء وزهرية كبيرة. ومن الطحالـب المتجمّعة تحت أشـجار الـورد انبثقت أزهار البنفسـج الضخمـة التي تتفـوق بحجمها على الورود، وتشـبه مماسـح الأقلام[1] التي تحيكها سـيدات الأبرشية للقساوسة المتأنقين. وقد أينعت هنا وهناك زهرات الأقحوان على أغصان الورد بغزارة تتكهن بإبداعات السيد لوثر بربانك[2] في المستقبل البعيد.

وفي منتصـف تلك الحديقـة الغنّاء وقفت مدام نيلسـون بحلّةٍ من الكشـمير الأبيـض تشـقّها خطـوط السـاتان السـماويّ، مـع حقيبة صغـيرة من قماش تتـدلى من حزام أزرق، وضفيرتـين صفراوين كبيرتين تحيطان جانبي قميص الموسـلين بعنايـة، وهـي تنصت بعينـين مسـبلتين إلى تغزل كابول المشـبوب العاطفـة، وتتكلـف جهلاً بريئًـا بمقاصده كلما لّمح بنظـرةٍ أو بكلمةٍ إلى نافذة الطابق الأرضي من الفيلا الجميلة التي تبرز مائلةً من الجناح الأيمن.

تسـللت نظـرات نيولاند عائـدةً إلى تلك الصبيـة التي تحمل زنابـق الوادي، وفكّـر: «يا لبراءتهـا! ليس لديها أدنى فكـرة عما يحدث». ظـل يتأمل وجهها الفتيّ وانهماكها في متابعة المشهد بنشوة استحواذية اختلط فيها زهوه بنضجه الذكـوري مـع تبجيلـه لعفّتها اللامتناهية. قال في نفسـه: «سـنقرأ فاوسـت معًـا... على ضفاف البحيرات الإيطالية...» فدمج في غمرة تشـوش تفكيره بين تصوره لشهر العسل ومشاهد التحف الأدبية التي سيكشفها لعروسه كما يحتّم عليه واجبه الرجولي. ففي ظهيرة ذلك اليوم، ألمحت ماي ويلند إلى أنها «مهتمة به» (وهذا ما تقوله العذارى في نيويورك اعترافًا بمشاعرهن)، وهذا خيالـه يقفز متجاوزًا خاتم الخطبة، والقبلـة الأولى، وزفة العرس، لتتمثل له

(١) ممسحة القلم: هي قطعة من القماش المطرّز لمسح الحبر عن طرف القلم.

(٢) لوثر بربانك: عالم نبات أمريكي من رواد تهجين الأزهار.

عروسه إلى جواره في مشهد من مشاهد العشق الأوروبي الساحر.

ما كان نيولاند يتمنى أبدًا أن تكون حرمه في المستقبل امرأة ساذجة، بل كان يصبو إلى أن تتحلى (بفضل مرافقتها له وتنوّرها بنور ثقافته) باللباقة الاجتماعية وحضور البديهة ما يجعلها تقف على قدم المساواة مع أكثر الشابّات المتزوجات شعبيةً في مجتمعها. حيث جرى العرف أن يكنّ محط إعجاب الجنس الآخر، ولكنهن يتمنعن بعبث لاهٍ عن أن يتجاوز الأمر أكثر من الإعجاب. ولو أنه نظر في أصل غروره (كما يكاد يفعل أحيانًا) لوجد أنه يرغب في أن تكون زوجته امرأةً محنّكةً توّاقة لإرضائه - كتلك السيدة المتزوجة التي سحرت عقله لعامين عكرا صفو حياته - لكن دون أن يشوب شخصيتها أي لمحة ضعف كذلك الضعف الذي أغمّ حياة تلك المحزونة، وأفسد مخططاته طيلة فصل الشتاء.

كيف ستلتقي معجزة النار والثلج؟ وكيف ستحمي نفسها في هذا العالم القاسي؟ لم يمعن النظر قط في هذه الأسئلة، بل هو قانعٌ بأن يطلق بصره فيما أمامه دون أن يمعن النظر، وهو المدرك أن ما نتج عن هذا المجتمع سوى السادة ذوي الشعور المسرّحة، والصدريّات البيضاء، والمعاطف المزيّنة عُرُواتها بالأزهار؛ السادة الذين يتتابعون على مقصورة النادي ويتبادلون معه التحيات الودودة، وهم يلتفتون بمناظير الأوبرا ممعنين أبصارهم بحشود السيدات اللاتي شكّلهن مجتمعهم. إن كان الأمر يتعلق بالثقافة والفن فإن نيولاند كان يرى أن له الغلبة على هذه العينة من نبلاء نيويورك القديمة، فالأرجح أنه قد اطّلع وتدبر ورأى من الدنيا أكثر من أي رجل آخر من جماعته. إنك إن أخذت سكان نيويورك كل فردٍ على حدة لوجدته ناقصًا، لكنهم مجتمعين يجسدون «نيويورك»، ولذا فإن عادة التآزر الذكوري هذه هي ما جعلته يعتنق مذهبهم في تعريف كل ما هو أخلاقي. فلقد حدس أنه في خروجه عنهم في هذا الصدد متاعب، ولربما يصل الأمر حتى إلى أن يكون تجاوزًا للتقاليد.

«عجبـــــي!»
هتف بها لورنس ليفرتس بعد أن التفت بمنظاره بغتةً بعيدًا عن المسرح.
كان لورنـس ليفرتس المرجعية الأولى في «المظاهـر» في نيويورك. فلقد كرّس وقته أكثر من أي شـخص آخر لدراسـة هذه المسـألة العويصة الشائقة، لكنّ الدراسـة وحدهـا لا تفسّر كفاءته الفطرية في هذا الشـأن. فما على الشـخص إلا أن ينظر إليه - من انحدار مقدمة رأسـه الصلعاء وتقوس شـاربه الأشقر الجميل، مرورًا بقوامه المشدود الأنيق، ووصولاً إلى قدميه الطويلتين وحذائه الجلـدي اللامع - كي يوقـن أن معرفة «المظاهر» في أي رجل يتأنق هكذا بلا عنـاء، ويمـشي بهـذا الطول بكل رشـاقة ودعة، لابـد أن تكـون غريزية. كما قـال عنه أحد معجبيـه مرة: «إن كان ثمة رجلٌ يعرف متـى ينبغي على النبيل أن يرتدي ربطة عنق سـوداء مع ملابس المسـاء ومتى يجـب ألا يرتديها، فهو لورنـس ليفرتس»، ولا يختلف اثنان عـلى أن رأيه هو الفيصل إن كنت محتارًا بين ارتداء الحذاء ذي الكعب أو حذاء «أكسفورد» الجلدي اللمّاع.
قال:
-يا إلهي!
ومدّ منظاره لسيلرتون جاكسون العجوز دون أن ينطق بكلمة أخرى.
تبـع نيولانـد نظر ليفرتس، فرأى باندهاش أن سـبب تعجبـه هو دخول فرد جديد إلى مقصورة السـيدة مينغت العجوز. كان ذلك الشخص شابةً رشيقة أقـصر قليـلاً من ماي، ذات شـعر بنـي مصفف على هيئة خصـلات معقوفة تحـاذي صدغيهـا، ومثبّتـة بطـوق رفيع من الألمـاس. وقد ارتـدت مع غطاء الـرأس هذا - الذي أضفى عليها المظهر المعروف باسـم «مظهر جوزفين[1]» - فسـتانًا نيليًا من المخمل ينكمش ببهرجة أسـفل صدرهـا بحزام ذي إبزيم عريـض قديم الطـراز. وقفت صاحبة هذا الفسـتان الغريب التـي لم يبدُ أنها أحسـت بـأن فسـتانها كان محط الانتبـاه لحظـةً في منتصف المقصـورة تناقش

(١) جوزفين لا باجيري: امبراطورة فرنسا الأولى وزوجة نابليون بونابرت.

خلالها مع السيدة ويلند مدى ملائمة جلوسها مكان الأخيرة في الركن الأمامي في يمين المقصورة، لكنها أذعنت ببسمةٍ يسيرة وجلست في الصف الذي تجلس فيه زوجة السيد لوفيل مينغت أخو السيدة ويلند التي كانت تقبع في الركن المقابل.

أعاد السيد سيلرتون جاكسون منظار الأوبرا إلى لورنس ليفرتس. والتفت أعضاء النادي التفاتة الرجل الواحد إليه متأهبين لسماع ما سيقوله العجوز، فمثلما كان السيد لورنس ليفرتس المرجعية الأولى في «المظاهر» فإن السيد جاكسون المسّن كان المرجعية الأولى في «تاريخ العائلات». فقد كان على علمٍ بكل صلات القرابة المتشعّبة بين وجهاء نيويورك، وما كان علمه قاصرًا علىٍ توضيح العلاقات المعقدّة منها فحسب، كالعلاقة بين أسرة مينغت (من خلال مصاهرتهم لأسرة ثورلي) مع أسرة دالاس من كارولاينا الجنوبية، أو الروابط بين فرع أسرة ثورلي القديم في فيلادلفيا مع أسرة تشيڤرس من ألباني (وانتبه فلا تخلط أبدًا بينهم وبين أسرة مانسون تشيڤرس من يونيفيرستي بليس في واشنطن)، بل بلغ علمه إلى حد إحصاء الصفات المميزة لكل أسرة، مثل البخل الرهيب لأجيال أسرة ليفرتس الجديدة (الذين ينحدرون من لونغ آيلند)، أو نزوع أسرة راشوورث المدمّر لعقد زيجات غير متوافقة، أو الجنون الوراثي الذي يبرز في كل جيلين من أسرة تشيڤرس في ألباني، مما دعا أبناء عمومتهم في نيويورك إلى رفض الزواج منهم (ما عدا المصيبة التي حلّت على المسكينة ميدورا مانسون التي لا يخفى عن أحد ما حدث لها... لكن لا تنسَ أن أمها كانت من أسرة راشوورث).

إضافةً إلى توغل السيد سيلرتون جاكسون في هذه الغابة من أشجار العائلات، فإنه يحمل بين صدغيه الرفيعين وتحت شعره الكثّ الفضي الأملس حافظةً تحوي كل الفضائح والوقائع الغامضة التي توقدت تحت سطح مجتمع نيويورك الهامد خلال الأعوام الخمسين الماضية. إن اطلاعه واسع وذاكرته قوية إلى درجة أنه قد يكون الرجل الوحيد الذي يستطيع أن

يخبرك بحقيقة أصل جوليوس بوفرت المصرفيّ، وماذا حدث لبوب سبايسر الوسيم والد السيدة مينغت العجوز، الذي اختفى في ظروفٍ محيّرة (ومعه مبلغ ضخم من وديعة الأسرة) بعد مرور أقل من عام على زواجه، وفي اليوم نفسه الذي أبحرت فيه إلى كوبا راقصة إسبانية حسناء كانت تبهج الحشود المجتمعة في دار الأوبرا القديمة في منطقة باتري. غير أن هذه الأحداث الغامضة وغيرها الكثير كانت محفوظةً مصونة في صدر السيد جاكسون، وليس السبب الوحيد لهذا هو أن شرفه يمنعه من أن يفشي سرًّا قد أؤتمن عليه، بل وكذلك لأنه يدرك تمام الإدراك أن سمعته في حفظ الأخبار تزيد من فرصه في اكتشاف ما يود معرفته.

وعلى هذا ارتقب من في مقصورة النادي بشوق جليّ ما سيقوله السيد سيلرتون جاكسون بينما كان يعيد منظار لورنس ليفرتس الأوبرالي إليه. أمضى حينًا يتفرس بعينين زرقاوين شفافتين يظللهما جفنان متغضنان وبصمتٍ كاملٍ وجوه الجماعة الملتفتة إليه، ثم فتل شاربه متأملاً وقال ببساطة:

-ما كنتُ أظن أن أسرة مينغت ستجرؤ على فعل هذا.

الفصل الثاني

شـعر نيولاند أثناء كل ما سـبق بحالة غريبة من الحرج البالغ. فلقد كان أمرًا مزعجًـا أن تكون المقصورة التي تسـتحوذ على كامل اهتـمام رجال نيويورك هي تلك التي تجلس فيها خطيبته بين أمها وزوجة خالها، ولم يسـتطع للوهلة الأولى أن يتعرف على السـيدة التي ترتدي فسـتانًا على طراز الإمبراطورة[1]، ولا أن يخمن السـبب الذي جعل وجودها يثير الحضور. إذْ به يدرك فجأة ما السـبب، وصحب هذا الإدراك موجة حنق عابـرة. كلا.. ما كان أحدٌ يتوقع أن أسرة مينغت ستجرؤ على فعل هذا.

لكنهم فعلوا. تجرأوا حقًا ففعلوا. ولم تزده الهمسـات خلفه إلا يقينًا بأن هذه الشـابة هي قريبة ماي ويلند، ابنة خالها التي لا يتحدثون عنها داخل الأسرة إلا وقالـوا «إيلين أولنسـكا المسـكينة». كان نيولاند يعلم أنهـا وصلت فجأة من أوروبا قبل يوم أو يومين، بل وسـمع من السـيدة ويلند - بلا استياء ولا استهجان - أنها ذهبت لزيارة إيلين المسكينة التي كانت تحلُّ في منزل السيدة مينغت العجوز. لم يكن قلب نيولاند الشـاب قاسـيًا ولا معدم الإحسـاس، بـل كان ممـن يؤيدون تآزر الأسرة الواحدة. وإنّ مـن أكثر الصفات التي تثير إعجابـه في أسرة مينغت هي وقفاتهم الصارمة إلى جانب بعض أفراد الأسرة المنفلتين الخارجين عن طوعها، وكان سـعيدًا ألا تكون زوجته مقيدةً بتزمتٍ زائـف فـلا تغمر بلطفهـا (خفيـةً) قريبتها البائسـة، غـير أن ترحيب الأسرة بالكونتيسـة أولنسـكا في وسـطهم شيءٌ، وتقديمها للعامة - وفي دار الأوبرا مـن بين كل الأماكن، بـل وفي المقصورة عينها التي تضم الفتاة التي سـتُعلن خطبته هو، نيولاند آرتشر، إليها بعد بضعة أسابيع - شيءٌ مختلف تمامًا. كان

---

(١) فستان ضيق منكمش من ناحية الصدر، ومنسدل على بقية الجسم. عُرف بهذا الاسم لنسبته إلى امبراطورة فرنسا الأولى

نيولاند يشاطر سيلرتون جاكسون العجوز المشاعر. إنه لم يكن يظن أن تجرؤ أسرة مينغت على فعل هذا!

ولكـن نيولانـد يعلم أن جسـارة أي رجل لا تزيد أبدًا عن جسـارة السـيدة مينغـت العجـوز عميـدة الأسرة، فهو من المعجبين بالسـيدة المسـنّة العتيدة. على الرغم أنها كانت مجرد كاثرين سـبايسر من جزيرة سـتايتن[1]، وأبوها هو الرجـل الذي جلب على أسرته عارًا لا تمحوه ثـروة ولا جاه، فإنها قد أعلت من شـأنها بالزواج من عميد أسرة مينغت الثرية، وزوّجت ابنتيها إلى رجلين «أجنبيين» (مركيز إيطالي ومصرفيّ إنجليزي)، وكللّت جسارتها بتشييد منزل كبير من حجارة بلون القشـدة الباهتة (في الوقت الذي ساد فيه البناء بالحجر الرملي البني) في موقع يصعب الوصول إليه قرب حديقة سنترال بارك.

كانت ابنتا السـيدة مينغت العجوز الأجنبيتين إحدى أسـاطير نيويورك. فهما لم ترجعـا قـط لزيارة والدتهما، وهي قـد آثرت المكوث في منزلهـا لأن بدانتها جعلتهـا ملازمةً لفراشـها رغـم تمتعها بحضـور الذهـن والإرادة الحديدية. إلا أن البيـت القشـدي (المصمـم على طـراز فنـادق أرسـتقراطيي باريس) ظل شـاهدًا بينًا على شـجاعتها، وهي تتبوأ عرشـها بدعةٍ ورفاه ما بين أثاث مـا قبل الثـورة، وتحف تذكارية مـن قصر التويلري البـاريـسي في عهد لويس نابليـون (حيـث أينعت في منتصـف عمرهـا)، وكأنه لا غرابـة في العيش في الشارع الثالث والأربعين، ولا عجب في أن تضع في بيتها نوافذ فرنسية تُفتح كالأبواب بدلاً من إسدال الستائر.

أجمع الكل (حتى السـيد سـيلرتون جاكسـون) أن حصة كاثرين العجوز من الجـمال لم تكـن وافرةً. والجـمال في أعين أهل نيويورك هبة تسـوّغ كل نجاح، وعذر يغفر كل فشل. يقول بعض القساة إنها شقّت دربها إلى النجاح - مثلما فعلت سميّتها الإمبراطورة[2] من قبلها - بقوة إرادتها وجسارة قلبها، وشيء

(١) جزيرة وحي جنوبي منهاتن في نيويورك

(٢) كاثرين الثانية: امبراطورة روسيا الثانية عشرة

مـن الوقاحة المتغطرسـة التي وزانت إلى حد ما بينهـا وبين الكرامة والشرف الرفيع اللذين غلبا على حياتها الخاصة. مات السـيد مانسـون مينغت وهي لمّا تـزل في الثامنة والعشرين، وكان قد قيّد ثروتـه بحذرٍ فائض دافعه الارتياب والتوجس من أهل زوجته أسرة سبايسر. غير أن أرملته الشابة الجريئة عاشت حياتهـا بلا وجل فاختلطت بحريةٍ في المجتمعـات الأجنبية، وزوّجت ابنتيها في أوسـاط لا يعلم سوى الله مدى وجاهتها أو انحرافها، ونادمت الدوقات والسـفراء، وآلفت أتباع البابـا، واحتفت بمطربي الأوبـرا، وصادقت ماري تاجليوني راقصة البالية الشـهيرة. كل هذا والجميع يشـهد (وأولهم سيلرتون جاكسون) أن سمعتها لم تشبها شائبةً يومًا، وهذا حسب ما يردده دومًا الفرق الوحيد بينها وبين كاثرين التي سبقتها.

كانـت السـيدة مينغـت قـد أفلحت منذ فـترة بعيـدة في تحرير ثـروة زوجها، فتقلّبـت في الـترف نصف قرن، لكـن ذكرياتها عـن حياة العـوز والضيق في صغرهـا جعلتها شـديدة الاقتصاد في إنفـاق المال، وبالرغـم من أنها تحرص إن ابتاعت فسـتانًا أو قطعة أثاث أن تكون من أفخر الأنواع، فإنها لم تسـتطع أن تجـبر نفسـها على أن تنفق الكثير على المتع الزائلـة كالطعام. وهذا ما جعل طعامها لا يضارعه سـوءًا سوى طعام السيدة آرتشر، ولم تكن صنوف النبيذ التـي تقدمها تعوّض من نقائصه. كان أقاربها متفقين في رأيهم أن فقر مائدتها المدقـع إهانـةٌ لاسـم مينغت الـذي ارتبط دائمًا برغـد العيش، ومـع ذلك فما زال النـاس يتوافدون لزيارتها رغم الوجبات السـيئة والنبيـذ عديم النكهة، وكان ردهـا على احتجاجـات ابنها لوڤيل (الذي حاول انقاذ سـمعة الأسرة بتوظيـف أفضـل طاهٍ في نيويـورك ليعمل في منزله) أن تقـول ضاحكةً: «وما نفـع طاهيين ماهريـن في بيت واحد بعـد أن زوّجت الفتاتـين، وأنا لا أحب تناول الصلصات؟».

أعاد نيولاند نظره بينما هو يفكر في هذا تجاه مقصورة مينغت، ورأى السـيدة ويلنـد وزوجة أخيهـا تواجهان جمع ناقديهـم بثقة مينغوتية غرسـتها كاثرين

العجوز في كل أفراد عائلتها، ولم يكشف فظاعة الموقف سوى احمرار وجه ماي (لكن ربما احمّر وجهها لأنها تعرف أنه يراقبها)، أما مسبّبة هذا الهرج فهي جالسةٌ بكل بهاءها في ركنها في المقصورة وعيناها مثبتتان على خشبة المسرح، كاشفةً بانحنائها إلى الأمام كتفها وجزءًا من نحرها أكثر مما اعتادت أعين نيويورك على رؤيته، أو بالأحرى لم تعتد أن تراه نيويورك في سيدة يجدر بها أن تتخفى عن أبصار الناس.

قليلةٌ هي الأشياء التي يكرهها نيولاند أكثر من كرهه لأي إهانة بحق «الذوق»؛ ذلك الإله العليّ الذي يتجسد متخذًا هيئة «المظهر». ورغم أنه وجد وجه مدام أولنسكا الرصين الشاحب ملائمًا للموقف ولوضعها المحزن، فإن الطريقة التي ينسدل فيها فستانها على كتفيها النحيلتين (لأنها لم تلبس صدرية معه) صدمته وأزعجته، ولا يحبذ أن يرى ماي ويلند معرضة للتأثر بامرأة شابة لا تأبه كثيرًا بما يمليه الذوق.

«ما الذي حدث؟»

سمع أحد الشباب يسأل خلفه (فالجميع يتحدث أثناء مشاهد مفستوفيليس ومارثا[1]). «ما الذي حدث لها؟».

-لقد هجرته. هذا ما يقوله الجميع.

تابع السائل الشاب قائلاً:

-كان رجلاً فظًا قاسيًا، أليس كذلك؟

كان شابًا صريحًا من أسرة ثورلي. ويبدو أنه كان يتأهب للانضمام إلى ركب المدافعين عن السيدة.

قال لورنس ليفرتس بثقة:

-رجلٌ من أسوأ الرجال. التقيت به في نيس. رجلٌ ساخر شبه مشلول، شديد البياض، مليح الوجه لكن نظراته زائغة. وعندما لا يكون مشغولاً بنسائه فهو مشغول «بمصاحبة الرجال»، ويدفع أي ثمن ليحصل على أي

(١) شخصيتان من شخصيات مسرحية «فاوست»

منها حسبما سمعت.
ضحك الجميع، وقال الشاب الذي ينافح عنها:
-وبعدها؟
-وبعدها... بعدها هربت مع سكرتيره.
امتعض الشاب، وقال:
-أوه... مفهوم.
-لكن الوضع لم يستمر طويلاً. سمعتُ أخبارًا عنها بعد مضي بضعة أشهر تقول إنها تعيش وحيدةً في البندقية. أظن أن لوفيل مينغت سافر لإحضارها. قال إنها كانت بالغة التعاسة. وهذا أمر طبيعي، لكن أن يستعرضوها أمام الناس وفي دار الأوبرا هكذا؟!
خمّن ثورلي الشاب مجازفًا:
-ربما تكون تعيسة جدًا إلى درجة أن بقاءها في المنزل لوحدها خطر عليها.
ضحك الجميع بفظاظة جراء تعليقه، فتخضب وجه الشاب بحمرة الارتباك وحاول أن يتظاهر كأنما كان قصده أن يرمي هذا التلميح الذي يسميه المثقفون «تورية».
قال أحدهم بصوت خافت، وبنظرة مسروقة صوب نيولاند:
-من العجب أنهم اصطحبوا الآنسة ويلند معهم.
ضحك ليفرتس قائلاً:
-هذا جزء من الخطة. لا شك أنها أوامر الجدة، فعندما تفعل العجوز شيئًا فهي تتقنه.
ازدادت حركة حشد المقصورة مع انتهاء فصل المسرحية، وشعر نيولاند بغتةً بدافعٍ يحثه على اتخاذ تصرفٍ حاسم... برغبةٍ عارمة إلى أن يكون أول من يدخلَ مقصورة السيدة مينغت وأن يعلن للعالم خطبته إلى ماي ويلند، وأن يآزرها في أي مشاقّ قد تتكبدها بسبب وضع ابنة خالها الشاذ، حتى طغت هذه الرغبة بقوةٍ على كل تردد أو تحرّج يخامره، فاندفع عجلاً عبر الردهات

الحمراء إلى الجانب الآخر من دار الأوبرا.

التقت عيناه بعيني الآنسة ويلند وهو يلج المقصورة فرأى أنها فهمت دوافعه فورًا، حتى وإن لم يسمح لها كبرياء أسرتها الذي يقدسانه كلاهما أن تقر بذلك. فهما ينتميان إلى عالم يتنفسان فيه التلميحات المتوارية والإشارات غير المعلنة، وما كان فهمهما الصامت لبعضهما بلا شرح ولا تصريح إلا حبلاً وثيقًا يشدان به عُرى ارتباطهما. قالت عيناها: "أترى لِمَ جلبتني ماما إلى هنا؟"، فردت عيناه الجواب: "لن أعوض قربكِ بالدنيا".

صافحت السيدة ويلند خطيب ابنتها وسألته:

-أتعرف ابنة أخي الكونتيسة أولنسكا؟

حنى نيولاند رأسه دون أن يمد يده كما هي العادة عند لقاء سيدة لأول مرة، فقابلته إيلين أولنسكا بهزة رأس بسيطة وظلّت يداها المكسوتان بقفازين ممسكتين بمروحة مصنوعة من ريش النسر. ألقى التحية على سيدة جسيمة شقراء متسربلة بساتان متغضن وهي زوجة لوفيل مينغت، ثم جلس إلى جوار خطيبته، وهمس:

-أرجو أن تكوني قد أخبرتِ مدام أولنسكا بخطبتنا؟ أودّ أن يعلم الجميع. أريد أن تسمحي لي بأن أعلن خطبتنا مساء اليوم في الحفل الراقص.

تشرّب خدي الآنسة ويلند بلونٍ كحمرة الغسق. رفعت إليه عينين براقتين، وقالت:

-إن أفلحتَ في إقناع ماما. لكن لِمَ نغيّر ما اتفقنا عليه من قبل؟

لم يرد نيولاند ما عدا أنه أعاد بصره إليها. أضافت وابتسامتها تشعّ طمأنينةً:

-أخبر ابنة خالي إيلين بنفسك. آذن لك بهذا. إنها تقول إنكما اعتدتما على اللعب معًا في طفولتكما.

أفسحت له الطريق بأن دفعت كرسيها إلى الخلف، فعجّل نيولاند بالجلوس بجانب الكونتيسة أولنسكا بشيء من الخيلاء على أمل أن يرى كل جمهور الدار ما يفعله.

سألته وهي تلاقي نظرته بعينين وقورتين:

-كنا حقًا نلعب معًا، أليس هذا صحيحًا؟ كنتَ فتى أرعنَ، وقد قبلّتني مرةً خلف أحد الأبواب، لكني كنتُ واقعة في حب ابن عمك ڤاندي نيولاند الذي لم يكن يتكرّم عليّ ولو بنظرة.

مسحت بنظرها مقصورات دار الأوبرا المصممة على شكل حدوة الحصان، ثم نظرت إليه وأضافت بلسانٍ أثقلته لكنة أجنبية:

-كل هذا يثير ذكريات كثيرة في ذهني. يتراءى الجميع لي هنا صغارًا ما زالوا ببناطيلهم وفساتينهم القصيرة.

شعر الشاب بالعجب وهو يدرك أنه رغم دماثة مظهر الحشد وتحضرهم فهم يمثلون محكمة صورية مهيبة تُرافَع قضيتها أمامها في هذه اللحظة. ولا إهانة أكبر في حق الذوق من الفصاحة المتكلفة في غير موضعها. رد بصوت يشوبه الجفاء:

-نعم، قد غبتِ فترة طويلة جدًا.

-قرون وقرون، والحق أنه يخيل إليّ أني متُّ ودُفنتُ، وأن هذا المكان العزيز هو الجنة.

لم يدرِ نيولاند ما السبب، ولكن قولها هذا بدا له أكثر وصف مهين لمجتمع نيويورك.

الفصل الثالث

هذا ما يحدث دائمًا دون أدنى تغيير.
تحضر حرم السيد جوليوس بوفرت مسرحية الأوبرا مساء الليلة التي تقيم فيها حفلها الراقص السنوي، بل هي تعمد إلى إقامة حفلها في ليلة قد شهد مساءها عرضًا أوبراليًا كي تبرهن عن ترفّعها التام عن الاضطلاع بمهام تدبير المنزل، وأن لديها حاشيةً من الخدم المهرة القادرين على تنظيم كل ما تستلزمه شؤون الضيافة في غيابها.
كان منزل أسرة بوفرت أحد المنازل القليلة التي تحوي قاعة رقص في نيويورك (وهو أقدم حتى من منزل السيدة مينغت والسيد هيدلي تشيڤرس)، وفي الوقت الذي بدأ الناس يرون فيه أن فرش السجاجيد في حجرة الاستقبال ونقل الأثاث إلى الطابق العلوي لهو تصرف ريفي متخلف، فإن امتلاك قاعة للرقص لا تُستخدم لأي غرض آخر، أي أنها تظل لثلاثمائة وأربعة وستين يومًا في العام موصدة في ظلام دامس، وكراسيها المذهبة مكوّمة في إحدى زواياها، ونجفتها مغلفة بملاءة علامة لا ريب فيها على الرفعة والحظوة، وهي تعوّض عما يشين في ماضي عائلة بوفرت.
ذات مرة، قالت السيدة آرتشر - وهي التي تحب وضع فلسفتها الاجتماعية في قالب المسلّمات -: «كل نبيل وله عوامٌ يحنو عليهم». ورغم وقاحة العبارة فإن كثيرين يقرّون بصدقها خفيةً في أنفسهم. ومع هذا فإن أسرة بوفرت لم تكن حقيقةً من عامة الناس، بل إن بعضهم يقولون إنهم أقل مكانةً من ذلك. تنحدر السيدة بوفرت من أسرةٍ تعد من أكثر الأسر رفعةً في أمريكا، فقد كانت قبل زواجها الآنسة الجميلة ريجينا دالاس (من أسرة دالاس في كارولينا الجنوبية)، حسناء معدمة قدّمتها إلى المجتمع المخملي في نيويورك قريبتها النزقة ميدورا مانسون ذات التصرفات الهوجاء رغم طيبة نياتها.

إن قرابة الشـخص بأسرة مانسـون وأسرة راشوورث تسبل عليه عصمةً من نقـد الناس في مجتمع نيويورك (هذا ما جاء عن السـيد سيلرتون جاكسـون وبلسانه)، ولكن ألا تُنتقض هذه العصمة بالزواج من جوليوس بوفرت؟

إن السـؤال هـو: من هو جوليـوس بوفرت؟ كان يزعم أنـه رجل إنجليزي، وهو في الواقع رجل كيّس، وسيم، سيء المزاج، مضياف، حاضر النكتة. وقد حـلّ في أمريكا وبحوزته توصيات من المصرفيّ الإنجليزي زوج ابنة السـيدة مينغت العجوز، فصنع لنفسه مكانةً مهمة في العالم الراقي، لكن هذا لا ينفي أن أخلاقه منحلة، ولسـانه لاذع، وماضيه يكتنفه الغموض. وعندما أعلنت ميدورا مانسون خطبة قريبتها إليه عرف المجتمع أنه مجرد تصرف أخرق آخر في سلسلة حماقات ميدورا التي لا تنقطع.

لكن الحماقة كالحكمة «تبررت من جميع بنيها»[1]، وقد رأى الجميع أن السيدة بوفـرت الشـابة تقطـن في أكثر البيوت روعـةً في نيويورك ولـمّـا يمضي عامان عـلى زفافهـا، ولا أحد يعرف كيـف تحققت هذه المعجزة. فهي امرأة كسـول خاملـة، يصفها ذوي الألسـنة السـليطة بالبليـدة، لكنها كالملكـة التي تزدان باللآلئ، وتزداد شـبابًا وشـقرةً وحُسـنًا في كل عام، وتتربع على عرش قصر السـيد بوفرت المشـيّد من الحجارة الثقيلة، وتسـتجلب العالم إلى عتبة منزلها دون أن تحـرك خنصرها المزيّن بالجواهـر. في حين يزعم المطلعون أن بوفرت نفسه هو الذي يدرّب الخدم، ويعلّم الطاهي أطباقًا جديدة، ويخبر البستانيين أي أنواع الزهور يزرعونها لتجميل حجرات الاستقبال ومائدة الطعام، وهو أيضًـا من يختار الضيـوف، ويخمّر الكحول للشرب بعد العشـاء، ويملي على زوجتـه الرسـائل القصيرة التي ترسـلها إلى أصدقائهـا. وإن كان هذا حقًا ما فعله ويفعله، فإنه ينجز كل هذا تحت غطاء من الخصوصية، ويظهر أمام الملأ بمظهر المليونير المضياف اللامبالي، الذي يتبختر داخلاً إلى حجرة الاسـتقبال في منزله غير مثقلٍ بعبء المسـؤولية كما لـو كان أحد الضيوف المدعوين، بل

(١) اقتباس من الكتاب المقدس

تـراه يـصرح للجمع: «إن أزهار الغلسـينيكا التـي اختارتها زوجتـي بديعة، أليس كذلك؟ أعتقد أنها تستوردها من كيو». [1]

وإن الجميع ليعلم أن سر السيد بوفرت هو في طريقته في التعامل مع الأمور. لا بـأس إن تهامـس النـاس وتناقلوا زعمهـم إن المصرف الـدولي الذي كان يعمل فيه «سـاعده» على ترك إنجلترا، فهو لا يلقي لتلك الشـائعة بالاً مثلها مثل أخواتها السـابقات، رغـم أن ذمّة نيويورك في التجـارة والأعمال لم تكن أقـل حساسـيةً مـن قيمهـا الخُلقية، ولقـد حظي السـيد بوفرت عنـد الناس وعلا شـأنه، ورحّب بكل نيويورك في ضيافته، والناس يقولون منذ أكثر من عشريـن عامًا إنهم «ذاهبـون إلى منزل بوفرت» بنبرة طمأنينة وثقة كما لو أنهم ذاهبون إلى منزل السـيدة مينغت، بل إنهم أكثر طمأنينةً لأنهم على يقين بأنهم مقبلون على أكل البط البري السـاخن، وصنـوف النبيذ المعتق، بدلاً من نبيذ «ڤوڤ كليكو» الفاتر الزهيد، وقطع اللحم الجامدة المستوردة من فيلادلفيا.

في ذلـك المسـاء أطلـت السـيدة بوفـرت كالعـادة في مقصورتها قبـل «أغنية الجوهـرة»، ثـم نهضت كالعادة أيضًا مـع نهاية الفصل الثالـث تجمع أطراف عبـاءة الأوبـرا التي اشـتملت بها كتفيها الحسـناوين واختفت عـن الأنظار، فعرفت نيويورك ساعتئذ أن الحفل الراقص سيبدأ بعد نصف ساعة.

كان منـزل أسرة بوفرت من المنـازل التي كان النيويوركيون يفخرون بعرضه للغرباء عن المدينة، وخاصةً في ليلة الحفل السنوي. وكانت أسرة بوفرت من أوائـل الأسر في المدينـة التي لم تكن تسـتأجر السـجاد ذا القطيفة الحمراء من الخارج كما تسـتأجر كراسي قاعة الرقص وتشـتري طعام العشـاء، بل كانت تملـك هذا السـجاد، وكانوا يأمرون خدمهم ببسـطه عـلى درج المنزل وتحت ظُلّتـه. كما أنهم ابتدعوا عادة خلع السـيدات لعباءاتهـن في البهو، عوضًا عن إجبارهـن على الصعود إلى حجـرة نوم المضيفة في الطابـق العلوي، وبقائهن هناك لإعادة تصفيف خصلات شعورهن باللفافات الساخنة. وغالب الظن

(١) من أكبر الحدائق النباتية، وموقعها غربيّ لندن

أن بوفرت سـوّغ هذا التغيير بأن كلّ صديقات زوجته يستخدمن في منازلهن وصيفات يُعنين بتسريح سيداتهن على أكمل وجه قبل الحضور.
كـما كان المنـزل مصمـمًا بجرأة باحتوائه عـلى قاعة للرقص يصـل إليها الزائر عبر سلسلة متصلة من قاعات للجلوس خضراء وصفراء وقرمزية، بدلاً من أن ينحشر في ردهات ضيقة (كما في منزل تشـيڤرس مثلاً). ويمكن للحاضر أن يـرى ثريّات الشـموع تلقـي ببريقها عـلى أرضية الخشـب المزخرفة، وأن يبصر وراء هذا ظلام المشتل الزجاجي حيث تقوست أوراق زهور الكاميليا وأشجار السراخس فوق أغصان البامبو الداكنة والذهبية.
دلف نيولاند إلى القصر متأخرًا بعض الشيء كعادة الشباب النبلاء، وقد ترك معطفه مع خدم متأنقين بلبس الجوارب الحريرية (وهذه إحدى السـخافات التـي تفتّق عنهـا ذهن بوفرت). وبعد أن تسـكع قليلاً في المكتبـة التي تزدان بقطـع الجلد الإسـباني والأثاث المطعّـم بحجر المالاكيت حيـث وجد بضعة رجال يتحدثون وهم يلبسون قفازاتهم قبل الشروع في الرقص فلبث عندهم قليلاً، ثم اتجه إلى صف الضيوف الذين تسـتقبلهم السـيدة بوفرت في مدخل حجرة الجلوس القرمزية.
اعتمـل التوتر في نفـس نيولاند. فهو لم يرجع إلى ناديه بعدما انفضّت أمسـية الأوبرا كما درجت العادة بين الشباب، حيث إنه وجد جو الليلة ساحرًا فقرر السـير مسـافة لا بأس بها على طول الجادّة الخامسـة، ثم رجع على عقبيه تجاه منزل بوفرت. وإن أخشى ما كان يخشاه أن تتمادى أسرة مينغت فتكون لديهم أوامـر من الجدة باصطحاب الكونتيسـة أولنسـكا إلى الحفـل الراقص، فلقد لمـس من نبرة جمهور مقصورة النادي مدى فداحة هذا الفعل إن حدث حقًا. وبدأ يشـعر بنخوته وشـهامته في الذود عـن قريبة خطيبته تقـلّ وتنحسر عما كانـت عليه قبل حديثهـا المقتضب في دار الأوبرا، رغم تصميمه المتزايد على أن يظل إلى جانبها حتى انزياح الغمة.
تابـع نيولانـد تجوالـه إلى أن وصـل قاعـة الجلـوس الصفراء (حيـث بلغت

ببوفـرت الصفاقـة أن يعلـق لوحة بوجـورو العارية المثيرة للجـدل "انتصار الحب")، ووجد السـيدة ويلنـد وابنتها واقفتان بجانب بـاب قاعة الرقص، ومن خلفهما أزواج من الراقصين يتمايلون على أرضية القاعة، وسناء الشموع يتراقـص على تنانير التول التي تلتفُّ في القاعة، وعلى رؤوس الصبايا المكللة بالأزهـار، وهامات السـيدات المزيّنة بالحلي وريش مالـك الحزين المرفرف، وعلى القمصان المشدودة اللامعة والقفازات الجلدية المصقولة.

أما الآنسـة ويلند فقد وقفت قرب الباب وهي على وشك الانضمام إلى جموع الراقصين ممسكةً بباقة زنابق الوادي في يدها (لم تكن تحمل باقةً غيرها)، وقد شـحب وجهها قليلاً واضطرمت في عينيها ألسـنة الجذل. احتشد حولها جمع من الشباب والفتيات، وتعالت منهم أصوات التصفيق والضحك والحديث، وقد وقفت على مقربة منهم السـيدة ويلند ويظهر على قسمات وجهها الحُبور الرصـين. كان واضحًا أن الآنسـة ويلند في صـدد إعلان نبأ خطبتها، في حين تتظاهر والدتها بتحفظ الأم الذي يليق في تلك المناسبة.

توقفـت خطـى نيولاند هنيهة. هو مـن أعرب بصراحة عـن رغبته في إعلان الخطبة ولكن لم تكن رغبته أبدًا في أن تُعلن سـعادته على الملأ. فإفشـاء بهجته بـين صخب ولجـب في قاعة رقص مكتظـة يعني أن تُختلـس منه الخصوصية التي يجب أن تكتنف أقرب الأمور إلى القلب. إن فرحته عميقة ولم يضرها أن تعكر صفو سطحها، لكن كم كان يتمنى أن يبقى سطحها غير متكدر. ولقد أحـس بالرضا عندما وجد أن ماي ويلند تشـاركه هذا الشـعور، فقد التقت عيناها بعينيه متوسلةً: "تذكر أننا نفعل هذا لأنه الواجب".

لم يكن توسـل أي إنسـان آخـر ليجد وقعًـا في قلب نيولاند كما وجد توسـل مـاي، غـير أنه كان يتمنـى أن يظهر أمـام الناس أن دافعهـا في هذا التصرف كان سـببًا نبيلاً، وليس لأجل إيلين أولنسـكا المسـكينة. أفسح الجمع المحيط بالآنسـة ويلنـد له وتعلـو وجوههم ابتسـاماتٍ ذات مغزى، وبعـد أن تلقّى نصيبـه من التهاني جذب خطيبتـه إلى منتصف قاعة الرقص وأحاط خصرها

بذراعه. قال:
-لن نضطر إلى الحديث الآن.
ابتسم ناظرًا في عينيها الصافيتين وهما يرقصان على أنغام مقطوعة "الدانوب الأزرق" من موسيقى الفالس العذبة. لم تجبه إلا شفتيها اللتين انفرجتا بابتسامة، أما عيناها فظلتا جادتين كما لو أنهما تبصران رؤية تعجز الكلمات عن وصفها.
همس نيولاند وهو يشدها إليه:
-يا عزيزتي...
أدرك أن الساعات الأولى من أي خطبة حتى وإن قضاها الخطيبان في قاعة رقص فهي تحمل في ثناياها قلقًا ورهبةً. أي حياة جديدة هو مقبلٌ عليها وبجواره هذا الملاك المشعّ نقاءً!
انتهت الرقصة فتجوّل الاثنان - بعدما أصبحا الآن خطيبين رسميًا - تجاه المشتل، وبعد أن جلسا خلف ستار مرتفع من أشجار السراخس وزهور الكاميليا، رفع نيولاند كفها المكسوة بالقفاز إلى شفتيه. قالت:
-لقد فعلتُ ما طلبته مني كما ترى.
أجاب مبتسمًا:
-أجل، ولم أكن أطيق صبرًا.
سكت لحظة ثم أضاف:
-غير أني كنت أتمنى ألا يُعلن الخبر في حفل راقص.
ردت بتفهم:
-أعلم. لكنّنا حتى وإن كنا بينهم هنا فإننا معًا لوحدنا. ألا ترى هذا؟
قال نيولاند:
-طبعًا يا عزيزتي.
عرف حينئذٍ أنها سوف تفهمه دائمًا، وأنه سوف يجد لديها الرد الذي يشفيه، وهذا ما جعل قدح سعادته ينضح، فتابع كلامه بحبور:

-وأسوأ ما في الأمر هو أنني أود أن أقبّلكِ، لكنني لا أستطيع.
جرت عيناه تمسحان أرجاء المشتل وهو يتحدث، وبعد أن اطمأن إلى خلوتهما المؤقتة، طبع على شفتيها قبلة مختلسة. ولكي يكفّر عن جرأة تصرفه قادها إلى أريكـة من أغصان البامبو في ناحيةٍ أقل عزلة من المشـتل. جلس إلى جوارها وقطف زنبقة من زنابق الوادي من باقتها. أحاط بهما الصمت كما لو أن العالم وادٍ يغمره الضياء يمتد حيث وطأت خطاهما.
قالت كمن استفاق من حلم:
-هل أخبرت ابنة خالي إيلين؟
نفـض عن عينيه الخيال وتذكّر أنـه لم يخبرها، فثمة مقتٌ جارف يمنعه من أن يتحدث في أمر كهذا مع المرأة الأجنبية الغريبة قد قتل الكلمات وهي لمّا تخرج من شفتيه بعد.
قال كاذبًا بسرعة:
-كلا. لم تسنح لي الفرصة بعد.
بدت خيبة الأمل على وجهها، لكنها ردت بلطف عازمةً على تحقيق مناها:
-يجب أن تخبرها. فأنا أيضًا لم أخبرها، ولا أريدها أن تظن...
-بكل تأكيد. لكن أليس من الواجب أن تخبريها أنتِ؟
فكرت قليلاً ثم أجابت:
-هذا صحيح لو أنني أخبرتها في الوقت المناسب، لكن بعد أن وقع هذا التأجيل فأنـا أرى أن عليـك أن تشرح لهـا أنني طلبت منك إخبارها عـن خطبتنا في دار الأوبرا قبل أن نعلنها للجميع هنا، وإلا فربما تظن أنني أغفلتها. إنها من عائلتي ولكنها عاشت بعيدًا عنا زمنًا طويلاً مما جعلها... حساسة بعض الشيء.
أشرق وجه نيولاند ورد:
-يا ملاكي العزيز! طبعًا سوف أخبرها.
رمق قاعة الرقص المكتظة بشيء من القلق، وأضاف:
-لكنني لم أرها بعد. هل أتت؟

-كلا. لقد عدلت عن الحضور في آخر لحظة.

كرر قولها: "في آخر لحظة؟" مفصحًا عن مفاجأته في أنها قد فكرت في المجيء أساسًا.

أجابت الفتاة ببساطة:

-أجـل. فهي تعشـق الرقص، لكنها قـررت فجأة أن فسـتانها لا يليق بحفل راقـص، رغـم أننا قلنا لها إنه فسـتان جميـل، ولهذا اضطـرت زوجة خالي إلى اصطحابها إلى المنزل.

قال بلا اكتراث حقيقي:

-خيرًا.

لا شيء يعجبه في خطيبته أكثر من إصرارها الذي لا يتزحزح على تجاهل ما لا يُرضي من تصرفات الآخرين كما يمليه عليهما حسن تربيتهما.

فكـر في نفسـه "إنها تعلم يقينًا كما أعلم السـبب الحقيقي الـذي جعل قريبتها تتغيـب عن الحفـل، لكني لن أجعلها تلمـح مني أبدًا أي إشـارة توحي بأني أعرف ما أعرفه عن سمعة إيلين أولنسكا المسكينة".

الفصل الرابع

بدأت في اليوم التالي سلسلة الزيارات المعتادة بعد إعلان الخطبة، وهي عرفٌ اتفقت نيويورك على تفاصيل إقامته بكل دقة وإحكام. وقد استهلّ نيولاند هذه الزيارات - كما تمليه الأعراف - بأن قصد هو ووالدته وأخته منزل السيدة ويلند، ثم اصطحب السيدة ويلند وماي إلى منزل السيدة مينغت العجوز ليطلبوا مباركة الجدة الموقّرة لزواجهما.

يجد الشاب دائمًا متعة فائقة في زيارة هذه السيدة العجوز. فالمنزل وحده يعد معلمًا تاريخيًا، رغم أنه ليس على القدر نفسه من العظمة والأُبّهة كبعض منازل الأسر العريقة الأخرى في يونيفيرستي بليس وجنوب الجادة الخامسة[1]. فتلك المنازل كانت مشيّدة في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وتحوي مجموعة متآلفة كئيبة من السجاجيد المنقوشة بالأزهار، والأصونة المصنوعة من خشب الورد، والمدافئ المقوّسة ذات الأرفف الرخامية السوداء، وخزائن الكتب الضخمة من خشب الماهوغاني المصقول. أما السيدة مينغت التي بنت منزلها في فترة لاحقة فقد طرحت أثاث شبابها الثقيل بأكمله، وخلطت ما بين التحف التي توارثتها أسرة مينغت، وقطع الأثاث البخس المنجّد من عهد الإمبراطورية الفرنسية الثانية.

وكان من عادتها أن تجلس بجوار إحدى نوافذ حجرة جلوسها في الطابق الأرضي، كما لو أنها تترقب بأناةٍ تدفق الحياة ومظاهر الرقي شمالاً حتى تبلغ بابها المنعزل، غير متعجلةٍ لوصولها إليها لأن صبرها يوازي ثقتها في حدوث ذلك. إنها في الحقيقة متأكدة حد اليقين أن السياج الخشبي، والمحاجر، والحانات، والصُوب الزجاجية في البساتين المقفرة، والصخور التي يطل الماعز من أعلاها ماسحًا المكان ببصره... كل هذا سوف يختفي

(١) هذه هي الأحياء الراقية في مجتمع نيويورك القديم.

أمام زحف المنازل التي سوف تضاهي منزلها رقيًا، بل ربما تفوقه بهاءً (فهي امرأة منصفة في حكمها). أما الشوارع المرصوفة بالحجارة التي ترتج عليها الحافلات القديمة الصاخبة فسوف تُستبدل بالأسفلت الأملس، الذي قال الأشخاص الذين زاروا باريس إنهم رأوه فيها. لكنها حاليًا لم تكن تُعنى كثيرًا بانعزال منزلها، لأن كل الناس الذين تهمها رؤيتهم يأتون إلى عتبة بيتها لزيارتها (وحجرات منزلها لا تقل سعةً عن منزل بوفرت، وبوسعها أن تستقبل أفواجًا من الضيوف دون أن تزيد طبقًا واحدًا على قائمة أصناف الطعام التي اعتادت تقديمها كل يوم).

إن تراكم الشحوم الهائلة التي نزلت على جسدها في منتصف حياتها كحمم بركانية تدفقت على مدينة منكوبة أبدل حالها من امرأة قصيرةٍ بضة مفعمة النشاط إلى كيان ضخم مهيب كأنها ظاهرة طبيعية تستحق العجب. وقد تقبّلت هذا الاختناق الشحمي بالفلسفة نفسها التي تسلّحت بها مواجهةً محنها السابقة. وها هي الآن تُعوَّض في عز شيخوختها بأن ترى في مرآتها رقعةً كبيرة من الجلد الأبيض المتورد الخالي من التجاعيد، وفي وسطه ما زالت باقيةً آثارُ وجهٍ صغير كما لو أنه ينتظر من يُنقِّب عنه. وتحت هذا مجموعة من الذقون المكدّسة تفضي إلى أعماق صدرها الأبيض بياض الثلج، الذي يكسوه الموسلين الأبيض ويثبّت القماش في مكانه صورةٌ مصغّرة للراحل السيد مينغت. أما حولها وأسفل منها فهي موجات تلو الموجات من الحرير الأسود التي يتمور فوق أطراف كرسي فسيح، ويديان بيضاوان صغيرتان تنتصبان على وسادة كأنهما طائرا نورس.

ولقد أثقلت هذه التكتلات اللحمية كاهل السيدة مينغت فأقعدتها منذ فترة طويلة عن صعود الدرج ونزوله، غير أنها بطبيعتها النزّاعة إلى الانفرادية والاستقلال قد أحالت غرفاتها العلوية قاعات للاستقبال، واستقرت هي في الطابق الأرضي في انتهاك سافر لكل أصول اللياقة النيويوركية. فيرى الجالس معها قرب نافذة حجرة جلوسها، عبر باب مفتوح دائمًا وينسدل

عليه ستار ملفوف من قماش البروكار الدمشقي الأصفر منظرًا غير مألوف، وهو حجرة نوم ذات سرير ضخم غير رفيع منجدٌ كالأرائك، ومنضدة زينة فوقها حواشٍ منّ الدانتيل المزموم، ومرآة بإطار مذهّب.
والواقع أن زائريها يُصدمون ويذهلون من ترتيب منزلها على هذا النسق الذي لا يمكن وصفه إلا بأنه أجنبي، مما يستحث في مخيلاتهم مشاهد من الأدب الفرنسي، بتصميماته المعمارية التي تستعذب انحلال الأخلاق بما لا يتصوره الأمريكي البسيط. فهكذا كانت تعيش العشيقات في المجتمعات المنحلّة قديمًا التي تصفها تلك الروايات... في شقةٍ تجتمع فيها كل الحجرات والفواحش في طابق واحد. ولكم ضحك نيولاند كلما فكر أن سيدةً عفيفة كهذه تعيش في مسرحٍ صُنع لممارسة الفجور (مع أنه يتصور دومًا أن مشاهد العشق في رواية «Monsieur de Camors»[1] تجري وقائعها في غرفة نوم السيدة مينغت)، لكنه يعترف في نفسه - وببالغ إعجاب بشخصيتها - أن لو أرادت هذه العجوز الجسور عاشقًا لاتخذته منذ زمن.
بلغت الراحة في أنفس الزائرين مبلغها عندما لم يجدوا الكونتيسة أولنسكا في حجرة جلوس جدتها خلال زيارة الخطيبين، فقد قالت السيدة مينغت إنها خرجت. وخروجها في يوم شمسه ساطعة وأثناء «ساعة التسوق» لهو تصرف تنقصه اللباقة من امرأة معرضة للشبهات، لكن غيابها على أية حال قد كفاهم حرج وجودها، وما قد تمدّه تعاسة ماضيها من ظلال خفية على مستقبلهما المشرق. كانت الزيارة عمومًا مكللة بالنجاح كما كان متوقعًا، فقد سرّت السيدة مينغت العجوز بنبأ الخطبة التي تحرّاها الأقرباء منذ فترةٍ طويلة وتلقاها أفراد الأسرة بالنقاش في مجالسهم، واغتبطت أيما اغتباط بخاتم الخطبة، وهو من الياقوت السميك المنقبض بين مخالب خفية.
أوضحت السيدة ويلند وهي تلقي نظرة جانبية تجاه زوج ابنتها المستقبلي:
-إنه تصميم جديد. وهو يبرز جمال الحجر بكل تأكيد، لكنه قد يبدو خاتمًا

(١) رواية رومانسية فرنسية محورها علاقة عشق غير شرعية، كاتبها أوكتف فويي.

أجرد للتقليديين.

قالت الجدة وهي تقرّب الحجر من عينيها الصغيرتين البراقتين التي لم تفسد نظارةً شكلهما:

-التقليديين؟ آمل أنكِ لا تعنينني بقولكِ هذا يا عزيزتي؟ فأنا أحب كل ما هو جديد. إنه جميل جدًا، وعصري جدًا.

أعادت الجوهرة ثم أضافت:

-في زمني كان يكفينا خاتم بنقوش نافرة بين اللآلئ. لكن اليد هي التي تجمّل الخاتم، ألا توافقني الرأي يا عزيزي السيد آرتشر؟

رفعت كفًا صغيرةً تنتهي بأظافر حادة، ويحيط بمعصمها لفّات من الشحوم كأنها أساور من عاج.

-صمم خاتمي المصمم العظيم فيريجياني في روما. كان يجب أن تطلب منه أن يصمم خاتم ماي، لا شك لدي بأنه كان سيقبل يا بني. إن يدها عريضة. هذه الرياضات الحديثة هي التي تمدد المفاصل، لكن الجلد ما زال أبيض. ومتى سيُقام حفل الزفاف؟

توقفت عن الكلام فجأة وركّزت نظرها على وجه نيولاند. دمدمت السيدة ويلند بكلام غير مفهوم، وأجاب هو مرسلاً ابتسامةً صوب خطيبته:

-بأسرع ما يمكن، إن وافقتني الرأي يا سيدة مينغت.

تدخلت السيدة ويلند بنبرة تحمل في طياتها ترددًا متكلفًا:

-لابد أن نمنحهما وقتًا كافيًا كي يعرفا بعضهما بشكل أفضل يا أمي.

أجاب الجدة:

-يعرفان بعضهما؟ كلام فارغ!! كل شخص في نيويورك يعرف الآخر. دعي الشاب ينال ما يريده يا عزيزتي، لا تنتظري حتى تخمد جذوة الحماس.. زوّجيهما قبل الصوم الكبير[1]. فما يدريكِ قد أصابُ بالتهاب رئوي في أي يوم شتوي.. وأنا أود أن أقيم حفل الاستقبال بعد الزفاف.

(١) فترة يصوم فيها المسيحيون ٤٠ يومًا تقريبًا

تلقى زائروها هذه العبارات المتلاحقة بالقسط الملائم من التندّر والشك والامتنان، وبينما هم يتبادلون هذه المجاملات في ختام الزيارة إذ الباب يُفتح فتدخل الكونتيسة أولنسكا مرتديةً قلنسوة ورداءً فضفاضًا يلتف على كامل جسمها، ومن وراءها دخل جوليوس بوفرت من حيث لم يتوقع وجوده أحد. سلّمت السيدات على بعضهن بهمهمات مرحة، في حين رفعت السيدة مينغت يدها المزيّنة بخاتم فيريجياني لتحيي المصرفيّ، وقالت:

-أهلاً يا بوفرت! يا لها من مفاجأة نادرة. (إن لها طريقة أجنبية غريبة تحيي بها الرجال بأسماء أسرهم وبلا ألقاب!).

ردّ الزائر بأسلوبه المتعالي السلس:

-شكرًا. أتمنى لو أزوركِ أكثر لكنني كثير المشاغل. قابلت الكونتيسة إيلين في ميدان ماديسون، وقد تكرّمتْ بالسماح لي بمرافقتها إلى المنزل.

قالت السيدة مينغت بصفاقة لا يجيدها غيرها:

-كم سيزداد المنزل بهجةً الآن وقد حلّت إيلين فيه! اجلس... اجلس يا بوفرت. اسحب هذا الكرسي الأصفر. بما أنك الآن بين يديّ فأريد أن أسمع منك نميمةً تستحق انتظاري. سمعتُ أن حفلك الراقص كان مذهلاً، وبلغني أنك دعوت زوجة ليميول ستراثرز. إن الفضول يتملكني لرؤية هذه المرأة بنفسي.

وهكذا وبكل بساطة نسيت وجود أقاربها، فشرعوا بالخروج إلى البهو وإيلين أولنسكا معهم تشيّعهم. فكثيرًا ما عبرت السيدة مينغت العجوز بعظيم إعجابها بجوليوس بوفرت. وإنه ليلحظ أي شخص ذلك التشابه في أسلوبهما المتجبّر، وتجاوزاتهما للأعراف والعادات. وقد بلغ بها الفضول أشده لمعرفة السبب الذي جعل أسرة بوفرت تدعو - ولأول مرة - السيدة ستراثرز أرملة ليميول ستراثرز، صاحب معامل ستراثرز لدهان الأحذية، التي عادت العام الماضي من إقامة مؤقتة طويلة في أوروبا لتلقي رَحلها في نيويورك، هذه المدينة الضيقة الصغيرة.

قالت العجوز المفترسة:

-لكـن بعد أن دعوتها أنت وريجينا فقد حُسـم الأمـر، وهي واحدةٌ منا الآن.
لا بـأس، فنحـن في حاجة إلى دماء جديدة وأموال جديدة. وقد سـمعتُ أنها ما زالت فاتنة.

وبينـما السـيدة ويلنـد ومـاي تتدثـران بفرائهـما في البهـو، رأى نيولانـد أن الكونتيسة أولنسكا تنظر إليه وعلى شفتيها ابتسامة تساؤل خافتة.

قال بضحكةٍ خجلة مجيبًا نظرتها:

-لابـد أنكِ سـمعتِ... عنـي أنا وماي. لقـد وبّختني لأننـي لم أبلغكِ الخبر ليلـة البارحة في الأوبـرا، فقد كان لدي أوامر منها أن أخبركِ أننا مخطوبان... لكنني لم أستطيع في ذاك الصخب.

انتقلت بوادر البهجة من عينيّ الكونتيسـة أولنسـكا إلى شفتيها فظهرت أصغر سنًا، وأقرب في شكلها إلى إيلين مينغت تلك الفتاة الجريئة التي عرفها في صباه.

-أجل، سمعتُ بالطبع، وأنا مسرورة جدًا لكما. لكن الشخص لا يعلن هذه الأنباء في محافل عامة.

كانت السـيدتان تتأهبان لتخطـي عتبة الباب، فمدّت كفهـا تصافح نيولاند وقالت وهي تنظر إليه:

-مع السلامة. زرني في أحد الأيام.

وبينما العربة تشـق طريقها في الجادة الخامسة، تحدث الثلاثة عن السيدة مينغت، وسنها وروحها الحية وكل خصالها الرائعة، ورغم أن أحدهم لم يعرّض إلى إيلين أولنسكا، فإن نيولاند كان يعرف أن السيدة ويلند تقول في نفسها: «من الخطأ أن يرى الناس إيلين بعد وصولها بيوم واحد فحسـب تتمشـى في الجادّة الخامسة في سـاعة الذروة وبصحبة جوليوس بوفرت». وعلى ذلك أضاف الشـاب مفكرًا: «وكان ينبغي عليها أن تدرك أن أي رجل حديث الخطبة لن يقضي وقته في زيارة السـيدات المتزوجـات. لعمري فإن هذا ما اعتادوا عليه مـن حيث أتت، بل إنه لا يفعلون شيئًا غير هذا». ورغم أنه يفخر بأن آراءه متحضرة، فإنه يحمد الله أنه من أهل نيويورك، وأنه سوف يرتبط بامرأة من جلدته.

الفصل الخامس

في مساء اليوم التالي، جاء السيد سيلرتون جاكسون لتناول طعام العشاء مع أسرة آرتشر.

كانت السيدة آرتشر امرأة حيية تعزف عن الاختلاط بالمجتمع، لكنها تحب أن تبقى على اطلاع على أخباره، ومن حسن الحظ أن صديقها العزيز السيد سيلرتون جاكسون يكرّس في تقصي شؤون أصدقائه صبرَ جامع التحف ومنهجيةَ عالم الطبيعة، حتى أخته الآنسة صوفي جاكسون التي تعيش معه - والتي يستعيض الناس برفقتها عندما لا يتسنى لهم رفقة أخيها المحبوب - كانت تجلب معها إلى المنزل مقتطفات من آخر الأخبار والنمائم كي تسد بها أي فراغات في معرفته.

فكلما حدث شيء تريد السيدة آرتشر أن تعرف المزيد عنه، فإنها تدعو السيد جاكسون إلى طعام العشاء، وكانت عادته أن يلبي الدعوة بحضوره شخصيًا لا بإرسال أخته مكانه وذلك لسببين؛ أولهما أن داعيته لا تمنح شرف هذه الدعوة إلا إلى قلائل، وثانيهما أن من عادتها وابنتها جايني الانصات بتلهفٍ لما يقصّه عليهما من أخبار ونوادر. ولو كان الأمر بيده لاختار أمسية لا يكون نيولاند حاضرًا فيها، ليس لأن حضور الشاب كان ثقيلاً - بل هما على أعلى درجات الأنس والوفاق في ناديهما - لكن لأن القاصّ المسن يراوده أحيانًا الشعور بأنه ملزم بتقديم الشواهد على حديثه أمام الشاب، ولا يراوده هذا الشعور عندما يحكي ما لديه أمام السيدتين وحدهما.

لو سألت السيد جاكسون ما ينقص الأرض كي يحقّق فيها الكمال لتمنى أن يكون طعام السيدة آرتشر ألذّ قليلاً. بيد أنه يعلم أن نيويورك كما هي مذ وطئتها أقدام البشر تنقسم إلى صنفين رئيسين عظيمين؛ الأول عائلة مينغت وعائلة مانسون وبقية عشيرتهما، وهم من يتلذّذون بالمأكل والمشرب والملبس

والمال، أما الصنف الآخر فهم من جماعة آرتشر نيولاند وأسرة ڤان دِر لويدن الشغوفين بالسفر والبستنة وصنوف الأدب الرفيع، ويترفّعون عن ضروب المتع الأخرى.

لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. إن تناولتَ عشاءك مع أسرة لوڤيل مينغت فابشر بالنبيذ المعتّق ولحوم البط والسلاحف[1]، أما في منزل آدلين آرتشر فيتناول الضيوف أطراف الحديث عن طبيعة جبال الألب الساحرة، ورواية «الفون المرمري[2]» الباهرة. وإن كان الحظ راضيًا عنك فسيكون نبيذ «ماديرا» الذي تقدّمه أسرة آرتشر مع التحلية قد لفّ العالم قبل أن يصل إليهم.[3] ولهذا فعندما يتلقى السيد جاكسون دعوة كريمة من السيدة آرتشر فإنه عادةً ما يقول لأخته:

-أحس بأن وزني زاد منذ عشائي الأخير في منزل لوڤيل مينغت. يجدر بي أن أخفف قليلاً بالعشاء عند آدلين.

كانت السيدة آرتشر التي ترمّلت منذ زمن تعيش مع ابنها وابنتها في الشارع الثامن والعشرين غربًا. خُصص الطابق العلوي لنيولاند في حين حشرت المرأتان نفسيهما في الطابق السفلي الأضيق مساحةً، إلا أنهما تعيشان في جو من تناسق الأذواق وتناغم الاهتمامات. فتراهما تزرعان السراخس في القباب الواردية[4] وتحيكان الدانتيلات المكرمية والتطريز الصوفي على الأنسجة، وتجمعان التحف اللامعة من عصر الثورة الأمريكية، وتشتركان في مجلة «غود ووردز»، وتقرآن روايات ويدا[5] حبًا في الجو الإيطالي. كانتا تؤثران الروايات

---

(١) كانت هذه من أفخر أصناف الطعام في ذلك العصر

(٢) رواية للكاتب الأمريكي ناثانيال هاوثورن

(٣) أي أنه قد أصبح معتّقًا بسبب طول مسافات السفر

(٤) قباب زجاجية لزراعة الشتلات داخل المنزل، وسميت الواردية نسبةً لمخترعها د. ناثانيال وارد

(٥) أديبة إنجليزية

التـي تتناول حياة الفلاحين لما تحويه من أوصاف للطبيعة والمشـاعر الرقيقة، على أنهما تحبان عمومًا الروايات التي تدور أحداثها حول أفراد المجتمع المدني حيث يمكنهما تفهم دوافعهم وعاداتهم. كما أنهما تنتقدان ديكنز بشدّة لأنه «لم يصف نبيلاً في كتاباته قط»، وتريان أن ثاكري تنقصه واقعية بولير[1]، رغم أن النـاس بدأوا يعدّون الأخير من الجيل القديم. وكذلك كانت السـيدة آرتشر وابنتهـا مولعتـين بالمناظـر الطبيعية، وهي مقصدهما الأسـاسي في أسـفارهما القليلـة ومحط إعجابهما الشـديد، أما فنون العـمارة واللوحات الفنية فهي من اهتمامات الرجال، وخاصةً المثقفين ممن يقرأون راسكن.[2]

يعود أصل السـيدة آرتـشر إلى أسرة نيولاند. والأم وابنتها متشـابهتان كأنهما أختان، فهما متماثلتان في الطول والشحوب وحتى في انحناءة الظهر، ولكليهما أنـف طويـل وابتسـامة عذبـة ومنكبـان خفيضـان كأنهـما من الشـخصيات المرسومة في لوحات رينولدز[3] الباهتة. كاد تشابههما الجسدي يكون متطابقًا لـولا أن العمـر قد جرّ على السـيدة آرتشر ضخامة في الجسـم مـدّدت قماش فسـتانها الأسود، بينما قضى القدر بأن ينسدل قماش البوبلين الذي يمتزج فيه اللونين البني والأرجواني على جسـد الآنسـة آرتشر البتول بتراخٍ وانسـيابية تزداد مع مر السنين.

وكان نيولاند يعلم أن ما يراه الناس تشـابهًا عظيمًا بينهما إنما سببه هو التطابق التـام بين تصرفاتهما وأسـلوبيهما. فإن العيش معًا لفـترة طويلة في قرب وألفة جعلهـما يعتمـدان على بعضهما، حتـى تطابقت ألفاظهما. ولهما عادة مشـتركة وهـي أنهما تبدآن جملهما «بأمي تـرى...» أو «جايني تـرى...» بدايةً تصيغان فيها آراءهما الشـخصية. لكن الحقيقة هي أنّ السـيدة آرتـشر الواقعية الهادئة تعتمـد كليـةً عـلى ما هو مألـوف ومقبول في دنياهـا، أما جاينـي فهي عرضةٌ

(١) ثاكري وبولير: روائيان إنجليزيان

(٢) جون راسكن: مؤلف وناقد متخصص في الفن والعمارة

(٣) جوشوا رينولدز: رسام إنجليزي من القرن الثامن عشر

للانسياق وراء شطحات خيالها الرومانسي المكبوت الذي لم يجد متنفسًا له مع مرور الأعوام.

كانت الأم وابنتها تحبان بعضهما حبًا جمًا، ويبجّلان نيولاند. وكان هو يحدب عليهما ويحوطهما بعنايته، ويخالط مشاعره تجاههما شيئان: إحساس بالذنب لإعجابهما المبالغ فيه، ورضا خفي عن الذات بأن يكون محط هذا الإعجاب. فهو يؤمن أن للرجل سلطة في بيته ويجب على أهل البيت احترامها، حتى وإن كانت سخريته واستخفافه بمثل هذه الأمور تجعله يشكك أحيانًا في مدى جدية أوامره.

في ذلك المساء، كان الشاب على يقين أن السيد جاكسون ودّ لو أن نيولاند تناول عشاءه خارج المنزل، غير أن لدى نيولاند أسبابًا دفعته للمكوث في المنزل. فلابد أن جاكسون العجوز يود الحديث عن إيلين أولنسكا، ولا شك أن أمه وجايني تريدان أن تسمعا ما سيقوله، لكن الثلاثة محرجون قليلاً بسبب وجود نيولاند، ما دام أن ارتباطه المستقبلي بأسرة مينغت بات معروفًا ومعلنًا. فظل الشاب ينتظر بفضولِ المترقب المستمتع ليرى كيف سيتجاوزون هذه العقبة.

اختاروا أن يبدأوا بحديث مداور، فشرعوا يتحدثون عن زوجة ليميول ستراثرز. قالت السيدة آرتشر بلطف:

-إنه لمن المؤسف أن دعتها أسرة بوفرت إلى الحفل، لكن ريجينا تنصاع دومًا لأوامر بوفرت.

قال السيد جاكسون:

-مثل هذه الأمور الدقيقة تغيب دومًا عن بال بوفرت.

كان السيد جاكسون يتفحص طبق سمك الرنجة المشوي بحذر، وهو يتساءل للمرة الألف لمَ يحرق طاهي السيدة آرتشر البطرخ دائمًا؟! (يستطيع نيولاند أن يعرف بم يفكر الرجل المسنّ لأنه يرى الاستهجان الحزين مرتسمًا في تعابير وجهه، خاصةً أنه يشاركه التساؤل عينه).

ردت السيدة آرتشر:
-طبعًا لا شك في هذا. إنّ بوفرت رجل سوقي قليل التهذيب. كان جدي نيولاند يقول دائمًا لأمي: «إياكِ أن تجعلي البنات يقتربن من ذلك الرجل بوفرت». لكن من حسن حظه أنه خالط النبلاء، حتى في إنجلترا كما سمعت. الأمر كله غامض...
ألقت لمحة سريعة تجاه جايني وسكتت. كانت هي وجايني تعرفان تمام المعرفة كل تفاصيل حياة بوفرت الغامضة، لكن السيدة آرتشر ما زالت ترى - أمام الآخرين - أن حديثًا كهذا لا يُتطرّق إليه أمام العازبات.
تابعت السيدة آرتشر قائلةً:
-لكن السيدة ستراثرز هذه.. من أين قلتَ إنها أتت يا سيلرتون؟
-من إحدى مدن المناجم، أو بالأحرى كانت تعمل في الحانة التي على رأس الطريق إلى المنجم. ثم عملت في متحف الشمع الذي كان يطوف نيو إنجلاند. وبعد أن أوقفت الشرطة نشاطهم يقولون إنها عاشت ...
ألقى السيد جاكسون بدوره لمحة مختلسة صوب جايني التي كادت عيناها تقفزان من محجريهما. فثمة ثغرات في معرفتها لماضي السيدة ستراثرز لم تملأها بعد.
تابع السيد جاكسون (ونيولاند يقرأ في وجهه حيرةً: لِمَ لم يأمر أحدهم الخادم ألا يقطّع الخيار بسكين من فولاذ؟!):
-وبعدها دخل ليميول ستراثرز حياتها. يقولون إن الرجل الذي يصمم إعلانات معمله استعان بالفتاة في رسم إعلانات ملمّع الأحذية، فشعرها حالك السواد كما تعلمون، كشعر المصريين. على أية حال، تزوجها ستراثرز... فيما بعد.
كانت طريقته في إضافة «فيما بعد» تحكي مجلدات من اللمز والتعريض، وكل حرف فيها نال حقه من التشديد.
قالت السيدة آرتشر بلا اهتمام:
-في هذا الزمن الذي نعيش فيه لم يعد للأمر أهمية.

لم تستحوذ السيدة ستراثرز على اهتمام السيدتين في تلك اللحظة، فحكاية إيلين أولنسكا هي اللقمة السائغة التي تستمرئانها. والحق إن السيدة آرتشر لم تأتِ على ذكر السيدة ستراثرز إلا كي تعرّج في حديثهم بقولها:

-وقريبة نيولاند الجديدة... الكونتيسة أولنسكا؟ أكانت في الحفل الراقص أيضًا؟

كان في إشارتها لابنها لمحة من سخرية لمسها نيولاند، بل إنه كان يتوقعها. فالسيدة آرتشر - التي من طبيعتها الاعتدال في كل شيء حتى السعادة - كانت مستبشرة بخطبة ابنها. «وخاصةً بعدما انتهينا من ترهات ما حصل بينه وبين زوجة ثورلي راشوورث» كما قالت ذات مرةٍ لجايني مشيرةً للتجربة العابرة التي كان يُخيل لنيولاند منذ زمن غير بعيد أنها مأساة سوف تظل روحه تحمل جروحها. لكن إن قلبّ الشخص الأمر في فكره ونظر إليه من جميع الجوانب فسيوقن أن ماي ويلند هي أفضل زوجة لنيولاند في نيويورك، فهذا هو الزواج الذي يليق بمقامه. لكن الشباب حمقى ومتهورون، وبعض النساء بلا أخلاق فلا يتورّعن عن إيقاعهم في حبائلهن. فإنها كانت أشبه بالمعجزة أن رأت ابنها ينجو من غواية تلك السيرينا[1] ويحط سالمًا في حياةٍ زوجيةٍ كريمة.

كان نيولاند يعرف رأي والدته في الخطبة، لكنه كان يعلم أيضًا أنها منزعجة من إعلان خطبته مبكرًا، أو بالأحرى «بسبب» إعلانها مبكرًا. ولأجل ذلك - وحيث إنه متساهل لين الجانب برغم أنه سيد المنزل - فإنه قد آثر البقاء للعشاء في ذلك المساء. تذمّرت السيدة آرتشر موجهةً حديثها لجايني الشاهدة الوحيدة على تقلبات مزاج أمها ما بين الدماثة والغلظة، وقالت:

-أنا لا أقول إنني لا أتفق مع أسرة مينغت في ضرورة إظهار وحدة الأسرة وتآزرها، ولكن ما لا أفهمه هو لِم ترتبط خطبة نيولاند بما تفعله تلك المرأة أولنسكا؟

---

(١) سيرينا: من المخلوقات الموصوفة في الأوديسة، وهي جنية البحر نصفها العلوي امرأة بديعة الجمال والنصف الآخر جسم طير، تعيش على جزيرة وتسحر البحارة بغنائها كي تتحطم سفنهم على صخور الجزيرة ويهلكون.

عندما زاروا السيدة ويلند تصرفت أمه بكل لباقة - ولا يغلبها أحد في السلوك اللبق - لكن نيولاند كان يعلم (ولا شك أن خطيبته أيضًا شعرت) أن أمه وجايني كانتا ترصدان بتوتر اقتحام مدام أولنسكا خلال وقت الزيارة. وعندما غادروا المنزل معًا سمحت لنفسها أن تقول لابنها: «الحمد لله أن أوغستا ويلند استضافتنا وحدنا».

تلك العلامات التي تدل على تكدر قلب والدته أقنعت نيولاند أكثر فأكثر أن أسرة مينغت بالغوا فيما فعلوه. وحيث إن النطق بها يحتل تفكير المرء ينافي جميع قواعد السلوك المهذب التي يؤمن بها الابن وأمه، فقد اكتفى حينها بالردّ عليها قائلاً: «كل خطبة يتبعها دائمًا عدد من الزيارات الأسرية التي يجب أن نحتملها، وكلما انتهينا منها بشكل أسرع كان هذا أفضل». فاكتفت والدته بدورها بزمّ شفتيها تحت خمار الدانتيل المنسدل من قلنسوتها المخملية الرمادية المزيّنة بحبات العنب.

فمن حقها إذًا أن تنتقم، وانتقامها هو أن «تستدرج» السيد جاكسون ذلك المساء للحديث عن الكونتيسة أولنسكا، وبما أن الشاب قد أدى واجبه أمام الناس بصفته صهر أسرة مينغت في المستقبل، فليس لديه أي اعتراض في أن يسمع الآخرين يناقشون شؤون الكونتيسة في جلسة أسرية خاصة، لولا أن الموضوع بدأ يثير في نفسه الملل.

تناول السيد جاكسون شريحة سمك باردة قدّمها إليه الخادمُ العابس ذو النظرة المرتابة كنظرته، ورفض أن يأخذ من صلصة الفُطر بعد أن شمها شمةً لا تكاد تُلحظ. كان من الواضح أن الرجل مرتبك وجائع، وتوقّع نيولاند أنه سينهي وجبته في الغالب بتناول موضوع إيلين أولنسكا.

تراجع السيد جاكسون مسندًا ظهره إلى كرسيه، ورفع بصره إلى صور عائلات آرتشر ونيولاند وڤان دِر لويدن التي تضيء الشموع أُطرها الداكنة على الحيطان القاتمة. توقفت عيناه على صورة شاب ريّانٍ عريض الصدر، يرتدي معطفًا أزرق ورباط عنق، ويظهر وراءه منزل ريفي بأعمدةٍ بيضاء،

ثم قال:
-آه كم كان جدك آرتشر يحب الوليمة العامرة والعشاء الطيب يا عزيزي نيولاند. يا ترى ما كان سيقول عن كل هذه الزيجات الأجنبية؟!
تجاهلت السيدة آرتشر تعريضه إلى موائد الأقدمين، فأجاب السيد جاكسون بتروٍ:
-كلا. لم تحضر الحفل الراقص.
همهمت السيدة آرتشر بكلمة «آه» بنبرة معناها «إذًا كان لديها بقيةٌ من ذوق».
تدخلت جايني بخبثٍ ساذج:
-ربما لا تعلم أسرة بوفرت من تكون.
ارتشف السيد جاكسون رشفةً خفيفة من كأسه وكأنه يتذوق هواءً من شدة انعدام النكهة، وقال:
-قد لا تعرفها السيدة بوفرت، لكن الأكيد أن جوليوس بوفرت يعرفها، لأن نيويورك بأسرها رأتها تتمشى معه على طول الجادّة الخامسة ظهيرة اليوم.
تأوّهت السيدة آرتشر قائلةً: «يا رحماك!» وقد قطعت الأمل تمامًا في أن تجد في تصرفات هؤلاء الأجانب لمحة من الكياسة والتهذيب.
تساءلت جايني:
-ترى هل ترتدي قبعةً مستديرة أم قلنسوة في العصر؟ سمعتُ أنها كانت ترتدي في دار الأوبرا فستانًا من المخمل الكحلي، وأنه كان ضيقًا منسدلاً كما لو أنه غلالة نوم.
نهرتها أمها: «جايني!»، فتضرج وجه الآنسة آرتشر بدماء الخجل، وحاولت أن تحافظ على مظهر الشجاعة.
أكملت السيدة آرتشر:
-كان من حسن الذوق ألا تحضر الحفل الراقص على أية حال.
شيء من العناد حرّك ابنها إلى مشاركتهم الحديث فقال:
-لا أعتقد أن الذوق هو ما منعها، فإن ماي قالت إنها كانت تنوي الذهاب لولا أنها رأت أن فستانها لا يليق بالحفل.

ابتسمت السيدة آرتشر. فما قاله فيه إثبات لاستنتاجها، فعلّقت: «مسكينة إيلين»، ثم أضافت بإشفاق:

-يجب ألا ننسى أبدًا أنها تربّت تربية غريبة على يد ميدورا مانسون. ماذا تتوقع من فتاة سُمح لها أن ترتدي الدانتيل الأسود في حفلها ظهورها الأول؟[1]

قال السيد جاكسون:

-نعم، أنا أتذكر هذا! كم كانت مسكينة!

قالها بنبرة من أدرك يومها ما ينذر به ذلك المظهر، رغم استمتاعه الآن بالذكرى.

علّقت جايني:

-من العجيب أنها احتفظت باسمها القبيح... إيلين! لو كنتُ مكانها لغيّرته إلى إيلاين.

أجالت نظرها لترى أثر كلامها في المتحلقين حول الطاولة. ضحك أخوها وقال:

-لِمَ تغيرينه إلى إيلاين؟

خجلت جايني، وأجابت:

-لا أعلم. فالاسم يبدو... يبدو بولنديًا.

قالت السيدة آرتشر بترفع:

-بل إنه اسم لافت للنظر، ولابد أنها لا تريد أبدًا أن تجذب الأنظار إليها.

أحسّ ابنها برغبةٍ في الجدال، فقاطعها:

-لِمَ لا؟ لِمَ لا تلفت الأنظار إليها إن هي أرادت ذلك؟ لماذا ينبغي عليها أن تتحرك في الخفاء وكأنها لو كانت قد ارتكبت إثمًا؟ إنها فعلاً «إيلين المسكينة» لأن حظها السيء رماها في زواج تعيس، لكنني لا أرى هذا سببًا كافيًا كي تدس رأسها في الرمال كأنها هي التي أجرمت.

قال السيد جاكسون:

-حسبما سمعتُ فإن هذه هي وجهة نظر أسرة مينغت.

(١) عندما تبلغ الفتاة سن الرشد فإنها تُقدّم إلى مجتمعها الراقي في حفل رسمي، وجرت العادة أن ترتدي فستانًا أبيض

احتقن وجه الشاب، فرد:
-لم أكن أنتظر منهم توجيهًا لأبدي رأيي إن كان هذا ما تعنيه يا سيدي. عاشت مدام أولنسكا حياة شقية، لكن هذا لا يعني أن ننبذها.
قال السيد جاكسون وهو يلقي نظرةً مترددة تجاه جايني:
-ثمة شائعات...
قاطعه الشاب:
-أجل، سمعتُها.. حكاية السكرتير. بالله عليكِ يا أماه! إن جايني امرأة بالغة. إنهم يقولون إن السكرتير أعانها على الهرب من زوجها المتوحش الذي كان يعاملها كالأسيرة. وماذا لو أنه فعل هذا حقًا؟ أتمنى من كل قلبي ألا يكون بيننا رجل لا يفعل مثل فعل ذلك الرجل في ذلك الموقف.
التفت السيد جاكسون من خلف كتفه ليقول للخادم الحزين: «ربما... القليل...من تلك الصلصة»، وبعد أن اغترف لنفسه قال:
-قيل لي إنها تبحث عن منزل. إنها تنوي العيش هنا.
قالت جايني بجرأةٍ:
-سمعتُ أنها تنوي أن تحصل على الطلاق.
هتف نيولاند:
-ليتها تفعل!
وقعت كلمته كالقنبلة في جو حجرة الطعام الرائق الهادئ. رفعت السيدة آرتشر حاجبيها الرفيعين بانحناءة محددة مغزاها «الخادم موجود»، فسارع الشاب - وهو نفسه يعرف أن من سوء الأدب مناقشة هذه الأمور الخاصة أمام الغرباء - بتغيير الموضوع بالحديث عن زيارته للسيدة مينغت العجوز.
بعد أن فرغوا من العشاء ومكث الرجلان في الأسفل يدخنان، سحبت السيدة آرتشر وجايني قماش الحرير الطويل إلى غرفة الجلوس في الأعلى كعادتهما دومًا. جلستا بقرب مصباح زيتي ذي زجاجة منقوشة على طاولة من خشب الورد، ويوجد تحتها حقيبة من الحرير الأخضر، وشرعتا في حياكة

طـرفي مُطـرَّزة جدارية تزدان بأزهار الحقول، وهي القطعة التي سـوف تزّين ظهر أحد الكراسي في حجرة جلوس عروس نيولاند.

وبينـما السـيدتان منهمكتـان في هذا الطقـس في غرفة الجلـوس، دعا نيولاند السـيد جاكسـون للجلوس على كرسي قريـبٍ من مدفأة المكتبـة القوطية ثم ناوله سـيجارًا. جلس السـيد جاكسون في مقعده برضا وأشعل سيجاره بثقة تامة (فنيولاند هو من اشـترى السـيجار)، وقال بعد أن مدّ سـاقيه النحيلتين مقتربًا من الجمر:

-أنـت تقول إن السـكرتير لم يفعـل أكثر من أنـه أعانها على الفـرار يا رفيقي العزيز؟ إذًا لابد أنه ظل «يسـاعدها» لعام كامل بعد هروبها من زوجها، لأن شخص ما قابلها وهما يعيشان معًا في لوزان.

تخضّب وجه نيولاند حمرة، لكنه أجاب:

-يعيشـان معًا؟ وما المانع؟ ومن ذا الذي يستحق أن يبدأ حياته من جديد إن لم تكن هي؟ لقد سئمتُ النفاق الذي يجبر امرأة في عمرها على أن تُدفن حيةً لأن زوجها كان يفضل العيش مع العاهرات.

توقف عن الكلام واستدار حانقًا كي يشعل سيجاره، ثم قال بعصبية:

-يجب على النساء أن ينلن حريتهن، وأن يتمتعن بما لنا نحن من حرية.

قالها وقد بلغ به الانزعاج أشـده، فلم يفكر مليًا بما يعنيه كلامه. قرّب السـيد سـيلرتون جاكسـون كاحليه أكثر إلى قطع الجمر، وأطلق زفرة تهكمية، وبعد فترة صمت قال:

-يبدو أن زوجها الكونت يشـاطرك الرأي، لأنني لم أسـمع أنه حرك سـاكنًا لاستعادة زوجته.

الفصل السادس

بعد أن انفضت الأمسية بأن غادر السيد جاكسون، وخلدت السيدتان إلى مخدعيهما المزينين بستائرٍ من قماش الشِيت، صعد نيولاند إلى مكتبته وهو مشغول الفكر. وكما هي العادة فقد أبقت يدٌ يقظة نارَ المدفأة متقدةً وفتيلة المصباح مقصوصةً فباتت الحجرة دافئة تسرّ الجوارح، وتشرح القلب بأرففها الزاخرة بالكتب، وتماثيلها البرونزية والفولاذية على رف المدفأة، بالاضافة إلى جملة الصور التي تُظهر لوحات شهيرة.

بعد أن أسقط جسده على كرسيه بالقرب من المدفأة، وقعت عيناه على صورة كبيرة لماي أهدتها إليه في أول أيام حبهما. وقد منحها مكان الصدارة على الطاولة فتضاءلت أمامها كل الصور الأخرى. تفرّس نيولاند في وجه تلك المخلوقة الغضة، الجبهة الوضّاءة والعينين الجادتين والفم المرح الطاهر.. غشيته رهبةٌ من عظم الحمل المناط به.. سوف يكون هو وليّ أمرها.. الوصي على روحها. هذه إحدى المسؤوليات المخيفة التي ابتدعها النظام الاجتماعي الذي ينتمي إليه، ويؤمن به. لكن هذه الفتاة التي تعرف عن الحياة القليل، وتنتظر منها الكثير، تحدق فيه من الصورة كما لو أنها امرأة غريبة تقمّصت ملامح ماي التي يحفظها. كان يزداد إيمانًا أنّ الزواج ليس المرسى الآمن الذي كان يظنه، بل هو رحلة مضنية في بحار مجهولة.

قضية الكونتيسة أولنسكا زعزعت قناعاته الراسخة، وجعلتها تنجرف في داخله بلا ثوابت تشدها. وقوله: «يجب على النساء أن ينلن حريتهن، وأن يتمتعن بما لنا نحن من حرية» لامس أصل المشكلة التي أجمع الناس في عالمه على تجاهلها، فالنساء «كريمات الحسب» مهما أُرتكبت بحقهن المظالم لن يطالبن أبدًا بالحريات التي قصدها في كلامه، ولهذا فمتفتحي الذهن من الرجال أمثاله تتملكهم النخوة في غمرة الحماس، فيقدمونها إليهن على طبق

من فضة. وليس هذا السخاء اللفظي إلا تنكر مضلل يداري تقاليدَ متحجرة لا تلين، تسيّر الناس على نهج واحد. ومع هذا فها هو مُلزمٌ بأن يدافع عن سلوك قريبة خطيبته.. السلوك الذي لو احتذته زوجته فلن يلومه أحد إن استبد به الغضب.. فهذا حقه الذي يكفله له الدين والدولة. لكن هذا بالطبع محض تخيلات، فأنّى له أن يتكهن بالحقوق التي تملكها زوجة نبيلٍ بولندي سافل، لكنّ خيال نيولاند كان خصبًا وما استطاع أن يمنع نفسه من أن يشعر أنّه في حالته هو وماي فإن الرابطة بينهما قد تنحل لأسبابٍ أقل بذاءةً وأكثر غموضًا.

ما الذي يعرفانه حقًا عن بعضهما، وواجبه بصفته رجل محترم أن يخفي ماضيه عنها، وواجبها بصفتها فتاة عفيفة ألا يكون لها ماضٍ تخفيه؟ ماذا لو أنهما سئما بعضهما؟ أو لم ينسجما أو لم تتوافق طباعهما؟ استعرض في عقله زيجات أصدقائه - الذين تبدو حياتهم سعيدة هانئة - فلم يجد من بينهم من يعد زوجته رفيقة حياته، ولم يجد في علاقاتهم أي حب وعاطفة كالتي يتصور أن يكون بينه وبين ماي. لكنه أدرك أن تصوره هذا يقتضي أن تملك ماي التجربة، وسعة الحيلة، والحرية في إصدار الأحكام ما لم تعتده، ولم تتعلمه. سرت في جسده رعدة تشاؤم عندما تنبأ أن تكون حياته الزوجية مثل معظم الزيجات في محيطه. ارتباط فاتر يجمع بين المنافع المادية والاجتماعية، ومربوط بوثاق يشد الجهل أحد طرفيه والنفاق الطرف الآخر. خطر لورنس ليفرتس في باله أنموذجًا للزوج الذي حقق تحقيقًا كاملاً هذا الهدف الذي يحسده الرجال عليه. فبصفته المعلم الأول في علم «المظاهر» فإنه قد شكّل لنفسه زوجةً وفق هواه، وفي اللحظات التي تنفضح فيها نزواته الغرامية المتكررة مع زوجات الآخرين، تراها تعيش حياتها في حالة خدرٍ باسمة وهي تردد: «ما من رجلٍ أشد صرامة واستقامة من لورنس زوجي»، ويحمر وجهها امتعاضًا وتنكس بصرها عندما يلمّح أحدهم في حضورها إلى أن جوليوس بوفرت (الغريب مشبوه الأصل) لديه «بيتًا آخر يؤنسه» كما يقول أهل نيويورك.

حاول نيولاند أن يعزّي نفسه بأنه ليس خسيسًا كلورنس ليفرتس، ولا ماي ساذجة كزوجته المسكينة غيرترود، لكن الفرق في النهاية هو الفرق في الذكاء، وليس في الأخلاق والمبادئ. فهم في الحقيقة يعيشون واقعًا مشفرًا برموز تستعصي على الفهم، حيث لا أحد يبوح بحقيقة مشاعره ولا يتصرف وفقًا لها، ولا يفكر بها حتى، بل تظهر هذه الحقيقة عن طريق مجموعة من الرموز الاعتباطية، كما حدث مثلاً مع السيدة ويلند. فهي تعلم علم اليقين السبب الذي جعل نيولاند يستعجل في إعلان خطبته على ابنتها في حفل بوفرت الراقص (بل هي لم تتوقع منه أن يفعل غير ذلك) ومع هذا فإن من واجبها أن تتظاهر بالتردد، وأن تُشعره بأنها موافقة على مضض، مَثلُها في ذلك كمثل العروس في العصور السحيقة التي كانت تُجرّ وهي تصرخ من خيمة والديها كما تحكيه الكتب المؤلفة عن الإنسان البدائي التي أخذ سكّان الحضارات المتقدمة الآن يقرؤونها.

والنتيجة بالطبع هي أن تلك الفتاة التي تقف في منتصف هذا الشبكة المعقّدة المحيّرة هي أشد ما فيها غموضًا بسبب صراحتها واطمئنانها. فهذه المسكينة صريحة لأن ليس لديها ما تخفيه، ومطمئنة لأنها لا ترى خطرًا تقي نفسها منه. ستجد نفسها بين يومٍ وليلة تواجه ما يسميه الناس تهربًا «حقائق الحياة» وهي عزلاء من أي سلاحٍ.

كان حب الشاب لخطيبته صادقًا، لكنه ليس عشقًا ثائرًا. إنه سعيد بحُسنها وعافيتها، ومهارتها في ركوب الخيل، بالإضافة إلى رشاقتها وسرعتها عند ممارسة الرياضات المختلفة، واهتمامها الخجول بالكتب الذي بدأت في تنميته تحت رعايته (وقد أحرزت ماي تقدمًا حتى إنها أصبحت تشاركه في السخرية من «أناشيد الملك»، لكنها لا تحسّ بعد بجمال «يوليسيس» و"آكلو اللوتس»[1]). هي امرأة صريحة ووفيّة وشجاعة، وتقدّر الفكاهة (وقد عرف ذلك لأنها تضحك من نكاته)، ويعتقد أنها تملك مشاعر فيّاضة في كوامن

(١) هذه قصائد للشاعر الإنجليزي ألفريد تنيسون.

روحها البريئة، وأنه سوف يجد متعة فائقة في إيقاظها.

ولّما وصلت أفكاره عنها نهاية هذا المطاف شعر أن تفاؤله قد اختفى، لأنه يعلم أن وضوحها وبراءتها ما هما إلا خصلتين مصطنعتين، فالطبيعة البشرية التي لم تتلاعب بها الأيادي ليست واضحة ولا بريئة، بل هي ماكرة فطريًا وتفيض بالانحرافات والزيغ. وجد نفسه مغمومًا ضائق النفس من هذه البراءة المصطنعة التي خلقتها مؤامرةٌ حاكتها أنامل الأمهات والعمات والخالات والجدّات، الحيّات والسالفات التي يواري التراب أجسادهن، لأن هذا هو ما يجب أن يبتغيه الرجل في زوجته، وما له الحق في أن يناله منها، كي يتسنى له - إن شاء وأراد - أن يمارس متعته الذكورية بصفته وليها، وأن يحطّم براءتها كما لو أنها صورة رسمتها نُدف الثلج.

إن في أفكاره هذه شيء من الابتذال لكثرة ما خطرت على غيره من الرجال، فهذه هي الأفكار التي تجول عادةً في ذهن أي شاب مقبل على الزواج. لكن ما لم يشعر به نيولاند هو الإحساس بالندم أو احتقار الذات اللذين يصاحبان هذه الأفكار عادةً. فهو لا يأسف ويتحسر (كما يفعل أبطال ثاكري الذين يثيرون غيظه) لأنه لا يملك صفحةً بيضاء يقدّمها لعروسه مقابل الصفحة النقية التي ستقدّمها إليه. لكن الحقيقة هي أنه لو كانت نشأته مماثلة لنشأتها، فلن يستطيعا شق طريقهما في الحياة. كما لم يستطع في غمرة تأملاته القلقة أن يجد سببًا وجيهًا واحدًا يمنع عروسه من أن تكون قد تمتعت في نشأتها بالقدر نفسه من حرية العلاقات التي نالها هو (وكل الأسباب الواهية التي خطرت في ذهنه كانت أسبابًا ترضي غروره الذكوري لا أكثر ولا أقل).

من الطبيعي أن تدور في خلده أسئلة كهذه وفي ساعةٍ كهذه، لكنه كان موقنًا أن إلحاح هذه التساؤلات ودقتها مردُّها وصول الكونتيسة أولنسكا في الوقت غير المناسب. فها هو في يوم خطبته - يوم الأفكار الصافية والآمال الرائقة - يجد نفسه مدفوعًا قسرًا ليكتوي بجمر فضيحةٍ تقلّبُ في ذهنه كل تلك المسائل العويصة التي ودّ لو تجاهلها. دمدم لسانه وهو يطفئ نار مدفأته

«اللعنة على إيلين أولنسكا!»، ثم شرع يخلع ملابسه. إنه لا يرى كيف يمكن أن يؤثّر مصيرها في مصيره! ومع هذا فقد انتابه إحساس واهن أنه لمّا يرَ بعدُ مدى المخاطر التي تضعه فيها هذه الشهامة المفروضة عليه بسبب خطبته.

* * *

بعد بضعة أيام نزلت الصاعقة.

كانت أسرة السِّيد لوڤيل مينغت قد بعثت ببطاقات دعوة لحضور ما يُعرف «بوليمة عشاء رسمية» (أي أنه سيكون هناك ثلاثة خدم إضافيين، وطبقان مختلفان لكل لون من ألوان الطعام، وشراب البَنش الروماني بين الوجبات)، وكانوا قد صدّروا البطاقات بعبارة «على شرف الكونتيسة أولنسكا» كما هي العادة في أصول الضيافة الأمريكية التي تعامل الغرباء بإكبارٍ لا يُعامل به سوى أبناء الأسر المالكة.

وقد أُختير المدعوون بعناية ودقةٍ تكشفان أن المحاباة كانت معيار انتقائهم، فأدرك المطّلعون على بواطن الأمور أنها من أفعال يد كاثرين العظيمة. فالقائمة تجمع بين شخصيات ثابتة في مثل هذه المناسبات، مثل أسرة سيلفريدج ميري الذين يُدعون في كل مناسبة، وأسرة بوفرت الذين تربطهم بمينغت صلة قرابة من بعيد، والسيد سيلرتون جاكسون وأخته صوفي (التي تذهب حيثما يأمرها أخوها)، وآخرين من طبقة الشباب المتزوجين الأكثر رقيًا وألقًا، ومنهم: أسرة لورنس ليفرتس، وأرملة ليفرتس راشوورث الجميلة، وأسرة هاري ثورلي، وأسرة ريجي تشيڤرس، والشاب موريس داغنيت وزوجته التي تنحدر من أسرة ڤان دِر لويدن. كانت قائمة المدعوين معدةٌ بحرص، إذ أنهم جميعًا ينتمون إلى وسط ضيق محدود من الأشخاص الذين يقضون موسم نيويورك الاجتماعي الطويل باللهو معًا نهارًا، والسمر ليلاً بلا كلل أو ملل.

وبعد مضي ثمانٍ وأربعين ساعة فحسب حدث ما لا يمكن تصديقه؛ كل مدعوٍ رفض تلبية دعوة أسرة مينغت ما خلا أسرة بوفرت والسيد جاكسون

العجوز وأخته. وقد زادت الإهانة مرارةً بأمرين، الأول هو أنه حتى أسرة ريجي تشيفرس التي تربطها صلة رحم بأسرة مينغت كانوا من ضمن أولئك الرافضين، والثاني يكمن في الصياغة الموحدّة لخطابات الاعتذار التي قال فيها كاتبوها: «نأسف لعدم قدرتنا على قبول الدعوة» دون أن يلتمسوا لأنفسهم أعذارًا «بارتباطات سابقة» كما تفرضه أصول اللباقة.

كان مجتمع نيويورك في تلك الأيام أصغر وأضيق من ألا يعرف كل فردٍ فيه (ومنهم أصحاب الاصطبلات العامة والخدم والطباخين) أي الأمسيات يكون فيها الناس مرتبطين بمواعيد وزيارات اجتماعية، وأيها يمضونها في المنزل، وبهذا يتضح مدى إصرار أولئك الذين تلقوا دعوات حرم السيد لوفيل مينغت في أن يبيّنوا لها بكل صفاقة وقسوة عدم رغبتهم في لقاء الكونتيسة أولنسكا.

أتت الضربة من حيث لم يتوقعها أحد، لكن أسرة مينغت تلقّتها كعادتها بشجاعة. أسرّت زوجة لوفيل مينغت بما حدث للسيدة ويلند، وهذه بدورها أسرت بالأمر إلى نيولاند، فاستشاط غضبًا من هذه الوقاحة واتجه لوالدته متوسلاً آمرًا. وبعد أن استمعت إليه والدته برهةً، وهي تظهر التردد وتبطن المقاومة، أذعنت إلى إلحاحه كعادتها دومًا، فانقلبت من فورها إلى مناصرة لقضيته، تدفعها طاقة مضاعفة تعوّض بها ترددها السابق، فلبست قبعتها المخملية الرمادية وقالت:

-سأذهب لأزور لويزا ڤان دِر لويدن.

كانت نيويورك في زمن نيولاند آرتشر تتخذ هيئة الهرم الصغير الزلق الذي لا تكاد تجد فيه صدعًا ولا موطأ قدم. في قاعدة الهرم تجد أساسًا راسخًا مكونًا ممن تسمّيهم السيدة آرتشر «العوام» وهم السواد الأعظم من الأسر الكريمة المغمورة (مثل سبايسر وليفرتس وجاكسون) لكن ليست رفيعة المقام، بل رفعوا مستواهم بمصاهرة إحدى الأسر الراقية «الحاكمة». كانت السيدة آرتشر دائمًا تردد: «لم يعد الناس يهتمون بدقائق الأصول كما كانوا»، وأنّى للمرء

أن يرى التقاليد العريقة معمّرةً أكثر مما عمّرت، وكاثرين سبايسر العجوز تحكم أحد طرفي الجادّة الخامسة، وجوليوس بوفرت يحكم الطرف الآخر؟!

كان سفح القاعدة يضم هذه الطبقة من الأثرياء غير المعروفين، وبالصعود إلى الأعلى تضيق مساحة الهرم لتنحصر في الطبقة الثانية مجموعةٌ مهيمنة تمثلها الأسر التالية: مينغت ونيولاند وتشيڤرس ومانسون. ويظن معظم الناس أن هؤلاء هم قمة الهرم، لكن الأربعة أنفسهم (أو من ينتمي منهم لجيل السيدة آرتشر على الأقل) يعلمون أنه لا يوجد في عين المختص بعلم الأنساب سوى ثلة قليلة من الأسر التي نالت هذا الشرف. ولطالما رددت السيدة آرتشر على مسامع طفليها هذا الكلام. فكانت تقول:

-لا تلقيا بالاً إلى هذا الهراء العصري الذي تذكره الصحف عن الأرستقراطية في نيويورك، ولو كانت ثمة أرستقراطيةٌ فلن تكون أسرة مينغت ولا مانسون منتمية إليها، لا... ولا حتى نيولاند ولا تشيڤرس. إن أسلافنا كانوا مجرد تجار محترمين من إنجلترا أو هولندا أتوا إلى المستعمرات[1] بحثًا عن الثراء، وحطوا رحالهم هنا لأنهم وُفّقوا في عملهم أيما توفيق. إن أحد أجدادكما قد وقّع على وثيقة الاستقلال، وجدكما الآخر كان جنرالاً في جيش جورج واشنطن وقد حصل على سيف الجنرال بورغوين[2] بعد معركة سيراتوغا. وهذه إنجازات يحق لنا أن نفخر بها، لكنها لا تمت للأصل ولا بالمنزلة الاجتماعية بأي رابط. إن نيويورك مجتمع تجاري في أصله، ولا يوجد أكثر من ثلاث أسر فيه تستطيع أن تنسب لنفسها أصلاً أرستقراطيًا بالمعنى الحقيقي للكلمة.

والسيدة آرتشر تعرف كما يعرف ابنها وابنتها وكل شخص آخر في نيويورك من هم هؤلاء الأشخاص ذوي الشرف الرفيع؛ أسرة داغنيت من ميدان واشنطن التي تنحدر من أسرة إنجليزية عريقة لها صلة قرابة مع أسرتي بِت

(١) عندما كانت الولايات المتحدة الأمريكية مستعمرة من قبل إنجلترا.

(٢) الجنرال بورغوين: قائد الجيش الإنجليزي في معركة سيراتوغا.

وفوكس، وأسرة لاننغ الذين تصاهروا مع نسل الكونت دي غراس[1]، وأسرة ڤان دِر لويدن وهم النسل المباشر لأول حاكم هولندي على منهاتن، وتربطهم صلة رحم مع العديد من أبناء الأسر الأرستقراطية في بريطانيا وفرنسا من قبل عصر الثورة.

لم يبقَ من نسل لاننغ سوى شقيقتين نشطتين رغم أنهما بلغا من الكبر عتيًا، ما زالتا تعيشان حياتهما بالطول والعرض بين ذكريات صور أسرتهما والأثاث القديم، أما أسرة داغنيت فأبناؤها كُثر، ولهم أقارب من أرقى الأسر في بالتيمور وفيلادلفيا. لكن أسرة ڤان دِر لويدن التي تعلو الأخريين مكانةً فذريتهم اضمحلت في ثنايا الزمن، ولم ينجُ من أفولها إلا اثنين: السيد هنري ڤان دِر لويدن وزوجته.

كان اسم حرم السيد هنري ڤان دِر لويدن قبل زواجها لويزا داغنيت، وأمها هي حفيدة العقيد دو لاك الذي يرجع أصل أسرته إلى إحدى جزر القنال الإنجليزي. وكان العقيد قد حارب تحت إمرة الماركيز كورنواليس، وبعد انتهاء الحرب استقر في ولاية ماريلاند مع عروسه ليدي أنجيليكا تريڤينا الابنة الخامسة لإيرل ساينت أوستري. وكان الود والحميمية هما دومًا سمتيّ العلاقة بين أسرة داغنيت، وأسرة دو لاك في ماريلاند، وأسرة تريڤينا أقربائهما الأرستقراطيين من مقاطعة كورنوول في إنجلترا. وكثيرًا ما كان السيد ڤان دِر لويدن وزوجته يزوران عميد أسرة تريڤينا الحالي دوق ساينت أوستري زيارات طويلة في عزبته في كورنوول ومنزله في ساينت أوستري في مقاطعة غلوسترشير، وكان سمو الدوق يصرّح مرارًا عن نيته في رد الزيارة يومًا ما،دون أن تصحبه الدوقة لأنها كانت تخشى عبور الأطلسي.

ويقسّم السيد ڤان دِر لويدن وزوجته وقتهما ما بين ثلاثة أماكن؛ زيارة تريڤينا، ومنزلهما في ماريلاند، وسكويتركليف التي تضمّ عزبة شاسعة تطل على نهر هدسون، وهي إحدى العطايا الإقطاعية المقدّمة من الحكومة الهولندية إلى

(١) قائد الأسطول الحربي الفرنسي خلال الثورة الأمريكية.

جدهم الحاكم المشهور. ولهذا فما زال السيد ڤان دِر لويدن يحمل لقب "السيد الإقطاعي" في تلك الأنحاء. أما منزلهما الرحب في جادة ماديسون في مدينة نيويورك فينتصب مهيبًا ولا يُفتح للزوار إلا نادرًا. وإن قدما إلى المدينة فإنهما لا يستقبلان فيه إلا أعز أصدقائهما وأقربهم إليهما.

توقفت والدة نيولاند بغتةً عند باب عربة (الكوبيه) المستأجرة من السيد براون، وقالت:

-لعلك تأتي معي يا نيولاند... فلويزا تحبك، وأنا بالطبع لم أكن لأذهب إليهم لولا أن هذا من أجل ماي الغالية... وكذلك أيضًا أننا إن لم نقف معًا في صف واحد، فلن يبقَ في نيويورك مجتمعًا راقيًا.

الفصل السابع

أصغت السيدة ڤان دِر لويدن بصمتٍ إلى حكاية قريبتها السيدة آرتشر.

يستطيع من يزور السيدة ڤان دِر لويدن أن يذكّر نفسه ألف مرةٍ أنها امرأة بالغة العطف على الأشخاص الذين تحبهم حبًا حقيقيًا، مع أنها بحسب طبيعتها ونشأتها إنسانةٌ قليلة الكلام ميّالةٌ إلى الصمت، بيد أن هذا لن يحول دون وقوع الرهبة في قلب من يجلس معها في حجرة الجلوس البيضاء عالية السقف في منزلها في جادة ماديسون. وفي الحجرة رياشٌ من القماش الفاتح الموشّى، ويبدو جليًا أن المفارش التي تغطيها لم تُكشف إلا لهذه الزيارة، حتى إن بعض الأغطية ما زالت مُسدلة على التحف المطلية بالذهب، وعلى الإطار الأثري الجميل المحيط بصورة «ليدي أنجيليكا دو لاك» التي رسمتها فرشاة الفنان غينزبورو.

وفي مقابل لوحة الجدة الجميلة، تجد لوحةً شخصية للسيدة ڤان دِر لويدن رسمها الفنان هنتنغتن وهي ترتدي المخمل الأسود والدانتيل المطرّز، وهي لوحة بديعة ممتازة، كثيرًا ما قورن جمالها بأعمال الفرنسي كابنال. ورغم مرور عشرين عامًا على رسم اللوحة، فالتشابه بينها وبين صاحبتها التي تجلس الآن تحتها تصغي إلى السيدة آرتشر يكاد يكون تامًا، حتى ليظن من يرى السيدة أنها توأم تلك الشابة الشقراء المرسومة في اللوحة، وهي تجلس على كرسي مذهب أمام ستار من القماش الأخضر. ما زالت السيدة ڤان دِر لويدن ترتدي المخمل الأسود والدانتيل المطرّز كلما خرجت في الأماكن العامة، أو بالأحرى كلما فتحت باب منزلها كي تستقبل الزائرين لأنها لا تتناول العشاء خارج منزلها أبدًا. وما زالت أيضًا تفرق شعرها الأشقر الذي خفتت لمعته دون أن يغزوه الشيب من المنتصف، وخصلات منه تغطي جبينها. أما الاختلاف الوحيد بين الأصل والصورة هو أن الأنف المستقيم الذي يفصل

بين عينيها الزرقاوين الشاحبتين أصبح أكبر مما كان عليه عند رسم الصورة. وكلما رآها نيولاند أحس أنه يرى امرأة حفظتها حياةٌ بالغة النقاء في مكانٍ محكم الإغلاق فلا يصله هواء، كما تحفظ الأنهار المتجمدة أجساد البشر لأعوام مديدة على هيأتها قبل الموت.

إنه في الحقيقة معجبٌ بالسيدة ڤان دِر لويدن ويقدّرها كما يقدرها بقية أفراد الأسرة، غير أنه لا يرتاح إلى أسلوبها الدمث المهذب كما يرتاح إلى الأسلوب المتجهم الذي تتخذه بعض خالات أمه العجائز العوانس الصارمات اللواتي ينطقن «لا» قبل حتى أن يطلب منهن أحد طلبًا. أما السيدة ڤان دِر لويدن فلا تقطع بقبول ولا نفي، بل إنها تميل دائمًا إلى الاعتدال إلى أن تنفرج شفتاها الضيقتان عن شبح ابتسامة، تتبعها بالرد الذي لا تحيد عنه أبداً: «سوف أناقش زوجي أولاً في الأمر».

كانت هي وزوجها السيد ڤان دِر لويدن متشابهين تمام التشابه، حتى إن نيولاند غالبًا ما يتساءل كيف يمكن لاثنين اندمجت شخصيتاهما اندماجًا تامًا بعد أربعين عامًا من التقارب الزوجي أن ينفصلا ولو للحظة كي يتحدثا في أي أمر. لا أحد منهما قد اتخذ قرارً قط دون مناقشته أولاً في خلوة بينهما، ولهذا انتظرت السيدة آرتشر وابنها بصبر يترقبان سماع العبارة المعتادة، بعد أن فرغا من عرض قضيتهما. غير أن السيدة ڤان دِر لويدن فاجأتهما وهي التي لا تفاجئ أحدًا بأن مدّت يدها الطويلة، وجرّت حبل الجرس لاستدعاء الخادم، وقالت:

-أعتقد أن على هنري أن يسمع ما قلتماه.

برز أحد الخدم، فأمرته بوقار:

-إن كان السيد ڤان دِر لويدن قد فرغ من قراءة الصحيفة، فاطلب منه رجاءً أن يتكرّم بالحضور.

قالت «قراءة الصحيفة» بنبرةٍ توحي للسامع بأن زوجها يرأس جلسة مجلس الوزراء، وليس مبعث هذا أي غرورٍ أو تعالٍ، لكن طبيعة حياتهما ومعاملة

الأقرباء والأصدقاء لهما تجعل أقل تصرفٍ من قبل السيد ڤان دِر لويدن يحمل في عينيها أهمية قدسية.

كشفت سرعة تصرفها أنها ترى أن الأمر ملحٌّ كما قالت السيدة آرتشر، لكن لكيلا تكون قد أوحت بتصرفها أنها قطعت وعدًا لهما بالتدخل في الأمر، فإنها سارعت في القول بنظرةٍ محبةٍ:

-إن هنري يُسرّ دومًا لرؤيتكِ يا عزيزتي آدلين، ويود أن يبارك لنيولاند كذلك.

فُتح الباب بوجاهةٍ وظهر من بين مصراعيه السيد ڤان دِر لويدن مرتديًا معطفًا. وكان رجلاً طويلاً هزيلاً ذا شعر باهت الشقرة وأنف مستقيم كأنف زوجته، وفي عينيه الرماديتين نظرة الرفق واللين نفسها. حيّا السيد ڤان دِر لويدن السيدة آرتشر بودّ الأقرباء، وهنأ نيولاند بصوت خفيض وبعباراتٍ تطابق تلك التي قالتها زوجته، ثم جلس على أحد الكراسي الموشّاة ببساطةِ ملكٍ يجلس على عرشه. قال وهو يلاصق أطراف بنانه الطويلة:

-قد فرغتُ للتو من قراءة صحيفة التايمز. دائمًا ما أكون مشغولاً طيلة الصباح عند حضوري إلى المدينة، فأجد أن من الأنسب أن أقرأ الصحف بعد الغداء.

ردت السيدة آرتشر:

-وخيرًا تفعل. أظن أن عمي إيجمونت كان دائمًا يقول إن صحف الصباح لا تثير أعصابه إن قرأها بعد تناول العشاء.

قال السيد ڤان دِر لويدن بعباراتٍ مقتضبة، ناظرًا بتأنٍ حوله في أرجاء الحجرة التي كانت في عيني نيولاند صورةً طبق الأصل عن صاحبيها:

-أجل. والدي العزيز كان يمقت الاستعجال. لكننا نعيش الآن في عصر السرعة.

قاطعته زوجته:

-آمل ألا نكون قد قاطعنا قراءتك يا هنري؟

طمأنها فقال:

-أبدًا. على الإطلاق.

-إذًا أود أن تخبرك آدلين...

قالت السيدة آرتشر مبتسمةً: «بل هي في الحقيقة حكاية نيو لاند»، ثم شرعت تعيد حكاية الإهانة الفظيعة التي وُجّهت لحرم السيد لوڤيل مينغت. ثم ختمت حديثها بقولها:

-ولهذا فقد رأت أوغستا ويلند وماري مينغت أنه - وعلى ضوء خطبة نيو لاند - فلابد أن يصل نبأ ما حدث إليكِ أنتِ وهنري.

سحب السيد ڤان دِر لويدن نفسًا عميقًا وقال:

-مفهوم.

حل صمت ثقيل بدا فيه صوت دقّات الساعة المطلية بالذهب فوق رف المدفأة الأبيض الرخامي كقذائف المدفع. تأمل نيو لاند بكل رهبة الشخصين النحيلين الجالسين أمامه متجاورين في وجاهة ملوكية. إن قدرهما هو أن يكونا الناطقين بأحكام يصدرها أسلافهم منذ قديم الزمان بلسانهما، ولو كان الأمر بيدهما لاختارا الحياة البسيطة المنعزلة في عزبتهما في سكويتركليف، ينزعان الحشائش الضارة من حدائقها الغناء، ويلعبان «بايشنس»[1] معًا في المساء.

سأل السيد ڤان دِر لويدن نيو لاند:

-أتظن حقًا أن هذا حدث بسبب... بسبب تدخلٍ متعمد من لورنس ليفرتس؟

-بل أنا متأكد من ذلك يا سيدي. إن «تجاوزات» لورنس قد زادت عن حدها - إن أذنت لي السيدة لويزا بالقول صراحةً - بعد أن أقام علاقة غرامية عابرة مع زوجة مأمور البريد في قريته أو شيء من هذا القبيل، ومتى ما بدأت غيرترود ليفرتس المسكينة تشك في أي شيء، فإنه يثير لغطًا من هذه الشاكلة خوفًا من المشاكل، كي يُظهر لها مدى تمسكه الشديد بالأخلاق والمُثل، ويبدأ يجعجع بأعلى صوته أنه لا يليق أن تُدعى زوجته للقاء أناسٍ لا يحبذ أن تختلط بهم. إنه وبكل اختصار يضحي بمدام أولنسكا كبشًا للفداء، وقد رأيته مرارًا يسلك هذا السلوك.

(١) هي إحدى ألعاب الورق، وتُعرف باسم "سوليتير" في العصر الحالي.

قالت السيدة ڤان دِر لويدن: «ليفرتس!»

فرددت السيدة آرتشر:

- ليفرتس! ما كان عمنا إيجمونت سيقول لو علم أن لورنس ليفرتس بات يتحدث وينتقد أبناء الأسر الراقية؟! أهذا ما وصل الحال إليه في مجتمعنا؟

قال مضيفهما بحزم:

-فلنأمل ألا يصل إلى هذا الحد.

تنهدت السيدة آرتشر:

-آه... ليتك تخرج أنت ولويزا من المنزل أكثر.

أدركت فداحة خطأها في اللحظة التي خرجت الكلمات من فمها. فالسيد ڤان دِر لويدن وزوجته كانا شديدي الحساسية إزاء أي تعليق أو نقد يمس عزلتهما المُختارة. فهما قاضيا المحكمة العليا، والفاصلان في أمور الأصول والذوق. هذا هو قدرهما وقد رضيا به. لكنهما بطبيعتهما خجولان ومنطويان ولم يسعيا لنيل ذاك الشرف، ولذا فهما يقضيان أطول وقت ممكن في أحراش سكويتركليف المنعزلة، وعندما يحضران إلى المدينة فهما يرفضان تلبية جميع الدعوات بحجة أن صحة السيدة ڤان دِر لويدن معتلة.

هبّ نيولاند إلى نجدة أمه:

-كل شخص في نيويورك يعرف قدرك أنت والسيدة لويزا، ولهذا كان رأي السيدة مينغت ألا تغتفر هذه الإهانة الموجهة للكونتيسة أولنسكا دون مشورتكما.

التفتت السيدة ڤان دِر لويدن إلى زوجها، وأدار هو عينيه إليها. قال:

-إن ما لا أرتضيه هو المبدأ. طالما أن أحد أفراد أية أسرة معروفة قد نال رضاهم ودعمهم فالأمر إذًا... محسومٌ.

قالت زوجته كما لو أن فكرةً جديدة خطرت لها:

-هذا ما أراه أنا كذلك.

تابع السيد ڤان دِر لويدن:

-لم أكن أعلم أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد. أنا أرى يا عزيزتي أن

الكونتيسة أولنسكا تعد قريبتنا إلى حد ما... عن طريق زوج ميدورا مانسون الأول. وستكون قطعًا قريبتنا بعد زواج نيولاند.
التفت إلى الشاب ثم أردف:
-أقرأت صحيفة التايمز هذا الصباح يا نيولاند؟
أجاب الشاب: «أجل يا سيدي». فهو يتصفح عادةً ست صحفٍ مع قهوة الصباح.
التفت الزوجان لينظرا إلى بعضهما مرة ثانية. اشتبكت عيناهما الباهتتان معًا في حوارٍ جادٍ طويل، أعقبه بسمة خفيفة رفرفت على وجه السيدة ڤان دِر لويدن. واضحٌ أنها خمّنت ما يجول في عقل زوجها ووافقت عليه.
استدار السيد ڤان دِر لويدن ليواجه السيدة آرتشر، وقال:
-أرجو أن تبلغي حرم السيد لوڤيل مينغت أنه لو كانت صحة لويزا تسمح لها بالعشاء خارج المنزل لسرّنا أن... نحل مكان لورنس ليفرتس وزوجته في حفل عشائها.
توقف برهة كي يرى الجميع هذه المفارقة الساخرة، ثم تابع:
-لكن هذا أمر مستحيل كما تعلمان. لكن نيولاند قال إنه قرأ صحيفة التايمز هذا الصباح فعلى الأرجح إذًا أنه قرأ عن خبر قدوم دوق ساينت أوستري قريب لويزا الأسبوع القادم على متن سفينة «روسيا». إنه قادم كي يسجّل «غوينيڤير» زورقه الجديد ذا الشراع الواحد في سباق الزوارق الدولي المقام في الصيف القادم، وكذلك كي يمارس رياضة صيد البط البري في تريڤينا.
توقف السيد ڤان دِر لويدن، ثم أكمل بطيبة متزايدة:
-سوف ندعو بعض الأصدقاء ليلتقوا به قبل أن نصحبه معنا إلى ماريلاند... مجرد عشاء صغير يليه حفل استقبال. أنا واثق أن لويزا ستبتهج مثلي إن قبلت الكونتيسة أولنسكا أن نضمها إلى قائمة مدعوّينا.
وقف مضيفهما وحنى جسده الفارع تحيةً لأقربائه، ثم أردف:
-أعتقد أن لويزا تسمح لي بأن أقول إنها ستوصل الدعوة شخصيًا عندما تخرج بعد قليل، ومعها بطاقتنا بالطبع.

أدركت السيدة آرتشر أن هذا تلميح بأن عربة ڤان دِر لويدن الفاخرة التي لا يُسمح أبدًا بأن تنتظر طويلاً تقف في تلك اللحظة عند الباب، فوقفت وهي تهمهم بعبارات شكر عجلى. أشرقت ابتسامة السيدة ڤان دِر لويدن كابتسامة أستير عندما تشفّعت لدى الملك احشويروش[1]، لكن زوجها رفع يدها في اعتراض، وأعلن بسخاءٍ ملوكي وهو يشيّع قريبيه تجاه الباب:

-لا داعي لشكري على الإطلاق يا عزيزتي آدلين. لا ينبغي أن تحدث مثل هذه الأمور في نيويورك، ولن تحدث ما دام بيدي أن أمنعها.

بعد مضي ساعتين فحسب، عرف الجميع أن عربة السيدة ڤان دِر لويدن الفاخرة الفريدة قد شُوهدت عند باب منزل السيدة مينغت العجوز، وأن ظرفًا كبيرًا قد سُلّم إلى قاطنيه. وفي مساء ذلك اليوم في دار الأوبرا أكّد السيد سيلرتون جاكسون أن الظرف يحوي على بطاقة تدعو الكونتيسة أولنسكا إلى حضور وليمة العشاء التي تقيمها أسرة ڤان دِر لويدن الأسبوع المقبل على شرف قريبهم دوق ساينت أوستري.

تبادل الشباب في مقصورة النادي ابتسامات خفية بعدما سمعوا الخبر، ورمقوا لورنس ليفرتس بنظراتٍ جانبية، وكان هذا جالس بلا اكتراث في مقدمة المقصورة وهو يفتل شاربه الأشقر الطويل. وبعد أن توقفت مطربة السوبرانو عن الغناء لحظات، علّق بكل ثقة:

-لا أحد سوى باتي[2] يجيد غناء «سونامبيولا»[3].

---

(١) قصة أستير مذكورة في الكتاب المقدس، وهي الملكة اليهودية التي تشفعت لدى زوجها بألا يبيد اليهود في الإمبراطورية الفارسية.

(٢) أدلينا باتي: من أشهر مطربات الأوبرا في ذلك العصر.

(٣) إحدى مسرحيات الأوبرا.

الفصل الثامن

كان الرأي العام في نيويورك هو أن جمال الكونتيسة أولنسكا قد أفل.

لقد ظهرت أول ما ظهرت في صبا نيو لاند طفلةً بارعة الحسن في التاسعة أو العاشرة من عمرها. قال عنها الناس حينها إن جمالها يستحق أن يُخلّد في لوحة. وكان والداها رحالةً ممن يشقّون عباب المحيطات ويقطعون القارات، وبعد طفولةٍ قضتها في الأسفار فقدتهما معًا، فانتقلت إلى حضانة عمتها – الرحالة أيضًا – ميدورا مانسون التي كانت عائدةً إلى نيويورك كي تستقر.

كانت ميدورا المسكينة التي ترمّلت أكثر من مرة ترجع إلى نيويورك دائمًا لتستقر وفي كل مرة تقطن في بيت أرخص من الذي يسبقه. وفي كل مرة أيضًا تحضر معها زوجًا جديدًا أو طفلاً متبنى، لكن بعد مرور أشهر قليلة تنفصل ميدورا عن ذلك الزوج أو تتخاصم مع ربيبها أو ربيبتها، فتبيع منزلها بخسارةٍ وتشدّ رَحلها مستأنفةً تجوالها. وكانت نيويورك تنظر إلى سلوكها الغريب بعين العفو والتساهل لأن أمها تنحدر من أسرة راشوورث، ولأن زواجها الفاشل الأخير كان قد ربطها بأحد المجانين من أسرة تشيڤرس. لكن عندما عادت مع ابنة أخيها اليتيمة التي كان الناس يحبون أبويها رغم شهيتهما المفتوحة للسفر، أشفق الناس من أن تبقى الطفلة الجميلة بين يدي امرأة كهذه.

وكان الكل يميل إلى اللين في معاملتهم لإيلين مينغت الصغيرة، رغم أن خديها المتوردين وخصلات شعرها المعقوفة كانت تضفي عليها جوًا من المرح والسرور بما لا يليق بطفلة يجدر بها أن ترتدي الأسود حدادًا على والديها. وهذا أحد الأمثلة على تصرفات ميدورا الغريبة الكثيرة التي تتمرد بها على الأصول الراسخة للحداد في أمريكا. ومنها أيضًا أنها عندما نزلت من الباخرة بعد رسوّها في نيويورك أثارت روع أهلها عندما رأوا أن الخمار «الكريب» الذي ترتديه حزنًا على أخيها أقصر بسبعة إنشات من الأخمرة التي ترتديها زوجات إخوانها، أما إيلين الصغيرة فكانت ترتدي فستانًا من القميص القرمزي، وعقدًا من حبات الكهرمان كأنها لقيطة غجرية!

نفضت نيويورك يديها من ميدورا منذ زمن بعيد. فبعض النسوة العجائز هززن رؤوسهن لّما أبصرن ثياب إيلين المبهرجة، أما بقية أقربائها فوقعوا تحت سحر نضارتها وخفة روحها. كانت جسورة، أسئلتها محرجة، وملاحظاتها ناضجة، وفنونها أجنبية. كانت ترقص رقصة الشال الإسبانية، وتغني أغاني الحب النابولية على الغيتار. وقد تلقت الفتاة تحت إشراف عمتها (واسم العمة الحقيقي هو السيدة تشيفرس، لكنها تفضل أن تُعرف باسم زوجها الأول لتسمي نفسها الماركيزة مانسون، وذلك لأن مانسون تُنطق في إيطاليا مانزوني[1]) تعليماً باهظًا لكنه عشوائي وغير متّسق، فتعلمت الفتاة الرسم من خلال رسم العارضين عراةً وهو شيء لم يجرؤ على فعله أحد من قبل، وتعلمت العزف على البيانو ضمن فرقة موسيقية تتكون من خمسة من أمهر العازفين.

لا خير قد يأتي من هذا كله طبعًا. ولّما توفي تشيفرس المسكين في مصحة للمجانين حزمت أرملته أمتعتها، وأخذت معها إيلين التي أضحت فتاة طويلة نحيلة ذات عينين أخّاذتين. مر زمن طويل لم يسمع فيه أحد أخبارًا عنها، ثم سمع الناس عن زواج إيلين بنبيل بولندي فاحش الثراء بالغ الشهرة، التقته في حفل راقص في قصر التويلري، ويُقال إنه يملك قصورًا فاخرة في باريس ونيس وفلورنسا، ويختًا مترفًا في كاوز[2]، وأفدنة من أراضي الصيد في ترانسيلفانيا. كانت إيلين كمن انشقت الأرض عن دخانٍ فابتلعها، ولّما عادت ميدورا بعد عدة أعوام إلى نيويورك أرملةً للمرة الثالثة، مغلوبة على أمرها، ومعوزة تبحث عن منزل أصغر، احتار الناس لِمَ لم تهب ابنة أخيها الثرية إلى مساعدتها. ثم وصلت الأخبار التي تقول إن زواج إيلين قد انتهى نهاية كارثية، وأنها هي الأخرى ستعود إلى الوطن تنشد الراحة والحياة البسيطة في طي النسيان بين أهلها.

(١) مرادها في ذلك هو ادعاء النسب إلى ألساندرو مانزوني وهو أشهر أدباء إيطاليا قاطبةً، وأحد أبطال القومية الإيطالية.

(٢) مدينة ساحلية إنجليزية.

استعرض نيولاند هذه الأحداث في ذهنه بعد أسبوع وهو يتابع بعينيه الكونتيسة أولنسكا وهو تدلف حجرة الجلوس في منزل ڤان دِر لويدن في ليلة حفل العشاء المهيب، فالمناسبة جليلة وكان مشغول البال قليلاً لأنه لا يعرف كيف سيكون سلوكها. لقد أتت متأخرةً بعض الشيء. فالقفاز ما زال يخفي إحدى كفيها وكانت تربط سوارًا حول معصمها، ومع ذلك فقد دخلت دون أيما أثر من الاستعجال أو الحرج حجرةَ الجلوس التي تضم أعيان نيويورك وأرفع أهلها قدرًا.

وفي منتصف الحجرة توقفت. أخذت تنظر حولها بعينين باسمتين وشفتين يعلوهما الوقار. في تلك اللحظة رفض نيولاند حكم الناس على جمالها. صحيح أن إشراقها السابق قد تلاشى، والخدين قد فرّت حمرتهما، ونال الهُزال والانهاك من جسدها حتى بدت أكبر من سنينها الثلاثين، لكن سطوة الجمال الغامضة ما زالت تكتنفها. فثمة ثقةٌ في رفعة رأسها وحركة عينيها تكشف عن قوتها، وقد شكّ أنها قد عوّدت نفسها على هذه اللفتات كيلا تبدو مُتكلّفة. لكن في الوقت نفسه كانت في سلوكها أبسطُ من كل السيدات الحاضرات، وقد خاب أمل كثير من الحضور (كما سمع من جايني لاحقًا) عندما رأوا أن مظهرها لم يكن أكثر «أناقةً»، حيث لا تقدّر نيويورك شيئًا أكثر من الموضة. فكّر نيولاند أن السبب ربما يكون هو أن حيويتها السابقة قد اختفت، ولأنها كانت ساكنة... حركاتها هادئة، وصوتها خافت، ونبراتها خفيضة. يبدو أن نيويورك توقعت سلوكًا أكثر فجاجةً من شابةٍ بمثل ماضيها.

لم يكن حفل العشاء هذا مناسبة هينة، بل إن أي دعوة لتناول طعام العشاء في ضيافة ڤان دِر لويدن لهو أمر عظيم، فما بالك بالعشاء معهم على شرف قريبهم الدوق؟! إن مناسبةً كهذه تكاد تُعد من الشعائر المقدّسة. كان مما يثلج صدر نيولاند أنه يعرف أن النيويوركي الحق هو الذي يدرك الفرق الدقيق (في عيني نيويورك) بين أن يكون الشخص دوقًا، وأن يكون دوقًا ذا قرابةٍ بأسرة ڤان دِر لويدن. فهذه المدينة اعتادت على احتضان النبلاء المشرّدين دون أن يطرف

لها جفن، بل إنها قد تنظر إليهم بقدرٍ من الغطرسة المتشككة، لكن عندما يفد أحدهم وفي جعبته علاقات وصلات كهذه فإنها تستقبله بأعظم ودٍّ وحرارة. ولكم يكون هذا النبيل مخطئًا إن ظنّ أنه نال هذا الترحاب لمكانته الأرستقراطية فحسب. إن هذه الحساسية إزاء الفروق الاجتماعية هي الشي الوحيد الذي يجعل الشاب يحمل معزّة في قلبه لنيويورك القديمة، حتى وإن هزأ بها.

ولم تألُ أسرة ڤان دِر لويدن جهدًا في إعطاء هذه المناسبة حقها من الإجلال، فقد أخرجوا أطباق البورسلين الفرنسي التي توارثتها عائلة دو لاك، والصِحاف الفضية (المصنوعة في عهد الملك جورج الثاني) التي تناقلتها أيدي أبناء أسرة تريڤينا. بدت السيدة ڤان دِر لويدن أكثر من أي وقت مضى كما لو أنها لوحة رسمها الفنان كابنال، أما السيدة آرتشر - التي كانت تتقلد اللآلئ والزمرد التي ورثتها عن جدتها - فذكّرت ابنها بصور إيزبيه[1] المنمنمة. كل السيدات كن يرتدين أجمل حليّهن، لكن المقام والمكان فرضا إلى حدٍ ما أن تكون هذه الحلي ثقيلةً ومن الطراز القديم، حتى إن السيدة لانِنغ التي أُقنعت بالحضور كانت ترتدي جواهر ذات نقوش نافرة ورثتها عن أمها، وشالاً إسبانيًا ذهبي اللون.

كانت الكونتيسة أولنسكا الشابة الوحيدة على مائدة الطعام، ورغم ذلك فإن نيولاند رأى أن صفحات وجوه السيدات المسنّات الملساء، بين قلائد الألماس وريش النعام الذي يعلو تسريحاتهن، لا تصل مبلغ وقار وجهها ولا نضجها. إن الرعدة تسري في جسده لمجرد التفكير فيما تعرضت له في حياتها فجعل عينيها تحملان كل معاني النضج.

وبالطبع كان دوق ساينت أوستري الذي جلس على يمين مضيفته أهم شخصية في حفل ذلك المساء. لكن إن كانت الكونتيسة أولنسكا أقل بزوغًا مما كان يأمله الحاضرون، فإن الدوق يكاد يكون خفيًا. صحيحٌ أنه لم يحضر وليمة العشاء مرتديًا معطف الصيد كما فعل دوق زائر قبله، فهو رجل حسن

(١) چان باتيسيت إيزبيه: رسام فرنسي اشتهر برسم الصور المصغرة (المنمنمات).

التربيـة مهـما كان، لكن ثيابه ذلك المســاء كانت رثة وفضفاضـة جدًا، وتبدو وكأنهـا منسـوجة في البيت. ومع طريقتـه المنكفئة في الجلـوس، ولحيته الكثة الطويلـة التـي تنتـشر أطرافها لتغطـي مقدمة قميصـه فشـكله لا يوحي أبدًا بأنـه متأهب لحضور وليمة عشـاء. كان الـدوق قصيرًا بدينًـا، ببشرة لفحتها الشـمس وأنف ضخم وعينين صغيرتين وابتسامة ودودة. لكن قلّما يتحدث مع أحد، وإن فعل فنبرات صوته شديدة الخفوت، حتى إن الجميع يجاهدون في سماع ما يقوله رغم السكون الذي يسود الطاولة عندما يفتح فمه، وهكذا لا يسمعه إلا من جلس ملتصقًا به.

بعد أن انضم الرجال للسيدات عقب العشاء، اتجه الدوق رأسًا إلى الكونتيسة أولنسـكا وجلسا معًا في إحدى الزوايا منغمسان في تجاذب أطراف الحديث. ولم يـدركا أن مـن واجب الـدوق أولاً أن يقـدم احترامه لحرم السـيد لوفيل مينغت وحرم هيدلي تشـيفرس، وأن على الكونتيسـة أن تحادث السـيد أربان داغنيت الرجل الودود الذي يعاني من الوسواس المرضي والذي من أجل أن ينال شرف لقائها، خرق قاعدته في ألا يتعشـى خارج منزله بين شـهري يناير وأبريل. ظل الاثنان يدردشان حوالي ثلث الساعة، بعدها نهضت الكونتيسة ومشـت لوحدهـا، حتـى وصلـت إلى الطـرف المقابـل من حجـرة الجلوس الفسيحة، وجلست بجوار نيولاند.

لم تكن العادة أن تنهض السيدة من مجلسٍ يجمعها مع سيد نبيل في أي حجرة جلـوس في نيويـورك لتجلس مـع رجل آخـر. فاللباقة تقتضي بـأن تنتظر في مكانهـا بلا حركة كالصنـم، وأن يتعاقب الرجال الذيـن يرغبون في الحديث معهـا عـلى الجلوس بجانبها. لكـن من الواضح أن الكونتيسـة لم تكن تدري أنهـا خالفت أية قاعدةٍ، فقد جلسـت بكلِ أريحيـة بجانب نيولاند على طرف الأريكة، ونظرت إليه بعينين تفيضان لطفًا. قالت:

-أريدك أن تحدثني عن ماي.

بدلاً من أن يجيبها، وجه إليها سؤالاً:

-أكنتِ تعرفين الدوق من قبل؟

-نعـم.. كنا نراه في كل شـتاء في نيـس. إنه مغرم بالقمار. كثـيرًا ما كان يتردد على منزلنا.

قالت ذلك بلا أدنى اهتمام، وكأنها قالت إنه مغرم بالزهور البرية! وبعد حين أردفت بصراحة:

-أعتقد أنه أكثر رجلٍ مملٍ قابلته في حياتي.

سرّ رفيقها بهذا أيما سرور حتى إنه نسي صدمته من صراحة تعليقها السـابق. لا يمكـن أن ينكر أنه من المثير أن يقابل سـيدة تـرى أن الدوق قريب ڤان دِر لويـدن ممـلٌ، وأن تجرؤ على أن تصرّح برأيها هـذا. تمنى أن يطرح عليها بعضًا من الأسـئلة التي تدور في خلده.. أن يسـمع المزيد عن هذه الحياة التي رأى من خلال كلماتها اللامبالية لمحاتٍ أثارت فضوله، لكن خشي من أن يثير فيها أشجانًا توجعها. وقبل أن يجد شيئًا يقوله عادت هي إلى الموضوع الأصلي.

-إن ماي عزيزة عليّ. لم أقابل شابة في نيويورك كلها أجمل ولا أذكى منها. أتعشقها؟

احمرّ وجه نيولاند وضحك:

-بقدر ما يعشق أي رجل.

ظلـت تتفـرس في وجهه وهي مسـتغرقة في التفكير، كأنهـا لا تريد أن تفوّت المغزى من كلماته.

-أترى إذًا أن هنالك حدًا؟

-حدٌ للعشق؟ إن كان هناك حد فلم أجده!

تهلل وجهها:

-آه... إذًا فهو حب حقيقي؟

-بل وأكثر قصص الحب رومانسيةً!

-يا للسـعادة! وقد نسـجتما قصة الحب هذه بنفسيكما؟ لم تكن العلاقة مدبّرة لكما على الإطلاق؟

نظر إليها نيولاند غير مصدقٍ ما سمعه، ثم سألها بابتسامة:

-أنسيتِ أننا في بلدنا لا نسمح لزيجاتنا أن تكون مدبرة؟
تخضّبت وجنتيها بحمرةٍ قاتمة، فندم من فوره على كلماته. أجابت:
-أجل نسـيت... سامحني إن ارتكبت أحيانًا أخطاء كهذه، فغالبًا ما أنسى أن كل ما هو جيد هنا كان سيئًا من حيث جئتُ.
أطرقت رأسها ناظرةً إلى مروحة ريش النسر في يدها، فرأى أن شفتيها ترتعشان. قال بسرعة:
-أنا آسف جدًا. لكن أنتِ تعلمين أنكِ هنا بين أهلكِ وأصدقائكِ.
-أجل، أعلم. حيثما ذهبت هنا فإنني أرى هذه الألفة والمحبة... ولهذا عدتُ إلى وطنـي. أريد أن أنسـى كل شيء، وأن أعود أمريكيـةً كما كنتُ، مثل أسرة مينغـت أو ويلنـد... ومثلـك أنـت ووالدتك الأنيسـة، وكل هـؤلاء الناس الطيبين هنا الليلة. ها هي ماي وصلت! عجّل فاذهب لاستقبالها.
قالـت الجملـة الأخـيرة لكنها لم تتحرك، وقـد التفتت تنظر إلى وجه الشـاب موليةً الباب ظهرها.
بـدأت حجـرات الجلوس تكتظ بالضيـوف المدعوين لحفل الاسـتقبال. تبع نيولاند نظرة مدام أولنسكا فرأى ماي تدخل مع والدتها. بدت الفتاة بطولها الفـارع، وثوبها الأبيض، وإكليل الأزهار الفضية الذي يطوّق شـعرها كأنها ديانا الصيّادة[1] بعد مطاردة طويلة مضنية. قال نيولاند:
-أظن... أظن أن هناك من سـبقوني... كثـيرون يحيطون بها كما ترين. ها هو مضيفنا يعرّفها بالدوق.
-إذًا ابق معي قليلاً.
قالتها مدام أولنسـكا بصـوتٍ خفيض، وهي تلمس ركبتـه بخفة بمروحتها المزيّنة بالريش. كانت لمسـة خفيفة جدًا لكنها أثارته كما لو أنها عانقته. أجابها في نـبرةٍ تماثـل همسـتها: «نعم.. سـأبقى». لم يكن يـدري ما الـذي يقوله. في تلـك اللحظة اقترب السـيد ڤـان دِر لويدن ومن ورائه السـيد أربان داغنيت

(١) إلهة الصيد والعذرية لدى الرومان.

العجوز. حيّتهما الكونتيسة بابتسامتها الرزينة. أحس نيولاند بنظرة مضيفه الزاجرة فنهض من مكانه على مضض.

مدّت مدام أولنسكا كفها تصافحه كما لو كانت تودّعه. وقبل أن تستدير لتفسح مقعدًا للسيد داغنيت قالت:

-سوف أنتظرك غدًا إذًا.. بعد الخامسة.

-غدًا..

سمع نيولاند نفسه يكرر وراءها رغم أنهما لم يتفقا على أي لقاء، وأثناء حديثهما لم تقل ولو تلميحًا أنها تريد أن تراه مرة أخرى.

بينما هو يمشي مبتعدًا رأى لورنس ليفرتس بطوله وبريقه يسير ومعه زوجته كي يعرفا نفسيهما بالكونتيسة، وسمع غيرترود ليفرتس تقول وهي تبتسم للكونتيسة ابتسامتها العريضة الساذجة:

-أعتقد أننا كنا نرتاد مدرسة الرقص نفسها عندما كنا صغارًا...

ولاحظ نيولاند أن وراءها عدد من أولئك الذين أنِفوا من حضور حفل العشاء في منزل السيد لوفيل مينغت كيلا يسلّموا على الكونتيسة. إنهم يصطفون وراء بعضهم البعض كي يقدّموا أنفسهم إليها الآن. كما تقول السيدة آرتشر دائمًا: إن شاءت أسرة ڤان دِر لويدن فإنها تعرف كيف تلقّن الناس درسًا. العجيب أنهم قلما يفعلون.

أحس الشاب بلمسة يد على ذراعه فرأى السيدة ڤان دِر لويدن تنظر إليه بشموخ المخمل الأسود الذي ترتديه، وعراقة الحلي التي ورثتها عن أسلافها. قالت:

-من نبلك يا نيولاند أن كرّست نفسك ووقتك لمدام أولنسكا. قلتُ لهنري إنك كفؤٌ لهذه المهمة.

ابتسم لها شارد البال، وأضافت كما لو أنها تحاول كسر حواجز خجله الطبيعي:

-لم أرَ ماي أكثر جمالاً من الليلة! والدوق يقول إنها أشدّ الفتيات في هذه القاعة حسنًا وألقًا.

الفصل التاسع

قالـت الكونتيسـة أولنسـكا «بعد الخامسـة»، وعنـد الخامسـة والنصف دقّ نيولاند جرس بيتٍ متقشر الجص، وأمامه شجرة وستيريا عملاقة تخنق سور شرفته الحديدي المتزعزع. هذا هو البيت الواقع في الشارع الثالث والعشرين غربًا الذي استأجرته لنفسها من عمتها الرحّالة ميدورا.

كان غريبًـا أنهـا اختـارت العيـش في حيّ كهـذا، حيث أقرب جـيرانٍ لها هم الخياطـات، ومحنطو الطيور، و»معشر الكتّاب». تذكّر نيولاند أن في آخر هذا الشـارع الخـرب دهليزًا مرصوفًا يؤدي إلى بيتٍ خشـبي متهالـك، يقطن فيه كاتب وصحافي اسمه وينست، وقد اعتاد نيولاند أن يقابل وينست من حينٍ لآخـر، وقد ذكر له في إحدى المرات أين يسـكن. لم يكن الكاتب يدعو أحدًا لزيارتـه في منزله، لكنه قد أشـار مرةً إليه وهما يسـيران معًا في نزهة مسـائية. سرت رعـدة في جسـد نيولانـد وهـو يتسـاءل إن كان المثقفـون يعيشـون في خِرابٍ كهذه في البلاد الأخرى.

كان منظر بيت مدام أولنسـكا أفضل قليلاً من البيوت المجاورة، وذلك لأن إطـارات النوافذ ما زالت محتفظـة بدهانها. عرف نيولاند وهو يتأمل واجهته المتواضعة أن الكونت البولندي لم يسـلبها أحلامها فحسب، بل وحرمها من ثروتها أيضًا.

قضى الشـاب يومًـا مرهقًا مزعجًا. فقد تناول الغداء مـع أسرة ويلند آملاً أن يأخـذ ماي بعدهـا في نزهة في حديقة سـنترال بارك. كان يـود أن ينفرد بها.. أن يمتدح جمالها الآسر في الليلة الماضية.. ويعبر عن فخره وشـغفه بها.. وأن يسـتعجلها في تحديـد موعـد الزفاف. لكن السـيدة ويلند ذكّرتـه بصرامة أن سلسلة الزيارات الأسرية لم تنتهِ بعد، وعندما ألمح إلى رغبته في تقديم الزفاف قوّست حاجبين زاجرين وتنهدت بصوتٍ مسموع قائلةً:

-ما زلنا نحتاج إلى دزينة من كل شيء... وكل شيء يجب أن يُطرّز باليد..

فحشروا أنفسهم في عربة (اللاندو) وانتقلوا من بيت إلى بيت، ولمّا فرغوا من جولات العصر ترك نيولاند خطيبته وفي قلبه إحساس بأنه أُستعرض أمام الناس كحيوان بريّ اصطادوه بمكر. يبدو أن قراءاته في علم الأنثروبولوجيا قد حملته على أن ينظر لهذا الأمر من منظور صلفٍ، فالأمر مهما كان مجرد تعبير طبيعي عن مشاعر وروابط أسرية. غير أنه عندما تذكر أن أسرة خطيبته لن تقيم حفل الزفاف قبل الخريف المقبل، أحسّ بعزيمته وآماله تثبط، وهو يتصوّر حياته حتى ذلك الحين. نادت وراءه السيدة ويلند قبل أن ينصرف وقالت:

-غدًا سنزور أسرة تشيڤرس وأسرة دالاس.

فعلم من قولها إنها وضعت جدولاً لزيارة أسرتيهما حسب ترتيب الأحرف الهجائية. وبهذا يكونون ما زالوا في الربع الأول من القائمة.

كان ينوي أن يخبر ماي بطلب الكونتيسة أولنسكا - أو بالأحرى «بأمرها»- أن يزورها عصر ذلك اليوم، لكن كلما سنحت لهما خلوة مسروقة في لحظات قليلة كان يجد أمورًا أهم ليقولها. فضلاً على أنه وجد ذكره للأمر أمامها شيئًا غريبًا. كان يعلم أن ماي ترغب وبشدّة أن يتلطّف مع قريبتها. أليست هذه الرغبة هي التي عجّلت بإعلانهما للخطبة؟! لولا قدوم الكونتيسة لكان ما يزال حرًا طليقًا، أو على الأقل لكانت التزاماته إزاء خطيبته أقل جديةً. إن مجرد التفكير في هذا الأمر يمنحه شعورًا غامضًا. لكن هذا ما أرادته ماي فلا تثريب عليه ولا لوم إذًا. وإن أراد أن يزور قريبتها دون أن يخبرها فله أن يفعل ذلك.

كان الفضول هو الإحساس الذي طغى على تفكيره وهو يقف على عتبة منزل مدام أولنسكا. فما زالت الحيرة تسكنه بسبب النبرة التي استدعته بها! أيقن أن هذه المرأة ليست بالبساطة التي تخيّلها.

فتحت البابَ خادمة أجنبية رجّح أن تكون من صقليّة. كانت سمراء نافرة الصدر، وحول عنقها منديل ملون. استقبلته بكل أسنانها البيضاء مجيبةً عن

أسئلته بهزاتٍ من رأسها تفيد عدم فهمها، وقادته عبر الصالة الضيقة إلى حجرة جلوس تشتعل مدفأتها بنار ضعيفة. كانت الحجرة خالية، وقد تركته الخادمة لفترةٍ طويلة حتى تساءل إن كانت قد ذهبت لتحضر سيدتها، أم أنها لم تفهم سبب وجوده هنا... ربما تكون قد ظنت أنه جاء ليملأ الساعات، فكل ساعات الحجرة متوقفة عن العمل. كان يعلم أن شعوب الجنوب تعبر عن كثير من معانيها بلغة الإشارة، فوجد نفسه محرجًا لأنه لم يفهم إيماءاتها وابتساماتها البتة. عادت بعد مدةٍ طويلة تحمل مصباحًا، فطرح عليها نيولاند سؤالاً - بعد ما استرجع بضع كلمات من أشعار دانتي وبترارك - فأجابته حسبما فهم: «هي في الخارج... لكن ستراها قريبًا».

لكن ما رآه على ضوء المصباح هو طيف حجرة فاتنة لا تشبه أي حجرة دخلها من قبل. كان يعلم أن الكونتيسة أولنسكا قد جلبت معها بعض مقتنياتها - أشلاء الحطام كما كانت تسميها - وهو يشك أن من هذه الأشلاء تلك الطاولات الصغيرة العجفاء من الخشب الداكن، وذلك التمثال الإغريقي البرونزي على رف المدفأة، وبسطة من الحرير المقصب الأحمر مثبتةٌ على ورق الجدران المهترئ خلف لوحتين ايطاليتين بإطار قديم.

كان نيولاند يفخر بسعة اطلاعه على الفن الإيطالي. فقد قضى جلّ صباه منغمسًا بكتابات راسكن، وقد قرأ كل الكتب الحديثة من مؤلفات جون آدينغتن سيموندز، وكتاب ڤيرنون لي «يوفوريون»، ومقالات بي جي هامرتن، ومجلد رائع جديد بعنوان «النهضة الأوروبية» ألّفه والتر بايتر[1]. كان يتحدث بطلاقة الخبير عن بوتيتشيلي، ويتعالى عن فن فرا آنجيلكو. لكن هذه اللوحات حيّرته! فهي لا تشبه أي شيء رآه من قبل في رحلاته في إيطاليا. ربما تكون قوة ملاحظته قد ضعفت بسبب الغرابة التي يجدها في تطفله على بيتٍ خاوٍ، حيث من الواضح أن لا أحد كان يتوقع قدومه. ندم ساعتئذ أنه لم يخبر ماي عن طلب الكونتيسة أولنسكا، وبدأ التوتر ينال منه.

(١) كل هؤلاء الكتاب كانوا من أبرز من ألّف في فن عصر النهضة وثقافته.

ماذا لو أن خطيبته جاءت لتزور قريبتها؟! ما الذي ستظنه إن وجدته يجلس هنا قرب المدفأة، في حجرة شبه معتمة بكل أريحية، ينتظر سيدةً لوحده؟! لكن بما أنه قد حضر فسوف ينتظر عودتها. أراح جسده على كرسي ومدد ساقيه تجاه حطب المدفأة.

من العجب أنها استدعته بهذه الطريقة ثم نسيت أمره تمامًا. لم يكن يشعر بالإهانة، بل بالفضول. كان جو الحجرة مختلفًا تمام الاختلاف عن أي هواء استنشقه في حياته، والوعي يختفي في محيطها ويحل مكانه إثارة المغامرة. لم تكن هذه أول مرة يدخل حجرة جلوس يُعلّق فيها الحرير المقصب الأحمر، أو تُزيّن بلوحاتٍ من «المدرسة الإيطالية»، لكن ما أثاره أن بيت ميدورا مانسون المستأجر المتهالك، بحديقته المعشوشبة الموبوءة بالآفات، وتماثيل روجرز الصغيرة قد أحالته يدٌ ذوّاقة مرهفة الإحساس، بتوظيفٍ ماهر لمميزات الحجرة إلى شيء حميمي... «أجنبي»... يستثير في المرء مناظر العشق الأصيل والمشاعر الصادقة. حاول أن يضع يده على سر الجو... أن يحل لغزها بتحليل وضعية الطاولات والكراسي، وسبب وضع وردتين حمراوين وحيدتين تنتصبان في وسط المزهرية الرشيقة الواقفة بمحاذاة مرفقه (في حين جرت العادة ألا يشتري أي شخص أقل من دزينةٍ من هذا الصنف من الورود)، وكذلك تحليل عبير هذه الرائحة الغامضة الفواحة. إنها ليست من العطور التي تُخبّأ في منديل.. هي أقرب إلى عبق بازارٍ شرقي قصي، رائحة اختلطت فيها القهوة التركية والعنبر والأزهار المجففة.

يا تُرى كيف ستكون حجرة جلوس ماي؟ سافر خياله ملاحقًا إجابة هذا السؤال. إنه يعرف أن السيد ويلند - الذي يغدق بكرم في الآونة الأخيرة - قد اختار لهما منزلاً حديث البناء في حي بعيد في الشارع التاسع والثلاثين. والمنزل مبنيٌّ من ذلك الحجر الأصفر المخضر الكريه الذي أخذ المعماريون الشباب يستعملونه في العمارة احتجاجًا على لون الحجر الرملي الموحد الذي يغطي نيويورك مثل الشوكولا الذائبة الباردة. إن حسنة المنزل الوحيدة

هي أن سباكته ممتازة. كان نيولاند يودّ أن يسافر بعد الزفاف، وأن يؤجل موضوع البحث عن منزل، لكن أسرة خطيبته تصر على ضرورة إيجاد منزل للعروسين ليضمهما بعد عودتهما من شهر العسل، وإن رحبّوا بفكرة قضائهما شهر عسل مطوّل في أوروبا أو ربما حتى قضاء فصل الشتاء بأكمله في مصر.
أحس الشاب أن قدره قد حُسم. سوف يمضي أيامه القادمة عائدًا من عمله إلى منزله متجاوزًا الحاجز الحديدي لعتبة بيته الأصفر المخضر، عابرًا بهوًا خانقًا ليصل إلى ردهة مكسوة بالخشب الأصفر الملمّع. لكن مخيلته عجزت عن السفر أبعد من هذا. كان قد رأى أن غرفة الجلوس في الطابق العلوي من ذلك البيت لها مشربية، لكنه لا يدري كيف ستتعامل ماي مع الأمر، فهي تبدو راضيةً سعيدة بديكور حجرة الجلوس في منزل أسرتها بالساتان القرمزي والخيوط الصفراء، وبالطاولات المزينة بالعاج المزيف، والخزائن الزجاجية المذهبة التي تمتلئ بالخزف الصيني الحديث. وهو لا يظن أن ذوقها في تزيين منزلها سيختلف كثيرًا عن هذا، لكن عزاءه الوحيد هو أنها ستسمح له - كما يأمل - بأن يرتب مكتبته كيفما شاء. وإن فعل فسوف يفرش الحجرة بأثاث «إيستليك» الأصلي البسيط، ويضع خزائن جديدة للكتب دون أن يكون لها أبوابًا زجاجية.
عادت الخادمة المكتنزة إلى الغرفة، فأغلقت الستائر ودفعت قطعة حطب إلى مكانها داخل المدفأة، وقالت تواسيه: «ستأتي.. ستأتي». وقف نيولاند بعد أن خرجت ليتجول في الحجرة. هل ينتظرها أكثر مما انتظر؟ بدأ موقفه يصبح سخيفًا. ربما أساء فهم مدام أولنسكا! ربما لم تكن تلك دعوة أساسًا!
تناهى إلى مسامعه صوت حوافر خيل على الطريق القصير المعبد بالحصى في الشارع الصامت، ثم توقفت الحوافر أمام المنزل. لمح من خلال النافذة باب عربةٍ يُفتح، فأبعد الستارة قليلاً ونظر إلى الشارع الغارق بحمرة الغسق. كان أمامه مباشرةً أحد مصابيح الطريق، وعلى ضوئه رأى عربة جوليوس بوفرت (البروم) يجرها حصان أغبر ضخم. نزل منها المصرفي وساعد مدام

أولنسكا على الترجل بعده. وقف بوفرت وهو يمسك قبعته بيده وقال شيئًا لرفيقته، لكن يبدو أنها ردّت بالنفي، فتصافحا وقفز راكبًا عربته بينما هي ترتقي الدرجات المؤدية إلى منزلها.

لم تبدُ على محياها المفاجأة عندما دخلت الحجرة ورأت نيولاند فيها، كما لو أن كلمة «مفاجأة» ليست في قاموسها على الإطلاق. قالت:

-ما رأيك في بيتي الظريف؟ إنه في نظري قطعة من الجنة.

فكّت رباط قلنسوتها المخملية الصغيرة وهي تتحدث، ثم ألقتها جانبًا مع عباءتها الطويلة ووقفت تتفرس في وجهه. أجابها:

-لقد أحسنتِ ترتيبه.

أحس بخلو كلماته من أي انفعال، لكن رغبته القوية في أن يكون بسيطًا غير متكلفٍ أجبرته على ألا يتجاوز التقاليد بالإفصاح عن رأيه بكل حرارة وحماس.

-إنه مكان صغير وبسيط. أقربائي يكرهونه. لكنه على أية حال أقل كآبة من منزل ڤان دِر لويدن.

هوت عليه الكلمات كالصاعقة، فقلةٌ هم المتمردون الذين يجرؤون على نعت منزل ڤان دِر لويدن الباذخ بالكئيب. فمن ينل شرف الدخول إليه يقشعر جسده من كمده ووحشته، لكن إن سُئل فسيقول إن المنزل "جميل". أحس بسرور غير متوقع عندما وجدها لم تتوانَ عن التصريح بما يفكر فيه الآخرون خفيةً. أعاد كلماته ثانيةً فقال:

-جميل ما فعلتِه بالمكان.

-أحب هذا البيت الصغير. لكني أظن أن ما أحبه هو نعمة وجوده هنا... في وطني وفي مدينتي، وأنني أعيش وحدي فيه.

تكلمت بصوت منخفض جدًا فلم يكد يسمع جملتها الأخيرة، غير أن ارتباكه دفعه إلى السؤال:

-أتحبين أن تكوني وحيدة؟

-أجل، طالما أن أصدقائي يبعدون عني شبح الملل.

جلست قرب نار المدفأة وأردفت:

-ستحضر ناستاسيا الشاي حالاً.

أشارت بيدها أن عد إلى مقعدك، وأضافت:

-أرى أنك قد اخترت لك مكانًا للجلوس.

أسـندت ظهرها إلى الكرسي وثنت ذراعيها خلف رأسها، وأخفضت عينيها تنظر إلى لهب المدفأة.

-هذه هي أحبّ ساعات اليوم لدي. ألا تتفق معي في ذلك؟

دفعته الرغبة في رد اعتباره بأن يجيب:

-خشيتُ أنكِ نسيتِ موعدنا. لابد أن بوفرت قد استحوذ على اهتمامكِ.

بدت وكأن قوله أثار فيها الضحك. ردّت:

-لماذا؟ هل انتظرت طويلاً؟ أخذني السـيد بوفرت كي أرى عدة منازل لأنه كما يبدو ليس من المسموح لي أن أبقى في هذا المنزل.

بدا له أنها صرفته هو وبوفرت عن فكرها لأنها أكملت:

-لم يسبق لي العيش في مدينة تكره كل هذا الكره أن يعيش الشخص في "des quartiers excentriques"... في حـي بوهيمـي تختلـط بـه الطبقات الاجتماعية. ما الذي يهم الناس أين يعيش الشـخص؟! لقد سـمعتُ أن هذا الشارع محترم.

-لكنه ليس حيًا راقيًا.

-راقيًا! أتهتمون كلكم بهذا الأمر؟ لمَ لا تجعله راقيًا بالعيش فيه؟ لكن أظنني عشـتُ جزءًا كبيرًا من حياتي مستقلةً.. أود أن أفعل كما تفعلون، أود أن أجد الرعاية والاهتمام والأمان.

شـعر بالعطف تجاهها كما شـعر به مسـاء أمس عندما عبّرت عن حاجتها إلى التوجيه والنصح.

-وهذا ما يريد أصدقاؤكِ أن تشعري به.

أضاف ساخرًا:

-إن نيويورك مكان آمن جدًا.

قالت بانفعال دون أن تنتبه لسخريته:

-إنها آمنة حقًا. إني لأشعر بوجودي هنا كأنني... كأنني طفلة مؤدبة أدّت كامل فروضها فكافأها أهلها بإجازة رائعة.

ربما لم تكن تقصد سوءًا بتشبيهها هذا لكنه لم يرضَ به البتة، وهو على الرغم من أنه لا يتردد في الاستهزاء بنيويورك فإنه لا يقبل أن يستخف بها أحد. تساءل في نفسه: أتراها لا تُقدّر بعد قوة هذا الآلة الجبارة التي كادت تدهسها؟ كان الأحرى بها أن تتعلم من حفل العشاء الذي حاولت أسرة لوڤيل مينغت إقامته... وكيف اضطروا لانتشاله من براثن العدم بتجميع مدعوين من هنا وهناك... ألم ترى أن إفلاتها من ذلك الموقف كان عصيبًا؟!

لكن يبدو أنها إما لم تكن تدرك أصلاً فداحة الكارثة التي تفادتها، أو أنها أُخذت بنجاح الأمسية التي قضتها في منزل أسرة ڤان دِر لويدن فنسيتها.

رجّح نيولاند الخيار الأول... رجّح أن نيويورك في عينيها نقيّة صافية، ليس للباطل ولا للتفرقة إليها سبيل، وقد أغاظه هذا الاكتشاف. قال لها:

-فرشت البارحة نيويورك الأرضَ زهرًا لكِ. وأسرة ڤان دِر لويدن لا تقصّر في أي شيء تفعله.

-أجل... إنّ كرمهما كبير! كانت حفلة ظريفة. يبدو أن الجميع يبجلهما.

يا لقصور كلماتها وشحّ ثنائها! وكأنها تتكلم عن حفلة شاي في بيت الأختين العجوزين لاننغ! شعر نيولاند بالتباهي عندما ردّ:

-إن أسرة ڤان دِر لويدن من أهم القوى المؤثرة في مجتمع نيويورك. لكن للأسف فإنهم لا يستقبلون الضيوف إلا نادرًا لأن السيدة ڤان دِر لويدن معتلة الصحة.

أزاحت يديها من وراء رأسها وأخذت تتفرس في وجهه.

-أليس من الجائز أن يكون هذا هو السبب؟

-السبب؟

-سبب تأثيرهما العظيم.. أنهما لا يظهران أمام الناس إلا نادرًا.
اصطبغ وجهه بالحمرة وحدّق فيها، ثم وقع في قلبه بغتةً صدق مقالها. بسهم واحد منها فحسب أسقطت ڤان دِر لويدن من عليائهما. ما وجد إلا أن يضحك، وأن يضحي بهما.
قدّمت ناستاسيا الشاي بفناجين يابانية بلا عُرى ومعها أطباق مغطاة، ووضعت الصينية على طاولة غير مرتفعة. تابعت مدام أولنسكا حديثها وهي تنحني إلى الأمام لتناوله فنجانه:
-أرجو أن تعلمني كيف تفرّقون بين هذه الأمور.. أن تعلمني كل ما ينبغي عليّ معرفته.
-بل أنت من تعلمينني وتفتحين عينيّ كي أبصر الأشياء بعد أن كنت أراها فحسب.
فصلت حافظة سجائر ذهبية صغيرة كانت معلّقةً بإسورتها وقدمتها إليه، ثم تناولت واحدة لنفسها، وعلى المدخنة رقائق خشبية طويلة لإشعالها.
-إذًا فلنساعد بعضنا. لكني أكثر حاجةً منك إلى المساعدة. يجب أن تخبرني كيف أتصرف.
أوشك أن يقول: "لا تدعي الناس يرونكِ وأنت تجوبين الشوارع مع بوفرت..."، لكنه مخدّر الفكر بفعل سحر الحجرة - وهو سحرها في الوقت ذاته - ولو أسدى لها نصيحةً كهذه سيكون كمن ينصح شخصًا يشتري زيت الورد في سمرقند أن يشتري حذاءً دافئًا لمواجهة شتاء نيويورك القارس. إن نيويورك لتبدو من مكانه أبعد بكثير من سمرقند. وإن كانا سيساعدان بعضهما حقًا فها هي قد قدّمت إليه أول خدمة في علاقة المنفعة المشتركة التي تجمعهما بأن جعلته يرى مدينته بموضوعية، فبدت نيويورك ضئيلةً بعيدةً تقبض القلب، كما لو أنه يراها فعلاً من سمرقند ممسكًا التليسكوب مقلوبًا.
وثب لسانٌ من لهب من حطب المدفأة فانحنت مدام أولنسكا فوق النار، وقرّبت يديها النحيلتين إليها حتى علت أظافرها هالةٌ خافتة. ألقى سناء اللهب لونًا خمريًا على ضفائرها حالكة السواد، أما وجهها فزاده شحوبًا على

شحوب. رد نيولاند:
-ثمة كثيرٌ من الناس الذين يستطيعون توجيهكِ بكيفية التصرف.
شعر بغيرة غير مسوّغة تجاه هؤلاء الناس. قلّبت الفكرة في عقلها ونظرت إليها. قالت:
-أتقصد عماتي؟ وجدتي العزيزة؟ إنهم متضايقون مني لأنني قررت العيش لوحدي، وخاصةً جدتي المسكينة. كانت تريدني أن أبقى معها.. لكن يجب أن أكون حرة.
أثارت إعجابه بحديثها عن كاثرين العتيدة بهذه النبرة المستخفّة، وأثارت تعاطفه لأنه بات يريد أن يعرف سر ظمأ مدام أولنسكا للعيش في أشد أنواع الحرية وحدةً. لكن موضوع بوفرت ما زال ينغّصه، فقال:
-أظن أني أتفهم شعوركِ، لكنني ما زلت أرى أن بإمكان أسرتكِ أن تنصحكِ، وتوضح لكِ ما يتعسر عليكِ فهمه عن الفروق بين الناس، وأن يهدوكِ السبيل.
قوّست حاجبيها الأسودين الرفيعين، ثم ردّت:
-وهل نيويورك متاهة محيّرة إلى هذه الدرجة؟ كنتُ أظن أنها طريق مستقيم واضحٌ أوله وآخره، مثل الجادّة الخامسة. حتى الطرق الجانبية فيها معلّمة!
بدا أنها قرأت في صفحة وجهه استهجانًا خفيفًا، فأضافت بابتسامتها النادرة التي تضيء كامل وجهها:
-لو كنتَ تدري كم أحبها لهذا السبب وحده.. هذه الاستقامة فيها والعلامات التي تحدد مكان كل شيء تحتويه.
رأى فرصة سانحةً فاغتنمها:
-قد تحدد العلامات مكان كل «شيء»، لكنها لا تحدد مكانة كل «شخص».
أشاحت وجهها بعيدًا عن المدفأة لتنظر إليه:
-ربما.. ربما أنني أبسّط الأمور أكثر مما هي عليه حقيقةً، لكن أرجو أن تنبهني إن فعلتُ ذلك. لا يوجد سوى شخصين فقط هنا يفهمان ما أعنيه،

ويستطيعان أن يشرحا لي ما أغفل عن إدراكه: أنت والسيد بوفرت.
وجم نيولاند بعدما سمع اسمه مقرونًا ببوفرت، لكنه بعد لحظاتٍ فهم قصدها، فأشفق عليها. لابد أنها عاشت سجينةً في سراديب الشر وبين أسواره زمنًا طويلاً، فباتت لا تتنفس غير هواه. لكنها مع ذلك تؤمن أنه هو أيضًا يفهمها، فستكون مهمته إذًا أن يجعلها ترى حقيقة بوفرت فتنفر منه.
أجاب بعطف:
-أفهم شعوركِ. ومع هذا فأنا أنصحكِ بدايةً أن تنصاعي لمشورة أصدقائكِ القدامى، وتحديدًا السيدات المسنّات مثل جدتكِ مينغت، والسيدة ويلند، والسيدة ڤان دِر لويدن، فهن يحملن لكِ الحب والإعجاب، ولا يردن غير مساعدتكِ.
هزّت رأسها وتنهدت:
-آه.. أعلم. أعلم! لكن بشرط ألا يسمعن «ما لا يسر» مما حدث لي. هذا ما قالته لي عمتي أوغستا ويلند حرفيًا عندما حاولتُ أن... ألا يود أيّ أحدٍ هنا أن يعرف الحقيقة يا سيد آرتشر؟! إن الوحدة الحقيقية هي أن تعيش بين هؤلاء الناس الطيبين الذين لا يطلبون منك إلا التظاهر بالسعادة!
رفعت كفيها كي تخفي وجهها، ورأى كتفيها النحيلتين ترتعشان وهي تنطلق ببكاءٍ حار. اندفع نحوها وهو يهتف: «مدام أولنسكا! لا تبكي يا إيلين!» انحنى عليها، وجذب إحدى كفيها يحتضنها ويدعكها كما لو أنها كف طفلة ضالة، وهو يغمغم عباراتٍ مطمئنة. لكنها حررت يدها من قبضته بعد لحظات، ورفعت إليه عينين تتعلق الدموع بأهدابها.
-ألا يبكي أحد هنا أيضًا؟ أظن أن لا أحد يبكي هنا... في الجنة.
ضحكت وشدّت ضفائرها التي انحلّت من رباطها، ثم التفتت تصب من إبريق الشاي. أدرك عقله الباطن أنه دعاها باسمها «إيلين».. دعاها به مرتين. وأنها لم تلحظ ذلك. رأى من عدسة التليسكوب المقلوب طيف ماي ويلند الأبيض وهو بعيد جدًا... في نيويورك.
أطلت ناستاسيا برأسها من وراء الباب على حين غرة لتقول شيئًا بلغتها

الإيطالية الجزلة. فردّت مدام أولنسكا ويدها ما زالت تمسّد شعرها باللغة نفسها ردًا سريعًا مبتهجًا، فهم منه نيولاند الإيجاب، فدلف دوق ساينت أوستري ومعه سيدة تعتمر شعرًا مستعارًا ضخمًا أسود اللون بريشة حمراء، وترتدي طبقات من الفراء.

-عزيزتي الكونتيسة.. أحضرتُ معي واحدة من أعز صديقاتي لتتعرف عليكِ... السيدة ستراثرز. فهي لم تُدعَ لحضور حفل البارحة وتريد أن تراكِ.

ابتسم الدوق ابتسامةً عريضة للجميع، وتقدّمت مدام أولنسكا تحيي ضيفيها الغريبين بهمهماتٍ مرحبة. لم يبدُ أنها لاحظت غرابة ضيفيها، أو استنكرت تعدي الدوق على الأصول بإحضار ضيفةٍ معه بلا إذن مسبق، لكن والحق يُقال فإن نيولاند يشك أن الدوق نفسه لا يدرك أنه أتى تصرفًا لا يتماشى والأصول. صاحت السيدة ستراثرز بصوتٍ مجلجلٍ عالٍ يناسب ريشها المبهرج وشعرها المصطنع:

-أودّ أن أتعرّف إليكِ ولا شك يا عزيزتي. ومَن لا يريد أن يتعرف على شابة فاتنة مثيرة للاهتمام مثلكِ؟ قال لي الدوق أنكِ تحبين الموسيقى، أليس هذا صحيح يا سمو الدوق؟ وأنكِ تجيدين عزف البيانو؟ أتودّين أن تحضري إلى منزلي مساء الغد لسماع بابلو دي سارسايت يعزف الكمان؟ أنا أستضيف حفلاً مساء كل أحد، فهو اليوم الذي لا تعرف نيويورك ماذا تفعل بنفسها، فأقول لها: «تعالي واستمتعي». اقترح الدوق أن أغريكِ بسماع سارسايت لتحضري، وسوف تجدين عددًا من أصدقائكِ من الحضور.

تهلل وجه مدام أولنسكا بهجةً. قالت وهي تقرّب كرسيًا إلى طاولة الشاي فجلست عليه السيدة ستراثرز بسرور:

-هذا من لطفك! ومن لطف الدوق أن يفكر فيّ! يشرفني ويسعدني أن ألبي الدعوة.

أشارت السيدة ستراثرز بيدها نحو نيولاند بلا تكلف قائلةً:

-عظيم.. وأحضري معكِ رفيقكِ الشاب يا عزيزتي. أنا لا أتذكر اسمكَ، لكني متأكدة أنني قد التقيتُ بكَ من قبل. لقد قابلت الجميع.. إما هنا أو في باريس

أو لندن. ألا تعمل في السـلك الدبلوماسي؟ جميع الدبلوماسـيين يحضرون إلى منزلي. أتحب الموسيقى أيضًا؟ لابد أن تحضره معك يا سمو الدوق.

نطـق الـدوق «طبعًا» من أعماق لحيته الكثّة. انسـحب نيو لانـد بعد أن ودّعهم بنصـف انحناءة متصلبة جعلته يشـعر كأنه صبي صغـير مرتبك بين بالغين لا يلحظون وجوده. لم يندم على أن زيارته قد انتهت، بل تمنى لو أن نهايتها جاءت أبكر من هذا ووفرت عليه هدر مشاعره فيما لا ينفع. خرج من منزل الكونتيسة فتلقفه ليل نيويورك الشـتوي، وعادت مدينته إليه رحبةً حبيبةً، وأجمل ما فيها هـي ماي ويلند. عرّج على متجـر بائع الأزهار ليبعث إليهـا باقتها اليومية من زنابق الوادي، بعدما أدرك منزعجًا أنه نسي أن يرسلها هذا الصباح.

كتـب عبـارةً لها على بطاقته، وبينما هـو ينتظر أن يجلب لـه البائع ظرفًا حانت منه التفاتةً في نواحي المتجر. وقعت عينه على ورودٍ صفراء لم يرَ مثل صفرتها وينعهـا مـن قبل، فخطر له أن يرسـلها إلى مـاي بدلاً من الزنابـق، لكن هذه الورود لا تشبه ماي في شيء.. فجمالها فاخر ثائر ناريّ. باندفاع مباغت ودون أن يعي ما يفعله أشار إلى البائع أن يلفّ الورود في باقةٍ أخرى، ودسّ بطاقته في ظرفٍ ثانٍ كتب على ظهره اسـم الكونتيسـة أولنسكا. لكن بعد أن استدار للخروج، عاد فأخرج البطاقة وترك الظرف فارغًا على الباقة.

سأل البائع مشيرًا إلى الورد:

-سترسلهما في الوقت نفسه؟

فطمأنه بائع الأزهار أنه سيرسلهما معًا.

الفصل العاشر

أقنع نيولاند ماي في اليوم التالي أن تهرب معه في نزهة على الأقدام في سنترال بارك بعد الغداء. وعلى الرغم من أن ماي ترافق والديها إلى الكنيسة عصر كل يوم أحد حسب العادة المعروفة بين الأسر التي تنتمي للكنيسة الإبيسكوباليّة في نيويورك، فإنّ والدتها تجاوزت عن تغيبها عن المراسم بعد أن كسبت في ذلك الصباح معركةَ اقناعها بضرورة إطالة مدة الخطوبة، كي يتسنى لهم إعداد جِهاز عرسها من الملابس والمطرّزات اليدوية بالعدد المناسب.

كان الجو في ذاك اليوم بديعًا، وغصون الأشجار العارية متعانقة تظلل الممشى، ومغطاة بقطع الثلج اللازوردي. أما الأرض فقد اكتست والتمعت بالثلج كقطع الكريستال المحطمة. جمال الجو أبرز حُسن ماي، فأضاءت كشجرة قيقب فارعة محاطة بالجليد. امتلأ نيولاند زهوًا بنظرات الإعجاب التي تتلقاها خطيبته، وسروره بأنها له وحده أزال من عقله كل غمام الحيرة والارتباك. بادرت ماي إلى القول:

-يا للهناء! كم هو مفرحٌ أن يستيقظ المرء على شذا زنابق الوادي منتشرًا في الغرفة!

-وصلتكِ الأزهار متأخرة أمس. لم يتسنَ لي الوقت في الصباح...

-لكن تذكّرك في كل صباح أن تبعث إليّ باقةً تجعلني أحبها أكثر مما لو أنك قد أصدرت للبائع أمرًا واحدًا بإرسالها يوميًا. لا أريدها أن تصلني كل صباح في الدقيقة نفسها بدقةٍ متناهية، كما كان لورنس ليفرتس يبعث الأزهار لغيرترود أيام خطبتها.

ضحك نيولاند من حماستها. اختلس من طرف عينه نظرةً إلى خدها المتورد فأحس بطمأنينة وثقة دفعته إلى القول:

-عندما بعثت أزهاركِ إليك عصر أمس رأيتُ ورودًا صفراء جميلة، فأرسلتُ باقةً إلى مدام أولنسكا. أترين ما عملته لائقًا؟

-مـا أكرم أخلاقك! أنا واثقة أن هذا التصرف قد أدخل السرور إلى فؤادها. مـن الغريـب أنهـا لم تذكر هذا عندمـا تناولتْ طعـام الغداء معنـا اليوم. لقد ذكـرتْ أن السـيد بوفرت بعـث إليها بأزهـار الأوركيد، وأن هنـري ڤان دِر لويدن أرسـل إليها سـلة مليئة بأزهار القرنفل من عزبته في سـكويتركليف. ولقد تعجّبتْ تعجبًا شديدًا أن تلقّت هذه الأزهار. ألا يرسل الناس الأزهار في أوروبا؟ قالت إنها ترى أن هذه العادة عادة محببة.

قال نيولاند بغيظ:

-إذًا لا عجب أن أزهاري قد غابت عن ذهنها بعدما تلقت أزهار بوفرت.

عندها تذكّر أنه لم يرفق بطاقته مع الورود، فانزعج لأنه ذكر لماي أنه أرسلها. كان يريـد أن يعـترف بزيارته لابنة عمها أمس أيضًـا، لكن التردد منعه. إن لم تذكر مدام أولنسـكا زيارته فقد يكون من الحكمة ألا يذكرها هو أيضًا. لكن عـدم إبلاغ ماي يضفي عـلى الزيارة لباس السرية الـذي لا يطيقه. أبعد هذه الأفـكار عن ذهنه بأن بدأ يحكي عن خططهما ومسـتقبلهما، وإصرار السـيدة ويلند على الخطوبة الطويلة.

-أتسمي هذه الفترة طويلة؟! كان ريجي وإيزابيل تشيڤرس مخطوبين لعامين، وغرايس وثورلي لعام ونصف العام تقريبًا. لماذا تود الاستعجال في الزفاف؟

يـا لهذه الحيرة العذرية التقليدية! إنها تسـاؤلات طفولية سـاذجة، وقد وجد نفسـه محرجًـا لأنه يفكـر بهذه الطريقـة. لا يخامره شـك أنها تردد مـا قيل لها فحسـب، لكنهـا قاربـت عامهـا الثـاني والعشرين. في أي سـنٍ يا تُـرى تبدأ السيدات كريمات الحسب بالتفكير بعقولهن وإبداء آرائهن؟

أجاب عن سؤاله بنفسه: «لن يفكرن بعقولهن أبدًا إن لم نسمح لهن». استرجع في ذاكرته التعليق الغاضب الذي قاله للسيد سيلرتون جاكسون: «يجب على النسـاء أن ينلن حريتهن، وأن يتمتعن بما لنا نحن من حرية». إن واجبه الآن هو أن يزيل الغشاوة عن بصر هذه الشابة، وأن يجعلها تملأ عينيها من محاسن هذه الدنيا ومباهجها. إن الحسرة الحقيقية هي على النسـاء اللاتي تضم مدافن

الأسرة أجسادهن ولم تُكشف الغشاوة عن أعينهن. اقشعر جسده... تذكر بعض النظريات الجديدة التي اطّلع عليها في كتبه العلمية، وتحديدًا تلك الأسماك التي أُكتشفت في كهفٍ في كنتاكي. فهذه الأسماك لم تعد تنمو لها عيون لأنها لا تحتاج إليها. ماذا لو أنه فتح عيني ماي ليجد أنها عمياء لا ترى سوى الظلام؟

-سيكون حالنا أفضل بعد الزواج. سنكون معًا دومًا... وقد نسافر أيضًا.

بدا السرور على محياها وأقرّت:

-سيكون هذا أمرًا رائعًا.

إنها تتمنى أن تسافر، لكن أمها لن تفهم رغبتهما في سلوك الطريق المختلف الذي يختارانه. أصر الخطيب:

-وكأن اختلاف الطرق يفسد الود!

أجابت جذلةً:

-نيولاند! يا لابتكارك في انتقاء الكلمات!

شعر بالهم يزحف إلى قلبه. فهو يرى أنه لم يقل غير ما يقوله أي شابٍ في موقفه، وإجاباتها هي الإجابات التي لقّنتها إياها الغريزة والتقاليد.. حتى عندما مدحت براعته.

-ابتكاري! نحن جميعًا عرائس مقصوصة من الورق نفسه.. نحن متطابقون كالأحرف المطبوعة بالآلة. ألا تودّين أن نخرج أنا وأنتِ من هذا النمط يا ماي؟

كان قد توقف في مشيه وواجهها في غمرة حماسه وانفعاله في الحديث. وكانت عيناها ترمقانه بإعجاب واضح وشديد. أجابت بضحكة:

-يا ربي! أتريد أن نفر من المدينة لنتزوج خفيةً؟

-إن أردتِ...

-ألهذه الدرجة تحبني يا نيولاند! يا لسعادتي!

-لكن لِمَ لا تكونين أسعد؟

-لكن لا يسعنا التصرف كما تفعل شخصيات القصص والروايات، ألا تظن ذلك؟

-لِمَ لا؟ لِمَ لا؟ لِمَ لا؟!

بدا واضحًا أن الملل أصابها من كثرة إلحاحه. إنها تعرف الأسباب التي تمنعهما من القيام بعملٍ كهذا، لكن يشق عليها أن تشرحها له.

-أنا لست بالفصاحة التي تؤهلني للجدل معك. لكن إن فعلنا ما تقوله فسيكون الأمر... «مبتذلاً». ألا توافقني الرأي؟

أحست بالراحة لأنها انتقت كلمةً جديرة بإخماد جذوة هذا الموضوع إلى الأبد.

- أتخشين إذًا أن تكون مبتذلة؟

ارتسمت الحيرة على وجهها جراء هذا السؤال. ردت بضيق:

-طبعًا لا أريد أن أكن مبتذلة.. وأنت أيضًا لا تريد ذلك.

وقف صامتًا يضرب مقدمة حذاءه بعصاه متوترًا، شعر بأنها وجدت حقًا السلاح الملائم لقتل النقاش. بادرت إلى الدردشة بخفة:

-هل أخبرتك أني أريت إيلين خاتمي؟ قالت إنه أجمل صياغة رأتها في حياتها، وأنه لا يوجد واحد مثله في محلات المجوهرات في باريس. أنا أحبك يا نيولاند.. وأحب ذوقك الراقي!

***

في عصر اليوم التالي، وبينما نيولاند يجلس مهمومًا يدخن في مكتبته قبل العشاء، دخلت جايني عليه. لم يذهب إلى ناديه بعد أن خرج من الشركة حيث يمارس مهنة المحاماة بالطريقة التي يمارسها أبناء العائلات الراقية من طبقته في نيويورك. فقد كان معكر المزاج خائر القوى، وكل ما يشغل فكره هو الخوف المشلّ من أن يمضي كل يومٍ من سنيّ عمره الباقية وهو يؤدي الوظيفة نفسها.

دمدم: «روتين! روتين!». حلّقت الكلمة في ذهنه كنغمة مزعجة. رأى من نافذته طيفي امرأتين بقبعتيهما الطويلتين تدردشان باسترخاء، ولأن من عادته أن يكون في النادي في هذه الساعة فلابد أن والدته وجايني لم تتوقعا أن يكون في المنزل. إن بإمكانه أن يتكهن لا بالموضوع الذي يتحدثان فيه

فحسب، بل وبموقف كل واحدة منهما في المناقشة. سيحتل الدوق طبعًا الصدارة في قائمة الموضوعات، رغم أنه واثق أن ظهور تلك السيدة ذات الشعر الأشقر الذهبي وهي في عربة (البروم) الصغيرة ذات اللون الأصفر كلون طيور الكناري في الجادّة الخامسة يجرها حصانان أدهمان (يُعتقد أن بوفرت هو من اشتراهما) سينال حظًا وافرًا من التحليل والتدقيق. فهذا «الصنف من النساء» قليلات في نيويورك، واللاتي يقدن عرباتهن بأنفسهن أقل وأقل. إن ظهور الآنسة فاني رينغ في الجادة الخامسة في ساعة التسوق قد أهاج المجتمع وأثاره. وفي اليوم الذي يسبقه مرّت عربتها بجوار عربة زوجة السيد لوڤيل مينغت، فأسرعت الأخيرة تدق الجرس الصغير داخل عربتها لتأمر سائقها أن يعيدها إلى المنزل. تساءل الناس والفزع يبطن كلماتهم: «ماذا لو أن ذلك حصل للسيدة ڤان دِر لويدن؟!» إن نيولاند يكاد يسمع لورنس ليفرتس في هذه الساعة ينوح وينعى هلاك المجتمع الرفيع.

رفع رأسه في ضيق عندما ولجت جايني، ثم خفض رأسه محملقًا في كتابه كأنه لم يرها. كان يقرأ مسرحية «تشاسلارد» لسوينبورن وقد صدرت حديثًا.

التفتت جايني إلى طاولة الكتابة التي تكدّست فوقها الكتب، ففتحت بفتور كتاب «حكايات المهرج» لبلزاك، وزوت ما بين حاجبيها عندما رأت أنه مكتوب بالفرنسية القديمة. تنهدت وقالت:

-يا لهذه الكتب المعقدة التي تقرأها!

ظلت تجول في الحجرة وتحوم فوق رأسه كأنها كساندرا نذير الشؤم[1] إلى أن سألها:

-ما الأمر؟

-أمي غاضبة جدًا.

-غاضبة؟ ممن؟ ولأي سبب؟

-جاءت الآنسة صوفي جاكسون قبل قليل تحمل رسالةً من أخيها بأنه سيأتي

(١) كساندرا: أميرة طروادة في الأساطير الإغريقية، أنذرت بحوادث مشؤومة ولكن لم يصدقها أحد.

لزيارتنا بعد العشاء. لم تفصح عن المزيد لأنه منعها من أن تقول أي شيء حيث إنه يود أن يشرح التفاصيل بنفسه. إنه مع لويزا ڤان دِر لويدن الآن.

-الصبر! الصبر! ابدئي الحكاية من أولها يا عزيزتي. أحتاج إلى إلهٍ عالمٍ بالغيب كي أفهم عما تتحدثين.

-لا تتلفظ بهذا الكلام يا نيولاند! ألا يكفي أن أمي تحتمل رفضك الذهاب إلى الكنيسة...

زمجر نيولاند وعاد يقرأ من كتابه.

-نيولاند! اصغِ إلي. صديقتك مدام أولنسكا حضرت حفل السيدة ستراثرز ليلة البارحة... ذهبت إلى منزلها وبصحبتها الدوق والسيد بوفرت.

اعتمل غضب لا معنى له في صدر الشاب عندما استوعب ما قالته أخته. لكنه أطلق ضحكةً يطفئ بها هذا الحنق:

-وماذا في ذلك؟ كنتُ أعلم أنها ستقصد الحفل.

فرّ الدم من وجهِ جايني واتسعت حدقتاها:

-كنتَ تعلم أنها ستذهب... ولم تحاول أن تمنعها؟ أو أن تحذّرها؟

ضحك مرة أخرى وقال:

-أمنعها؟ أحذرها؟ أنا لست خطيب الكونتيسة أولنسكا! (كانت هذه الكلمات لها وقع عذب على أذنيه!).

-لكنك سوف تتزوج فتاةً من عائلتها.

قهقه مستخفًا:

-العائلة... والعائلة!

-نيولاند... ألا يهمك ما يحدث للأسرة؟

-ولا مقدار ذرّة.

-أولا يهمك ما ستقوله لويزا ڤان دِر لويدن عما حدث؟

-ولا أقل من الذرّة، إن كانت توافق على ترهات العجائز المتزمتات.

زمّت أخته البكر شفتيها وقالت:

-أمي ليست عجوزًا متزمتة.

أراد أن يصرخ: «بلى، هي كذلك. وأيضًا لويزا ڤان دِر لويدن وزوجها هنري. بل نحن جميعًا ننقلب عجائز متزمتات متحجرات الفكر عند أول اتصال حقيقي يربطنا بالواقع». لكنه رأى تغضن وجه أخته الطويل الرقيق منذرًا بالدموع، فاختلج صدره بالخجل والخزي من أن أوجع قلبها وجعًا غير مبرر.

-اللعنة على الكونتيسة أولنسكا! لا تكوني ساذجةً يا جايني.. أنا لستُ خادمها الخاص ولا حارسها.

-أعرف هذا. لكن أنتَ من طلب من أسرة خطيبتك أن تبكر في إعلان الخطبة كي تنال هي دعم الأسرة بأكملها. ولولا هذا لما دعتها قريبتنا لويزا إلى حفل العشاء الذي أقامته على شرف الدوق.

-وما الضرر الذي جرّته إليهما دعوتها؟ كانت أجمل امرأة في الغرفة، وبحضورها أصبح حفل ڤان دِر لويدن الجنائزي أكثر بهجةً ومرحًا.

-أنت تعرف أن ابن عمنا هنري دعاها تلبيةً لرغبتك، حتى إنه أقنع زوجته لويزا حتى قبلت. والآن هما مستاءان جدًا إلى درجة أنهما سيعودان إلى سكويتركليف غدًا. أعتقد أن من الأفضل يا نيولاند أن تنزل إلى الأسفل، فيبدو أنك لم تقدّر بعد مدى استياء أمي مما حدث.

وجد نيولاند والدته في حجرة الجلوس ويداها منهمكتان بالتطريز. رفعت حاجبها عابسةً عندما رأته، فسألته:

-أأخبرتك جايني؟

حاول أن يبقي نبرة صوته هادئة معتدلة كنبرتها عندما أجاب:

-أجل. لكنني لا أرى ما الخطير في الأمر.

-رغم أن الأمر فيه إهانة لهنري ولويزا؟

-ولِمَ يشعران بالإهانة من أمر تافهٍ كذهاب الكونتيسة أولنسكا لزيارة امرأة يعدّانها من العوام؟

-يعدّانها!

-حسنٌ.. بل هي في الحقيقة من العوام. لكنها تطرب الناس بحفلات موسيقية جيدة، وترفّه عنهم في أمسيات الأحد، عندما توشك نيويورك أن تموت ضجرًا.

-أتقول موسيقى جيدة؟ ما سمعته هو أن امرأة في إحدى حفلاتها صعدت فوق الطاولة وغنت تلك الأغنيات التي يغنونها في الأماكن التي تذهب إليها أنت في باريس، وأنهم كانوا يدخنون ويتعاطون النبيذ.

- هذه الأمور تحدث في كل مكان... وما زالت الدنيا بخير.

-أصحيح ما تسمعه أذنيّ منك يا عزيزي؟ أتدافع حقًا عن الطريقة التي يمضي بها الفرنسيون أيام الأحد في لهو ولعب؟

-قد سمعتكِ يا أمي مرارًا وتكرارًا تتبرمين من الأحد الإنجليزي عندما كنا في لندن.

-نيويورك ليست باريس ولا لندن.

تأوّه ابنها ضجرًا متهكمًا:

-طبعًا لا! لا شك في ذلك.

-أظنك تقصد بسخريتك أن المجتمع هنا ليس ممتعًا كمجتمعي لندن أو باريس؟ دعني أقل لك إذًا أنك مصيب. لكن هذا هو مكاننا ونحن ننتمي إلى هذا المجتمع. ويجب أن يحترم الناس الذين يريدون العيش بيننا عاداتنا، وخاصةً إيلين أولنسكا التي ما عادت إلا هاربةً من تلك الحياة التي يعيشها الناس في المجتمعات «الممتعة».

لم يحر نيولاند جوابًا. بعد لحظات جازفت والدته بالقول:

-كنتُ سأضع قبعتي على رأسي وأطلب منك أن تأخذني لأزور لويزا هنيهة قبل العشاء.

عبس نيولاند لكنها تابعت:

-كنتُ أريدكَ أن تشرح لها ما قلتَه توًا: أن المجتمعات في الخارج مختلفة..

أن الناس لا يشـبهوننا في طبائعنا.. أنه لعلّ مدام أولنسـكا لم تعرف ما موقفنا إزاء مثل هذه التصرفات. والحقيقة يا عزيزي أن هذا أيضًا يصب في مصلحة مدام أولنسكا.

-يـا والـدتي الحبيبـة، أنا لا أفهم مـا علاقتنا نحن بما حـدث؟! إنّ الدوق هو من اصطحب مدام أولنسـكا إلى منزل السـيدة ستراثرز، والحقيقة هي أنه هو من أحضر السـيدة سـتراثرز لزيارتها. كنتُ موجودًا عندما حضرا إلى منزلها. إن أراد هنـري ڤان دِر لويدن وزوجته أن يتشـاجرا مع أحد، فالمتهم الحقيقي ساكنٌ معهما وينام تحت سقفهما.

-يتشـاجر! نيولانـد.. أعرفـت عن هنـري أنه تشـاجر يومًا مـع أي أحد؟! زد علـى هـذا أن الدوق ضيفـه، وهو غريبٌ أيضًـا. والغربـاء لا يفرقون بين المسـموح والممنـوع أو الواجب والعيب. أنّى له أن يعرف؟ لكن الكونتيسـة أولنسكا تربّت في نيويورك، وكان حريًا بها أن تراعي مشاعر أهل مدينتها.

هتف ابنها ساخطًا:

-حسـنٌ إذًا. إن كانـا يريدان كبش فداء فأنا أسـمح لـكِ أن تقدمي لهم مدام أولنسكا. لماذا نقدم أنفسنا أنا وأنتِ قرابين للتكفير عما اقترفتَه؟

ردت والدته بنبرة حساسة كانت أقرب تعبير عن الغضب يصدر منها:

-أنت أصبحت طبعًا لا تسعى إلا لما فيه مصلحة لأسرة مينغت.

أزاح الخـادم الحزين أسـجاف حجرة الجلوس كي يعلن قدوم السـيد هنري ڤان دِر لويدن.

سقطت الإبرة من كف السيدة آرتشر ودفعت كرسيها إلى الخلف بيدٍ مرتبكة. هتفت بالخادم الذي كان يتراجع خارجًا: «أحضر مصباحًا آخر»، بينما جايني كانت تصلح غطاء رأس أمها المائل. بدا شبح السيد ڤان دِر لويدن يلوح عند الباب، فاندفع نيولاند كي يرحب بقريبه. قال:

-كنا نتحدث عنك للتو يا سيدي.

بدا الحياء الشديد على محيا السيد ڤان دِر لويدن إزاء قول نيولاند. خلع قفازه

لمصافحة السيدتين، ومسح بحياءٍ قبعته الطويلة بينما قرّبت جايني مقعدًا.
أردف نيولاند:
-وعن الكونتيسة أولنسكا.
امتقع وجه السيدة آرتشر. رد الضيف وأمارات الرضا تشعّ من وجهه:
-إنها امرأة أنيسة لطيفة المعشر. قد جئت من زيارتها للتو.
حطّ جالسًا على الكرسي، وبسط قبعته وقفازيه على الأرض بجواره على الطريقة القديمة، وأكمل حديثه:
-إن لها موهبةً بارعة في ترتيب الأزهار. كنتُ قد أرسلت إليها بعض أزهار القرنفل من سكويتركليف، فأذهلتني بحسن ترتيبها. فبدلاً من أن تجمعها كلها في باقات كبيرة كما يفعل كبير بستانيّ وجدتها قد نثرتهم فرادى هنا وهناك... لا يسعني أن أصف المنظر لكم. لقد قال لي الدوق.. قال: «اذهب وانظر كيف رتّبتْ الأزهار في حجرة جلوسها بطريقة مبتكرة». وهذا بالفعل ما رأيتُ. وددتُ أن تصحبني لويزا لرؤيتها لولا أن الحي الذي تقطنه ليس... سارًا.
شمل المكان سكون عميق بعد هذا السيل غير المعهود من الكلمات التي خرجت من فم السيد ڤان دِر لويدن. أخرجت السيدة آرتشر قطعة التطريز التي رمتها في السلة في غمرة ارتباكها، ورأى نيولاند ملامح وجه جايني المذهولة على ضوء المصباح الثاني الذي جلبه الخادم. أما هو فكان يقف مستندًا إلى المدفأة ويبرم ريشة الطائر الطنان - وهي الأداة الزخرفية التي تتحكم بتحريك الحاجز لتخفيف حرارة المدفأة.
تابع ضيفهم كلامه وهو يدلّك ساقه الطويلة بيد شاحبةٍ أثقلها خاتم «السيد الإقطاعي» المنقوش بختمه الشخصي:
-في الحقيقة لقد زرتها لأعبّر عن شكري للرسالة الجميلة التي بعثتها لتشكرني على أزهاري، وكذلك - والأمر بيني وبينكم طبعًا - كي أحذرّها بصفتي صديق يخاف على مصلحتها ألا تدع الدوق يقنعها بالذهاب معه إلى الحفلات. لا أعلم إن كنتم سمعتم...

انفرجت شفتا السيدة آرتشر عن ابتسامة بريئة:

-هل ذهبتْ إلى حفلٍ بصحبة الدوق؟

-أنتم تعرفون طباعَ هؤلاء الوجهاء الإنجليز، فكلهم سواء. أنا ولويزا نحمل معزةً في قلبينا لقريبنا الدوق، بيد أنه من الحماقة أن نتوقع من الأشخاص الذين دأبوا على عادات القصور الملكية الأوروبية أن يشغلوا أنفسهم بالفروق الدقيقة التي نهتم نحن بها هنا في جمهوريتنا الصغيرة. إن الدوق يقصد أي مكان يحقق له المتعة والتسلية.

توقف السيد ڤان دِر لويدن عن الحديث غير أن أحدًا لم ينبس بأي كلمة، فأكمل:

-نعم.. يبدو أنه أخذها معه ليلة البارحة إلى حفلٍ في منزل أرملة السيد ليميول ستراثرز. أتى إلينا سيلرتون جاكسون قبل قليل وأخبرنا الحكاية السخيفة، فاستاءت لويزا وانزعجت. فرأيتُ أن أقصر طريق لحل المشكلة هو أن أذهب إلى الكونتيسة أولنسكا مباشرةً وأن أشرح لها - تلميحًا لا تصريحًا - رأينا أهل نيويورك إزاء بعض الأمور. رأيتُ أن عليّ أن أنبهها دون أن أجرح مشاعرها طبعًا، لأنها قد أوضحت لي في حفل العشاء في منزلنا أنها ستكون ممتنةً لأي توجيه أو نصائح أسديها إليها. وقد كانت ممتنة حقًا.

أجال السيد ڤان دِر لويدن بصره في أنحاء الحجرة. حملت قسمات وجهه التي لم تطلها مشاعر سوداء ولا عواطف عنيفة رضا كبيرًا عن نفسه بإحسانه على الآخرين وعطفه، وانعكس هذا على ملامح السيدة آرتشر طائعةً. قالت:

-إن كرمكما ولطفكما أنت ولويزا عظيمان يا عزيزي هنري. وهذا عهدنا بكما. ونيولاند على الأخص مقدّر ما فعلته بسبب ارتباطه بالعزيزة ماي وأسرتها.

قذفت الأم ابنها بنظرةٍ محذّرة، فقال:

-مقدر جدًا يا سيدي. لكنني ظننتُ أنكَ استلطفت مدام أولنسكا...

نظر السيد ڤان دِر لويدن إليه بلطف فائض وقال:

-أنا يا عزيزي نيولاند لا أدعو إلى منزلي من لا أستلطفه. وهذا ما قلته قبل قليل لسيلرتون جاكسون.

نظر إلى الساعة نظرة عابرةً، فوقف وأردف:
-إن لويزا تنتظرني. سوف نتعشى مبكرًا لنصطحب الدوق إلى الأوبرا.
لم يقطع أحدًا من أسرة آرتشر الصمت الذي حلّ على المكان بعد أن انسدلت الأسجاف وراء ضيفهم بعد خروجه.
صاحت جايني:
-يا إلهي! يا للرومانسية!
لم يفهم أحدٌ من أسرتها ما قصدها من هذا التعليق المبهم. لكنهم قد يأسوا منذ زمن بعيد من محاولة تفسير كلماتها. هزّت السيدة آرتشر رأسها وتنهدت. قالت في نبرة قاتمة متشائمة:
-إن لم تُحلّ الأمور من نفسها، فأنا أحتاج يا نيولاند إلى أن تبقي معي لتقابل سيلرتون جاكسون عندما يأتي هذا المساء. في الحقيقة لا أدري ماذا أقول له!
ضحك ابنها وانحنى يقبل ما بين حاجبيها المنزويين:
-يا أمي الحبيبة! ثقي أنه لن يأتي...

الفصل الحادي عشر

بعد مضي أسبوعين، وبينما نيولاند يجلس سارحًا متقاعسًا في مكتبه في شركة «ليتربلير ولامسون ولو» للمحاماة استدعاه مدير الشركة.

كان السيد ليتربلير المسنّ - المستشار القانوني الذي قدّم خدماته المعتمدة لثلاثة أجيالٍ من نبلاء نيويورك - يجلس وراء مكتبه الماهوغاني الفاخر، والحيرة تظهر جليةً على محياه. وحالما رآه شريكُه الشاب يفتل شاربه الأبيض القصير ويبعد خصلات شعره الرمادية المجعّدة عن حاجبيه البارزين بدا له كأنه طبيب مغتاظٌ من أعراض المريض التي تستعصي على التشخيص.

-يا سيدي العزيز (كان دائمًا يدعو نيولاند بسيدي) لقد استدعيتكَ لمناقشة أمر بسيط. إنه أمر أفضّل ألا أطلع السيد سكيبوورث ولا السيد ريدوود عليه في الوقت الراهن على الأقل.

كان سكيبوورث وريدوود شريكيه الرئيسين الآخرين، فالشركات العريقة التي تمتهن ممارسة الأنشطة القانونية في نيويورك غالبًا ما تحمل أسماء مؤسسيها الذين قضوا نحبهم منذ أمدٍ بعيد. فالسيد ليتربلير المسن الحالي هو حفيد مؤسس الشركة.

أسند المدير ظهره إلى كرسيه وعقد حاجبيه وأضاف:

-لأسبابٍ تختص... بأسرة مينغت.

رفع نيولاند بصره إليه محتارًا. أوضح السيد ليتربلير بابتسامة مجاملة وهزة من رأسه:

-بعثت السيدة مينغت إليّ تستدعيني أمس. إن حفيدتها الكونتيسة أولنسكا ترغب في رفع قضية على زوجها طلبًا للطلاق، وقد سلّمتني أوراقًا معينة. ونظرًا لصلة القرابة التي ستربطك بالأسرة فأود أن أستشيرك.. وأن أتباحث القضية معك.. قبل اتخاذ أي إجراءات رسمية.

أحس نيولاند بالدم يغلي في عروقه. إنه لم يرَ الكونتيسة أولنسكا سوى مرةٍ واحدةٍ منذ أن زارها في منزلها، وكان ذلك في دار الأوبرا في مقصورة أسرة مينغت. وخلال تلك الفترة أصبحت شبحًا بدأ يخفت وجوده في حياته شيئًا فشيئًا، فعادت بذلك ماي إلى مكانها الطبيعي تحتل الصدارة في حياته وتفكيره. لم يسمع عن موضوع طلاقها منذ أن أشارت إليه جايني أول مرةٍ، وقد طرح الكلام عن ذهنه، وعدّه محض نميمة عارية من الصحة. إنه في الحقيقة يكره فكرة الطلاق بقدر ما تكرهها والدته، ولشد ما انزعج أن يرَ أن السيد ليتربلير ينوي ولا شك إقحامه في شباك هذه الحكاية بتوجيه من كاثرين مينغت العجوز طبعًا. أليس هناك رجال من أسرة مينغبت قادرين على تولي هذه المهمة؟! إنه لمّا يصبح صهرهم بعد.

انتظر ليكمل رئيسه كلامه. أدار السيد ليتربلير المفتاح في قفل أحد الأدراج، وأخرج منه ملفًا.

-آمل أن تطّلع على هذه الأوراق..

تغضّن جبين نيولاند:

-أستميحك عذرًا يا سيدي، لكن مصاهرتي للأسرة مستقبلاً يجعلني أطلب منك أن تستشير السيد سكيبوورث أو السيد ريدوود في هذه القضية.

ظهرت الدهشة على وجه السيد ليتربلير، ثم تحوّلت إلى استياء ممتعض. فليس من المعتاد أن يرفض أحد الشركاء الصغار طلبًا كهذا. أومأ برأسه وقال:

-أنا أقدّر تحرجك من هذا الأمر يا سيدي، لكني أؤمن أيضًا أن حل هذا المسألة بحساسيةٍ شديدة يستلزم أن تفعل ما أطلبه منك. والحقيقة هي أن اختيارك لم تكن فكرتي، بل هي فكرة السيدة مينغت وابنها. لقد قابلت السيد لوفيل مينغت والسيد ويلند. وكلاهما طلباك بالاسم.

تملّك نيولاند غضب جامح. لقد ظل طوال الأسبوعين الماضيين يعيش الحياة في نشوةٍ مغيِّبة متنعمًا بجمال ماي، وملتمسًا الدفء من إشراقها، ناسيًا ومتناسيًا تكاليف أسرة مينغت الملحفة. لكن هذا الأمر الصادر عن السيدة

مينغت العجوز أعطاه لمحةً عن الدور الذي حضّره له حموه، وهم لا ينتظرون منه إلا السمع والطاعة. وهذا ما أثار حنق نيولاند وغيظه. ردّ على رئيسه:

-المفترض أن يتولى أعمامها هذه المهمة.

-قد فعلوا. ناقشت الأسرة الموضوع معها. هم معارضون لفكرة الكونتيسة وهي مصرّة على رأيها، وتلحُّ في طلب الاستشارة القانونية.

صمت الشاب، والملف في يده ما زال مغلقًا.

-أترغب الكونتيسة في الزواج من رجل آخر؟

-أعتقد أنهم طرحوا عليها السؤال هذا، فنفت الفكرة.

-إذًا...

-هلّا تفضّلتَ يا سيد آرتشر بالاطلاع أولاً على هذه الأوراق؟ وبعد ذلك.. بعد أن نناقش القضية سأعلمك برأيي.

انسحب نيولاند بتردد ومعه المستندات البغيضة. منذ آخر لقاءٍ جمعه بمدام أولنسكا وهو يتآمر مع أهواء القدر - بلا وعي منه - بغية التخلص نهائيًا من ثقل حملها. إن الساعة التي قضاها بجوارها قرب ضوء المدفأة جعلته يشعر بحميميةٍ تجاهها وإن كانت عابرةً، ومن رحمة الأقدار أن اقتحام دوق ساينت أوستري والسيدة ستراثرز خلوتهما، وترحيب الكونتيسة الفرح بهما قد أعادهما إلى أرض الواقع. وقبل يومين تدخّل نيولاند في مسخرة أخرى لالتماس رضا أسرة ڤان دِر لويدن عليها. قال في نفسه يومئذ بشيء من المرارة، أن السيدة التي تجيد إظهار شكرها لأرفع النبلاء مقامًا من أجل حزمة من الزهور، لن تعوزها سلوى شابٍ مثله في الخفاء ولا إلى شهامته في العلن. إنّ النظر إلى المساءلة من هذا الجانب بسّطها في ذهنه، وجمّل في عينيه كل المناقب البسيطة التي تجعل المرأة سيدةً على منزلها. ما كان يستطيع أبدًا أن يتخيل ماي ويلند مهما كانت صعوبة الظروف وقساوتها ستحكي للغادي والرائح عن مشكلاتها، أو توزّع مفاتيح ثقتها يمنةً ويسرة على الرجال الغرباء. حقًا لم يرَ أجمل منها ولا أحسن خصالاً في ذلك الأسبوع، حتى إنه خضع لرغبتها

في إطالـة مـدة الخطوبة، بعد أن وجـدت الرد الوحيد الـذي يفحمه ويخرس مطالبه بتعجيل الزفاف. فقد قال لها:

-أتدرين؟ دائمًا ما يلبي والداكِ كل طلباتكِ مذ كنتِ طفلة صغيرة.

فأجابت بأعذب نظرة:

-أجـل، وهـذا ما يجعل رفـضي لآخر طلب يطلبانـه مني وأنا مـا زلتُ طفلةً صغيرة أمرًا بالغ الصعوبة.

هـذه هي أصول نيويورك. هذه هي الإجابـة التي كان يرجو أن تخرج من فم المـرأة التي سـتكون زوجته. ومـن ألِف تنفس هواء نيويورك فسـيختنق بأي هواء آخر أقل نقاءً.

* * *

لم تفصـح الأوراق التـي عـاد إلى مكتبـه لقراءتهـا عـن كثير مـن المعلومات، لكـن الرائحة النتنة التي فاحت منهـا قد أزكمت أنفه وأغصت حلقه. كانت الأوراق في مجملها خطابات متبادلة بين محامي الكونت أولنسـكي[1] وشركة محامـاة فرنسـية أوكلتها الكونتيسـة أولنسـكا تسـوية قضية حقوقهـا المالية. وضمن الأوراق كذلك رسـالة قصيرة من الكونت إلى زوجته. هبّ نيولاند بعـد قراءتهـا واقفًـا، وحـشر الأوراق في ظرفها كـما كانت، وعـاد إلى مكتب السيد ليتربلير. قال بصوت مخنوق:

-تفضل الخطابات يا سيدي. وإن أحببتَ فسأقابل مدام أولنسكا.

-شـكرًا.. شكرًا يا سـيد آرتشر. تعال وتعشَ معي الليلة إن لم تكن مشغولاً، وسنناقش القضية بعد العشاء... هذا إن أحببتَ أن تزور موكلتنا غدًا.

سـار نيولاند عائدًا إلى المنزل مباشرةً دون المرور على النادي للمرة الثانية على التوالي. كان مساءً شتائيًا يطوّقه النقاء والشفافية، ويطل قمره الفتي الغر فوق رفـوف المنازل، فـأراد نيولاند أن يملأ رئتيه بهذه الطهـارة علّها تبلغ روحه،

(١) تنتهي أسماء النبلاء البولنديين باللاحقة (سكي) دلالة على المذكر، و(سكا) دلالةً على المؤنث

وما كان يود أن يتكلم مع أي شخص إلى أن يجتمع مع السيد ليتربلير بعد العشاء. كلما أعمل ذهنه زاد اقتناعًا بقراره؛ يجب أن يقابل مدام أولنسكا بنفسه ولا يسمح لأسرارها أن تنكشف لكل عين متطفلة. ابتلعت موجة هادرة من الشفقة لامبالاته وتذمره السابق. إنها تقف أمامه الآن امرأة عارية مقهورة، ويتعين عليه انقاذها من لطمات القدر التي ما انفكت تدميها.

تذكر ما قالته له عن طلب السيدة ويلند ألا تخبرهم «عما لا يسر» في ماضيها، واشمأزّ عندما خطر له أن سبب هذا النقاء الشديد في هواء نيويورك ربما يعود إلى أن أهلها يتبعون هذا النهج في الحياة. تساءل: «أنحن حقًا فريسيون؟!».[1]

لقد أعيته الحيرة وهو يحاول أن يوفّق ما بين تقززه من شرور البشر، ورحمته بضعفهم وعجزهم.

لقد أدرك وللمرة الأولى سطحية المبادئ التي يؤمن بها وسذاجتها. قد يظن من يراه أنه شاب لا يخشى المجازفة، رغم أنه يعلم أن علاقته الغرامية السرية مع السيدة راشوورث لم تكن على تلك الدرجة من السرية التي تؤهله لنيل لقب الجريء المغامر. بيد أن السيدة راشوورث كانت من «ذلك الصنف من النساء».. الصنف السفيه التافه، الطامع بالسريّة بطبيعتها. فحبها للانزواء في خبايا الغرام، واستعذابها مخاطر الظلام أكبر بكثير من افتتانها بمحاسن عشيقها ومآثره. كاد فؤاده ينفطر عندما أدرك هذه الحقيقة في ذلك الوقت، أما الآن فهو يعرف أن إفاقته من غفلته كانت المنفعة الوحيدة التي خرج بها من العلاقة. فقد كانت باختصار من العلاقات التي يمرّ بها معظم الشباب في سنه، ويخرجون منها بمعرفةٍ أفضل لأنفسهم، وإيمانٍ ثابت بالفرق العظيم بين المرأة التي يحبها الرجل ويحترمها، والمرأة التي يستمتع بها... ويشفق عليها. والشباب في نظره مدفوعون إلى غمس أقدامهم في بركة الغواية دفعًا لا خيار لهم فيه بسبب أمهاتهم وعماتهم وغيرهن من القريبات المسنّات اللاتي يشاطرن السيدة آرتشر إيمانها أنه عندما «تحدث مثل هذه الأمور» فالشباب

(١) طائفة يهودية ظهرت في عام ٧٠م، يعتزلون الخاطئين ويتشددون في الدين

فيها حمقى ولا شك، لكن النساء فيها دائمًا مجرماتٍ خاطئات. فكل السيدات العجائز اللاتي يعرفهن نيولاند يعتبرن أي امرأة تقع في الحب بتهور وبلا تبصر إنسانة حتمًا ماكرة متجردة من القيم والأخلاق، وأنها أوقعت الرجل الجاهل العاجز في حبائلها، والحل الوحيد قبل أن يستشري الداء هو إقناعه بالزواج من فتاة لطيفة، ثم إيكال مهمة الاهتمام به إليها.

تصوّر نيولاند أن قضايا القلب والعاطفة في المجتمعات الأوروبية العريقة أكثر تعقيدًا وأقل وضوحًا. فلابد أن تظهر الكثير من هذه المواقف في تلك المجتمعات التي يغلب عليها الثراء والبلادة وحب المظاهر. بل قد تدفع مثل هذه المجتمعات - تحت ضغط الظروف القاسية وقهر الوحدة وقلة الحيلة - امرأة حساسةً أبية إلى أن تعلق في شباك علاقة لا تُغتفر في مقاييس المجتمعات التقليدية.

كتب رسالة قصيرة إلى الكونتيسة أولنسكا حال وصوله إلى المنزل، يسألها فيها أي ساعةٍ تستطيع استقباله غدًا في منزلها. أرسلها مع الصبي المراسل، فعاد هذا من فوره بردٍ منها مفاده أنها راحلة إلى سكويتركليف في صباح اليوم التالي لتقضي يوم الأحد مع أسرة ڤان دِر لويدن في عزبتهما، لكنها ليست مرتبطة في المساء بعد وجبة العشاء. كان الرد مكتوبًا على نصف ورقة شبه مهملة، وغير مؤرّخة ولا معنونة، لكن خطها ثابت حر. ضحك من فكرة قضائها نهاية الأسبوع في عزلة سكويتركليف الفاخرة، لكن سرعان ما انقلب سروره قلقًا، لأنها سوف تشعر هناك من بين كل الأماكن بجفاء العقول وحَيدها «عما لا يسر».

***

وصل نيولاند منزل السيد ليتربلير في تمام الساعة السابعة. وكان مسرورًا أنه وصل في موعد العشاء حيث إنه يستطيع بذلك أن ينصرف بُعيد فراغهما من تناول الطعام. وقد كوّن الشاب رأيه الخاص على ضوء الأوراق التي أُوكلت إليه، ولم يكن يريد أن يخوض في القضية طويلاً مع شريكه الأكبر. كان السيد ليتربلير أرملاً، فلم يشاركهما ثالثٌ المائدة في حجرة الطعام المعتمة التي تعلو

جدرانها نسخٌ مصفرّةٌ من لوحتي «موت تشاتم» و «تتويج نابليون». وحيث إنه لا يتناول في وقت الغداء سوى شطيرة وفنجان شاي، فإنه يجب أن تكون مائدة عشـائه حافلةً بأشهى الأطباق، ويسـتلذ بالأكل بتروٍ وأناة، ويلحّ على ضيوفـه أن يحـذوا حـذوه. وعـلى الطاولة الجانبيـة في الحجرة، بين سـكاكين «شـيراتون» المنقوشـة، وُضع دورق نبيذ بوردو الفاخر، وآخرٌ من نبيذ أسرة لاننغ البرتغالي المعتّق (تلقاه هديةً من أحد موكليه). فتوم لاننغ المبذّر قد باع زجاجـات نبيذ أسرته قبل عـام أو اثنين من حادثة موته الغامضة الشـائنة في سان فرانسيسكو، مع أن الواقع هو أن أسرته اعتبرت بيع مخزن خمور الأسرة حدثًا أكثر مهانةً من ملابسات موته.

بعـد أن تناولوا حسـاء المحار الثخين، أتى طبق سـمك الرنجة والخيار. تلاه الديك الرومي المشـوي مع فطائر الـذرة المقلية، وختما الوجبة بطبق البط مع مربى العنب ومايونيز الكرفس. وبعد أن فرغوا من الأكل، وأُزيلت الأطباق وأُشعلت السجائر، قرّب السيد ليتربلير دورق النبيذ البرتغالي من ضيفه، ثم استند مسترخيًا في كرسيه، ونار المدفأة تتوهج خلف ظهره وقال:

-الأسرة كلها تعارض فكرة الطلاق، وأنا أرى أن الحق معهم.

شعر نيولاند على الفور أنه يقف على الطرف الآخر من النزاع. أجاب:

-لكن لماذا يا سيدي؟ إن موقفها في القضية قوي...

-ولكـن ما الفائدة؟ هي هنا وهو هناك، والأطلسي يفصل بينهما. لن تجد منه دولارًا آخر من مالها أكثر مما أعطاها بطوعه، وشروط التسـوية المالية في عقد الزواج لا يكفل لها أي حق. فأولنسكي في نظر القانون هناك قد أحسن إليها وأكرمها. كان باستطاعته أن يتركها تعود بلا بنس واحد.

كان الشاب يعي ذلك فالتزم السكوت. تابع السيد ليتربلير:

-لكـن حسـبما فهمت فهي لا تلقـي بـالاً إلى النقود. وهذا مـا جعل الأسرة يصرون على أن تترك الأمور تظل كما هي دون طلاق.

رغـم أن نيولانـد كان قد عاد إلى منزله قبل سـاعة وهو متفـقٌ مع وجهة نظر

السيد ليتربلير، فإنه عندما سمع الكلمات تخرج من فم العجوز الأناني السمين اللامبالي وقعت على مسمعه كصوتٍ فريسي لمجتمعٍ كل همه هو أن يحصّن نفسه من كل ما يكدّر صفوه.

-أعتقد أن الرأي أولاً وأخيرًا لها.

-هل فكرتَ في تبعات حصولها على الطلاق؟

-أتعني تهديد زوجها في رسالته؟ وما جدية هذا التهديد؟ إنها ليست سوى تهمة جوفاء من وغدٍ غاضب.

-نعم، ولكن قد تثير أقاويل غير سارّة إن دافع عن قضيته.

انفجر نيولاند صارخاً:

-غير سارة..!

نظر إليه السيد ليتربلير نظرة متسائلة. شعر الشاب بأن لا طائل من محاولة توضيح أفكاره للرجل المسن، فأذعن بانحناءةٍ من رأسه قبل أن يتابع مضيفه حديثه:

-إن الطلاق أمر غير سار على الإطلاق.

لم يجد الشاب ردًا على هذا. بعد صمتٍ مثقل بالانتظار أردف السيد ليتربلير:

-ألا توافقني الرأي؟

-طبعًا.

-إذًا أستطيع الاعتماد عليك... وتستطيع أن تعتمد أسرة مينغت عليك... في أن تؤثر فيها وتقنعها بالعدول عن الفكرة؟

تردد نيولاند لحظات ثم قال:

-لا أستطيع أن أقطع وعدًا لك إلا بعد أن أقابل الكونتيسة أولنسكا.

-سيد آرتشر... أنا لا أفهم موقفك! أتود أن تتزوج فتاةً من أسرةٍ متورطةٍ بفضيحة قضية طلاق؟

-أنا لا أرى لهذا أي علاقة بالقضية.

وضع السيد ليتربلير كأس النبيذ البرتغالي على الطاولة ورمق شريكه الشاب

بنظرة حذرة قلقة. أدرك نيو لاند أنه يخاطر بسحب المهمة من يديه، ولسببٍ لا يفهمه وجد في نفسه رغبةً في القيام بها بعد أن أُسندت إليه. ولكي يضمن بقاءها وجد أن عليه أن يُطمئن الرجل المسن العملي محامي أسرة مينغت.

-فلتطمئن يا سيدي أنني لن أقطع برأي قبل أن أبلغك بها سأعرفه. ما قصدته هو أنني أفضّل ألا أبدي رأيي إلا بعد سماع وجهة نظر الكونتيسة أولنسكا.

أومأ السيد ليتربلير برأسه مستحسنًا ترجيح الحذر كما يليق بعادات نيويورك الأصيلة. نظر الشاب إلى ساعته وقال إن لديه ارتباط آخر، واستأذن للمغادرة.

الفصل الثاني عشر

إن عادة أهل نيويورك المحافظين هي أن يتناولوا طعام العشاء عند السابعة مساءً، ومن أراد منهم زيارة أحدٍ فيكون ذلك بعد موعد العشاء، ومع أن مجتمع نيولاند كان يزدري هذه العادة إلا أنها ما زالت سائدة ومتّبعة.

بينا كان الشاب يتمشى في الجادّة الخامسة من ويڤيرلي بليس رأى الشارع العام الطويل خاليًا من الحركة عدا بضع عربات تقف أمام منزل ريجي تشيڤرس حيث تُقام وليمة عشاء على شرف الدوق، وبعض الرجال من كبار السن الذين يظهرون بين فينة وأخرى متدثرين بمعاطفهم الثقيلة وأوشحتهم، وهم يرتقون درجات السلم حتى عتبة الباب، ثم يختفون في بهوٍ مضاءٍ بمصابيح الغاز. قطع نيولاند ميدان واشنطن فلاحظ أن السيد دو لاك العجوز يزور أقرباءه أسرة داغنيت، وبعد أن انعطف من الشارع العاشر غربًا رأى السيد سكيبوورث - أحد الشركاء في شركته - متجهًا في طريقه لزيارة منزل الأختين لاننغ. وبعد أن قطع مسافة لا بأس بها في الجادّة الخامسة ظهر خيال بوفرت، قاتمًا واقفًا عند عتبة منزله، ووراءه وهج من ضوء. ركب بوفرت عربته الخاصة (البروم)، فانطلقت به إلى وجهة مجهولة، يخجل اللسان غالبًا من ذكرها. لا يوجد عرضٌ الليلة في دار الأوبرا، ولم يقم أحدًا أية حفلة، فلابد إذًا أن خروج بوفرت في تلك الساعة له مآرب خفية، توقع نيولاند أن مآربه هذه ستقوده إلى منزل صغير خلف جادّة ليكسنغتون، ظهرت فيه مؤخرًا باقات أزهارٍ وستائر مزادنة بشرائط ملونة، وغالبًا ما شُوهدت عربة (البروم) ذات اللون الكناريّ المعروف لدى الجميع أنها تخصّ الآنسة فاني رينغ تقف منتظرةً، أمام بابه ذي الدهان الجديد.

في طرفٍ قصي من ذلك الهرم الصغير ذي الجوانب الزلقة، الذي يرتكز عليه عالم السيدة آرتشر، توجد منطقة غير مُكتشَفة يقطنها الفنانون والموسيقيون

و «معشر الكتّاب»... أشـلاء إنسانية مبعثرة لم يبدوا رغبةً قط في الاندماج في الهيكل الاجتماعي. وعلى الرغم من غرائب طبائعهم، فقد قيل إنهم في الغالب محترمون لكنهم فقط يفضلون الانعزال عمن هم ليسـوا على شـاكلتهم. وفي فـترة مـن الزمن أقامـت ميـدورا مانسـون - عندما كانـت ترفـل بالنعيم - «صالونًا أدبيًا»، لكن سرعان ما توقف نشاطه، إثر إحجام المثقفين عن التردد إليه. وحاول غيرها أن يقيموا صالونات مشـابهة مثل أسرة بلنكرز - المكوّنة من أم حادة الطباع ثرثارة، وثلاث بنات صهباوات هن نسـخٌ مكررة منها - حيـثٌ يمكن أن يلتقي الشـخص بإيدوين بووث الممثـل، وأدلينا باتي مطربة الأوبرا، وويليام ونتر الناقد الدرامي، وجورج ريغنولد الممثل الشيكسـبيري الجديد، ومجموعة من محرري المجلات، ونقاد الأدب والموسيقى.

كانـت السـيدة آرتـشر وجماعتهـا يشـعرون بـشيء مـن التهيّـب إزاء تلـك الشـخصيات، فهـم مختلفـون عنهم ولا شـكل محـدد لهم، والسريـة تكتنف ماضيهم والغموض أفكارهم، رغم ما للأدب والفن من دور عظيم في حياة أسرة آرتـشر. فلطالما وصفت السـيدة آرتـشر لطفليها ثقافـة المجتمع ورقيه عندمـا كان يضم شـخصياتٍ من أمثال الكاتب واشـنطن إرڤنغ، والشـاعر فتزجرين هاليك، وشاعر «الجنيّة الجانية»[1]، وأن الكتّاب ذائعي الصيت من ذلـك الجيل كانـوا «نبلاء». قد يكون لمـن خلَفهم من أدبـاء وكتاب «مجهولي الأصل» مشـاعر نبيلة سـامية، لكن أصولهـم وعلاقتهم بالمـسرح والأوبرا، ومظهرهم، بل وحتى طريقة تصفيف شعورهـم تجعل مجتمع نيويورك القديم يلفظهم تمامًا لأن معاييره لا تنطبق عليهم.

كانت السيدة آرتشر دائمًا تقول: «عندما كنتُ فتاةً يافعة كنا نعرف الجميع من منطقة باتري إلى شـارع كنال، ولا أحد يملك عربات سـوى قلة معروفة من الناس. وكان من السهل أن يعرف الشخص أصل كل من يلتقيه... لكن هذا مستحيل الآن، ولا أود حتى أن أحاول».

(١) "The Culprit Fay" للشاعر جوزيف رودمان دريك

ربما تكون كاثرين العظيمة - بعدم قبولها بالمعايير الأخلاقية التي يفرضها المجتمع، وحداثة نعمتها، ولامبالاتها بالفروق الدقيقة بين الناس – هي الوحيدة القادرة على ردم الهوّة، بيد أنها لم تفتح كتابًا في حياتها ولا نظرت إلى لوحةٍ قط، وهي لا تهتم بالموسيقى إلا بتلك التي تذكرها بليالي السمر في «"Boulevard des Italiens"»[1]، وبأيام شبابها في قصر التويلري. وقد يستطيع بوفرت الذي يضارعها جراءةً أن ينجح في دمج هذين العالمين، إلا أن منزله الفخم، وخدمه ذوي الجوارب الحريرية يقفان عائقًا أمام ترتيب اجتماعات متبسطة تُرفع فيها الكلفة، وهو علاوةً على هذا جاهل لا يقرأ مثل السيدة مينغت العجوز، ويعدّ «أولئك الكتّاب» مجرد آلات يسيّرها بماله فتجلب له المتعة. ولم يجد رجلاً يحترمه - أو بالأحرى يحترم ثراءه - يغير نظرته هذه.

كان نيولاند عالمًا بهذه الأمور منذ نعومة أظفاره، وقد تقبلها كجزء من عالمه. وهو يعرف أن ثمة مجتمعات تحتفي بالرسامين والشعراء والروائيين وأهل العلم بل وحتى كبار الممثلين، بقدر ما يحتفون هم بالنبلاء. ولطالما حدّث نفسه وتصوّر كيف ستكون الحياة إن عاشها في حميمية المجالس التي تُعمر بالحديث عن بوسبير ميريميه ومؤلَفه «رسائل إلى امرأة مجهولة» الذي لا يفارق نيولاند أبدًا، ومناقشة ثاكري أو براوننغ أو ويليام موريس. لكن هذا أمر يستحيل تصور وقوعه في نيويورك، بل ويفزع أهلها من مجرد التفكير في ذلك. وعلى الرغم من هذا فإن نيولاند على معرفة «بمعشر الكتّاب» والموسيقيين والرسامين لأنه يلتقي بهم في نادي «سنتشري»[2]، أو في نوادي الموسيقى والمسرح الصغيرة التي بدأت تنتشر. كان يتمتع بصحبتهم هناك، ويضيق بهم لدى صالون بلنكرز، حيث يخالطون نساءً حماسهن متّقد لكن يعوزهن الذوق الرفيع، فيتفحصنهم فيما بينهن كأنهم مخلوقات غريبة. حتى

(١) من أرقى أحياء باريس

(٢) نادٍ للرجال ذوي الحس الفني في نيويورك، وينحصر عدد أعضاءه بمئة عضو فقط

بعـد محاوراتـه الطويلـة الماتعة مع نيد وينسـت، كان ينتابه الشـعور بأن عالمه ضيق محدود، وكذلك هو عالمهم، وأن الوسيلة الوحيدة لتوسيع كلا العالمين هي بالوصول إلى مرحلة تندمج فيها السلوكيات وتتقارب.

وقد وصل إلى هذا الاستنتاج بعد أن حاول أن يتخيل المجتمع الذي عاشت فيه الكونتيسـة أولنسـكا وعانت منه، رغم أنها تنعمّت بمتعه الخفية، وتذكر أنها قالت له ضاحكةً إن جدتها والسـيدة ويلند وكافة أفراد أسرتها اعترضوا على سـكنها في حي «بوهيمـي» يعجّ «بهؤلاء الكتّـاب». لم يكن الخطر هو ما أثـار نفـور أسرتها بل الفقر، لكنهـا لم تدرك مقصدهم وظنّـت أنهم يرون أن الأدب أمر شائن.

وهـي شـخصيًا مع هذا لا تخشـى الانغـماس في الأدب، فقد أثـارت الكتب المتناثرة في أرجاء حجرة جلوسـها (رغم أن العادة جرت ألا تُعرض الكتب في ذلك الجزء من المنزل) اهتمام نيولاند بالأسماء التي قرأها مثل بول بورجيه، وهويسـمنز، والأخوة غونكورت[1]، رغم أن معظـم الأعمال كانت روائية.

كان يقلّب فكره في هذه الأمور حتى بلغ الباب، فأدرك للمرة الثانية كيف أن هذه المرأة تقلب مبادئه رأسًا على عقب بطريقة غريبة، وأنه يحتاج إلى أن يحضر نفسـه وذهنه للتعامل مع موقف مغاير تمامًا لأي موقف تعرض له في حياته، إن كان يرجو أن يقف معينًا لها في محنتها.

***

فتحت ناستاسـيا الباب وهي تبتسـم ابتسـامةً غامضة. وعلى المقعد الخشـبي الطويـل في البهـو رأى نيولانـد معطفًا مبطّنًا بفـرو السـمَّور[2]، وقبعة أوبرا طويلة من الحرير الباهت مطوية ومطرزة بطانتها بالحرفين (ج. ب.) بخيوط ذهبية، وشـالٌ من الحرير الأبيض. فعرف على الفور أن هذه المقتنيات الثمينة تعود لجوليوس بوفرت.

(١) جميعهم كتّاب ومؤلفون فرنسيون

(٢) حيوان يشبه ابن عرس، تصنع من فرائه أردية باهظة

أخذه الغضب الشديد حتى أوشك أن يخطّ كلمةً مقتضبة سريعة تشير إلى حضوره على بطاقته ويغادر فورًا. لكنه تذكر أنه عندما أرسل إلى الكونتيسة أولنسكا يخطرها برغبته في رؤيتها منعه التكتم والحرص من أن يوضح أنه يريد رؤيتها على انفراد. إذًا لا يمكنه إلا أن يلوم نفسه إن فتحت باب منزلها لاستقبال الزائرين. دخل حجرة الجلوس يدفعه عنادٌ حازمٌ أن يشعر بوفرت بأن وجوده غير مرغوب فيه، وإن وصل الأمرُ إلى أن يطيل البقاء عندها أكثر منه.

وجد نيو لاند المصرفيّ مسندًا ظهره إلى رف المدفأة التي ينسدل عليها قماش ذو تطريز قديم، ويلتف حول شمعدانين من النحاس يرفعان شموعًا كنسية من الشمع المصفر الباهت. كان الرجل نافخًا صدره، مادًا طوله، ملقيًا بثقله على قدم واحدة مكسوّة بحذاء جلدي لمّاع. عندما دخل الشاب كان بوفرت ينظر مبتسمًا إلى مضيفته، وكانت تلك شبة مستلقيةٍ على أريكة على يمين المدخنة، تُسند رأسها على إحدى كفيها، وكمّها الواسع يكشف عن ذراعها ومرفقها. ووراء الأريكة طاولة تكوّمت فوقها باقات الأزهار حتى أصبحت ساترًا يحجب ما وراءها، ومنها أزهار الأوركيد والأزالية التي أدرك الشاب أنها ولابد نفحاتُ إعجابٍ وتودد من مشاتل بوفرت الزجاجية.

عادةً ما ترتدي السيدات في زيارات المساء ما يُدعى بفستان المساء البسيط، ويتكون هذا من مشدٍ قابضٍ مصنوع من عظم الحوت كالدرع المغلّف بفستان من الحرير، ذو فتحة واسعة قليلاً من جهة العنق، وكشكشة من الدانتيل تغطي هذه الفتحة، وكمّين ضيقين بحاشية لا تكشف إلا عن جزءٍ من معصمي المرأة يحيط بهما إما إسورة ذهبية على الطراز الإتروسكاني،[1] أو شريط من المخمل. لكن الكونتيسة أولنسكا التي ضربت بالتقاليد عُرْض الحائط كانت تلبس ثوبًا منسدلاً فضفاضًا من المخمل الأحمر، ويحيط بعنق الفستان وفتحة صدره فروٌ أسود لامع. استرجع نيو لاند في ذهنه لوحةً رآها في زيارته الأخيرة إلى باريس بريشة الرسام الجديد كارلوس دوران الذي

(١) حضارة قديمة ظهرت في توسكانا في إيطاليا

شغل (الصالون)[1] بحديث المعجبين بلوحاته. كانت اللوحة تظهر سيدةً ترتدي فستانًا جريئًا يغلّف جسدها، وذقنها يتوارى في طوق من الفرو. إنّ منظر المرأة وهي ترتدي فروًا في المساء وفي حجرة جلوس دافئةٍ، مع تغطية عنقها والكشف عن ذراعيها يلهب خيال الرجل بما لا يليق، رغم أن مظهرها يسر الناظر.

عندما دخل نيولاند، كان بوفرت يقول بصوته العالي الساخر:

-رحمتك يا إلهي! ثلاثة أيام كاملة في سكويتركليف! الأفضل أن تأخذي معكِ كل ما عندكِ من فراء، وكمادة من المياه الساخنة أيضًا.

رفعت يدها اليسرى تسلم على نيولاند بطريقة أوحت إليه بأنها تنتظر أن يقبّل يدها. سألت بوفرت:

-لماذا؟ هل المنزل شديد البرودة؟

أجاب بوفرت وهو يحيّ الشاب بإيماءة غير مكترثة:

-لا. لكن سيدة المنزل باردة جدًا.

-إنها في رأيي لطيفة جدًا. لقد أتت بنفسها لتدعوني. وأوصتني جدتي بالذهاب.

-طبعًا هذا ما ستقوله جدتكِ. وأنا أقول إنّ من المؤسف أن تفوتي وليمة عشاء المحار التي أعددتها لكِ في مطعم دولمونيكو يوم الأحد المقبل، وبحضور كامبنيني وسكالتشي[2] وغيرهما من الشخصيات التي تشرح القلب.

نقلت بصرها بشكٍ بين المصرفي ونيولاند.

-آه... هذه دعوة مغرية! لم أقابل فنانًا واحدًا منذ قدومي إلى نيويورك، ما عدا تلك الأمسية في منزل السيدة ستراثرز.

قال نيولاند بجرأة:

-أي الفنانين تحبين؟ أعرف رسامًا أو اثنين.. من أبرع الفنانين.. يمكنني أن

---

(١) يقصد بالصالون هنا معرضًا فنيًا يُقام سنويًا في متحف اللوفر برعاية الأكاديمية الفرنسية للرسم والنحت

(٢) إيتالو كامبنيني وصوفيا سكالتشي: من مطربي الأوبرا في ذلك العصر

أحضرهما لزيارتكِ إن أذنتِ لي.
-رسامون؟ أهناك رسامون في نيويورك؟
قالها بوفرت بنبرة توحي بأنه لا يوجد رسامون طالما أنه لم يشترِ لوحاتهم.
قالت مدام أولنسكا لنيولاند وعلى شفتيها ابتسامة رزينة:
-لكم سيسرني ذلك! لكني في الحقيقة كنتُ أفكر بالفنانين الدراميين، من مطربين وممثلين وموسيقيين. كان منزل زوجي يعجّ بهم.
لفظت كلمة «زوجي» بطريقة تخلو من البغض والتشاؤم، بل إنه ظن أنها أطلقت تنهيدة حسرة على المتع التي توافرت لها في حياتها السابقة وخسرتها الآن. نظر إليها نيولاند في حيرةٍ؛ أهو استخفافٌ أم تصنعٌ ذلك الذي يجعلها تتطرق إلى ماضيها بهذه السهولة، في اللحظة ذاتها التي تخاطر بسمعتها من أجل أن تنفصل عنه؟
قالت موجهةً حديثها إلى الرجلين كليهما:
-أنا أؤمن حقًا أن الحياة بلا تخطيط، والتصرف بعفوية يضيفان إلى حياة الإنسان متعةً وإثارة. وربما كان من الخطأ أن يقابل الإنسان الأشخاص أنفسهم كل يوم.
تذمر بوفرت:
-بل إنه من أسوأ البواعث على الملل. إن نيويورك تحتضر، وعلتها الملل. وعندما أحاول أن أنعشها من أجلكِ تتخلين عني! فكري في الأمر... يوم الأحد هو آخر فرصة لكِ لأن كامبنيني سوف يرحل الأسبوع المقبل إلى بالتيمور وفيلاديلفيا، وقد حجزتُ غرفة خاصة، وبيانو من طراز ستاينواي، وسوف يغنون طوال الليل لأجلي.
-هذه متعة حقيقية! أتسمح بأن أفكر في الأمر وأبعث إليك بردي صباح الغد؟
طرحت سؤالها بكل دماثة، وإن كان السامع يلمس من صوتها لهجة طرد. ويبدو أن بوفرت التقط هذه النبرة، وحيث إنه لم يعتد أن يصرفه أحد، وقف يحدق فيها والعناد يطل من عينيه.

-لماذا لا تردين عليّ الآن؟
-الأمر جاد، ولا يمكن أن أتّخذ فيه قرارًا في هذه الساعة المتأخرة.
-أترين أن الوقت الآن متأخر؟
قابلت نظرته ببرودٍ وردّت:
-نعم، لأنني سأكون مشغولة الآن بمناقشة موضوع خاص مع السيد آرتشر.
لم يحمل صوتها نبرة اعتذار. دمدم بوفرت بانزعاج، ثم هزّ كتفيه بلا اكتراث، فأمسك يدها وقبّلها كمن اعتاد على فعل هذا. قال وهو يخرج من عتبة الباب:
-إن استطعتَ يا نيولاند أن تقنع الكونتيسة بالبقاء في المدينة فأنت أيضًا مدعو طبعًا إلى طعام العشاء.
ثم غادر بخطى تنوء الأرض من جلالة صاحبها. توقع نيولاند للحظة أن السيد ليتربلير أخبرها عن زيارته، لكن ما قالته بعد ذلك أثار في نفسه الحيرة. فقد سألت وعيناها تشعّان اهتمامًا:
- أتعرف رسامين إذًا؟ أتعيش في وسطهم؟
-لا. ولا أظن أن للفن وسطًا هنا، مهما كان هذا الفن. فالفنانون كالمنبوذين الذين يعيشون في أطراف المدينة.
-لكنك مع هذا تهتم بهذه الأمور؟
-عظيم الاهتمام. ولا أفوّت معرضًا عندما أكون في باريس أو لندن، بل أحاول أن أبقى مطّلعًا على ما يستجد.
-كنت أهتم كثيرًا بهذه الأشياء مثلك. حياتي كانت حافلةٌ بها. لكنني أحاول الآن ألا أهتم.
كانت نظرتها مصوّبة إلى طرف الحذاء الساتان الذي يطل من تحت ردائها الطويل.
-تحاولين ألا تهتمي؟
-أجل. أود أن أرمي حياتي الماضية وراء ظهري، وأن أصبح مثل أي شخص آخر هنا.
تصاعدت الدماء في وجه نيولاند وقال:

-لن تكوني مثل أي شخص هنا أبدًا.
رفعت حاجبيها المستقيمين قليلاً وقالت:
-لا تقل هذا! آه... ليتك تدري كم أكره اختلافي عنهم!
اكفهر وجهها حتى تحوّل إلى قناعٍ مأساوي. انحنت إلى الأمام محتضنةً ركبتها بين يديها النحيلتين، وأشاحت بوجهها عنه سارحةً في أفكارٍ مظلمة بعيدة.
ظهر الإصرار على محياها وهي تقول:
-أريد أن أهرب بعيدًا عن كل ما حدث.
انتظر لحظة في صمت قبل أن يتنحنح ويجيب:
-أعلم. هذا ما أخبرني به السيد ليتربلير.
-ماذا؟
-هذا هو سبب مجيئي. هو من طلب مني الحضور، فأنا أعمل في الشركة نفسها.
علت الدهشة وجهها، ثم أضاءت عيناها ببريق الجذل.
-أتقصد أنك تستطيع أن تدبّر الأمر لي؟ أستطيع أن أتحدث معك أنت بدلاً من السيد ليتربلير؟ سوف يكون هذا أسهل بكثير.
سُرّ لقولها وزاد رضاه وثقته بنفسه. أدرك الآن أن ما قالته عن حاجتها إلى مناقشة موضوع خاص معه ما كان سوى عذرٍ تتخلص به من بوفرت، وصرفها له بتلك الطريقة كان انتصارًا لنيولاند. قال:
-أنا هنا كي نتحدث عن ذلك الأمر.
التزمت مدام أولنسكا الصمت، وما زال رأسها مستندًا إلى ذراعها. كان وجهها شاحبًا باهتًا، كأن حمرته قد فرّت لتختبئ في حمرة فستانها القانية. رآها نيولاند فجأة امرأةً تثير الشفقة يُرثى لها.
قال في نفسه: «الآن سوف ندخل في التفاصيل الصعبة». لمس في نفسه الانقباض الذي لطالما انتقده في والدته ومعارفها. إن خبرته في التعامل مع المواقف الغريبة ضحلة سطحية، حتى المفردات التي تُقال في هذه المواقف وقعها غريب على لسانه، كما لو أن مكانها الطبيعي هو الأدب والمسرح لا

الواقع. اعتراه الارتباك والحرج الشديدين من مناقشة هذا الموضوع.
حطّمت مدام أولنسكا اللحظات التي قضاها الاثنان في سكون بأن قالت بحدّة:
-أريد أن أكون حرّة. أريد أن أمحو الماضي كله.
-أفهم هذا.
-إذًا سوف تساعدني؟
-أولاً... ربما يكون من الأفضل... أن أعرف المزيد.
دهشت من قوله:
-أنت تعرف الموضوع؟ ... زوجي... وحياتي معه؟
أومأ برأسه أي نعم.
-إذًا ما المزيد الذي تريد أن تعرفه؟ أهذه الأمور مسموح بها في هذا البلد؟ أنا بروتستانتية، وكنيستنا لا تحرّم الطلاق في هذه الحالات.
-هذا مؤكد.
شملها الصمت ثانيةً، وشعر نيولاند بشبح رسالة الكونت أولنسكي البشعة يجثم بينهما. لم تتعدَّ الرسالة نصف الصفحة، وهي كما وصفها للسيد ليتربلير: تهمة جوفاء من وغدٍ غاضب. لكن ما حقيقة ما جاء فيها؟ لن يستطيع أحد الإجابة عن هذا التساؤل ما عدا زوجة الكونت أولنسكي. قال بعد لحظات:
-لقد اطّلعتُ على الأوراق التي أعطيتها للسيد ليتربلير.
-أرأيتَ أبشع من ذلك؟
-كلا.
اعتدلت الكونتيسة في جلستها، وغطّت عينيها بيدها. أردف نيولاند:
-لابد أنكِ تعلمين أن باستطاعة زوجكِ إن أراد التصدّي لهذه القضية كما يهدد...
-نعم؟
-يستطيع أن ينشر أقاويل غير سا... أعني أقاويل لا ترضيكِ أمام الناس، كي يضركِ حتى لو...
-حتى لو ماذا؟

-أقصد... حتى لو أنها أقاويل لا أساس لها من الصحة.
لم تجبه الكونتيسة بأي كلمة. وطال صمتها ولم يشأ أن يظل محدقًا في وجهها، فثبّت عينيه على يدها التي وضعتها على ركبتها حتى انطبعت في ذهنه معالم اليد بكل تفاصيلها، وبالخواتم الثلاثة في خنصرها وبنصرها، ولاحظ أن ليس من بينها دبلة الزواج.
-ما مدى الضرر الذي قد يلحق بي إن أذاع اتهاماته بين الناس هنا؟
أراد أن يهتف: «يا فتاتي المسكينة! إن الضرر الذي سيلحقكِ هنا يفوق أي ضررٍ في أي مكان آخر». لكنه أجاب بصوتٍ متزنٍ كصوت السيد ليتربلير:
-إن مجتمع نيويورك صغير جدًا مقارنةً بالمجتمع الذي عشتِ فيه. ويحكمه - رغم أن هذا أمر غير ظاهر للعيان - قلة من الأشخاص المتمسكين بمبادئ عفا عليها الزمن.
لم ترد الكونتيسة، فتابع حديثه:
-ونظرتنا إزاء الزواج والطلاق تحديدًا تقليدية. فتشريعاتنا القانونية تجيز الطلاق، لكن تقاليدنا الاجتماعية تنبذه.
-في كل الأحوال؟
-خاصةً إن كانت المرأة - مهما بلغ الظلم الذي طالها، ومهما كانت فوق الشبهات - قد صدر منها ما يمكن أن يُتّخذ ضدها، أو أن تكون قد عرّضت نفسها بغير حصافة منها... إلى إثارة تلميحات مهينة...
أطرقت مدام أولنسكا برأسها قليلاً، وانتظر الشاب آملاً أن يرى ومضة غضب منها، أو صيحة إنكار على الأقل. لكنها لم تنطق بكلمة. دقّت عقارب الساعة، وانشطرت حطبة إلى نصفين مرسلةً شرارات في المدفأة. باتت الحجرة الساكنة القاتمة تنتظر بصمتٍ مع نيولاند. غمغمت الكونتيسة بعد حين:
-أجل. هذا ما حذرتني منه أسرتي.
جفل من ردها فأجاب:
-من الطبيعي أن...

-أسرتنا... وليس أسرتي فقط، فأنت ستصبح قريبي في المستقبل.
احمرّ وجه نيولاند وقال:
-آمل هذا.
-وأنت تتفق معهم في الرأي؟
نهض من مكانه بعد سؤالها، وسار في أرجاء الحجرة محدقًا بلا تركيز في اللوحات المعلقة على الحرير المقصب الأحمر القديم. رجع إلى مكانه بجانبها، والحيرة تنطق واضحة عليه. كيف يقول لها: «نعم، إن كان ما يلمّح إليه زوجكِ صحيح، أو إن لم يكن عندكِ حجة تفنّدين فيها قوله؟». عندما فتح فاه للإجابة، سارعت هي إلى القول:
-بكل صراحة.
نظر إلى نار المدفأة، وأجاب:
-بكل صراحة... ما النفع الذي ستجنينه مقابل احتمالية... بل حتمية انتشار الأقاويل البشعة؟
-لكن... حريتي... ألا تساوي شيئًا؟
خطر في ذهنه في تلك اللحظة أن الاتهام الوارد في تلك الرسالة صحيح، وأنها تأمل الزواج بعشيقها. كيف يخبرها أن قوانين الولاية تعارضها معارضةً شديدة إن كانت تريد حقًا أن تنفّذ هذه الخطة؟ إن مجرد اشتباهه بوجود الفكرة في ذهنها جعل قلبه يقسو عليها، وصبره على كل هذا ينفد. ردّ قائلاً:
-لكن ألستِ حرة مطلقة السراح الآن؟ من يستطيع أن يمسّكِ؟ أخبرني السيد ليتربلير أن ثمة تسوية مالية قد...
قاطعته بلا اهتمام:
-نعم... نعم.
-إذًا... أيستحق الأمر أن تخاطري براحة بالكِ، وتعرضي نفسكِ لأقاويل مزعجة وشبهات لاذعة؟ فكري بالصحف ودناءة ادعاءاتها! أعلم أن في هذه النظرة ظلم وضيق في التفكير، لكن ليس بأيدينا أن نغيّر المجتمع بأسره.

-هذا صحيح.
عندما سمع هذه الكلمة التي لفظتها بصوتٍ خافتٍ بائسٍ، ثار في نفسه الندم على أفكاره القاسية.
-غالبًا ما يُضحّى بالفرد في هذه الحالات إرضاءً لما يدعونه بالصالح العام. والناس يتمسكون بأي مبدأ يحافظ على كيان الأسرة... ويحمي الأطفال إن كان هناك أطفال...
أدرك أنه يثرثر بكلمات جوفاء، ويلقي في وجهها كل العبارات المسكوكة التي تجد طريقها إلى شفتيه، بسبب رغبته القوية في أن يخبأ الواقع الذي كشف صمتها قبحه. وبما أنها لن تقول - أو لا يمكنها أن تقول - الكلمة الوحيدة التي ستخفف من وطأة الموقف، فهو لا يريد أن يشعرها بأنه يحاول التطفل كي يعرف سرّها. الأفضل أن يبقي تحركاته على السطح كما هي عادة نيويورك في التعامل مع كل شيء، بدلاً من أن يكشف الغطاء عن جرح لا يجد له برءًا. تابع حديثه:
-إن مهمتي هي أن أساعدكِ على فهم وجهة نظر أولئك الذين يحبونكِ... كل أصدقائكِ وأقربائكِ من أسرة مينغت وويلند وڤان دِر لويدن. فإن لم أوضّح لكِ بكل صدق وشفافية كيف يحكمون على مثل هذه المواقف، فأنا إذًا لم أقم بعملي كما يجب.
كان ملحًا في كلامه، يكاد يرجوها أن تنطق لتكسر هذا الصمت الذي امتدّ وطال. أجابت ببطء:
-أجل. صحيح.
تهشم حطب المدفأة فصار كومةً من الرماد، وغرغر أحد المصابيح ليلفت الانتباه. فنهضت مدام أولنسكا وأدارت مقبضه، ثم رجعت بقرب المدفأة، لكن دون أن تجلس في مكانها. فهم نيولاند من وقوفها أنه لم يعد هناك المزيد من الحديث، فنهض هو أيضًا. قالت بغتةً:
-حسنٌ... سأفعل ما تريد.

فوجئ بسرعة استسلامها فارتفعت الدماء إلى جبينه، وأمسك كفيها بين يديه بارتباك. قال:

-أنا... أنا أودّ فعلاً أن أساعدكِ.

-أنت تساعدني كثيرًا. تصبح على خير يا قريبي العزيز.

انحنى نيو لاند وطبع قبلةً على يديها الباردتين الميتتين. سحبت الكونتيسة يديها من قبضته، فاستدار إلى الباب والتقط معطفه وقبعته على ضوء مصباح البهو الخافت. خرج من المنزل فالتقمه الليل البارد، وفي عقله ترادفت عباراتٌ وحججٌ فصيحة تأخرت في الظهور.

الفصل الثالث عشر

كانت ليلة حافلةً بالمتفرجين في مسرح (والك).

أما المسرحية فكانت "المتسكع" التي ألفها ديون بوتشيكولت وأدى أيضًا فيها دور المتسكع، مع هاري مونتيغيو وآيدا دايز في دوريّ العاشقين. وقد بلغت شعبية الفرقة المسرحية الإنجليزية المبدعة أوجها، واكتظّت ليالي عرضها بالجماهير دائمًا. كان حماس جماهير الصالة شديدًا، أما أهل المقصورات فيبتسمون قليلاً من المشاعر المبتذلة والمواقف المصطنعة، وهم مستمتعون بالمسرحية مثل بقية حضور الصالة.

وكان هناك مشهد واحد على وجه الخصوص يستحوذ على انتباه الجمهور من أعلى المسرح إلى أسفله، وهو عندما ودّع هاري مونتيغيو الآنسة دايز ورحل، عقب مشهد فراق حزين لم ينطق الحبيبان خلاله إلا بكلماتٍ معدودة. كانت الممثلة واقفة قرب رف المدفأة وهي تحدق بالنار، وكانت ترتدي فستانًا عاديًا من الكشمير الرمادي دون زركشة ولا زينة. وقد فُصّل ليحتضن قدها المشوق، ويهبط متجمّعًا حول قدميها. أما حول عنقها فالتفّ رباط ضيق من المخمل الأسود تدلّى طرفاه على ظهرها.

عندما همّ محبوبها بالرحيل أسندت ذراعيها على رف المدفأة، ودفنت وجهها بين كفيها. توقف هو قبل الخروج عند عتبة الباب، وأدار وجهه لينظر إليها،

فانسلّ عائدًا إلى الحجرة بصمت ورفع أحد طرفي الرباط المخملي ولثمه، ثم خرج دون أن تنتبه لوجوده، ودون أن تغير من وقفتها. وعلى هذا الفراق الصامت، أُسدلت الستارة.

لم يحضر نيولاند عرض "المتسكع" إلا لرؤية هذا المشهد تحديدًا. لم يكن وداع مونتيغيو وآيدا دايز يقل روعةً عن أي مشهد آخر أدّاه الممثلين الفرنسيَين چان باتيسيت بيرسيت وصوفي كورسيت في باريس، أو البريطانييَن مادج روبرتسون وزوجها كيندل على مسارح لندن. فصمت المشهد وحزنه المكتوم يحرك مشاعره أكثر من أشهر الخطب المسرحية.

وفي تلك الليلة اكتسى ذلك المشهد حزنًا لاذعًا، لأنه ذكّره - ولا يعلم لذلك سببًا - بوداعه لمدام أولنسكا بعد حديثهما الخاص قبل أسبوع أو عشرة أيام، مع إن اختلاف الموقفين بيّنٌ واضحٌ كاختلاف الأشخاص فيهما. فلا نيولاند يدعي أنه بوسامة الممثل الإنجليزي الشاب الحالم، ولا الآنسة دايز بجسمها الضخم، وطولها الفارع، وشعرها الأحمر، ووجهها المليح الشاحب تقارب جمال وجه إيلين أولنسكا المتّقد. ولا كان نيولاند ومدام أولنسكا حبيبين افترقا بصمتٍ كسيريّ الفؤاد، بل هما محامٍ وموكّلته افترقا بعد نقاشٍ عرف من خلاله المحامي فداحة قضية الموكلة. إذًا أين التشابه الذي خفق له فؤاد الشاب بهيجان المشتاق؟!

ربما يكون في قدرة مدام أولنسكا الغامضة على اجتذاب أحداثٍ عاطفية مأساوية تفوق تجارب الشخص العادية إلى نفسها. لم يكن هذا الانطباع وليد كلمة قالتها قط، لكنه رغم هذا جزءٌ منها، إما أنه انعكاس لماضيها الغامض المثير للعجب، أو أنه مكون انفعالي غريب في طبيعتها. كان نيولاند يؤمن دومًا أن الحظ والظروف لهما تأثير ضعيف على أقدار البشر، مقارنةً بنزعاتهم الفطرية إلى اجتذاب الأحداث لأنفسهم. وهذه النزعة هي التي لمسها في مدام أولنسكا منذ أن رآها للمرة الأولى، فالشابة الوادعة المستكينة هي أنموذجٌ مثالي للشخص الذي تقع عليه حوادث الدهر، مهما حاولت

تحاشيها والفرار من براثنها. والمثير في الأمر هو أنها عاشت في محيطٍ مشحون بالأحداث الدرامية، فلم تلحظ نزعتها لإثارتها حيثما حلّت، والدليل على هذا هو أنه لاحظ أن لا شيء يفاجئها، أو يخرجها من حالة السكينة الدائمة، فكأنما خرجت من رحم دوامة عظيمة قلبت نظرتها للحياة، فالظروف التي تألفها أشنع وأسوأ من الظروف التي تثور عليها.

ترك نيولاند الكونتيسة وهو مقتنعٌ أن اتهام الكونت أولنسكي لها صحيح، وأنها على الأرجح قد كافأت الرجل الذي ظهر في حياتها بوصفه "السكرتير" نظير دوره في خطة هروبها. إن الظروف التي دفعتها إلى الفرار كانت لا تطاق، ولا يمكن أن يصدقها أحد ناهيك عن أن ينطق بها؛ فقد كانت صغيرة وخائفة ويائسة... فمن الطبيعي أن تكون ممتنةً لمنقذها. المفارقة هي أن امتنانها هذا قد وضعها - أمام القانون وفي أعين المجتمع - على قدم المساواة مع زوجها الرجل السافل. وقد وضّح لها نيولاند هذا الأمر كما نصّت المهمة التي أوكلت إليه، كما أنه أوضح لها أن نيويورك الهانئة طيبة القلب التي اعتمدت على سماحتها وتفهمها هي المكان الذي لن تجد فيه أملاً في التسامح والغفران.

لم يكن سهلاً على الإطلاق أن يشرح لها حقيقة الأمر، أو أن يشهد قبولها القانط للوضع. وجد نفسه ينجذب إليها بخيوط معقودةٍ من عواطف غير مفهومة كالغيرة والشفقة، وكأن جريرتها التي أقرت بها من خلال صمتها وضعتها تحت رحمته وكشفت عن مهانتها، لكن في الوقت نفسه حببتها إليه. وهو سعيد أن أفشت سرها إليه، لا إلى السيد ليتربلير الذي كان سيقابلها حتمًا بنظرة ارتياب قاسية، ولا إلى أسرتها التي كانت ستحدِجُها بنظرة حرج وخزي. ولهذا فقد أخذ على عاتقه أن يطمئنهم بأنها طرحت فكرة الطلاق من ذهنها، وأن سبب عدولها عن قرارها هو تفهمها لعدم جدوى الخوض في الإجراءات القانونية. كانت ردة فعلهم أن تنفسوا الصعداء بارتياح واستبشار، بعد أن تخلصوا من موقف سيكون "غير سارّ" لا محالة.

تفاخرت السيدة ويلند بخطيب ابنتها بعدما حدث، فقالت: "كنت واثقةً أن نيولاند أحسن من يقوم بهذه المهمة". أما السيدة مينغت العجوز التي استدعته في لقاءٍ خاص، فقد هنّأته على حذاقته وقالت: "تلك الساذجة! قلتُ لها بنفسي أن قرارها خطأ. تريد أن تكون إيلين مينغت المطلقة رغم أن حظها وفّقها إلى أن تتزوج من كونت!".

أعادت هذه المواقف إلى ذهن الشاب ذكرى حديثه الأخير مع مدام أولنسكا بكل وضوح، وستارة المسرح تواري فراق الممثلَين، فاغرورقت عيناه بالدموع ونهض ليغادر صالة المسرح.

عندما نهض استدار إلى جانب الصالة من ورائه، فرأى السيدة التي شغلت فكره جالسةً في مقصورةٍ مع بوفرت وزوجته، ولورنس ليفرتس، ورجل آخر أو رجلين. لم يتحدث معها على انفراد منذ ذلك المساء الذي قضياه معًا، وكان يحاول أن يتفادى وجوده معها بصحبة الآخرين. لكن عينيهما التقتا في تلك اللحظة، وكذلك رأته السيدة بوفرت فرفعت يدها بكسلٍ تدعوه للانضمام إليهم، وبات من المستحيل ألا يدخل المقصورة.

أفسح بوفرت وليفرتس مكانًا له، وبعد أن تبادل بضع كلماتٍ مع السيدة بوفرت - التي لا تحب أن تتكلم مع أحد في هذه اللحظات لأنها تخشى أن يفسد ذلك صورتها الجميلة - جلس نيولاند خلف مدام أولنسكا. لم يكن في المقصورة حينئذٍ سوى السيد سيلرتون جاكسون، الذي كان يحكي للسيدة بوفرت بصوتٍ خافتٍ عن حفلة الاستقبال التي أقامتها السيدة ستراثرز يوم الأحد الماضي (قال من حضرها أن بعض الضيوف رقصوا!). كانت السيدة بوفرت تنصت إلى حكايته التفصيلية بابتسامتها الرائعة، رافعةً رأسها كي يتسنى للناس الجالسين في الصالة أن يروا جانب وجهها بوضوح. وبانشغال الاثنين، استدارت مدام أولنسكا وكلّمته بنبرة منخفضة، وهي تلقي بنظرة صوب المسرح:

-أتراه سيرسل إليها باقةً من الورود الصفراء صباح الغد؟

صعـدت الدماء إلى وجـه نيو لاند، وقفز قلبه من قـوة المفاجأة. لقد زار مدام أولنسـكا مرتين فقط، وفي كل مرة أرسل إليها باقة من الورود الصفراء، وفي كل مرة أرسـلها بدون أن يرفق معها بطاقـةً. ولم تذكر الأزهارَ أمامه من قبل قـط، وقد ظنّ أنهـا لم تتوقع أبدًا أن يكـون هو من أرسـلها. إدراكها المفاجئ لمرسـل الهدية، وربطها بمشهد فراق الحبيبين على خشبة المسرح أفعمه ببهجة مثيرة. قال:

-سـألتُ نفسي هذا السـؤال أيضًا... وكنتُ سـأغادر المسرح كـي يظل هذا المشهد مطبوعًا في ذهني.

تعجب عندما تسللت حمرة الخجل القاتمة إلى وجنتيها. لم تحرك عينيها عن منظار الأوبرا اللؤلؤي الذي تمسكه بيديها المكسوّتين بالقفاز. قالت بعد صمت:

-ماذا تفعل عندما تكون ماي مسافرة؟

انزعج قليلاً من السؤال، لكن أجاب:

-أنشغل بعملي.

كانت أسرة ويلند قد سـافرت الأسـبوع الماضي، كعادتهم دائمًا في كل عام إلى سـاينت أوغسـطين[1] لقضاء النصف الأخير من فصل الشـتاء، نظرًا لقابلية السـيد ويلند للإصابـة بالتهاب القصبـات الهوائية. كان السـيد ويلند رجلاً رقيقًـا لـيّن العريكة، قليـل الآراء كثير العـادات، ولا يُسـمح لأي كائن بأن يتدخـل فيهـا. وإحدى هذه العـادات تفرض على زوجته وابنتـه أن يصحباه دائـمًا في رحلته السـنوية إلى الجنوب، فالحفاظ على نمـط حياته بلا تغيير قدر الإمـكان هو أحد الأسـباب التي تجلب له راحة البال. فبدون السـيدة ويلند معه لن يعرف مكان فرشاة شعره، أو مكان الطوابع ليرسل خطاباته.

وكان أفـراد الأسرة شـديدي التعلـق ببعضهم، ووالدهم هو محـل اهتمامهم ورعايتهـم، فلـم يخطـر في بـال زوجتـه أو ماي أن يدعاه يسـافر إلى سـاينت أوغسـطين لوحـده، حتـى ولـداه المحاميـان اللـذان لا يسـتطيعان مغـادرة

(١) مدينة ساحلية في جنوب فلوريدا

نيويورك خلال فصل الشتاء كانا يلحقان بالأسرة إلى هناك، فيحتفلون معًا بعيد الفصح، ثم يعودان بصحبة أبيهما إلى المدينة.
كان من المستحيل أن يفتح نيولاند باب النقاش مع ماي بشأن سفرها مع والدها. إن سمعة طبيب أسرة مينغت مبنيةٌ أساسًا على نجاحه في تجنيب السيد ويلند الإصابة بذات الرئة، حيث إن نصيحته التي لا يحيد عنها هي ضرورة سفره إلى ساينت أوغسطين. وكان الاتفاق في السابق أن تُعلن خطبة ماي بعد عودتها من فلوريدا، فلا يمكن أن يغيّر والدها خطته لمجرد أنهم أعلنوها قبل الأوان المتفق عليه. ودّ نيولاند لو أنه لحق بالمسافرين، ونال بضعة أسابيع يتمتع بها بالشمس الساطعة وركوب الزوارق مع خطيبته، لكن العادات والتقاليد ألزمته مكانه. وعلى الرغم من أن مهام وظيفته لا تشق عليه كثيرًا، فإن كل أقربائه من أسرة مينغت سوف يتهمونه بالطيش إن اقترح طلب إجازة من عمله في منتصف فصل الشتاء. ولهذا فقد تقبّل رحيل ماي باستسلام وقلة حيلةٍ بدأ يرى أنها ستكون مكونًا أساسيًا من مكونات حياته الزوجية.
أحس بأن مدام أولنسكا ترنو إليه بنظرات طويلة من بين أهدابها المسدلة. قالت بغتةً:
-لقد فعلتُ ما طلبته... ما نصحتني به.
ردّ محرجًا من التطرق إلى ذلك الموضوع في تلك اللحظة:
-آه... أنا مسرور لذلك.
تابعت بأنفاسٍ متهدجة:
-أنا أفهم... أنّ وجهة نظرك صحيحة. لكن أحيانًا تكون الحياة صعبة... ومحيرة...
-أعلم.
-وأردتُ أن أخبرك أنني أشعر صدقًا بأنك محق. وأنني ممتنة لك.
رفعت منظار الأوبرا إلى عينيها حالما انتهت من الحديث، وفُتح باب المقصورة وتعالى صوت بوفرت، فقطع السكون.

نهض نيولاند وخرج من المقصورة والمسرح.
لقد تلقّى خطابًا من ماي قبل ذلك بيوم، تطلب فيه بأسلوبها غير الموارب أن يكون «لطيفًا مع إيلين» في غيابهم.
«إنها تستلطفك وتحترمك كثيرًا. ورغم أنها لا تبيّن مشاعرها لكنها ما زالت حزينة ووحيدة. لا أعتقد أن جدتي أو خالي لوفيل يفهمان شخصيتها، فهما يظنان أنها شغوفة بالماديات والمناسبات الاجتماعية. أعرف أن نيويورك تبدو في نظرها جامدةً رتيبة رغم أن العائلة لن تشجّع شعورها هذا. أعتقد أنها اعتادت على أمور ليست متوافرة لدينا كالموسيقى الرائعة، والمعارض الفنية، والشخصيات الشهيرة من فنانين ومؤلفين، وكل أولئك المبدعين الذين تكنّ أنتَ لهم الإعجاب. ويبدو أن جدتي لا تفهم أنها تحتاج إلى أمور أكثر من حفلات العشاء والملابس، لكني أرى أنك تكاد تكون الشخص الوحيد في نيويورك الذي يستطيع أن يتحدث معها عن اهتماماتها الحقيقية».
ماي الحكيمة... كم زاد حبه لها بعد رسالتها هذه! لكنه لا يعتزم أن ينفذ طلبها البتة، فهو أولاً مشغولٌ جدًا، وثانيًا إنه رجل مرتبط بامرأة ولا يريد أن يؤدي دور فارس مدام أولنسكا أمام الملأ. ثم إنه يتوقع أن قدرتها على الاهتمام بنفسها تفوق ما تتخيله ماي البريئة. فبوفرت مرتميٌ تحت قدميها، والسيد ڤان دِر لويدن يحوم حولها كملاكٍ حارس يحميها، وكثير من الرجال عن يمينها وشمالها (ومنهم لورنس ليفرتس) يتحينون الفرصة بين هذين الاثنين. لكن لم يحدث أن رآها أو تكلم معها قط إلا وشعر أن براءة ماي وسلامة طويتها تكاد تكون ضربًا من العرافة، لأن إيلين أولنسكا كانت فعلاً وحيدة وحزينة.

الفصل الرابع عشر

عندما خرج نيولاند إلى بهو صالة المسرح التقى مصادفةً بصديقه نيد وينست. وكان هذا هو الرفيق الوحيد من معارفه «المثقفين» كما تسميهم جايني الذي يحب أن يتعمق في النقاش معه أكثر مما يقع بينه وبين الرفاق الآخرين من مداعبات ومزاح في اجتماعاتهم.

كان قد لمح عبر البهو ظهر وينست العريض بملابسه البالية، ولاحظ فورًا أن بصره معلّق بمقصورة بوفرت. تصافح الرجلان واقترح وينست أن يقصدا مطعمًا ألمانيًا صغيرًا في رأس الشارع لاحتساء الجعة. لم يكن نيولاند في مزاجٍ يسمح له بالخوض في ذلك النوع من الحديث الذي اعتادا على الخوض فيه، فرفض بحجة أن ثمة عملٌ يحتاج إلى أن ينجزه في المنزل. قال وينست:

-والحقيقة أن ثمة عملٌ عليّ انجازه أنا أيضًا. وسأكون مثلك مثالاً «للموظف الكادح».

قطعا معًا مسافةً على الأقدام، ثم قال وينست:

-في الحقيقة... أودّ أن أسألك عن اسم السيدة السمراء في مقصورتكم الفخمة تلك... مقصورة بوفرت أليس هذا صحيح؟ تلك الفاتنة التي يبدو أن ليفرتس متيمٌ بها.

تضايق نيولاند قليلاً وإن لم يعرف السبب. ماذا يريد نيد وينست باسم إيلين أولنسكا؟ والأهم من ذلك، لماذا قرن اسمها باسم ليفرتس؟ لم يكن عهده بوينست أن يكون متطفلاً، لكن نيولاند ذكّر نفسه أنه صحافي مهما كان.

ضحك نيولاند وقال:

-آمل ألا تسأل من أجل مقابلة صحافية؟

ردّ وينست:

-ليست مقابلة صحافية. لا... بل مقابلة شخصية. في الواقع إنها جارتي -

وإن كنتُ مستغربًا من امرأة فاتنة مثلها تسكن في حيّنا - وقد عاملتْ ولدي الصغير بلطف وحنان شديدين. فقد سقط أمام منزلها عندما كان يلاحق هرته، وجُرح جرحًا كبيرًا. فهرعت هي خارج المنزل حاسرةَ الرأس فحملته بين ذراعيها، وضمّدت ركبته واعتنت به. حتى إن جمالها الباهر وعطفها العظيم عقدا لسان زوجتي فنسيتْ أن تسألها عن اسمها.

أحس نيولاند أن وهجًا باهرًا يشعّ في قلبه. لم يكن في الحكاية أي أمر خارق؛ فأي امرأة في مكانها كانت ستفعل ما فعلته لابن الجيران. ومع هذا فقد أحس أن إيلين هي المرأة الوحيدة التي تهرع حاسرة الرأس وتحمل الفتى بين ذراعيها، فتوقع السيدة وينست تحت سحرها، حتى أنستها أن تسألها عن اسمها.

-تلك هي الكونتيسة أولنسكا... إحدى حفيدات السيدة مينغت العجوز.

صفّر وينست متعجبًا وعلّق:

-كونتيسة! لم أعرف أن الكونتيسات رقيقات الحواشي مع جيرانهن هكذا... رغم أن آل مينغت ليسوا كذلك.

-بل هم لطفاء لكن أنتَ لا تصدق ذلك.

كان هذا أحد الموضوعات التي يحتدم النقاش فيها بينهما، وهي إحجام "المثقفين" المتعنتين عن زيارة أبناء الطبقة الراقية والاختلاط بهم، وكلا الرجلين يعرفان أن لا طائل من الاستمرار في هذا الحديث.

-ما الذي يجعل كونتيسةً تسكن في حينا الحقير؟

أجاب نيولاند والزهو الخفي يكاد ينفخ أوداجه:

-لأنها لا تهتم أين تسكن، ولا تعنيها هذه الفروق الاجتماعية الصغيرة.

-أراهن أنها اكتفت من حياة القصور... هذا هو شارعي.

مشى وينست باسترخاءٍ قاطعًا شارع برادواي، وترك نيولاند خلفه يطيل الفكر في كلماته الأخيرة.

دائمًا ما تصدر عن نيد وينست تلك الومضات الخاطفة التي تسبر أغوار

النفس، وهي أكثر صفة ممتعة ومثيرة في شخصيته. ولطالما تساءل نيو لاند كيف لإنسان بهذه الفطنة أن يتقبل الفشل ببلادة حسٍ في عمره هذا، بينما غيره من الرجال ما زالوا يكافحون ليحققوا أهدافهم.

كان نيو لاند يعلم أن لدى وينست زوجة وطفل لكنه لم يرهما قط. فهما يلتقيان دومًا في نادي (سنتشري) أو في أحد أماكن تجمع الصحافيين وهواة المسرح، مثل المطعم الذي اقترح وينست الذهاب إليه. لقد استشفّ نيو لاند من حديثه عن زوجته أنها معتلة الصحة، وإما أن تكون المسكينة كذلك حقًا، أو أنها لا تجيد فنون الاتيكيت، أو لا تملك الملابس اللائقة لاستقبال الضيوف أو كليهما. وينست شخصيًا كان يحمل مقتًا وبغضًا عنيفين للطقوس الاجتماعية. أما نيو لاند الذي يرتدي في المساء ملابسَ تختلف عن ملابس الصباح لأن ذلك أنظف وأكثر راحةً، لم يخطر في باله قط أن النظافة والراحة تثقلان جيب الرجل الكادح، وكان يعدّ وجهة نظر وينست جزءًا من موقفه "البوهيمي" الممل، الذي يهدف منه إلى أن يصوّر أبناء الطبقة الراقية الذين يبدّلون ملابسهم بدون تفكير ولا يحصون عدد الخدم لديهم بأنهم أتفه الناس، وأكثرهم اعتدادًا بأنفسهم. لكن نيو لاند مع هذا يجد أن وينست يستثير ذهنه وفكره، ومتى رأى وجه الصحافي الملتحي وعينيه الكئيبتين فإنه يجذبه للخروج من زاويته المعزولة، ليخوض معه في حديث طويل.

لم يكن وينست صحافيًا باختياره، فهو صاحب قلم نقي لكنه وُلد في زمنٍ لا يحتاج إلى الأقلام. وبعد أن نشر مجلدًا من المختاراتً الأدبية الموجزة البديعة بيع منه مائة وعشرون نسخة، وأُهديت ثلاثون نسخة، وأتلف الناشر البقية (حسبما نصّ العقد) لإفساح المجال لأعمال أخرى أكثر رواجًا، هجر وينست رسالته في الحياة، وعمل مساعد محرر في صحيفة نسائية أسبوعية تُعنى بالكتابة عن آخر الأزياء والنقوش الورقية، والقصص الرومانسية في نيو إنجلاند، وإعلانات المشروبات الخالية من الكحول.

ومن يسمع وينست يتحدث عن "هيرث فايرز" وهو اسم صحيفته، فسيجده

مسليًا مضحكًا، لكن تحت مرحه المصطنع تكمن مرارةً عقيمةً في قلب شابٍ حاول ثم استسلم. والحديث معه يدفع نيولاند دائمًا إلى إعادة تقويم حياته، فيصدم من فقرها وعوزها، ومع هذا فحياة وينست أفقر وأعوز. ورغم أن حرارة نقاشاتهما كانت مُستمدَّة من اهتماماتهما وميولهما الثقافية المشتركة، فإن تبادل الآراء بينهما يكون دائمًا محصورًا في حدود التذوق الفني الهاوي، دون تطبيق أو مشاركة. قال وينست مرةً:

-الحقيقة هي أن الحياة ضاقت بي وبك. أنا فقير معدم وليس بيدي ما أفعله لأغير هذا. ليس بيدي سوى منتج واحد ولا سوقَ لهذا المنتج هنا، ولن يكون له رواج في زمني. لكن أنت حر مطلق السراح، وفوق هذا غني... لماذا لا تتلمس أنت الواقع؟ لا توجد سوى طريقة واحدة لتحقيق هذا: أن تدخل المجال السياسي.

ضحك نيولاند بصوت عالٍ. هنا يرى المرء سعة الهوة بين الرجال من شاكلة وينست، والآخرين من أمثال نيولاند. كل شخص من الطبقات الرفيعة يعرف أنه لا يمكن لنبيل التدخل في السياسة في أمريكا. وبما أنه لا يستطيع أن يصرح بهذا لوينست فقد أجاب متهربًا:

-انظر إلى مهنة السياسيين المحترمين في أمريكا؟ إنهم لا يريدوننا.

-من "هم"؟ لم لا تجتمعون كلكم وتصبحون "هم"؟

ماتت ضحكة نيولاند فلم يبقَ سوى شبح ابتسامة مشفقة على شفتيه. لا جدوى من إطالة النقاش، فكل الناس يعرفون النهاية السوداء التي حلّت على أولئك النبلاء القلة الذين جازفوا بغسيلهم النظيف في وحل السياسة البلدية، أو سياسة الولاية في نيويورك. ولّت تلك الأيام التي يستطيع فيها النبيل التدخل في السياسة، فالبلد الآن رهينة في قبضة التجار والمهاجرين، أما أصحاب الأصل الرفيع فتقهقروا إلى مراتع الثقافة وملاعب الرياضة.

-الثقافة! أجل... لو كان لدينا ثقافة! كل ما بقي هو مراع قليلة متفرقة هنا وهناك... جدباء من قلة الحرث والتسميد... آخر بقايا التقاليد الأوروبية

التـي جلبهـا أسـلافك معهـم. لكنكم قلـة ضعيفـة، مهيضة الجنـاح منتوفة الريش... لا أساس لكم ولا خصوم ولا هاتفين. أنتم مثل اللوحات المعلّقة في بيت مهجور... فلنسـمِّ اللوحة "طيف نبيل"... لن تحرزوا أي نجاح أبدًا أبدًا... كلكم... إلا إذا شمّرتم عن سواعدكم وخضتم في الوحل... إما هذا أو الهجرة... آه! لو كنتُ أستطيع الهجرة...

هـز نيولاند كتفيه، وغيّر مجرى الحديـث إلى الكتب لأن هذا المجال هو الذي يجـد وينسـت فيه ممتعـاً. الهجرة! وكأنما يحـق للنبيل أن يهجـر وطنه! لا... لا يحق له الهجرة كما لا يحق له أن يشمّر عن ساعديه ويخوض في الوحل. النبيل يمكث في منزله ويحجم عن المشـاركة. لكنك لا تستطيع أن تجعل رجلاً مثل وينسـت يفهم هـذا، ولهذا فإن نيويـورك النوادي الأدبيـة والمطاعم الأجنبية تبدو من اللمحة الأولى كمشكالٍ، لكن في النهاية تكتشف أنها مجرد صندوق صغير، تدور فيه صورة واحدة لا غير.

***

في الصبـاح التالي، جال نيولاند المدينة وطاف بهـا بحثًا عن ورودٍ صفراء بلا طائـل، فوصل متأخرًا إلى مكتبه. كان يعلم أن وصوله متأخرًا لا يشـكّل أي فرقٍ لأي أحد، فغمره في لحظاتٍ غيظ خانق من عبثية وجوده. لماذا لا يكون الآن على شـواطئ ساينت أوغسـطين مع خطيبته ماي؟ إنّ التظاهر بانشغاله بالعمـل خدعة لا تنطلي على أحد. ففـي شركات المحاماة العريقة مثل شركة السـيد ليتربلـير التـي تتـولى إدارة الأمـلاك والعقـارات الشاسـعة، والقيام بالاسـتثمارات المتحفظـة، دائمًا ما يكون من بين موظفيها شـابان أو ثلاثة من الموسريـن ممن لا يملكون أي طموح مهني. فهم يقضون عددًا من سـاعات يومهـم وراء مكاتبهـم، ينفذون مهـام تافهة أو يقـرأون الصحف. ورغم أن مجتمعهم يستحسـن أن يكـون لهؤلاء مهنٌ، فإن عملية جنـي المال بالعمل ما زالت تُقابل بالازدراء، وقد فضّلوا المحاماة على التجارة لأنها من أنبل المهن. غير أنّ لا أحد من هؤلاء الشباب يحمل في نفسه آمالاً عالية، أو رغبة صادقة

للارتقاء في مهنته، فلذا تجد عفن الروتين يستفحل في حياتهم بوضوح.
اقشعر جسد نيولاند عندما فكر أن هذا العفن سوف يستفحل في حياته الآن. صحيحٌ أن له ميولٌ وهوايات أخرى في حياته، فهو يقضي عطلاته في الترحال في أوروبا، ويحيط نفسه "بالمبدعين" الذين تحدثت عنهم ماي، ويحاول قصارى جهده في أن يبقى مطّلعًا على كل ما يستجد كما باح مرةً لمدام أولنسكا، لكن ماذا سيحدث لهذا الهامش الضيق الذي يعيش فيه تجارب حياته الحقيقية بعد أن يتزوج؟ لقد رأى شبابًا كثيرين من قبل كانوا يحلمون حلمه نفسه - وإن كانوا أقل حماسةً وشغفًا منه - ثم تضعف هممهم بعد أن يرضخوا لنمط حياة آبائهم الرتيبة المرفّهة.
كتب من مكتبه رسالةً مقتضبة، وبعثها مع المراسل إلى مدام أولنسكا يسألها إن كانت تأذن له بزيارتها عصر ذلك اليوم، راجيًا أن يجد ردًا منها في ناديه. لكنه لم يجد في انتظاره أي رد في النادي، ولم يتلقَّ أي خطاب في اليوم الذي تلاه. جرح هذا الصمت غير المتوقع عزّة نفسه جرحًا بالغًا بشكل لم يتصوره، ورغم أنه رأى في اليوم التالي حزمًا من الورود الصفراء في واجهة أحد محلات الأزهار، فإنه تركها ولم يشترِ منها شيئًا. وحالما حلّ صباح اليوم الثالث تلقى خطابًا بالبريد من الكونتيسة أولنسكا، وفوجئ بأنها بعثته من سكويتركليف حيث عاد السيد ڤان دِر لويدن وزوجته مباشرةً بعد أن رحل الدوق على متن سفينته.
بدأت خطابها (دون المقدمات المعتادة):
"لقد هربتُ. اصطحبني هؤلاء الأصدقاء الكرماء معهم في اليوم الذي تلا لقاءنا في المسرح. أردّتُ أن أنفرد بنفسي وأفكر. كنتَ محقًا عندما أثنيت على كرمهما. أشعر بالأمان هنا. ليتكَ هنا معنا".
وختمت الرسالة "بالمخلصة" دون أن تشير إلى موعد عودتها. تعجب الشاب من نبرة الخطاب. ممَ هربت مدام أولنسكا؟ ولماذا تبحث عن الأمان؟ ظن في البداية أن خطرًا من خارج البلاد يتربص بها، ثم تذكر أنه لا يعرف أسلوبها في كتابة الرسائل. فلربما تميل إلى المبالغة في تصويرها، والنساء ميّالات دائمًا

إلى المبالغة. وكذلك فإن لغتها الإنجليزية ركيكة قليلاً، فهي تتحدث غالبًا كما لو أنها تترجم أفكارها من الفرنسية. إن كان ما قصدته هو "Je me suis évadée" فبداية الرسالة تعني ببساطة أنها أرادت الفرار من ملل الزيارات. وهذا يتفق مع تصوره عن شخصيتها المتقلبة التي تضجر من متع اللحظة.

ابتهج عندما علم أن السيد والسيدة ڤان دِر لويدن أخذاها إلى عزبة سكويتر كليف للمرة الثانية، وهذه المرة لمدة غير محددة. فأبواب عزبتهما نادرًا ما تُفتح للزوار، إلا في بعض الأحيان عندما تُفتح كرهًا لبعض الصفوة لقضاء نهاية الأسبوع فقط بين جدرانها المثلجة. في زيارة نيولاند الأخيرة إلى باريس حضر عرضًا لمسرحية "رحلة السيد باريشون" ليوجين لابيش، وتذكر تعلّق السيد باريشون المهووس بالشاب الذي أنقذه من النهر الجليدي. إن هنري ولويزا ڤان دِر لويدن قد أنقذا مدام أولنسكا من مصير يماثل مصير الشاب برودةً، ورغم أنها تتحلى بصفات كثيرة تجذبهما إليها، فإن نيولاند واثق أن وراء كل هذا الاهتمام واللطف هو تصميمها الشديد على الاستمرار في إنقاذها وحوطها بعنايتهما.

اغتمّ كثيرًا لأنها ليست في المدينة، ثم تذكر أنه رفض قبل أيام دعوةً لقضاء يوم الأحد المقبل مع أسرة ريجي تشيڤرس في منزلهم على ضفة نهر هدسون، والذي يقع على بعد أميال قليلة من سكويتر كليف.

كان قد اكتفى منذ زمن طويل من ضوضاء حفلات (هايبانك)[1]، وما يُشغل الناس أنفسهم فيه هناك من تزلج وتزحلق على الجليد، وسباق بالقوارب على الأنهار المتجمدة، ونزهات طويلة على الثلج، ومغازلات بريئة ومقالب سخيفة. لقد تسلّم صندوقًا من الكتب الجديدة من بائع الكتب الذي يتعامل معه في لندن، وكان يطمع في أن يمضي الأحد في هدوء وسكينة وحيدًا مع غنائمه في المنزل. لكنه رغم هذا هب واقفًا إلى حجرة الكتابة في النادي وكتب برقيةً سريعةً، وطلب من الخادم أن يرسلها فورًا. كان يعلم أن السيدة تشيڤرس لن تمانع إن غيّر ضيوفها رأيهم بغتة، وأن غرف الضيوف في منزلها الرحب كثيرة.

(١) اسم منزل أسرة ريجي تشيڤرس

الفصل الخامس عشر

وصل نيولاند إلى منزل تشيڤرس مساء الجمعة، وقضى يوم السبت بطوله منصاعًا للطقوس التي اعتادوا القيام بها في أية نهاية أسبوع يقضونها في (هايبانك).
ففي الصباح ذهب في نزهة بالقارب على النهر المتجمد[1] مع مضيفته وثلة من الضيوف، وعند العصر تجوّل في المزرعة المجهزة بإسطبلات واسعة، واستمع إلى خطب طويلة تعدد مآثر الخيول، وبعد أن شربوا الشاي دردش في زاويةٍ من زوايا الصالة المضاءة بنار المدفأة مع شابة اعترفت له أن فؤادها انفطر حزنًا عندما سمعت خبر خطوبته، ثم بدأت تحكي له بحماسة عن آمالها في زوج المستقبل، وعندما حل منتصف الليل أخيرًا اشترك مع آخرين في وضع سمكة زينة في سرير أحد الضيوف، وألبسوا دميةً ملابس لصٍ وخبّأوها في حمّام إحدى العمات لإفزاعها، ثم أمضوا الساعات القليلة بعد منتصف الليل في حرب وسائد جماعية. لكن حالما انتهى من طعام الغداء في يوم الأحد، استعار زلاجةً يجرها حصان وحيد وقادها إلى سكويتركليف.
كثيرًا ما قيل للناس أن منزل عزبة سكويتركليف مشيد على طراز الفلل الإيطالية، وصدقّ هذا من لم يزر إيطاليا قط، وقليل ممن زاروها. بنى السيد ڤان دِر لويدن المنزل في شبابه بعد عودته من «الرحلة الكبرى»[2] استعدادًا لزواجه المرتقب من الآنسة لويزا داغنيت. كان المنزل بناءً خشبيًا مكعب الشكل على مساحة كبيرة من الأرض، وجدرانه مطلية باللونين الأبيض والأخضر الفاتح، وله رواق كورنيثي، وأنصاف أعمدة مثلّمة بارزة بين نوافذه. ومن صعيد المنزل يهبط عدد من الشرفات المسوّرة بتفاريج الدرابزين والجِرار، التي تفضي إلى بحيرة صغيرة غير منتظمة الشكل، ويتدلى على

(١) تزود القوارب بزلاجات كي تنزلق على سطح النهر المتجمد

(٢) هي جولة في أرجاء قارة أوروبا يقوم بها الشباب الأثرياء في مقتبل حياتهم

ضفافها أشجار الصنوبر المتهدّلة النادرة. وعلى المسطحات الخضراء توزّعت يمنةً ويسرةً أشكال متنوعة من الأشجار من كافة الفصائل، وامتدت الحديقة فسيحةً وفي نهايتها أعشاب عالية، تتناثر بينها تحفٌ أنيقة من الحديد. وعلى مقربة يقع البيت الحجري المكوّن من أربع حجرات والذي بناه السيد الإقطاعي الأول عندما أُعطي الأرض في عام 1612م.

لاحت الفيلا الإيطالية مكفهرةً في الأفق مع خط التقاء الأرض المستترة تحت السجاد الثلجي وسماء الشتاء الرمادية. ولم يكن المنزل أفضلَ حالاً في الصيف، فقد كان معزولاً عن كل شيء، حتى أحواض القوليوس لا تتجرأ أن تقترب أكثر من ثلاثين قدمًا من واجهته المريعة. دقّ نيولاند الباب وسمع صدى الرنّة الطويلة يصدح داخل المنزل الذي بدا كالضريح... مهجورًا كئيبًا. فتح الباب بعد دقائق طويلة خادمٌ وعلى وجهه عجبٌ شديد كأنما أُوقظ من سباته الأخير. ولحسن حظ نيولاند أنه من أفراد العائلة - وإن لم يكن حضوره متوقعًا - فلهذا أبلغه الخادم أن الكونتيسة أولنسكا غير موجودةٍ، حيث إنها خرجت مع السيدة ڤان دِر لويدن لحضور قداس العصر قبل ساعة إلا ربع بالضبط.

-إنّ السيد ڤان دِر لويدن موجود يا سيدي، لكني أظن أنه إما مستغرق في قيلولته أو أنه يقرأ نسخة أمس من صحيفة (إيڤيننغ بوست). سمعتُه يقول يا سيدي بعد عودته صباح اليوم من الكنيسة أنه يعتزم الاطلاع على الصحيفة بعد الغداء. إن أحببت يا سيدي يمكنني استراق السمع من وراء باب المكتبة...

شكره نيولاند وقال إنه سيذهب لملاقاة السيدتين. أغلق الخادم الباب الضخم خلفه بارتياح.

أخذ سائسٌ عربة نيولاند إلى الإصطبلات، فاتجه هو على قدميه قاطعًا الحديقة متجهًا إلى الطريق العام. إن قرية سكويتركليف تبعد ميلاً ونصف عن العزبة، وهو يعلم أن السيدة ڤان دِر لويدن لا تسير أبدًا، فقرر السير بمحاذاة الطريق لمقابلة عربتها. بيد أنه ما لبث أن رأى امرأةً نحيلة متدثرةً

بعباءة حمراء، تسير في ممشى ضيق يتقاطع مع الطريق العام، وكلبًا يجري أمامها. حثّ خطاه تجاهها فتوقفت مدام أولنسكا تحييه بابتسامة واسعة. قالت وهي تسحب يدها من ثنايا مُدفِّئة يديها:

-لقد أتيتَ!

جعلتها العباءة الحمراء تبدو مبتهجةً متّقدة، كما كانت إيلين مينغت التي عرفها في صباه. ضحك وهو يأخذ يدها وأجاب:

-أتيتُ لأرى مما هربتِ.

عبرت غمامة حزن وجهها لكنها ردّت:

-آها... سوف ترى قريبًا.

حيّرته إجابتها. سأل:

-لماذا... أتقصدين أن الخطر لحق بكِ؟

هزت كتفيها بلا رد كما تفعل خادمتها ناستاسيا. قالت بنبرة استخفاف:

-هلّا مشينا؟ أحس ببردٍ شديد بعد سماع الخطبة... وما الذي يهم الآن وأنت هنا تحميني؟

ارتفع الدم إلى صدغيه وأمسك طرف عباءتها.

-إيلين... ما الخطب؟ يجب أن تقولي لي.

-سأخبرك في الحال... لكن بعد أن نتسابق أولاً. قدماي تجمّدتا.

جمعت أطراف عباءتها وانطلقت تجري على الثلج، والكلب يتواثب حولها يستحثّها بنباحه. وقف نيولاند لحظاتٍ يشاهدها مستمعًا بالوميض الأحمر الذي يشق طريقه بين الثلوج، ثم هرول خلفها. التقيا ضاحكين مبهوري الأنفاس عند باب يقود إلى حديقة. رفعت عينيها إليه وابتسمت وهي تقول:

-كنتُ واثقة أنك ستأتي!

أجاب في سعادة أعظم مما تستحق ثرثرتها:

-هذا يعني أنكِ أردتِ أن أحضر.

نثر الثلج الأبيض على أفرع الأشجار ضياءه وبريقه في الهواء، والأرض تغني

لها وهما يخطوان فوق ردائها الناصع. سألته مدام أولنسكا:

-من أين أتيتَ؟

أجابها، ثم أضاف:

-أتيتُ لأنني تلقيت رسالتكِ.

خيم عليهما السكون لحظات، ثم قطعته بنبرة باردة:

-ماي طلبت منك الاهتمام بي.

-لم أحتج إلى من يطلب مني.

-أتعنـي... أن ضعفي وقلة حيلتي واضحـان؟ لابد أن رأيكم فيّ سيء جدًا. لكن يبدو أن النساء هنا لا يشعرن بالحاجة أبدًا... مثل المنعّمات في الجنة.

أخفض صوته وهو يسأل:

-الحاجة إلى ماذا؟

أتى ردها حاسمًا شرسًا:

-أوه... توقف عن سؤالي! أنا لا أتحدث لغتك.

صعقته الإجابة كأنها صفعته، فتوقف في الممشى ينظر إليها.

-لماذا أتيتُ إذًا إن لم أكن أتحدث لغتكِ؟!

وضعت يدها على ذراعه برفق.

-يا صديقي...

-إيلين... أرجوكِ... لماذا لا تخبريني ما الخطب.

-أيقع أي خطب في الجنة؟

تابعا مسيرهما بصمتٍ لبضع ياردات حتى قالت:

-سـوف أخبرك... لكن أين؟... أين؟! لا يسـتطيع المرء أن ينفرد بنفسه ولو لدقيقـة في ذلـك المنزل بأبوابه المشرعـة وطاقم خدمه... هذا يحضر الشـاي، وآخر قطعة حطب للمدفأة، وثالث الصحيفة! ألا ينفرد الأمريكيون بأنفسهم حتى في منازلهم؟ أنت مثلاً شديد الخجل ومع هذا فتحب الاختلاط بالناس. أشعر دائمًا أنني على خشبة المسرح... أمام متفرجين بالغي الأدب والتهذيب

ولا يصفقون أبدًا.

-ألا تحبين وجودكِ معنا؟

مرّا في سيرهما على بيت السيد الإقطاعي الأول بجدرانه القصيرة، ونوافذه الصغيرة المتجمعة حول مدخنة رئيسية. كانت دَرَفات النوافذ النظيفة مفتوحة، فرأى نيولاند عبر زجاجها ضوء نار المدفأة.

-غريبة! المنزل مفتوح!

-مفتوح اليوم فقط. أردتُ أن أراه فأمر السيد ڤان دِر لويدن بإضرام نار مدفأته، وفتح نوافذه كي نتوقف عنده بعد عودتنا من الكنيسة صباح اليوم. انظر... إن بابه غير موصد! يا لحسن حظنا! فلندخل ونتحدث بهدوء. لقد ذهبتْ السيدة ڤان دِر لويدن لزيارة عمّاتها العجائز في (راينبك)، ولن ينتظر أحد عودتنا إلى المنزل إلا بعد ساعة.

تبعها عبر مدخل البيت الضيّق. كان مزاجه متعكرًا إلى أن قالت كلماتها الأخيرة، فكأنها بثّت في روحه حياةً جديدة. انتصب البيت الصغير المتواضع أمامهما، بزجاجه ونحاسه اللذين يعكسان وهج النار، وكأنما خرج بفعل السحر كي يرحب بهما، وكومة من الجمر ما زالت تتوهج في مدخنة المطبخ تحت قدر حديدية معلقٌ من دعامة أثرية. كان هناك كرسيان من الخوص يواجهان بعضهما أمام الموقد، وصفوف من أطباق (دلفت) الفخارية تقف على رفوف الحائط. وقف نيولاند أمام الموقد ورمى قطعة حطب على الجمر الخامد. خلعت مدام أولنسكا عباءتها وجلست على أحد الكراسي. أسند نيولاند ظهره إلى المدخنة ونظر إليها. قال:

-أنت تضحكين الآن، لكن عندما كتبتِ لي رسالتكِ كنتِ مهمومةً.

-أجل. لكني لا أشعر بالهم عندما تكون معي.

تجمدت الكلمات على شفتيه. فتحهما ليقول باقتضاب:

-لن أطيل المكوث هنا.

-أجل.. أعلم. لكنني لا أفكر بالمستقبل. أنا أعيش في أعماق اللحظة عندما

أكون سعيدة.

تسللت كلماتها إلى كيانه تتهادى وتستميل. أراد أن يغلق أبواب قلبه عنها، فابتعد عن الموقد ووقف يحدق في جذوع الأشجار السوداء على صفحة الثلج الأبيض. أحس أنها هي أيضًا تحركت في مكانها، ورأى انعكاس صورتها في النافذة بينه وبين الأشجار وهي تنحني مقتربةً من النار وتبتسم بتراخ. تمرّد قلب نيولاند عليه فأسرع في نبضاته. ماذا لو أنها كانت تهرب منه هو؟ وأنها ما جاءت إلى هذه الحجرة السرية معه لوحدها إلا كي تقول له ذلك؟

-إيلين... إن كنتِ تريدين مساعدتي... إن أردتِ حقًا أن آتي إلى هنا... فأخبريني ما الخطب؟ أخبريني مما تهربين؟

تكلم دون أن يتحرك من مكانه، ودون حتى أن يلتفت إليها. إن كان سيحدث شيءٌ ما فهو يريد أن تفصل الحجرة بعرضها بينهما، وأن تبقى عيناه محدقتان في الثلج.

ظلت صامتةً لحظاتٍ مديدة. في تلك اللحظات تخيّل نيولاند - بل كاد يسمع خطواتها - وهي تتسلل خلفه وتحيط عنقه بذراعيها النحيلتين. وبينما هو ينتظر روحًا وجسدًا هذه المعجزة، لمحت عيناه رجلاً يرتدي معطفًا ثقيلاً ويرفع ياقته الفرو يدرأ عن نفسه البرد، وهو يسير على الممشى المؤدي إلى البيت. كان ذلك الرجل هو جوليوس بوفرت.

انفجر نيولاند ضاحكًا ضحكة مريرة جوفاء.

قفزت مدام أولنسكا من مكانها، وجاءت إلى جانبه فدسّت يدها في يده، لكن بعد أن وجهت نظرها إلى النافذة شحب وجهها وانكمشت. قال نيولاند بسخرية:

-إذًا هذا هو الأمر؟

دمدمت مدام أولنسكا:

-لم أكن أعلم أنه هنا.

كانت يدها ما زالت ممسكةً بيد نيولاند، فسحب يده واتجه إلى دهليز البيت

الحجري، وفتح الباب على مصراعيه.

-أهلاً يا بوفرت... تفضل.. تفضل. إن مدام أولنسكا تنتظرك.

***

استعرض نيولاند أثناء رحلة عودته إلى نيويورك في الصباح التالي لحظاته الأخيرة في سكويتركليف بوضوح موجع.

تعامل بوفرت مع الموقف بتعاليه الوقح كعادته رغم انزعاجه الواضح من وجود الشاب مع مدام أولنسكا، بل إن مهارته في تجاهل وجود الأشخاص الذين لا يرغب في رؤيتهم تجعلهم يشعرون بأنهم خفيّون ولا وجود لهم. سار الثلاثة معًا عبر الحديقة، وشعر نيولاند بأنه مجرد خيال يسبح في الهواء بلا جسد، ورغم ما لهذا الشعور من تأثير مدمر لكبريائه فقد منحه ميزةً عجيبة، وهي أنه أصبح يراقب ولا يُراقب.. أصبح هو المتفرج لا العارض.

كان بوفرت قد دخل البيت الحجري الصغير بخطوته الواثقة وابتسامته المختالة، لكن ابتسامته لم تخفِ انزواء حاجبيه. من الواضح أن مدام أولنسكا لم تكن تعلم أنه قادم، رغم أن كلماتها لنيولاند أوحت بأنها توقعت مجيئه. يبدو أنها لم تخبره أين ستذهب عندما غادرت نيويورك، فأصابه رحيلها غير المسوَّغ بالسخط والغيظ. زعم أن سبب حضوره هو أنه وجد في الليلة السابقة منزلاً صغيرًا أنيقًا يناسبها تمامًا معروضًا للبيع، لكن عروض شرائه كثيرة، وسيضيع من يديها بلمح البصر إن لم تعجّل بشرائه. وقد أكثر من لومها وتقريعها مازحًا لما سببته له من متاعب بهروبها، وبحثه المضني عنها بعد أن وجد لها "المنزل المثالي".

زمجر مخفيًا استياءه من أمرٍ بتذمره من أمر آخر:

-لو أنهم أتمّوا ذلك الاختراع الذي يتحدثون عنه، واستطعت أن أكلمك عبر الأسلاك من المدينة، لكانت قدماي تنعمان بالدفء أمام مدفأة النادي في هذه اللحظة، بدلاً من أن أجري لألحقكِ في هذا الثلج.

وحالما انتهى من حديثه أمسكت مدام أولنسكا خيط الحوار، وأدارته إلى

فكـرة الـكلام يومًـا ما مع الآخرين من منـزل إلى منزل آخر، بـل ومن مدينة إلى أخرى. كم هو حلمٌ عظيم! وبدأ الثلاثة يناقشون فكرة الاختراع الجديد، ويشـيرون في حديثهـم إلى إدغار آلان بـو وچول ڤيرن[1]، ومـن الطبيعي أن يكـون حديثهم يحمل نبرات التشـكك وعدم التصديق كعـادة الناس عندما يتحدثـون عـن اخـتراع حديث سـابقٍ لأوانـه، وإن كانـوا من أذكـى الناس وأكثرهم اطلاعًا، لأنهم يرون أن من السذاجة أن يسلّموا عقولهم بالتصديق بإمكانيـة تحقيقه. وبهذا كان الحديث عن اختراع الهاتف السـفينة الآمنة التي حملتهم إلى المنزل الكبير.

لم تكن السيدة ڤان دِر لويدن قد وصلت المنزل بعد. استأذن نيولاند بالرحيل وذهب ليحضر عربته، بينما تبع بوفرت الكونتيسـة أولنسكا إلى داخل المنزل. وعلى الأرجح أن بوفرت سوف يبقى إلى أن تطلب السيدة ڤان دِر لويدن منه تناول العشـاء معهم، وإن كانوا لا يحبـذون الزيارات المفاجئة، ثم يسرع بعد ذلـك إلى المحطة للحاق بقطار التاسـعة ليلاً. ولكنه قطعًـا لن يجد منهم أكثر من وجبة عشاء، فلن يتوقع أهل البيت أن سيدًا محترمًا قد يبيت ليلته عندهم وهو المسافر بلا أمتعة، وليس من الذوق أن يعرضوا على بوفرت المبيت وهم ليسوا على صلة وطيدة به.

لم يخامـر نيولاند أي شـك في أن بوفرت يعرف هـذا ويتوقعه، وهذا ما يجعل نيولاند يرى أن تكبد المصرفيّ عناء الرحلة الطويلة نظير مكافأة تافهة كهذه لا تدل إلا على أن صبره نفد. إن الرجل يطارد الكونتيسة أولنسكا ولا جدال في ذلك، وبوفرت لا يلاحق الحسناوات إلا وفي ذهنه هدف واحدٌ ينوي إصابته. إن الحيـاة في منزله تخنقه، فهي فاترة كامدة بلا أطفال يزينونها، وهو لا يتورع عن البحث عن تسـليات تزيل همه وضيقه، ولا يخجل من أن يصطاد فرائسه داخل رقعة معارفه. ذاك هو الرجل الذي أقرّت مدام أولنسـكا بلسـانها أنها تفرّ منه، أما السـؤال فهو: أتفرّ منـه لأن إلحافه في مطاردتها أثار فيها الغضب

(١) من الكتّاب الذين تخيلوا وجود اختراعات علمية معجزة وسابقة لزمنها

والضجر؟ أم أنها تفر لأنها تخشى أن تضعف فلا يمكنها مقاومته؟ إلا طبعًا إذا كان حديثها عن الفرار والخطر ما هو إلا تعمية للحقيقة، وما كان رحيلها المباغت سوى مناورةٍ منها لتوقعه في شراكها.

لم يصدق قلب نيولاند هذه النظرية. إنه لم يقابل مدام أولنسكا سوى مراتٍ معدودات لكنه متأكد أنه يستطيع قراءة أفكارها من حركات وجهها، وإن لم يكن من وجهها فمن صوتها. وعندما ظهر بوفرت فجأةً رأى من خلال الاثنين أنها انزعجت، أو ربما حتى فزعت. لكن إن افترض أن هذه هي الحقيقة، أليست هي أدهى وأمرَ من مغادرتها نيويورك بغية لقاء بوفرت هنا؟ إن كان هذا ما حدث، فإن منزلتها بينهم سوف تنحطّ بلا أمل في الارتقاء... إن هي مهدّت دربًا لبوفرت كي يغتنمها، فهي إذًا في مصافّ عشيقاته الخليعات. كلا بل إن مصيرها سيكون أسوأ من هذا ألف مرة، إن كانت تدرك حقيقة بوفرت وتمقته ومع ذلك فإنها منجذبةٌ إليه، ومأخوذةٌ بما فيه من خصالٍ تعميها عن بقية الرجال: فهو رجل عاش في قارتين ومجتمعين، وعلاقاته متفرّعة مع الفنانين والممثلين، ومع من لهم إكبار وهيبة في عيون الناس عامةً، وهو يعلن بغضه لأحكام المجتمع الضيقة. صحيحٌ أن بوفرت رجل سوقيٌ جاهل متبجحٌ بأمواله، لكن الظروف التي مرّ بها في حياته، وذكاءه الفطري ونباهته جعلاه أفضل رجل يمكنها التحدث معه، حتى وإن كان غيره من الرجال أفضل منه مكانةً وأكرم خلقًا، فإنّ آفاقهم ضيقةٌ بضيق المسافة ما بين باتري وسنترال بارك. أنّى لأي شخص يفد من عالمٍ أرحب وأكبر ألا يحس بالفرق؟ وكيف لها ألا تنجذب إليه؟

قد قالت مدام أولنسكا في سورة حنق أنها ونيولاند لا يتحدثان اللغة نفسها، والشاب يؤمن في دخيلة نفسه بصدق قولها. أما بوفرت فيفهم كل تقاسيم لهجتها ويتحدث بها في طلاقة. فنظرته إلى الحياة وأسلوبه ومبادئه... ما هذه إلا انعكاس أقبح للمحات التي اقتبسها نيولاند من شخصية الكونت أولنسكي في رسالته. وقد يظن المرء أن هذا ليس في صالح بوفرت إن كان

يخطب ود زوجة الكونت، لكن نيولاند من النباهة بحيث يعرف أن شابةً مثل إيلين أولنسكا لن تشمئز بالضرورة من كل شيء يذكّرها بماضيها. ربما تخدع نفسها حين تقنعها بأنها تمقت كل ما يمت إلى زوجها بصلة، لكن ما استهواها أول مرةٍ سوف يسحرها ثانية وإن لم تشأ.

نصب الشاب عقله قاضيًا، فأتى الحكم لصالح بوفرت... وضحية بوفرت. ما زال قلبه يحضّه وبقوة على أن يوعّيها، وهو يقنع عقله بأنه رأى منها لمحاتٍ تدعوه إلى أن يأخذ بيدها إلى الطريق الصحيح فينقذها.

عكف في مساء ذلك اليوم على إخراج الكتب التي وصلته من لندن من صندوقها. وكان الصندوق مليئًا بكتبٍ طال انتظاره لها؛ مجلد جديد من تأليف هيربرت سبنسر، ومجموعة قصصية من إبداع العبقري الفرنسي ألفونس دوديه، ورواية بعنوان «ميدلمارش» قرأ عنها آراءً كثيرة أثارت اهتمامه. لقد رفض ثلاث دعوات لتناول طعام العشاء من أجل أن ينفرد بوليمته هذه. لكن رغم أنه يقلّب صفحات كتبه بالإحساس المرهف لعاشق الكتب فإنه لم يفقه كلمةً مما قرأ، وسقط كتابٌ تلو الآخر من بين يديه. وعلى حين غرةٍ، وقع بصره على ديوان شعر ضئيل بين الكتب المتناثرة، كان قد طلبه لأن العنوان شدّ انتباهه.. «منزل الحياة». التقط الكتاب فما شعر إلا وهو يسبح في سماءٍ ما استنشق هواءها من قبل بين جلدتيّ كتاب.. نسمته عليلة، وألفاظه ثرية، وعواطفه رقيقة بهية أمدّت أبسط المشاعر الإنسانية بحسنٍ آسرٍ مبتكر. قضى ليلته تلك مسهدًا يلاحق فوق الصفحات الأخّاذة طيف امرأة لها وجه إيلين أولنسكا، لكن عندما استيقظ في الصباح التالي ورأى واجهات المنازل الحجرية من نافذته، وفكّر بمكتبه في شركة السيد ليتربلير، ومقاعد أسرته في كنيسة (غرايس) بدت له الساعة التي قضاها في حديقة سكويتركليف باهتةً كالحلم بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

علّقت جايني حالما رأت وجهه وهي تحتسي فنجان القهوة على مائدة الإفطار:

-يا إلهي! إن وجهك شاحب جدًا يا نيولاند!

وأضافت والدته:
-نيولانـد يـا عزيـزي.. لاحظـتُ أنك تسـعل مؤخـرًا. أرجـو ألا تكون قد أرهقت نفسك في العمل؟

كانت المرأتان مقتنعتين أن الشـاب يُهلك نفسـه في ساعات طويلة من العمل المضنـي تحـت أعين شركائه الأكبر سـنًا التي لا ترحم. وهو لم يرَ سـببًا مقنعًا يدفعه لتصحيح تصورهما الخاطئ.

مـرّت الأيام التالية ثقيلةً تجر قدميهـا جرًا، والأعمال الروتينية لها طعم الرماد في فمـه. انقضّت عليه بعض اللحظات التي شـعر فيها أنه مدفون حيًا في قبر مسـتقبله. لم يسمع خبرًا عن الكونتيسة أولنسـكا أو عن منزلها المثالي. ورغم أنه رأى بوفرت في النادي فإن الاثنين اكتفيا بالإيماء برأسيهما تحيةً وهما يلعبان الورق. وفي مساء اليوم الرابع وجد رسالةً تنتظره بعد عودته إلى المنزل.

«احضر في ساعة متأخرة غدًا. يجب أن أشرح لك. إيلين».

هذا هو كل ما كُتب في الرسـالة. ابتسـم الشـاب قليلاً ودسّ الرسالة في جيبه وهو في طريقه إلى وليمة عشـاء. وبعد العشـاء حضر عرضًـا مسرحيًا. وبعد أن عـاد إلى منزله بعد منتصف الليل، أخرج رسـالة مدام أولنسـكا من جيبه وقرأهـا ببـطء مرةً تلو الأخـرى. إن أمامه أكثر من خيار للرد على رسـالتها، وقد كرّس ساعات ليله المؤرقة في تمحيص كل خيار وتحليله. أما قراره الذي توصل إليه مع ساعات الصباح الأولى فهو أن يلقي ببعض ملابسه في حقيبة السفر، ويقفز على متن سفينة مغادرةٍ إلى ساينت أوغسطين تلك الظهيرة.

الفصل السادس عشر

بينما نيولاند يسير في الشارع الرئيسي المكسو بالرمل في ساينت أوغسطين متجهًا إلى المنزل الذي قيل له إنه منزل السيد ويلند، رأى ماي واقفةً تحت شجرة ماغنوليا وشعرها يلتمع تحت أشعة الشمس. سأل نفسه لحظتها لماذا انتظر كل ذاك الوقت!

هنا الحقيقة.. هنا الواقع... هنا الحياة التي تنتمي إليه. ومع هذا فهو – الذي يظن نفسه متمردًا على القيود الاعتباطية – كان يخشى أن يتحرر من سجن مكتبه لما قد يقوله الناس إن أخذ إجازة قصيرة!

هتفت حالما رأته:

-نيولاند! هل وقع خطب ما؟

تمنى لو أنها قرأت في عينيه بحدسها الأنثوي سبب مجيئه.

-أجل... لم أستطع البعد عنكِ.

جلّل الحياء وجهها. عرف حينها أن الناس سيلتمسون له العذر بسهولة، حتى امتعاض السيد ليتربلير سوف يحل مكانه دفء الأسرة وترحيبها.

رغم أن الوقت كان باكرًا فإن الشارع الرئيسي ليس مكانًا مناسبًا لحبيبين يحييان بعضهما بعد فراق، ونيولاند يتوق إلى الانفراد بماي ليبوح لها بمشاعره وأشواقه. لكن بما أنّ موعد إفطار الأسرة المتأخر سيحين بعد ساعة، فقد اقترحت ماي أن يتنزّها في حديقة برتقال تقع في أطراف البلدة – بدلاً من أن تدعوه إلى الدخول. كانت قد عادت لتوها من نزهة على مركب في النهر، وبدا أن الشمس قد اصطادتها عندما ألقت شباكها الذهبية على موجات النهر القصيرة، فشعرها يلتمع على صفحة خدها الذي لفحته بأشعتها، وعيناها بحيرتان رقراقتان رغم فورة شبابها. كانت تمشي بجوار خطيبها بطولها الفارع، وخطوتها الخفيفة، وعلى وجهها سكينة الصبا الخليّة.

استرخت أعصاب نيو لاند المتوترة بعد أن متع بصره برؤية ماي والسماء الزرقاء والنهر الناعس. جلسا على مقعد خشبي يستظلان بأشجار البرتقال، ثم أحاطها بذراعه وقبّلها. أحس بأنه ظمآن وجد نبعًا باردًا يرتوي منه بعد طول ارتحال، لكن حرارة عاطفته وعنف عناقه كانا أكثر مما توقعته، فانسلّت من بين ذراعيه ملتهبة الوجنتين مندهشة. سألها مبتسمًا:

-ما الأمر؟

-لا شيء.

وقع شيء من الحرج بينهما، وسحبت يدها من يده. كانت تلك المرة الأولى التي يقبل شفتيها ما خلا تلك القبلة المسروقة في مشتل بوفرت، ورأى أن عناقهما تركها مرتبكةً، كأنما استلّ منها غفلة الطفولة.

-أخبريني كيف تقضين يومكِ هنا.

شبك ذراعيه خلف رأسه، ودفع قبعته إلى مقدمة جبينه لتحجب عن عينيه وهج النهار. أراد أن يشغلها بالحديث عن أشياءَ بسيطة وعادية كي يستغرق هو في أفكاره وتأملاته. فجلس ينصت إليها وهي تحكي له عن السباحة والإبحار، وركوب الخيل، والحفلات الراقصة التي يقيمها النُزل المحلي أحيانًا عندما ترسو بارجة حربية في مرفأ البلدة، وبعض الأسر الودودة التي قدمت من فيلادلفيا وبالتيمور للنزهة هنا، وأسرة سيلفريدج ميري التي جاءت لتقضي ثلاثة أسابيع في البلدة، لأن ابنتهم كايت أصيبت بالالتهاب الرئوي. وكانوا يخططون لإقامة ملعب تنس على الرمال، لولا أن لا أحد يملك مضارب للعب سوى ماي وكايت، كما أن معظمهم لم يسمع قط عن هذه الرياضة. وكل هذا ألهاها عن قراءة الكتاب الصغير الذي بعثه نيو لاند إليها قبل أسبوع «سونيتات من البرتغال».[1] لكنها بدأت تحفظ قصيدة «كيف جلبوا الأخبار السارة من غنت إلى إيكس»[2] عن ظهر قلب، لأن هذه

(١) ديوان شعر عاطفي من نظم إليزابيث باريت براوننغ

(٢) قصيدة من ديوان "نواقيس ورمّان" للشاعر روبرت براوننغ

كانت من أوائل القصائد التي قرأها لها، وكم هزأت من كايت لأنها لم تسمع في حياتها عن شاعر اسمه روبرت براوننغ!

وقفت ماي على حين غرة وهي تهتف مندهشةً أنهما سيتأخران عن الإفطار، فحثّا الخطى عائدين إلى المنزل المتداعي حيث تقضي أسرة ويلند شتاءها فيه، بشرفته الجرداء وشجيرات الرصاصية وإبرة الراعي غير المشذّبة. لم يكن السيد ويلند الذي اعتاد على نمط محدد من الحياة المنزلية ليرتاح بالمكوث في فندق مُهمَل قذر من فنادق الجنوب، ولهذا فتضطر زوجته - بعد إنفاق أموال طائلة ومواجهة شروط تعجيزية - إلى الارتجال في توفير مكانٍ ملائم لإقامتهم، عامًا تلو العام، يخدمهم فيه عدد من خدمهم الناقمين الذين حضروا معهم من نيويورك، ويغطي النقص أُجراء من الأفريقيين المحليين. وكانت تفسر سلوكهم لمن سأل من أهالي فيلادلفيا وبالتيمور كل شتاء بقولها: «أوصى الأطباء أن يشعر زوجي بالراحة التامة كما لو أنه في منزله، وإلا فلن يجدي شيءٌ ولا حتى المناخ الجاف في الحفاظ على صحته».

ابتسم السيد ويلند عبر طاولة ملأى بأطايب الطعام في صباح ذلك اليوم، وقال لنيولاند:

-نحن هنا يا بني العزيز وكأننا نخيّم في البرية. أنا أقول لزوجتي ولماي إني أريد أن أعلّمهما الحياة الشاقة.

كانت دهشة والديّ ماي من ظهور الشاب المفاجئ لا تقل عن دهشة خطيبته، لذا فكّر بأن يمثل بأنه أحس ببداية زكام قوي، فكان ذلك سببًا كافيًا لإقناع حماه المستقبلي بضرورة ترك وظيفته على وجه السرعة. كان السيد ويلند يكوّم رقائق الفطائر المحلاة على طبقه، ويغرقها بالقَطر الذهبي عندما قال:

-يجب أن تحذر من هذه الأعراض، وخاصةً مع اقتراب الربيع. آه لو كنتُ أكثر حرصًا على صحتي عندما كنتُ في عمرك... لقضت ماي كل شتاء في حفلات الرقص عوضًا عن العزلة هنا في البرية مع عجوز سقيم.

-لا تقل هذا يا أبي! أنا أحب هذا المكان، وأنتَ تعرف هذا. ليت نيولاند

يمكث معنا.. عندها سيزداد حبي لهذا المكان أكثر من نيويورك ألف مرة.
قالت السيدة ويلند في رحابة صدر:
-طبعًا. يجب أن يبقى نيولاند هنا إلى أن يشفى من زكامه.
ضحك الشاب وذكّرهم بأن له مهنة تتطلب وجوده. إلا أنه استطاع بعد برقيات متبادلة بينه وبين الشركة أن يطيل «زكامه» لمدة أسبوع. وإنها لمفارقة أن يكون مبعث تساهل السيد ليتربلير معه هو رضاه التام عن الطريقة التي تعامل فيها شريكه الشاب الحذق مع موضوع طلاق الكونتيسة أولنسكا الشائك. لقد أبلغ السيد ليتربلير السيدة ويلند «أن السيد آرتشر قدّم خدمة جليلة» للأسرة بكاملها، وأن سرور السيدة مينغت العجوز لا يوصف. وقد استغلّت السيدة ويلند خروج ماي مع والدها في أحد الأيام للتنزه في عربة المنزل الوحيدة بأن تطرّقت إلى موضوع لطالما تحاشت الحديث عنه في وجود ابنتها.
-إن أفكار إيلين مختلفةٌ تمامًا عن أفكارنا. لم تكن قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها عندما أخذتها ميدورا مانسون إلى أوروبا. أتتذكر اللغط الذي أثارته عندما ظهرت بفستانها الأسود في حفل ظهورها الأول؟ كانت إحدى تقليعات ميدورا ولا شك... وكأن لون فستانها نبوءة بما سيحدث لاحقًا في حياتها. كان هذا منذ اثنتي عشرة سنة، ولم تزر إيلين أمريكا خلالها قط. لا عجب أنها صارت أوروبية خالصة.
-لكن المجتمع الأوروبي يبغض الطلاق، والكونتيسة أولنسكا اعتقدت أنها بمطالبتها لحريتها تجاري الأفكار الأمريكية.
كانت تلك هي المرة الأولى التي ينطق نيولاند فيها اسمها مذ غادر سكويتركليف، فشعر بأن وجهه يحمر. ابتسمت السيدة ويلند من كلامه وردّت:
-هذا مثال على البدع العجيبة التي يختلقها الأجانب عنّا. يظنون أننا نتعشى عند الثانية ظهرًا وأننا نؤيد الطلاق! ولهذا فأنا لا أحبذ أن نحتفي بهم ونرفّه عنهم عندما يفدون إلى نيويورك، فهم يقبلون ضيافتنا ثم يعودون إلى أوطانهم وهم يكررون القصص الغبية نفسها.

لم ينبس نيولاند بأية كلمة، فأردفت السيدة ويلند:

-لكننا شاكرون أعمق الشكر لإقناعك إيلين بالعدول عن الفكرة. لم يفلح عمها لوفيل ولا جدتها في إثنائها عن رأيها، وقد بعثا إليّ يؤكدان أنها ما غيّرت رأيها إلا بعد أن تحدثت معك، وهذا ما قالته هي بلسانها لجدتها. إنها تكنّ لك إعجابًا مطلقًا. مسكينة إيلين... إنها عنيدة منذ طفولتها. يا تُرى ما سيكون مصيرها؟

أراد أن يجيب: «سيكون مصيرها ما دبّرناه نحن لها. إن كان ما تريدونه أنتم هو أن تصبح عشيقةً لبوفرت بدلاً من أن تكون زوجة لرجل محترم فأؤكد لكم أن سعيكم سيتحقق».

يا تُرى ما كانت السيدة ويلند ستقول لو أنه نطق هذه الكلمات بدلاً من حبسها خلف شفتين مطبقتين؟ تخيّل عبوس قسمات وجهها الثابت الهادئ، وقد أكسبتها مهارةُ التغاضي عن صغائر الأمور سلطةً كاذبة أتقنتها منذ صغرها. ما زال وجهها يحمل آثار جمال طبيعي يضارع جمال ابنتها، فتساءل الشاب إن كان وجه ماي سيختفي وراء قناع سميك من البراءة المنيعة في خريف عمرها كحال أمها.

لا... لا... لا يريد أن تستحوذ براءة كهذه على ماي.. فهذه البراءة توصد العقل دون التخيّل، وترتج أبواب قلبها عن تجارب الحياة.

-أقسم أن لو وصلت هذا المسألة البشعة إلى الصحف لكانت الضربة القاضية التي تقبر زوجي. وأنا لا أعرف أيًا من تفاصيل الأمر... هذا كل ما أبتغيه. هذا ما قلته لإيلين المسكينة عندما حاولت أن تحدثني عما جرى. لدي زوجٌ سقيم يحتاج إلى رعايتي واهتمامي، ويجب أن أحافظ على معنوياتي عاليةً بهيجة، ومع هذا فقد استاء السيد ويلند واغتمّ، وعانى من ارتفاع درجة حرارته كل صباح في الفترة التي كنا ننتظر فيها قرارها لتحسم الأمر. كان ينام ويستيقظ متوجسًا فزعًا من أن تعرف ابنته أن أمرًا كهذا ممكن الحدوث. ولابد أنك أيضًا شعرت بالشعور نفسه يا نيولاند، فكلنا نعرف أنك فعلت ما فعلته من أجل ماي.

ردّ الشاب وهو ينهض منهيًا الحوار:

-أنا دائمًا أضع ماي في اعتباري.

كان يود أن ينتهز فرصة اختلائه بالسيدة ويلند كي يلحّ عليها لتعجيل موعد زفافه. لكنه لم يستطع التفكير بأي حجة لإقناعها، عندها رأى بارتياح أن السيد ويلند وماي يدنوان من الباب. فما كان له من أملٍ إلا أن يتوسل إلى ماي مرة أخرى. وفي اليوم الذي سبق مغادرته، سار معها إلى أطلال حديقة الإرسالية الإسبانية. كانت أركان الحديقة مستلهَمة من المناظر الأوروبية، وخطيبته التي ظهرت بأبهى جمال تحت قبعتها العريضة التي تلقي بظلها على عينيها الصافيتين تتأجج بنار الحماسة وهي تصغي بكل ما فيها إلى وصفه لغرناطة وقصر الحمراء.

-... ويمكننا أن نرى كل هذا بأنفسنا هذا الربيع... حتى مراسم عيد الفصح في إشبيلية.

كان يعرف أنه يبالغ في مطلبه على أمل أن يصلا إلى حل وسط. ضحكت ماي:

-عيد الفصح في إشبيلية؟! الصوم الكبير سيبدأ في الأسبوع المقبل!

-ولماذا لا نتزوج في فترة الصوم الكبير؟

صدمتها من اقتراحه جعلته يرى خطأه، فتراجع قائلاً:

-لم أقصد هذا طبعًا يا عزيزتي. أقصد بعد عيد الفصح مباشرةً.. لكي نبحر في نهاية أبريل. وهذا الموعد مناسب من ناحية أعمالي في الشركة.

ارتسمت ابتسامةٌ حالمة على محيّاها وهي تفكر في هذه الفكرة، لكنه أحس بأن الحلم يكفيها ولن تطلب المزيد، كأنها تصغي إليه وهو ينشد من دواوين شعره تلك الكلمات الجميلة التي يستحيل أن تحدث في الواقع.

-أكمل يا نيولاند.. كم أحب وصفك!

-ولماذا تكتفين بالوصف؟ لماذا لا نراها رأي العين؟

قالت بفتور:

-سنراها طبعًا يا عزيزي.. العام القادم.

-ألا تريدين أن تريها في وقتٍ أقرب من هذا؟ ألا أستطيع إقناعكِ بأن نهرب إلى هناك الآن؟

أطرقت ماي رأسها فاختفى وجهها عن ناظريه تحت قبعتها.

-لماذا نظل في أحلامنا عامًا آخر؟ انظري إليّ يا حبيبتي! ألا تدركين أنني أريدكِ زوجةً لي؟

بقيت للحظاتٍ بلا حركة، ثم رفعت وجهها تنظر إليه بعينين تنضحان بالتعاسة حتى كاد أن يفلتها من بين ذراعيه، لكن نظرتها تغيرت فأصبحت عميقةً لم يفهم لغزها.

-أنا لا أفهم ما تقصده يا نيولاند. هل السبب في طلبك هذا... أنك لم تعد متأكدًا من مشاعركِ تجاهي؟

قفز نيولاند من مقعده هاتفًا بغضب:

-رباه... ربما... لا أدري.

نهضت ماي كذلك، وبدا له وهما يحدقان في بعضهما أن الفتاة أصبحت في لحظات امرأةً لها كبرياء وشموخ. لم ينطقا بكلمة لعدة دقائق وكأنهما فزعان من الطريق المجهول الذي سينتهي إليه هذا الحوار. قالت بصوت منخفض:

-إن كان ما تقوله صحيحًا... أثمة امرأة أخرى؟

-امرأة أخرى... تقف بيني وبينك؟

كرر كلماتها ببطء وكأنه لم يفهم معناها... كأنه يحتاج إلى مزيدٍ من الوقت كي يعيد السؤال في ذهنه. لكن يبدو أن ماي سمعت نبرة الشك في لهجته لأنها قالت بصوت عميق:

-فلنتحدث بصراحة يا نيولاند. لقد شعرتُ بتغيرٍ فيك، خاصةً منذ أن أعلنا خطبتنا.

-عزيزتي... ما هذا الجنون؟!

قابلت اعتراضه بابتسامة شاحبة.

-إن كان جنونًا فلن يضرنا أن نتحدث في الأمر. وحتى لو كان الأمر صحيحًا فلمِ لا نناقش الأمر؟ فلربما تكون قد ارتكبتَ خطأً بارتباطك بي.

كانت تتحدث برأسٍ مرفوعٍ وإيماءاتٍ تشع نبلاً. طأطأ رأسه وحدّق في أوراق الشجر المبعثرة حول قدميها على الطريق المشمس.

-من السهل أن يرتكب المرء خطأً. لكن لو أنني مخطئ كما تظنين، فلمَ أتوسل إليكِ أن تعجّلي بزواجنا؟

أطرقت برأسها تعبث في الأوراق بطرف شمسيتها، وهي تحاول أن تستجمع شجاعتها لتتكلم. قالت بعد هنيهة:

-أجل. فربما تود أن تحسم حيرتك بشكل نهائي. فهذا أحد الحلول.

أذهله منطقها الواضح، لكن هدوءها لم يخدعه فيظن أنها بليدة الحس، فقد لمح من تحت طرف قبعتها امتقاع وجهها، وارتجاف أرنبة أنفها رغم ثبات شفتيها. جلس على المقعد، ونظر إليها عاقدًا حاجبيه، وإن كان يحاول أن يبدو لاهيًا هازلاً. جلست هي الأخرى على المقعد، وأكملت موضحةً:

-يجب أن تعرف أن الفتاة ليست ساذجةً غرّة كما يظنها والداها. إن الفتاة تسمع وتلاحظ... ولها أفكارها وأحاسيسها. كنتُ أعلم قبل أن تخبرني بمشاعرك تجاهي بوقتٍ طويل أن ثمة امرأة أخرى تشغل بالك. كل الناس كانوا يتحدثون عن الأمر عندما كنا في نيوبورت قبل عامين. وقد رأيتكما مرةً تجلسان معًا في الشرفة في حفل راقص... وعندما عادت هي إلى المنزل كانت حزينة، فأشفقتُ عليها. لقد تذكرت هذه الحادثة فيما بعد.. عندما أصبحنا خطيبين.

تضاءل صوتها حتى أصبح هامسًا، ويداها تنقبضان وترتخيان حول مقبض شمسيتها. وضع يديه على يديها واحتضنهما بحنان، وفؤاده منشرح براحة لا تصفها الكلمات.

-يا طفلتي الجميلة... أهذا ما يشغلك؟ آه لو كنتِ تعرفين الحقيقة!

رفعت رأسها بسرعة:

-إذًا ثمة حقيقةٌ لا أعرفها؟

أبقى يديه على يديها وأجاب:

-أقصد حقيقة الحكاية القديمة التي قلتها.

-وهـذا مـا أريد أن أعرفه يـا نيو لاند... هذا ما يجـب أن أعرفه. لا يمكن أن أبني سعادتي على باطل... على ظلم يقع على أي شخص آخر. وأود أن أعرف أنك لن تفعل هذا أيضًا. أي حياةٍ نبنيها على هذا الأساس؟
اكتسى وجهها بشجاعة مأساوية حتى شعر بأنه سيلقي نفسه تحت قدميها. أكملت ماي:
-تمنيـتُ أن أقـول لـك هـذا منذ زمـن طويـل. أردتُ أن أخبرك أنـه إن كان اثنـان يحبان بعضهما حبًا حقيقيًا، فأنا أتفهم إن كانت ظروفهما تحتّم عليهما أن يتخـذا الخطوة الصحيحة... وإن كان فيها مخالفـة لرأي مجتمعهما. وإن كنتَ تشـعر أنك ملزم... أنك ملزمٌ بعهد قطعته للمرأة التي نتحدث عنها... وإن كان هناك أية وسـيلة... أية وسـيلة للوفاء بعهدك هذا... حتى لو أنها طلبت الطلاق... نيو لاند.. لا تتخلَ عنها من أجلي!
بُهتَ عندما اكتشف أن كل مخاوفها مرتبطةٌ بحادثة من ماضيه البعيد؛ علاقته الغرامية بالسـيدة راشـوورث، ثم تحوّلت الدهشـة إلى عجب وإكبار لسخاء قلبها. رأى أن عرضًا متهورًا وطلبًا شاذًا كطلبها يدل على قدرة تفوق قدرات البـشر، ولـولا أن هناك مسـائل أخرى معقدة تشـغل تفكيره لغـرق في بحر العجب من ابنة ويلند التي تحثّه على أن يتزوج من عشـيقته السـابقة. لكنه ما زال دائخًا من النظر إلى الهوة السحيقة التي كادا يسقطان فيها، ومفعمًا بإجلال واحترام لغموض الصبا وجرأته. لم يحر جوابًا لدقائق ثقيلة، ثم تكلم:
-ليـس هنـاك أي عهـد... ولا التـزام من أي نـوع كان كما تظنـين. مثل هذه الحـالات... إنهـا لا تنتهـي دائـمًا بهـذه النهايـة... لكـن هـذا كلـه لا يهـم. عرضـكِ هـذا يدل على سـخائكِ... لكن شـعوري تجـاه هذه الأمـور يماثل شـعوركِ. وأؤمـن أن الحكـم على كل حالة يجـب أن يكون منفـردًا، وبالنظر إلى تفاصيلهـا... بغض النظر عن التقاليد الغبية... ما أقوله هو أن لكل امرأةٍ حقها في الحرية...
نهض عندما وصل في حديثه إلى هذه النقطة، متعجبًا من الطريق الذي تسلكه

أفكاره، لكنه تابع وهو يلقي بابتسامة صوبها:
-وبما أنكِ واعية لأمورٍ كثيرة يا عزيزتي، ألا تستطيعين أن تمدي بصركِ لأبعد من هذا وتدركي أن لا نفع يأتي من انقيادنا وراء هذه التقاليد الساذجة؟ إن لم يكن هناك أي شيء أو أي شـخص يقف عائقًا بيننا، ألا يدفعنا هذا إذًا إلى أن نتزوج بسرعة بدلاً من أن نسوّف ونماطل؟
تدفقـت حمرة الحيـاء ولـون السـعادة إلى وجنتيهـا، ورفعت وجههـا تجاهه، ولّمـا اقـترب منهـا رأى دموع البهجة تترقـرق في مقلتيهـا. وفي لحظة قصيرة، حطت من علياء الأنوثة وجسـارتها إلى عجز الطفولة وجبنها. أدرك نيولاند أن شـجاعتها ليسـت ملكها بل هي للآخرين، وأيقن أن ثقل المصارحة كان أصعب مما يظهر على هيئتها الصلبة. ومع أول كلمات مطمئنة نبس بها عادت ماي إلى طبيعتها كالطفل الطائش الذي يلتجأ إلى حضن أمه.
فقـد نيولاند رغبته في التوسـل إليها، وخـاب أمله وهو يـرى تلك المخلوقة الجديدة التي سـدّدت إليه نظـرةً عميقةً من عينيهـا الصافيتين اخترقت كيانه تختفـي وتتلاشـى أمام عينيه. ويبدو أن ماي أحسـت بخيبة أملـه رغم أنها لم تعرف كيف تهوّنها. نهض الخطيبان وسارا إلى المنزل والصمت ثالثهما.

الفصل السابع عشر

«قريبتك الكونتيسة زارت أمنا عندما كنتَ مسافرًا»

استقبلت جايني أخاها بهذا الخبر في مساء اليوم الذي عاد فيه. كان الشاب يتناول عشاءه مع والدته وأخته، فرفع رأسه مندهشًا ورأى أن نظرة أمه معلقة بطبقها بكل رزانة. كانت أمه ترى أن انعزالها عن العالم لا يعني أن ينسى الناس وجودها، ولذا فقد لاحظ انزعاجها من تعجبه عندما عرف عن زيارة الكونتيسة أولنسكا لها. أكملت جايني حديثها:

-كانت ترتدي فستان بولونايز[1] من المخمل الأسود ذا أزرار سوداء، وتحمل مُدفِّئةً خضراء صغيرة. لم أرها أكثر تأنقًا في حياتي. جاءت لوحدها في ساعةٍ مبكرةٍ من عصر الأحد. كانت مدفأة حجرة الجلوس موقدة لحسن الحظ. وكان معها إحدى الحافظات الجديدة التي يحمل فيها الناس بطاقاتهم. قالت إنها تريد أن تتعرف علينا لأنك ذو فضلٍ عليها، وأنك عاملتها بلطف فائض.

قال نيولاند ضاحكًا:

-إن الكونتيسة أولنسكا كثيرة الثناء دومًا على أصدقائها. إنها سعيدة بأنها عادت بين أهلها وأصحابها مرة أخرى.

قالت السيدة آرتشر:

-نعم، هذا ما قالته لنا. يبدو أنها ممتنة لوجودها هنا.

-أرجو أن تكون قد أعجبتكِ يا أمي.

زمّت السيدة آرتشر شفتيها وقالت:

-لا أرى سببًا يدفعها لأن تزعج نفسها بزيارة سيدة مسنّة مثلي.

أضافت جايني وعيناها تتفرسان وجه أخيها:

---

(١) فستان يحاكي اللبس الشعبي في بولندا، ويتكون من تنانير كثيرة تنسدل فوق بعضها، أعلاها أقصر من أسفلها.

-أمي ترى أنها ليست امرأة بسيطة.
-إنه مجرد رأيي التقليدي... ماي الغالية هي صورة الكمال في نظري.
أجاب نيولاند:
-نعم... إنهما لا يتشابهان في شيء.

***

غادر نيولاند ساينت أوغسطين محمّلاً برسائل كثيرة للسيدة مينغت العجوز. وبعد عودته بيوم أو اثنين قرر زيارتها.

استقبلته السيدة المسنة بحرارة غير عادية، فهي ما زالت ممتنة لصنيعه عندما أقنع الكونتيسة أولنسكا بالتخلي عن فكرة الطلاق. وعندما أخبرها أنه ترك عمله دون إشعارٍ، وانطلق مسافرًا إلى ساينت أوغسطين فقط لأنه أراد أن يرى ماي، ضحكت ضحكتها الشحمية، وربتت بيدها المكتنزة على ركبته.

-ها ها... إذًا فقد عاندتَ الجميع واتّبعتَ هواك! وأراهنك أن أوغستا وزوجها قلبا سحنتيهما وكأن الدنيا انهارت! إلا ماي الصغيرة... لا شك أنها كانت سعيدة، صحيح؟

-أرجو ذلك، رغم أنها لم توافق على ما سافرتُ لأجله.

-لم توافق؟ على ماذا؟

-أردتُ وعدًا منها أن نتزوج في أبريل. فما الفائدة من تضييع عام آخر؟

لوت السيدة مينغت ثغرها الصغير مصطنعةً التزمُّت، وعيناها تبرقان بخبث. قالت:

-ولابد أن ردها كان «اسأل ماما» كالعادة. أبناء مينغت هؤلاء! كلهم متشابهون. مولودون في قالب لا تستطيع أن تكسره. عندما بنيتُ هذا المنزل جعلوني أشعر وكأنني هاجرتُ إلى كاليفورنيا! لم يبنِ أحد منزلاً وراء الشارع الأربعين قط. لا... ولا حتى تجاوزوا منطقة باتري حتى قبل أن يكتشف كريستوفر كولومبوس أمريكا. لا.. لا... لا أحد منهم يريد أن يكون مختلفًا، يخشون الاختلاف كخشيتهم الجدري. إني لأحمد الله يا عزيزي السيد آرتشر

أنني لست إلا امرأةً سوقيةً من أسرة سبايسر، لكن لا أحد يشبهني من أولادي سوى صغيرتي إيلين.

سكتت بغتةً وبريق عينيها لم يخفت، وسألته بصراحة كبار السن:

-لماذا لم تتزوج صغيرتي إيلين؟

ضحك نيولاند وقال:

-لأنها لم تكن موجودة حتى أتزوجها.

-صحيح... صحيح... للأسف. والآن فات الأوان. حياتها انتهت.

قالتها ببرود العجائز القانطات، وكأنها تنثر التراب على قبر أحلام الشباب، فارتعدت فرائص الشاب من لهجتها، وقال بسرعة:

-ألا يمكن أن تؤثري في ماي ووالديها يا سيدة مينغت؟ لا أحبذ فكرة إطالة خطبتنا.

تهلل وجه كاثرين العجوز باستحسان وردّت:

-أجل، أجل... أرى هذا. إن صبرك قليل. لابد أنك كنت تستعجل كل شيء عندما كنتَ فتى صغيرًا.

ألقت رأسها إلى الوراء وأطلقت ضحكةً مجلجلة هزّت ذقونها كأنها موجات صغيرة. فُتحت ستارة الباب من خلفها فهتفت:

-ها هي حبيبتي إيلين قد جاءت!

تقدمت مدام أولنسكا بابتسامة. كانت السعادة والنضارة مرتسمتين على وجهها. مدّت يدها بسرور لنيولاند وهي تنحني لتقبّل جدتها.

-كنتُ أسأله للتو يا عزيزتي: «لماذا لم تتزوج صغيرتي إيلين؟».

نظرت مدام أولنسكا إلى نيولاند والابتسامة ما زالت تعلو ثغرها.

-وما كانت إجابته؟

-يا حبيبتي... اتركُ لك مهمة معرفة الإجابة. لقد كان مسافرًا إلى فلوريدا لرؤية حبيبة قلبه.

قالت ولم تبعد عينيها عن نيولاند:

-أجل.. أعرف. ذهبتُ لزيارة والدتك... لأسأل عن مكانك. لقد أرسلتُ

إليك رسالة ولم أتلقَ منك ردًا، فخشيتُ أن تكون مريضًا.
تعـذر بأنه اضطر إلى الرحيل بشـكل مفاجئ، وأنـه كان على عجلة من أمره، وأنه كان ينوي الرد على رسالتها من ساينت أوغسطين.
-وعندما وصلتَ هناك طبعًا لم تفكر بي إطلاقًا!
كانـت البهجة ما زالت تغلف كلماتها وابتسـامتها مـا زالت صبيحة، لكن قد يكـون هذا مجرد تصرف مقصود تفتعل به اللامبالاة. أحس بقرصة برودتها.
قال في نفسه: «إن كانت ما زالت تحتاج إليّ فإنها مصممة على ألا تظهر ذلك».
أراد أن يشكرها على زيارتها لوالدته، لكن لسانه انعقد وأفكاره تناثرت تحت وطأة نظرة الجدة الخبيثة.
-انظـري إليـه! لم يطـق الصبر عـلى الزواج فرحـل من فوره دون سـلام ولا وداع، وركـض وراء تلك الفتاة السـاذجة ليجثو على ركبتيه ويتوسـل إليها! هكذا يفعل العاشـق... هكذا أغوى أبي بوب سبايسر الوسيم أمي المسكينة، ثم سـأم منهـا قبل أن أُفطـم... رغم أنني ولـدتُ بعد زواجهما بثمانية أشـهر فحسب! لكنكَ لست من أسرة سبايسر أيها الشاب، وهذا من حسن طالعك وطالع ماي. لا تسري دماؤهم الملعونة إلا في عروق إيلين حبيبتي المسـكينة، أما البقية... فهم منغوتيون ولا جدال في ذلك.
أحس بعيني مدام أولنسكا تلتهمان وجهه وتتفرسان به، وهي جالسة بجانب جدتها. أما البهجة فاختفى بريقها من عينيها. قالت بكياسة جمّة:
-لا شك أننا نستطيع أنا وأنتِ أن نقنعهم يا جدتي بأن يرضخوا لطلبه.
نهض نيولاند ليغادر، وعندما لمسـت يده يد مدام أولنسـكا شـعر بأن موضوع خطابها الذي لم يجب عنه ما زال معلقًا بينهما. سألها وهي تشيّعه إلى باب الحجرة:
-متى أستطيع أن أراكِ؟
-متـى مـا أردت. لكن يجب أن تـزورني قريبًا إن أردتّ أن تـرَ منزلي الصغير لآخر مرة، لأنني سوف أنتقل إلى منزل جديد الأسبوع المقبل.
أحس بغصة حزن وهو يتذكر السويعات التي قضاها في تلك الحجرة بإنارتها

الخافتة، وهي على قلتها حافلة بالذكريات.

-مساء الغد؟

-غدًا... أجل. لكن مبكرًا لأنني سأخرج.

كان اليوم الذي يليه هو الأحد، وإن كانت «ستخرج» في مساء الأحد فهذا يعني أنها مدعوة لحفل في منزل السيدة ستراثرز. تضايق قليلاً من هذه الفكرة، ليس لأنها ستذهب إلى هناك (فهو يؤيد ذهابها إلى أي مكان يعجبها رغم أنف ڤان دِر لويدن وزوجته)، ولكن ذهابها يعني أنها سوف تقابل بوفرت قطعًا، ويعني أنها تعلم ولا شك قبل ذهابها أنه سيكون هناك، ويعني أنها على الأرجح لم تذهب إلا لهذا السبب. ردّ قائلاً:

-حسنٌ... مساء الغد.

وفي قلبه قد عزم أنه لن يذهب مبكرًا. فهو إن وصل إلى منزلها متأخرًا إما سيمنعها من الذهاب إلى منزل السيدة ستراثرز، أو أنه سيصل بعد أن تكون قد خرجت بالفعل. وهذا طبعًا - إن فكر بكل الاحتمالات - سيكون أسهل حل.

***

أشارت ساعة نيولاند إلى الثامنة والنصف عندما دقّ جرس البيت تحت شجرة الوستيريا. كان ينوي أن يحضر عند التاسعة لكن تململاً ملحًا طوّح به إلى بابها. وقد حدّث نفسه أن أمسيات الأحد التي تقيمها السيدة ستراثرز ليست كالحفلات الراقصة، فضيوفها يحضرون باكرًا كما لو أنهم يحاولون التخفيف من تمردهم.

لكن الشيء الوحيد الذي لم يضعه في الحسبان هو أن يجد قبعاتٍ ومعاطفَ حال دخوله بهو منزل مدام أولنسكا. لماذا طلبت منه الحضور مبكرًا إن كان لديها ضيوف على مائدة العشاء؟! تفحص الملابس - وناستاسيا تضع حاجياته بقربها - فانقلب امتعاضه إلى فضول. كانا معطفين من أعجب ما رأى من معاطفَ في بيت راقٍ، ومن لمحة سريعة تأكد أن معطف جوليوس بوفرت ليس من بينهما. أما أحدهما فكان معطفًا قديمًا أصفر اللون من

الصوف الثخين البالي، وأما الآخر فعباءة رثة جدًا ذات غطاء للرأس، تشبه المعطف الذي يسميه الفرنسيون «ماكفارلين»[1] ويبدو أنها مصممة لرجلٍ ضخم الجثة، وقد بليت واهترأت من طول ما لُبست، ومن ثنايا العباءة السوداء المخضرّة فاحت رائحة رطوبة تشير إلى اعتكاف صاحبها طويلاً بين حوائط الحانات. وعلى العباءة شالٌ رمادي ممزق، وقبعة من اللباد نصف مستديرة غريبة الشكل. رفع نيولاند حاجبيه مستفسرًا من ناستاسيا، فرفعت هي الأخرى حاجبيها بامتثال، وفتحت باب حجرة الجلوس.

لاحظ الشاب مباشرةً أن مضيفته ليست في الحجرة، وكم دُهش عندما رأى سيدةً أخرى تقف بجوار المدفأة. كانت امرأةً طويلة رشيقة متّشحة برداءٍ ذي أهداب وعقد متشابكة، وفيه نقوش وأشرطة بألوانٍ زاهية، مجموعةٌ في تصميم سره مستغلق على الفهم. أما شعرها الذي حاول الشيب أن يغزوه فلم يفلَح كان معقوصًا بمشط أسباني ووشاح من الدانتيل الأسود، ويداها المصابتان بالروماتزم مغطاتان بقفازين من حرير رتقُهما واضح.

وفي وسط سحابة من دخان السجائر وقف بجانبها صاحبا المعطفين، وهما ما زالا يرتديان ملابس الصباح التي يبدو أنهما لم يخلعاها منذ أن لبساها. تعجب نيولاند عندما عرف في أحدهما وجه نيد وينست، أما الآخر الذي لم يعرفه فكان أسنّ وأضخم جسدًا - لابد إذًا أنه صاحب «الماكفارلين» - وله رأس غضنفري ذو شعر رمادي أجعد، وكان يحرّك ذراعيه المخلبيين في إيماءات كثيرة، كأنما ينشر البركات على حشدٍ راكع أمامه.

وقف هؤلاء الثلاثة على سجادة الموقد، وأعينهم مسلّطة على باقة ضخمة من الورود القرمزية بديعة الحسن، ويحيط بقاعدتها عدد من أزهار البنفسج، كانت موضوعة في المكان الذي تجلس فيه مدام أولنسكا عادةً. سمع نيولاند وهو يدخل السيدة تتنهد وتقول:

-لابد أنه تكلّف مبلغًا كبيرًا ليحصل عليها في هذا الشتاء... رغم أن المهم

(١) هي عباءة يصل طولها إلى الساقين، وتوجد فتحتان للذراعين بدون أي أكمام

هو المشاعر التي دفعته لإرسالها.

استدار الثلاثة في دهشة عندما سمعوا خطواته، واقتربت السيدة منه مادّةً يدها.

-السيد آرتشر... أو نيولاند بالأحرى... لأنك ستصبح قريبي. أنا الماركيزة مانسون.

انحنى نيولاند تحيةً لها، وتابعت:

-صغيرتي إيلين قبلت باستضافتي لبضعة أيام. لقد قدمتُ من كوبا حيث كنتُ أقضي الشتاء مع أصدقاء لي من إسبانيا... إنهم أناس وجهاء لطفاء، من نبلاء قشتالة وأرفعهم قدرًا فيها. ليتك تتعرف عليهم! لكن صديقي العزيز الدكتور كارڤر هنا استدعاني. ألا تعرف الدكتور أغاثون كارڤر مؤسس جماعة «وادي الحب»؟

أومأ د. كارڤر برأسه الضخم يحييه، وأردفت الماركيزة:

-نيويورك... وآه من نيويورك! عجبي كيف أن عالم الأرواح لم يصلها! لكن أظنك تعرف السيد وينست.

قال وينست بابتسامة جافة:

-أجل... أنا وصلت إليها منذ زمن طويل.. لكن ليس من خلال الأرواح.

هزّت الماركيزة رأسها موبخةً:

-وكيف تعرف هذا يا سيد وينست؟ الأرواح تهب حيثما تحب.

غمغم د. كارڤر بصوت جهوري:

-»انصت إذن، ثم انصت»[1]

-تفضل بالجلوس يا سيد آرتشر. لقد جمعتنا نحن الأربعة وليمةُ عشاء ظريفة ماتعة، وصغيرتي ذهبت كي تغير ملابسها. إنها تتوقع مجيئك ولهذا فسوف تنزل خلال لحظات. كنا نبدي إعجابنا بهذه الأزهار الساحرة التي ستُفاجأ بوجودها عندما تعود.

(١) هذا اقتباس من مسرحية هاملت لويليام شكسبير، وقد نطق الشبح في المسرحية هذه العبارة

وينست كان الوحيد الذي ظل واقفًا. قال:

-أستميحكم عذرًا فعليّ أن أغادر. أرجوكِ أخبري مدام أولنسكا أن رحيلها عن شارعنا خسارة لنا، وأننا سنكون ضائعين من دونها. فهذا المنزل كان لنا كالواحة.

-لكنها لن تنقطع عنك أنت يا سيد وينست، فالشعر والفن هما عصب حياتها. أنت تنظم الشعر يا سيد وينست، صحيح؟

-لا.. لا أنظمه. لكنني أقرأه أحيانًا.

حيا وينست الجميع بإيماءة من رأسه، وانسل خارجًا من الحجرة.

-روحه تهكميه ساخرة... «un peu sauvage".. وهمجي بعض الشيء. لكنه فكه سريع الخاطر. د. كارڤر، أتراه فكهٌ؟

قال د. كارڤر بصرامة:

-ليس للفكاهة اعتبار لدي.

-ليس للفكاهة اعتبار لديك! يا لقسوته علينا نحن الآدميين الضعفاء يا سيد آرتشر! لكنه يعيش حياته في عالم الأرواح فقط، وهو يستعد ذهنيًا للمحاضرة التي سيلقيها بعد قليل في منزل أسرة بلنكرز. د. كارڤر... ألديك متسعٌ من الوقت قبل ذهابك إلى منزل بلنكرز لتشرح للسيد آرتشر اكتشافك العظيم عن "الاتصال المباشر"؟[1] لكن... لا للأسف. أرى أن الساعة شارفت التاسعة، ولا يحق لنا أن نستبقيك وثمة الكثير من الأشخاص ينتظرون سماع رسالتك.

بدت خيبة الأمل على وجه د. كارڤر لحرمانه من فرصة الحديث، لكن بعد أن قارن ساعته الذهبية الضخمة بساعة مدام أولنسكا الصغيرة، استجمع أطرافه الجسيمة بتأنٍ تأهبًا للمغادرة. سأل الماركيزة:

-سأراكِ فيما بعد يا صديقتي العزيزة؟

أجابت بابتسامة:

---

(١) الاتصال المباشر: وسيلة يستعين بها المؤمنون بعالم الأرواح للاتصال بالموتى عن طريق إصدار إشارات محسوسة كالنقر وإصدار الأصوات

-سألحق بك حالما تأتي عربة إيلين لإيصالي. أتمنى ألا أصل بعد أن تبدأ المحاضرة.
نظر د. كارڤر بتمعنٍ إلى نيولاند، ثم قال:
-ربما... إن كان هذا السيد الشاب مهتمًا بتجاربي، فلربما تسمح لكِ السيدة بلنكرز بإحضاره.
-يا صديقي الغالي... إن كان هذا ممكنًا فأنا واثقة بأنها ستسر بحضوره. لكن السيد آرتشر على موعد مع إيلين.
-هذا من سوء الطالع. تفضل إذًا بطاقتي.

أغاثون كارڤر
وادي الحب
كتاسكواتومي-نيويورك

أعطى د. كارڤر نيولاند البطاقة المطبوعة بالخط القوطي، ثم انحنى وخرج.
أتبعت السيدة مانسون خروجه بتنهيدة قد تعني الارتياح وقد تعني الأسف، ثم أشارت إلى نيولاند بالجلوس مرة أخرى.
-ستنزل إيلين حالاً. وقبل أن تأتي أريد أن أتحدث معك على انفراد.
همهم نيولاند بسروره بلقائها، فأكملت الماركيزة في صوتها الهامس الخفيض:
-أنا أعرف كل شيء يا عزيزي السيد آرتشر... طفلتي الحبيبة أخبرتني بكل ما فعلتَه من أجلها. نصائحك السديدة وثباتك بشجاعةٍ لما فيه مصلحتها... الحمد لله أنك تدخلت في الوقت المناسب!
أنصت الشاب إليها بحرج متزايد. أبقي أحدٌ لم تخبره مدام أولنسكا عن تدخله في شؤونها الخاصة؟!
-إن مدام أولنسكا تبالغ في ثنائها. كل ما فعلته هو أنني أزجيت إليها نصيحةً قانونية بناءً على طلبها.

كانت السيدة تميل برأسها إلى جانب واحد وترخي أهدابها فوق عينيها. هتفت:
-لكن بفعلك هذا... بفعلك هذا كنتَ أداةً - وإن لم تكن تعي ذلك - في يد الـ... الـ... ما الكلمة التي نستعملها نحن العصريون بدلاً من "العناية الإلهية" يا سيد آرتشر؟ فأنت لم تكن تعلم أن شخصًا محددًا في تلك اللحظة نفسها كان يفاتحني في ذلك الأمر... كان يطلب وساطتي فيه... شخص من الجانب الآخر من الأطلسي.
أطلّت من وراء كتفها كأنها تخشى أن يسترق أحدهم السمع إلى حديثها، ثم قرّبت كرسيها منه، ورفعت مروحة صغيرة من العاج إلى شفتيها، فهمست من خلالها:
-أنا أتكلم عن الكونت شخصيًا... أولنسكي الأرعن المسكين... الذي لا يتمنى إلا أن تعود إليه وبالشروط التي تمليها.
هب نيولاند واقفًا وصاح:
-يا إلهي!
-هل أفزعتك؟ أنا أفهم السبب طبعًا. وأنا لا أدافع عن ستانسلاس المسكين رغم أنه يعدّني دائمًا من أعز أصدقائه. وهو لا يدافع عن نفسه كذلك... بل إنه يرتمي تحت قدميها. وهذا ما جئتُ لأبلغها شخصيًا.
نقرت صدرها الأعجف وقالت:
-معي رسالته هنا.
تلعثم نيولاند، فعقله يتطوّح في دوامة من هول ما سمع:
-رسا... رسالة؟ أر... أرأتها مدام أولنسكا؟
هزت الماركيزة مانسون رأسها نفيًا وقالت بنعومة:
-الوقت... الوقت... أحتاج إلى بعض الوقت. أنا أعرف إيلين... أبيّة وعنيدة. ولا تغفر بسرعة.
-لكن... يا إله السماوات! لا ضير في أن تغفر له، لكن أن ترجع إلى ذاك الجحيم...
- آه.. أجل. هكذا تصف حياتها... كم هي حساسة هذه الفتاة! لكن من

الناحيـة المادية يا سـيد آرتشر... إنْ تنازل الشـخص وفكّر في هـذه الناحية، أتعـرف ماذا تركت بهجرهـا له؟ أترى تلـك الأزهار على الأريكـة... أفدنة وأفدنة مزروعة بها، تحت المشاتل الزجاجية وفي حدائقه المدرّجة في نيس التي لا يضاهيهـا حدائـق. والجواهر! اللآلـئ الأثرية... وزمرد سوبويسـكي... وفراء السـمّور. لكنها لا تأبه لكل هذا! الفن والجمال... هما كل ما يهمها... هذا كل ما تحيا لأجله، كما أفعل أنا.. وهذان أيضًا متوافران تحت أمرها هناك. اللوحـات الفنيـة، والأثاث الـذي لا يقدر بثمن، والموسـيقى، والنقاشـات الشائقة... هذه - إن سمحت لي بالقول يا فتاي العزيز - لا تملكون منها هنا أي شيء! كل هذا كان بيدها وطوع أمرها... وكذلك شـغف أعظم الرجال بهـا. قالـت لي إن النـاس في نيويورك لا يرونهـا جميلة... واعجبـي! إن جمالها مخلّد في تسـع لوحاتٍ... أعظم فناني أوروبا توسـلوا كي ينالوا هذا الشرف. ألا تساوي هذه الأشياء قيمةً؟ وفوقها ندم زوجٍ مغرم؟

بينما الماركيزة مانسـون تعـدد هذه المآثر علا وجهها نشـوة الحنين، وكان هذا كافيًـا ليثـير في نيو لاند الضحك لو لا أن كل إحسـاس في جسـده قد تبلد من وقع الصدمة. كان سيضحك لو أن أحدًا أخبره أن أول لقاء يجمعه "بميدورا مانسون المسكينة" ستكون هي متقمصةً دور رسول إبليس. لكن قد هجرته أي رغبـة في الضحـك الآن وهو يرى أنها جاءت من قعر ذلك الجحيم الذي فرت منه إيلين أولنسكا بصعوبة. سأل بغتةً:

-إنها لا تعرف أي شيء بعد... عن كل هذا؟

ضغطت السيدة مانسون على شفتيها بظفرٍ أرجواني. ردّت:

-لا شيء مباشرةً. لكن... أيخامرها شـكٌ؟ من يدري؟ الحقيقة يا سـيد آرتشر هـي أننـي كنـتُ أنتظر مقابلتـك. مذ أن سـمعتُ عـن موقفك الثابـت معها، وتأثيرك القوي فيها. عرفتُ أنني أستطيع أن أعتمد على دعمك... لإقناعها...

صاح الشاب بعنف:

-أقنعها بالعودة؟ أتمنى أن أراها ميتةً على أن أرى هذا!

همهمت الماركيزة بكلمات دون أن يبدو عليها الغضب. ظلّت جالسةً للحظات على كرسيها وهي تفرد مروحتها العاجية السخيفة وتغلقها بين أصابعها، ثم رفعت رأسها فجأة وأنصتت. قالت في همسات عجلى وهي تشير إلى الباقة على الأريكة:

-ها قد أتت. هل أفهم أنك تفضل ألا تملك إيلين إلا هذه الباقة يا سيد آرتشر؟ إن الزواج زواج مهما كان... وابنة أخي ما زالت زوجة...

الفصل الثامن عشر

هتفت مدام أولنسكا حالما دخلت الحجرة:
-علامَ تتآمران أنتما الاثنان يا عمة ميدورا؟
كانت متأنقة كأنها سوف تحضر حفلاً راقصًا. كل ما على جسدها يلمع ويبرق بنعومة، وكأن رداءها قد حِيك من ضياء الشموع، ورأسها شامخ كحسناء تتحدى منافساتها. وقفت الماركيزة، وردّت بمكر وهي تشير إلى الأزهار:
-كنا نقول يا عزيزتي أن ثمة شيء جميل نفاجئكِ به.
توقفت مدام أولنسكا بغتةً في سيرها ونظرت إلى الباقة. لم يتغير لونها، لكن ومضة غضب خاطفة عبرت وجهها كبرق الصيف. صاحت بنبرة ثاقبة لم يسمعها الشاب منها من قبل:
-من هذا السخيف الذي يرسل باقة أزهارٍ بهذا الحجم إليّ؟ ولم الليلة تحديدًا؟ لستُ قاصدةً حفلاً راقصًا، ولستُ فتاةً مخطوبة! لكن بعض الناس... السخافة طبعٌ عصيٌ فيهم.
استدارت تجاه الباب وفتحته فنادت:
- ناستاسيا!
ظهرت الخادمة الموجودة في كل مكان بسرعة. سمع نيولاند مدام أولنسكا تقول في إيطاليةٍ تعمّدت أن تنطقها بتأنٍ كما لو كانت تريده أن يفهمها:
-خذي.. ارمي هذه في حاوية القمامة!
وجّهت ناستاسيا إليها نظرة احتجاج، فقالت:
-آه... لكن لا... ما ذنب الأزهار المسكينة؟ قولي للصبي أن يحملها إلى جيراننا. منزل السيد وينست الرجل الأسمر الذي تعشى هنا. زوجته مريضة وقد تُدخل عليها هذه السرور... أتقولين أن الصبي غير موجود؟ إذًا اذهبي بنفسكِ يا عزيزتي. خذي، ضعي عباءتي عليك وطيري. أريد هذا

الشيء خارج المنزل حالاً! وحلّفتكِ... لا تقولي إنها مني!
طرحت عباءتها المخملية فوق كتفيّ الخادمة، ثم استدارت إلى حجرة الجلوس وهي تغلق بابها بقوة. كان صدرها يرتفع عاليًا ثم ينخفض تحت الدانتيل وظن نيولاند للوهلة الأولى أنها ستبكي، لكنها انفجرت ضاحكةً تقلب نظرها ما بين الماركيزة ونيولاند، ثم سألت فجأة:
-وأنتما الاثنان... هل أصبحتما صديقين؟
-هذا يعتمد على رأي السيد آرتشر يا عزيزتي، لقد انتظر بكل صبر بينما كنتِ تغيرين ملابسكِ.
قالت مدام أولنسكا وهي ترفع كفها إلى خصلات شعرها لتصلح الشنيون:
-أجل. استغرق تسريح شعري وقتًا طويلاً. أرى أن د. كارڤر قد غادر، وسوف تتأخرين عن موعد المحاضرة في منزل بلنكرز. سيد آرتشر، هلا ساعدتَ عمتي على ركوب العربة؟
تبعت مدام أولنسكا الماركيزة إلى البهو، وراقبتها وهي ترتدي كومة متنوعة من الملابس؛ حذاء شتوي ثقيل، وشالات، وأطواق من الفراء. ثم نادت الكونتيسة من مكانها عند عتبة الباب:
-قولي للسائق أن يعود ليقلّني عند العاشرة.
ثم عادت إلى حجرة الجلوس، حيث وجدها نيولاند بعد أن دخل المنزل تقف بجانب رف المدفأة تتأمل نفسها في المرآة. لم يكن مألوفًا في مجتمع نيويورك أن تقول السيدة لخادمتها «يا عزيزتي»، أو أن ترسلها في مشوار وهي مجللّةٌ بعباءة سيدتها. ورغم أن نيولاند غارق بأحاسيس أكثر عمقًا فإنه ذاق في تلك اللحظة متعة العيش في دنيا يتبع فيها الفعلَ العفوي الشعورُ بسرعة برق جوبيتر.[1]
لم تتحرك مدام أولنسكا عندما اقترب خلفها، فالتقت عيناهما للحظة في المرآة. ثم استدارت وألقت جسدها على الأريكة، وتنهدت:

(١) إله السماوات والبرق في الميثولوجيا الرومانية

-أظن أن لدينا متسع من الوقت لتدخين سيجارة.
مـدّ الصنـدوق إليها وأشـعل سـيجارتها. أضاء وجههـا من وهج الشـعلة، فنظرت إليه بعينين جذلتين. سألته:
-ما رأيك فيّ بعد أن شهدتَ سورة غضبي؟
تمهل نيو لاند قبل أن يرد بحزم مفاجئ:
-فهمتُ الآن ما قالته عمتكِ عنكِ.
-كنتُ واثقةً أنها كانت تتحدث عني. وماذا قالت؟
-قالت إنكِ اعتدتِ على نمطٍ محدد من الحياة... على الترف الباذخ، والملهيات المبهجة، والمتع المغرية... أمورٌ يتعذر علينا تقديمها لكِ هنا.
رأى ابتسامتها من دائرة الدخان التي طوّقت شفتيها.
- ميدورا رومانسية بطبيعتها، ورومانسيتها عوّضتها عن أمور كثيرة تنقصها.
تردد نيو لاند قبل أن يجازف بالقول:
-هل رومانسية عمتكِ متوافقة دومًا مع الدقة في الوصف؟
فكرت قليلاً ثم قالت:
-أتقصد أن تسأل ما إذا كانت صادقةً في حديثها؟ سأخبرك؛ كل كلمة تقولها تحمل ذرّة حقيقة وذرّة خيال. لكن لماذا تسأل؟ ماذا قالت لك؟
أشـاح ببـصره تجاه النـار، ثم عاد فنظـر إلى المـرأة البرّاقة أمامـه. انقبض قلبه عندمـا تذكـر أن تلك هي أمسـيتهما الأخيرة حـول تلك المدفـأة، وأن العربة سوف تصل في أي لحظة لأخذها بعيدًا عن هنا.
-قالت... إنها تدّعي أن الكونت أولنسكي طلب منها إقناعكِ بالعودة إليه.
لم تجب مدام أولنسكا، بل ظلّت ممسكةً سيجارتها في يدها المرفوعة، ولم تتحرك عضلةً واحدةً في جسدها، وكذلك لم تتغير تعبيرات وجهها. فتذكر نيو لاند ما لاحظه من قبل من أن قدرتها على الاندهاش معدومة. واجهها قائلاً:
-أكنتِ تعلمين إذًا؟
طال صمتها كثيرًا حتى إن الرماد تناثر من سيجارتها، فنفضته وتساقط على الأرض.

-لقد ألمحتْ إلى وجود رسالة. تلميحات ميدورا المسكينة غالبًا...
-أقدمتْ إلى هنا على حين غرة بناءً على طلب زوجكِ؟
فكرت مدام أولنسكا بالسؤال قبل أن تجيب:
-لا أدري. قالت لي أن د. كارڤر «استدعاها روحيًا»، ولا أدري حتى ما معنى هذا. أخشى أن تتزوج د. كارڤر... مسكينة ميدورا، في حياتها دائمًا رجلٌ تود الزواج به. لكن ربما سأم منها أصحابها في كوبا. أعتقد أنها كانت مرافقة لهم مقابل أجر. أنا لا أدري حقًا ما سبب قدومها.
-لكنكِ تعتقدين أنها تحمل رسالةً من زوجكِ؟
عادت مدام أولنسكا إلى الصمت مرة أخرى وهي تفكر مليًا. ردت أخيرًا:
-إنه أمر متوقع.
نهض الشاب من مقعده واتجه إلى المدفأة فاتكأ إلى جانبها. لم يستطع الثبات في مكان واحد. فإحساسه بأن دقائقهما معًا معدودة وأنه سوف يسمع في أي لحظة صوت عجلات العربة وهي تعود عقد لسانه وألجمه.
-أتعلمين أن عمتك تظن أنكِ سوف ترجعين إلى زوجكِ؟
رفعت مدام أولنسكا رأسها بسرعة، وجللّت حمرةٌ داكنة وجهها، وامتدت لتغطي عنقها وكتفيها. كانت نادرًا ما يتورد وجهها، وإن خجلت فإن وجهها يتأجج حمرةً كأنه يحترق. قالت:
-كثيرون هم من يظنون بي أسوأ الظنون.
-إيلين... سامحيني على حماقتي وقسوتي.
انفرجت شفتاها ببسمة واهنة. ردّت:
-أنت كثير القلق.. لديك من المتاعب ما يشغلك. أعرف أنك تظن أن قرار أسرة خطيبتك بشأن زواجك غير منطقي، وأنا أتفق معك. لا يفهم الناس في أوروبا إصرارنا نحن الأمريكيون على الخطوبة الطويلة. ربما لا يتحلى الأوروبيون بصبرنا.
شددت على الجمع في كلمة «صبرنا» فخرجت منها بشيء من السخرية.

ولمس نيولاند هذه السخرية لكن لم يجرؤ على التعليق عليها. فلربما تعمدت الكونتيسة أن تحيد بالنقاش بعيدًا عن شؤونها. وبعد أن جرحتها كلماته الأخيرة شعر بأنه ملزمٌ أن يتبعها حيثما شاءت. بيد أن إحساسه بعقارب الساعة التي لا تتوقف أصابه باليأس، ولم يطِق أن يحول بينهما حاجز من الكلمات مرة ثانيةً. قال فجأة:

-نعم. ذهبتُ إلى الجنوب لأطلب من ماي أن تتزوجني بعد عيد الفصح. لا أرى سببًا يمنعنا من الزواج في ذلك الوقت.

-وماي مغرمةٌ بك... ومع ذلك لم تستطع إقناعها؟ كنتُ أظنها أذكى من أن تستعبدها هذه التقاليد السخيفة.

-إنها فعلاً ذكية... وهي ليس عبدةً لها.

-إذًا... أنا لا أفهم.

احمرّ وجه نيولاند وخرجت الكلمات منه متسارعة:

-ناقشنا بعض الأمور بصراحة... لأول مرة. إنها ترى أن قلة صبري علامة سيئة.

-عجبي! علامة سيئة؟!

-إنها تعتقد أنني لم أعد واثقًا من حبي لها. إنها باختصار تظن أنني أريد أن أتزوجها في الحال فرارًا من امرأة أخرى... أحبها أكثر منها.

بدا الفضول على وجه مدام أولنسكا وهي تتفحص كلماته.

-ولكن... إن كان هذا ما تظنه ماي... فلماذا لا تستعجل هي أيضًا في إتمام الزواج؟

-لأنها لا تفكر بهذه الطريقة، فهي أنبل من ذلك بكثير. لقد أصرت أكثر على إطالة فترة الخطبة لإعطائي الوقت كي...

-لإعطائك الوقت كي تهجرها من أجل المرأة الأخرى؟!

-إن كان هذا ما أريده.

مالت مدام أولنسكا تجاه النار وحدّقت فيها بعينين سارحتين، ومن رأس الشارع تناهى إلى سمع نيولاند صوت حوافر الخيول تمشي خببًا. قالت بصوت مكسور:

-هذا حقًا نبلٌ منها.
-صحيح. لكن هذه سخافة أيضًا.
-سخافة؟ لأنك لا تحب امرأة أخرى؟
-لأنني لن أتزوج امرأةً أخرى.
شملهما الصمت طويلاً. نظرت إليه وقالت:
-تلك المرأة الأخرى... أتحبك؟
-أوه! لا توجد امرأة أخرى. أعني... تلك التي كانت ماي تقصدها صارت... لم تكن قط...
-إذًا لماذا أنت مستعجل كل هذه العجلة؟
قال نيولاند:
-وصلت عربتكِ.
همّت بالنهوض، وأجالت نظرها فيما حولها بعينين لا تبصران. كانت مروحتها وقفازاها على الأريكة بجانبها فالتقطتهما بلا تفكير.
-أجل... عليّ أن أذهب.
-ستذهبين إلى منزل السيدة ستراثرز؟
ردّت باسمةً:
-أجل. يجب أن أذهب حيثما دُعيتُ، وإلا قتلتني الوحدة. لم لا تأتي معي؟
قرر نيولاند أن يستبقيها إلى جانبه بأي ثمن... أن يجعلها تَمنحه ما بقي من المساء. تجاهل سؤالها ولم يتحرك من وقفته عند المدفأة، وعيناه تنظران بثبات إلى اليد التي تحمل فيها القفازين والمروحة، وكأنما ينتظر ليعرف إن كان يملك القوة على أن يسقطهما من يدها بنظرته.
-كانت ماي محقةٌ في تخمينها. هناك امرأة أخرى... لكن ليست من تظن.
لم تجب إيلين أولنسكا، ولم تتحرك. اقترب وجلس إلى جوارها. أمسك يدها وبسطها بلطف، فوقعت المروحة والقفازين على الأريكة بينهما.
وقفت فجأة وحررت نفسها من قبضته، وابتعدت إلى الناحية المعاكسة من

المدفأة. قالت عابسةً:
-لا تغازلني. كثير من الرجال قد فعلوا.
امتقـع وجه نيولاند ونهض هو أيضًـا. كانت هذه أمرّ إهانةٍ ممكن أن توجهها إليه. أجاب:
-لم أغازلـكِ قـط ولن أفعـل أبدًا، لكن أنـتِ المرأة التي كنتُ سـأتزوجها لو كانت ظروفنا تسمح.
نظرت إليه بدهشة صادقة:
-لو كانت ظروفنا تسمح؟! أنت تقول هذا... وأنت من جعل الأمر مستحيلاً؟
حملق فيها متلمسًا طريقه في ظلام دامس لا يشقه إلا سهم واحد من ضياء.
-أنا... أنا جعلتُ الأمر مستحيلاً؟!
صاحت وشفتاها ترتعشان كالطفل على شفير البكاء:
-نعم أنت.. أنت.. أنت! ألستَ أنت من أقنعني ألا أحصل على الطلاق؟ أن أتخلى عن الفكرة لأنك بينت لي أن في ذلك أنانية مني.. وأن على الإنسـان أن يضحي بنفسه في سبيل الحفاظ على كرامة الزواج... ولحماية اسم الأسرة من أن تلوكه الألسـن، وأن يُدنّس بالفضيحة؟ ولأن أسرتي سـتصبح أسرتك... مـن أجل مـاي ومن أجلـك فعلتُ مـا طلبتَه منـي... نفذتُ مـا أقنعتني به. (ضحكت بمرارة) حتى أنني لم أخفِ أنني فعلتُ هذا من أجلك.
ارتمت على الأريكة مرة أخرى، فصارت ثنيات فستانها أمواجًا حولها كعروس حلّت بها نازلة. أما الشاب فما انفك يحملق فيها في مكانه عند المدفأة.
-يا إلهي! وأنا الذي كنتُ أظن...
-ماذا كنتَ تظن؟
-لا تسأليني عما كنتُ أظن.
رأى حمـرة الاحـتراق الخجلـة تتسـلل مـن عنقهـا إلى وجنتيهـا. انتصبت في جلستها بكبرياء متصلبة.
-بل أنا أسألك.

-كانت... ثمة أمور في تلك الرسالة التي طلبتِ مني قراءتها...
-رسالة زوجي؟
-أجل.
-لا شيء يخيفني في تلك الرسالة، لا شيء على الإطلاق! كل ما خشيته هو أن أجرّ العار والفضيحة على الأسرة... عليك أنت وماي.
أخفى وجهه بين يديه وغمغم: "يا إلهي!".
غلّفهما الصمت المثقل بحتمية النهاية. صمتٌ جثم على صدر نيولاند كأنه شاهد قبره. رأى المستقبل أمامه عريضًا، لكن لا شيء فيه يزيح هذا الحمل عن قلبه. لم يتحرك من مكانه، ولم يرفع رأسه من بين يديه، فظلّت عيناه تحدقان في ظلمةٍ كظلمة ليلة مدلهمّة. لم يجد بدًا من الاعتراف:
-أنا أعشقكِ...
ومن الجانب الآخر من المدفأة، من زاوية الأريكة التي تجلس فيها، سمع صوت بكاء مخنوق كأنين طفل. هبّ واقفًا وهرع إليها.
-إيلين! ما هذا الجنون؟! لماذا تبكين؟ لم يفت الأوان بعد. ما زلتُ حرًا، وسوف تنالين حريتكِ.
كانت بين ذراعيه ووجهها الغارق في الدموع رطبٌ بين شفتيه. وكل مخاوفهما بعيدة شفافة كأطياف الصباح. إنّ ما أذهله من نفسه هو أنه كان واقفًا يجادلها لخمس دقائق وعرض الغرفة يفصل بينهما، في حين أن مجرد وجودها في أحضانه أعاد التوازن إلى عالمه. لم تبخل عليه في عناقهما، لكن ما لبث أن أحس أنها تخشبت بين ذراعيه، فأبعدته عنها ونهضت. وقفت بمنأى عنه بجانب المدفأة، ونظرت إليه من علوٍ:
-آه يا نيولاند... لم يكن هناك مناص من هذا. لكنه لا يغيّر أي شيء.
-بل يغير كل شيء. يغير حياتي بأسرها.
-لا.. لا. لا يجب أن يتغير شيء.. لا يمكن أن يتغير شيء! أنت خطيب ماي ويلند، وأنا متزوجة.

هبّ على قدميه مغتاظًا معاندًا:

-هراء! فات أوان هذا الكلام! لا يحق لنا أن نكذب على الآخرين أو على أنفسنا. لن نتجادل في زواجكِ، لكن أتظنين أني سأتزوج ماي بعد هذا؟

وقفت والصمت يلفها مسندةً كوعيها الهزيلين إلى رف المدفأة، وصورتها منعكسة في الزجاج خلفها. تمردت إحدى خصلات الشنيون ففرت من محبسها، وتعلقت على عنقها. كأن هذه الثواني أنهكتها وزادت على عمرها سنينًا.

-لا أتخيل أنك ستطلب من ماي هذا الطلب. أيمكنك أن تتخيل؟

هز كتفيه باستهتار:

-فات الأوان لأفعل أي شيء آخر.

-أنت تقول ذلك لأن هذا أيسر ما يُقال في هذه اللحظة، وليس لأنها الحقيقة. الواقع يقول إن الأوان قد فات، وليس أمامنا إلا أن ننفذ ما اعتزمناه لأنفسنا.

-أوه... أنا لا أفهمكِ!

تحركت شفتاها بابتسامةٍ مشفقة كدّرت صفاء وجهها. قالت:

-أنت لا تفهم لأنك لم تعرف بعد كيف قلبتَ حياتي... منذ البداية، قبل أن أعرف كل ما فعلتَه.

-كل ما فعلتُه؟

-أجل. لم يدر في خلدي قط في البداية أن الناس هنا كانوا متحرجين من وجودي، وأنهم كانوا يرونني امرأةً سيئة... إلى درجة أنهم رفضوا لقاءي في دعوة عشاء. لقد علمتُ بذلك بعد حين. وعلمتُ أنك أجبرت والدتك على الذهاب معك إلى هنري ڤان دِر لويدن وزوجته، وأنك أصررتَ إصرارًا على إعلان خطبتك في حفل بوفرت الراقص، كي أنال دعم أسرتك أيضًا لا أسرتي فحسب... (ضحك نيولاند عندما قالت ذلك) تخيل... تخيل كم كنتُ عمياء غبية! لم أكن لألحظ أي شيء لولا أن الكلمات خرجت من فم جدتي بلا تفكير في أحد الأيام. كانت نيويورك هي الأمان والحرية لي... كانت بيتي. وكنت سعيدةً جدًا لأنني بين أهلي وناسي، فظننتُ أن كل من

لقيني طيب وودود ومسرور برؤيتي. ومع هذا أحسستُ منذ البداية... أني لم أقابل أحدًا بلطفك... لم أقابل أحدًا يمنحني أسبابًا أفهمها لأتخذ خطوة بدت لي في أولها شاقة جدًا... وغير ضرورية. هؤلاء الطيبون لم يقنعوني، لأنني لم أشعر قط بأنهم عرفوا ما يعنيه فراري. إلا أنت... أنت عرفت... أنت فهمت... لقد رأيتَ تلك الدنيا تشدني بأيدٍ من ذهب، ومع هذا فقد كرهتَ ما تطلبه مني... وبغضتَ السعادة التي تأتي على حساب الخيانة والقسوة واللامبالاة. ذلك الإحساس... أنا لم أشعر به من قبل في حياتي! وهو أجمل إحساس وأفضل من أي شيء شعرتُ به من قبل.

تحدثت بنبرة خفيضة معتدلة، بلا دموع ولا انفعال ظاهر، وكل كلمةٍ نطقتها سقطت على صدره كقطرةٍ من رصاص ذائب حام. وهو منكفأ في جلسته ورأسه بين يديه، يحدّق في السجادة وفي طرف حذاء الساتان الذي يطل من تحت حاشية فستانها. جثم نيولاند على ركبتيه فجأة ولثم الحذاء.

انحنت عليه ووضعت يديها على كتفيه. نظرت إليه بعينين أسرتاه وشلّتاه بعمقهما. هتفت عندها:

-كلا! لا تجعلنا نفسد ما بيننا. لا يمكنني أن أعود إلى جهلي. لا أستطيع أن أحبك إلا إذا تخليتُ عنك.

اشتاقت ذراعاه إلى ضمّها لكنها تراجعت، فوقفا ينظران إلى بعضهما، يفصل بينهما البعد الذي صنعته كلماتها. وفجأة تصاعد فيه الغضب حتى فاض:

-وبوفرت؟ أسيحل مكاني؟

استعد والكلمات تنطلق من فيه أن يتلقى وابلاً من سهوم السخط، وكان سيتلقاها بصدر رحب لأنها الوقود الذي سيغذي نار غضبه. لكن ما حدث هو أن مدام أولنسكا شحبت قليلاً، ثم وقفت ويداها مرتخيتان إلى جانبي جسدها، ورأسها منحنٍ بعض الشيء كعادتها عندما تفكر في مسألة تشغلها.

تابع نيولاند تصويب سهامه:

-إنه ينتظرك الآن في منزل السيدة ستراثرز. لِمَ لا تذهبين إليه؟

استدارت فدقّت الجرس، وعندما ظهرت الخادمة قالت لها:
-لن أخرج هذا المساء. أخبري سائق العربة أن يذهب لإحضار السنيورة الماركيزة.
أُغلق الباب وراء الخادمة، فما رفع نيولاند نظرته المريرة عن وجهها.
-ما سبب هذه التضحية؟ أنت قلتِ بنفسكِ أنك وحيدة، ولا يحق لي أن أمنعكِ من رؤية أصدقائكِ.
ابتسمت من بين أهدابها المبتلّة. أجابته:
-لن أكون وحيدة بعد الآن. كنتُ وحيدةً، وكنتُ خائفةً... لكن الفراغ والظلام بدآ ينحسران، وعندما أنفرد بنفسي منذ الآن سوف أشعر بأني طفلة تدخل في الليل غرفةً لا ينطفئ نورها.
أحاطها مظهرها ولهجتها بهالة حصينة رغم رقتها، فتذمر نيولاند ثانيةً:
-أنا لا أفهمكِ!
-ولكنك تفهم ماي!
احمرّ وجهه من ردها اللاذع، لكنه لم يخفض عينيه عن وجهها.
-ماي مستعدة للتنازل عني.
-صحيح؟! بعد ثلاثة أيام من تضرّعك لها على ركبتيك للتعجيل بزواجكما؟
-لقد رفضتْ. وهذا يعطيني الحق في...
-أوه. أنتَ من علمني أن كلمة "حق" مسيئة قبيحة.
أدار ظهره إليها وكيانه كله ينبض بالإرهاق. أحس كمن تسلق لساعاتٍ جبلاً وعرًا، وعندما بلغ أخيرًا القمة بعد لأيٍ، زلت قدمه فهوى على رأسه في العتمة. لو أنها بين ذراعيه فربما استطاع أن ينسيها كل أعذارها وحججها، لكنها أبقته على مبعدة عنها بشيء لا يفهمه في منظرها وسلوكها، شيء يشبه التعالي أو التحفظ، وبذهوله من حرارة صراحتها. عاد إلى رجائها بعد صمتٍ فقال:
-لو فعلنا هذا الآن فسوف يكون الحال أسوأ فيما بعد... أسوأ للجميع...
صرخت كأنما أخافها:

-لا... لا... لا!
دقّ جرس الباب حينئذٍ دقةً طويلة تردد صداها في المنزل. لم يسمعا صوت أية عربة تقترب من المنزل. فوقفا بلا حركة يحملقان في بعضهما في دهشةٍ.
أما خارج الحجرة فسمعا خطوات ناستاسيا وهي تعبر البهو، فتفتح الباب الخارجي، ثم دخلت عليهما تحمل برقيةً سلمتها إلى الكونتيسة أولنسكا.
قالت ناستاسيا وهي تملّس مريلتها:
-فرحت السيدة كثيرًا بالزهور. ظنّتْ أن زوجها أرسلها. وبكت قليلاً وقالت إن هذا طيش منه.
ابتسمت سيدتها واستلمت الظرف الأصفر منها. مزقته وأخرجت البرقية، حملتها إلى المصباح لتقرأها على ضوئه. وبعد أن أُغلق الباب عليهما، أعطت نيولاند البرقية.
كانت البرقية مرسلةٌ من ساينت أوغسطين، وموجّهة إلى الكونتيسة أولنسكا.
قرأ نيولاند ما كُتب في البرقية:
"أقنعت برقيةُ جدتي والديّ. الزواج بعد عيد الفصح. سأبرق إلى نيولاند. سعادتي لا توصف وأحبكِ كثيرًا. الممتنّة. ماي"
* * *
بعد نصف ساعة، ولج نيولاند إلى منزله فوجد ظرفًا مشابهًا على طاولة البهو فوق كومة من الرسائل، وكان يحوي برقيةً من ماي تقول فيها:
"وافق والداي. الزفاف يوم الثلاثاء بعد عيد الفصح. الساعة الثانية عشرة في كنيسة (غرايس). ثماني وصيفات. أرجوك قابل القسيس. سعيدةٌ جدًا. مع حبي. ماي"
جعّد نيولاند الورقة الصفراء كأنه بفعله هذا سيلغي الأخبار التي تحملها، ثم أخرج مفكرة من جيبه وقلّب صفحاتها بأصابع مرتعشة، لكنه لم يجد ما يريده، فدس البرقية في جيبه وركض صاعدًا درجات السلم.
رأى من تحت عقب باب غرفة جايني أن النور مضاء، فخبط أخوها الباب

بنفـاد صبر. فُتح الباب ووقفـت أخته في قميصها القطني الأرجواني القديم، وشعرها معقوص بدبابيس الشعر. بدا وجهها شاحبًا فزعًا.

-نيولاند! آمل ألا تحمل البرقية أخبارًا سـيئة؟ لقد انتظرتك تحسـبًا لـ... (لا توجد رسالة واحدة تصله لا تعرف عنها جايني).

-اسمعي... أي يوم يصادف عيد الفصح هذا العام؟

بدت مصدومةً من جهله بالتعاليم المسيحية. لكنها أجابت:

-عيد الفصح؟ نيولاند! في أول أسبوع من أبريل طبعًا. لماذا؟

عاد يقلب صفحات مفكرته، ويغمغم وهو يحسب الأيام.

-أول أسبوع؟ أتقولين أول أسبوعٍ؟

رفع رأسه عاليًا وضحك ضحكةً طويلة.

-بالله عليكَ أخبرني ما الأمر؟!

-لا شيء... ما عدا أن زفافي سيكون بعد شهر.

تعلّقت جايني بعنقه، واحتضنته بقوةٍ إلى صدرها القطني الأرجواني.

-خبر مذهل يا نيولاند! يا سـعادتي! لكن لمـاذا تضحك كل هذا الضحك يا عزيزي؟! صه... أرجوك، وإلا فسوف توقظ ماما.

الجزء الثاني

الفصل التاسع عشر

كان الجو في ذلك اليوم بديعًا تهب فيه رياحٌ ربيعية منعشة. وكانت كل عجائز الأسرتين قد أخرجن أوشحة السمّور الباهتة، وفراء القاقم[1] المصفرّة من خزائنهن. ورائحة الكافور التي تفوح من الصفوف الأولى من مقاعد كنيسة (غرايس) تكاد أن تبتلع الشذا العطري الخافت من الزنابق المحيطة بالهيكل.

كان نيولاند ووصيفه ينتظران في غرفة القسيس، وبإشارة من القندلفت خرجا ووقفا على عتبة الهيكل.

كانت تلك الإشارة تعني أن عربة (البروم) التي تقل العروس وأباها قد دنت، لكنها لن تدخل مباشرةً. فسوف تمرّ فترة طويلة من المداولات والتحضيرات في بهو الكنيسة حيث تحوم إشبيناتها كباقة من أزهار الربيع. ويتعين على العريس خلال فترة الانتظار الإجبارية هذه أن يقف وحيدًا يواجه أعين المدعوين الحضور المحدّقة دليلاً على حماسه ولهفته، وقد انقاد نيولاند طائعًا لهذه الشكلية كما فعل في غيرها من الشكليات التي تجعل مراسم الزواج في نيويورك في القرن التاسع عشر تبدو كأنها طقس من الطقوس البشرية الضاربة في القدم. كل خطوةٍ كانت سهلة جدًا في الطريق الذي تعهّد بأن يسير فيه - أو مؤلمةٌ جدًا فهذا يعتمد على إحساس المرء وهو يخطوها - وقد امتثل بخنوعٍ إلى أوامر وصيفه المرتبك، كما أطاع العرسانُ من قبل أوامره عندما كان يقودهم للخروج من المتاهة نفسها.

لقد أدّى كل مهمةٍ عُهدت إليه حتى الآن... أو يظن أنه فعل. أرسل ثماني باقات من البنفسج الأبيض وزنابق الوادي إلى الإشبينات في الوقت المحدد، وأرسل أزرار الكم المصنوعة من الذهب والياقوت للأشابين الثمانية، وأرسل مشبك العنق المزيّن بحجر عين الهر لوصيفه، وقضى نصف ليلته

(١) القاقم: حيوان يشبه ابن عرس لكن ذيله قصير

البارحة يحاول التنويع في صياغة عبارات الشكر على الدفعة الأخيرة من الهدايا المرسلة من أصدقائه وحبيباته السابقات، وأعطى أتعاب الأسقف والقسيس لوصيفه، ونُقلت أمتعته وملابس السفر التي سوف يرتديها بعد انتهاء المراسم إلى منزل السيدة مينغت العجوز حيث سيُقام حفل الاستقبال بعد الزفاف، وحجز مقصورة خاصة في القطار الذي سوف يحمل العروسين إلى وجهتهما المجهولة. فإخفاء المكان الذي يقضي فيه العروسان ليلتهما الأولى هو من الأعراف المقدسة في هذا الطقس الذي ينتمي لعصر ما قبل التاريخ.

همس وصيفه الشاب ڤان دِر لويدن نيولاند الذي كان حديث العهد بمهام هذا العمل، ومتهيّبًا من عظم مسؤولياته:

-أمعك الخاتم؟

قام نيولاند بالحركة التي لطالما رأى كثيرًا من العرسان يقومون بها: تحسّس بيده غير المكسوة بالقفاز جيب بذلته الرمادية الداكنة، وطمأن نفسه أن الدبلة الذهبية الصغيرة في مكانها (منقوش بداخلها: نيولاند وماي، .... أبريل ...187)، ثم استقام في وقفته ممسكًا قبعته الطويلة وقفازيه الرماديين ذوي التقطيب الأسود في يده اليسرى، وركّز نظره على باب الكنيسة.

انبعثت من فوقهم ألحان هاندل بعظمتها وفخامتها، يتردد صداها عبر قباب الحجر المستعار، حاملةً على نغماتها ذكريات حفلات الزفاف الكثيرة التي وقف فيها نيولاند ببشاشة فاترة على عتبة الكنيسة ذاتها، وهو يراقب العرائس وهن يقطعن صحن الكنيسة طفوًا في الهواء تجاه عرسانهن.

قال في نفسه: «وكأننا في افتتاح العرض الأول في الأوبرا!». مسح ببصره الوجوه نفسها في المقصورات نفسها (لا.. بل في المقاعد نفسها)، وهو يتساءل.. يا تُرى عندما يُنفخ بالبوق في نهاية الدنيا أستكون السيدة سيلفريدج ميري مرتديةً قبعتها الشاهقة وريش النعام يرفرف فوق رأسها كالعادة؟ أسترتدي السيدة بوفرت قرطيها الماسيين، وعلى وجهها الابتسامة التي لا تتبدل؟ هل يا تُرى أُعدت لهم مقاعد أمامية تليق بمقامهم في العالم الآخر؟

انتظاره أتاح لـه الوقت كي يمحص الملامح المألوفة للمدعوين في الصف الأول فردًا فردًا. النساء حادّات الفضول شديدات اللهفة، والرجال عابسون مجبرون على التأنق في ستراتهم الضيقة قبل تناول الغداء، ومتشائمون من الصراع المرتقب للحصول على الطعام في حفل الاستقبال.
إن العريس ليتخيل ريجي تشيڤرس وهو يقول: «من سوء الحظ أن الحفل في منزل كاثرين العجوز. لكنني سمعتُ أن لوڤيل مينغت أصرّ أن يعّد طاهيه الخاص الوليمة، إذًا سيكون الطعام لذيذًا... لو استطاع المرء أن يصل إليه».
ويمكنه أن يتخيل ردّ سيلرتون جاكسون بكل عجرفة: «يا صاحبي العزيز، ألم تسمع آخر الأخبار؟ سوف يُقدّم الطعام في طاولات صغيرة على الطريقة الإنجليزية الجديدة».
جرت عينا نيولاند للحظةٍ على مقاعد الجهة اليسرى، حيث والدته التي دخلت الكنيسة متأبطةً ذراع السيد هنري ڤان دِر لويدن كانت تذرف الدموع بصمت تحت غطاء دانتيل «شانتيللي» الفاخر، ويداها في مُدفِّئةِ فرو القاقم التي ورثتها عن جدتها. ولما نظر إلى أخته قال في نفسه: «مسكينة جايني. من مقعدها هذا لا يمكنها أن ترى إلا عجائز أسرتي نيولاند وداغنيت في الصفوف الأمامية، حتى لو أدارت رأسها في كل اتجاه».
وفي الجانب القريب من الشريط الأبيض الذي يقسّم المقاعد المحجوزة للأسرتين، رأى نيولاند بوفرت بطوله وبوجهه المحمر يتفحص النساء بنظرته المغرورة، وزوجته تجلس بجانبه مرتدية فستانها الأرجواني وفراء الشنشيلة(1) الفضي. أما على الجانب الآخر من الشريط، فجلس لورنس ليفرتس رافعًا رأسه بشعره المملس، كأنما هو حارسٌ على باب إله «المظاهر الحسنة» الخفي الذي يرعى هذه المراسم.
تساءل نيولاند كم هي العيوب التي التقطتها عين ليفرتس اللّماحة في المراسم المقامة إجلالاً لما يقدسه، ثم تذكّر أنه هو أيضًا كان في يوم من الأيام يرى

(1) حيوان صغير من القوارض وذو فروٍ ناعم الشعيرات

أن لهذه الأمور أهمية قصوى. ويا لكثرة تلك الأمور التي كانت فيما مضى شغل أيامه الشاغل! غير أنها تبدو اليوم كمحاكاة طفولية ساخرة للحياة، أو كالصراع الذهني الذي عانى منه أساتذة الجامعات في العصور الوسطى في سبيل فهم المصطلحات الماورائية التي لم يفهمها أحد في زمانهم. فقبل سويعات من الزفاف فحسب ثار نقاشٌ عاصف مائج بين أفراد الأسرتين حول مسألة عرض هدايا الزواج أمام الحضور، ولم يصدق نيولاند عينيه هو يرى أشخاصًا بالغين يدخلون في حالة غضب معتم واهتياج ثائر بسبب موضوع تافه كهذا، وألا يحسم المسألة سوى هتافِ السيدة ويلند رافضةً الفكرة والدموع الغاضبة تسيل من عينيها: «ألا تريدون أيضًا أن أفتح بيتي للصحافيين؟!». ومع هذا فقد كان لنيولاند في يوم ما آراء حازمة بل ومتعصبة أحيانًا في كل هذه الأمور، وأي شيء يمس سلوكيات عشيرته وعاداتهم كانت في نظره محمّلة بأهمية لا تعادلها أهمية في الدنيا. قال في نفسه: «وطوال تلك الفترة كان يعيش في العالم أناس حقيقيون، تجري في حياتهم أحداث حقيقية...».

«ها قد وصلوا!»

همس العبارة وصيفه بكل حماس، لكن العريس كان أعلم بما يجري. فقد فُتح باب الكنيسة لا لأن العروس قد وصلت، بل لأن القندلفت السيد براون بردائه الأسود (وهو نفسه السيد براون صاحب اصطبلات تأجير الخيول والعربات) أطل برأسه ليمسح المكان بعينيه مسحًا مبدئيًا قبل حشد قواته. أُغلق الباب بهدوء بعده، ثم فُتح بعد لحظات بكل فخامة على مصراعيه، وغمغم حضور الكنيسة: «الأسرة!».

دخلت السيدة ويلند أولاً متأبطةً ذراع أكبر أبنائها، ووجهها العريض المتورد مكسوٌّ برزانةٍ تلائم الموقف والمكان. كانت نظرات الإعجاب تلتقط تفاصيل فستانها الخوخي من الساتان ذي الأشرطة السماوّية العريضة، وقلنسوتها الصغيرة من القماش نفسه وريش النعام الأزرق. لكن قبل أن تستوي

بإجلال على مقعدها المقابل لمقعد السيدة آرتشر، كانت أعناق الحضور ممتدة ليروا من سيلحقها. فقد انتشرت شائعات قبل الزفاف بيوم مفادها أن الجدة مينغت قد عزمت على حضور مراسم الزفاف رغم إعاقتها الجسدية. وحيث إن هذا الأمر إن حدثَ ليس بمستغرب على امرأة بجسارتها وشخصيتها القوية، فقد تراهن الرجال في النوادي بمبالغ كبيرة على ما إذا كانت ستقدر على المشي في صحن الكنيسة والانحشار في أحد المقاعد. وقد شاع قبل ذلك خبرٌ يقول إنها قد أصرّت على إرسال نجارها الخاص ليبحث إمكانية إزالة اللوح من المقعد الأمامي، وليقيس المساحة بين المقعد والمقدمة، لكن النتيجة لم تكن مرضية. ثم اضطرت أسرتها إلى مراقبتها صامتين مكتوفي الأيدي يغمرهم القلق، وهي تفكر في أن تُدفع في صحن الكنيسة بكرسيها الضخم ذي العجلات، وأن تجلس على عرشها هذا بقرب عتبات المذبح.

كان أقرباؤها متحرجين كثيرًا من خروج الجدة أمام الناس في هذا المظهر، حتى إنهم كادوا يغطون بالذهب ذلك العبقري الذي اكتشف فجأة أن الكرسي أعرضُ من أن يدخل بين القوائم الحديدية للمظلة الممتدة من باب الكنيسة إلى نهاية الرصيف. وكانت إزالة هذه المظلة التي تحجب العروس عن أعين مصممي الأزياء والصحافيين المتجمهرين - الذين يحاولون اختلاس النظر من بين فتحات قماش المظلة - أمرًا لا يجرؤ عليه أحد ولا كاثرين العجوز بشجاعتها المشهودة، رغم أنها فكّرت للحظات بهذه الفكرة. ولما سمعت السيدة ويلند بخطة أمها صاحت متعجبةً: «قد يلتقطون صورةً لابنتي! وينشرونها في الصحف!»، فشعرت الأسرة بأكملها باختلاجة خوف من هذه الفكرة الفاضحة. فاضطرت الجدة إلى الاستسلام، لكنها نالت مقابل تنازلها على وعدٍ منهم بإقامة حفل الاستقبال في منزلها، رغم أنه كان من الصعب على المدعوين (كما لمّح أقرباؤهم القاطنون في ميدان واشنطن) أن يقنعوا السيد براون بخفض أجرة العربات التي سوف توصلهم إلى بيت الجدة البعيد المنعزل، مع أن منزل أسرة ويلند أقرب إلى الكنيسة.

ورغم أن كل هذه المباحثات الأسرية قد نشرها السيد جاكسون وأخته بين الناس، فإن أقليةً متفائلة ما زالت متعلقة بأمل حضور كاثرين العجوز في رحاب الكنيسة. وقد سادت خيبة الأمل في الجو عندما ظهرت زوجة ابنها السيد لوڤيل مينغت عوضًا عنها. وكان وجه هذه ممتقعًا ونظرتها زائغة كعادة السيدات من سنها ومقامها عندما يجهدن من ارتداء فستان جديد. لكن عندما انقشعت خيبة الأمل السابقة، رأى الجميع أن خمارها المطرز من دانتيل «شانتيللي» فوق فستان الساتان البنفسجي، وقلنسوتها ذات اللون نفسه كان مبهجًا مقارنةً بلون فستان السيدة ويلند. لكن كليهما كانا مختلفين أشد الاختلاف عن الأشلاء المتفرقة من الأشرطة، والأهداب، والأوشحة المتطايرة التي ارتدتها السيدة النحيلة المتبخترة التي ظهرت بعدهما ممسكةً ذراع السيد مينغت. عندما وقعت عينا نيولاند على هذه المرأة، انقبض قلبه وتوقف نبضه.

كان واثقًا من أن الماركيزة مانسون ما زالت في واشنطن! لأنها قد غادرت قبل أربعة أسابيع تقريبًا مع ابنة أخيها مدام أولنسكا. وحسبما قيل للجميع فإن سبب رحيلهما المفاجئ هو رغبة مدام أولنسكا في إبعاد عمتها عن تأثير د. أغاثون كارڤر السيء الذي كاد أن ينجح في تطويعها لدعم جماعته المشبوهة، ولهذا فلم يتوقع أحد تحت هذه الظروف أن أيًا من السيدتين ستحضران الزفاف. وقف نيولاند للحظاتٍ مشدوهًا ينظر إلى ميدورا، ثم حاول أن يمدّ عنقه ليرى من تبعها، لكن المسيرة القصيرة انتهت بميدورا، وقد اتخذ بقية أفراد الأسرة مقاعدهم. أما الأشابين الثمانية الطوال فقد تحلّقوا كسرب من الطيور أو الحشرات التي تستعد لاتخاذ أماكنهم في التشكيل لبدء الهجرة، ثم انسلّوا من الأبواب الجانبية إلى البهو.

همس الوصيف:

-نيولاند... ألم تسمعني؟ أقول لك إنها هنا!

تنبه نيولاند من غفلته فزعًا.

يبـدو أن توقـف نبضات قلبه قـد عطّل تفكيره لأنه عندمـا أفاق من سرحانه رأى أن المسـيرة البيضاء قد وصلت إلى وسط صحن الكنيسة، وأن الأسقف والقسـيس ومسـاعدَيها يحومـون بالملابس البيضـاء حول الهيـكل المكدّس بالزهور، وأن أول أوتار سـيمفونية سبور[1] بدأت تنشر أنغامها الوردية قبل ظهور العروس.

فتـح نيو لانـد عينيه (أكانتـا حقًا مغلقتين كـما تخيل؟!) وشـعر بقلبه يعود إلى مزاولة وظيفته العادية. الموسـيقى، وعبق الزنابق في هيكل الكنيسة، والغادة الحسـناء التي تتهـادى مقتربةً منه أكثر فأكثر في فسـتان التول الحريري وزهر البرتقال، ووجه والدته وهي تنشج العَبَرات السعيدة، وهمهمة القسيس وهو يبارك العروسين، وترتيب الإشبينات الثمانية المكتسيات بالورديّ والأشابين الثمانية المتّشـحين بالأسـود... كل هـذه المناظر، والأصوات، والأحاسـيس المألوفةِ لعينيه المجهولةِ في عقله اختلطت، فبلبلت أفكاره.

«رباه! أنسيتُ الخاتم؟!». تحسس جيبه مرة أخرى كما يفعل كل العرسان.

وفي لحظـة صارت ماي بجانبه، ووجودها يشـعّ إشراقًا بعث في جسـده دفئًا أذاب جموده، فاستقام وابتسم وهو ينظر في عينيها. بدأ القسيس بالمراسم:

-أيها الأحبة، نحن مجتمعون هنا اليوم...

أصبـح الخاتـم في إصبعهـا، وقـدّم القسـيس تبريكاته، واتخذت الإشـبينات أماكنهن في المسـيرة، وعـزف الأُرغُن ألحـان «مقطوعة الزفاف» لميندلسـون التي لم يُزفّ عروسان في نيويورك دونها قط.

-ذراعك! قلتُ مدّ ذراعك إليها!

همـس وصيفه في أذنه متوتـرًا، فعرف نيو لاند أن تفكيره قـد أخذه إلى أماكن مجهولـة بعيدة مـرة ثانية. ما الـذي جعله يسرح يا ترى؟ أتكـون ربما اللمحة الخاطفـة التـي اقتنصتهـا عينـاه مـن وسـط الحضـور المجهولـين في جنـاح الكنيسـة... ذلك الشعر الأسـود وتلك القبعة؟ ... لكن لا.. كانت امرأةً لا

(١) لويس سبور: موسيقار ألماني شهير

يعرفها ذات أنف طويل، لا تشبه تلك التي سكنت خياله في شيء، حتى ظن أن الهلوسة سيطرت على عقله.
بـدأ الآن يمـشي هو وزوجتـه الهوينا قاطعين صحن الكنيسـة عـلى موجات مقطوعـة الزفاف الخفيفة، واليـوم الربيعي الذي يطل مـن الأبواب المشرّعة يدعوهمـا لعناقـه، وخيلا السـيدة ويلنـد الكسـتنائيان اللذان حُـلّي جبيناهما بطوقين من الأزهار البيضاء يصهلان ويثبان في نهاية النفق القماشي المنصوب على باب الكنيسـة. ألبس الخادم - الذي كان يزين صدر سترته بزهرة بيضاء كبـيرة أيضًا - مـاي عباءتها البيضاء، وقفـز نيولاند راكبًا عربـة (البروم) إلى جوارها. منحته ابتسامةً منتصرةً، وتشابكت يداهما تحت خمارها الأبيض.
وعـلى حين بغتة رأى نيولاند الهوّة الظلماء البهيمة نفسـها تنشـق أمامه، وهو يسقط في أعماق سوادها. ومع هذا فقد بدأ يثرثر بابتهاج وسلاسة:
-يـا حبيبتـي! طبعًا ظننـتُ أنني نسـيت الخاتم! لـن يكتمل أي زفـاف إن لم يتعذب العريس بهذه الشكوك. لكن انتظاري لكِ قد طال، فبدأت الهواجس السوداء تشوش تفكيري.
فاجأته عروسه بأن طوّقت عنقه بذراعيها على مرأى من الجادّة الخامسة.
-وما الذي يمكن أن يحدث الآن يا نيولاند، وقد أصبحنا معًا إلى الأبد؟

***

كل دقائـق ذلك اليوم وثوانيه قد خُططت بعناية شـديدة، ولم يتأخر أي شيء أو يتعطل، حتى إن الوقت سـنح للعروسـين بعد انتهاء حفل الاستقبال كي يغيّرا ملابسهما ويرتديا ملابس السفر، وينزلا الدرج الواسع في منزل السيدة مينغت محاطين بالإشبينات الضاحكات وأفراد الأسرة الباكين، ويركبا عربة (الـبروم) تحـت وابل من حبـات الأرز والأخفـاف السـاتانية[1]، ويصلا إلى محطة القطار قبل موعدهما بنصف سـاعة، فاسـتغلا الوقـت بشراء المجلات

(١) جرت العادة في مراسيم الزفاف في القرن التاسع عشر أن تُرمى حبات الأرز والأخفاف المصنوعة من الساتان على عربة العروسين

الأسبوعية من كشك الجرائد كالمسافرين المحنكين، ثم استقرا في المقصورة المحجوزة التي وضعت فيها خادمة ماي عباءة سيدتها الرمادية المعدّة للسفر، وحقيبتها الجديدة من لندن.

كانت العمات العجائز من أسرة دو لاك قد عرضن منزلهن في (راينبك) على العروسين، وهن متلهفات لقضاء أسبوع في نيويورك مع السيدة آرتشر، وقد قبِل نيولاند عرضهن بلهفة مماثلة، لأنه لم يكن يريد قضاء ليلته في أجنحة العرائس في أحد فنادق فيلادلفيا أو بالتيمور. وقد ملأ الفرح نفس ماي عندما علمت بأنهما سيقضيان وقتًا في الريف، وكانت كذلك جذلة كالطفلة من محاولات الإشبينات لحل لغز وجهة العروسين. إن فكرة إعارة الشخص لمنزله في الريف لآخرين لهي إنجليزية في طابعها، وقد أضافت لمسة من التميز على هذا الزفاف الذي أجمع الكل أنه زفاف العام بلا منازع. بيد أن مكان المنزل قد أُخفي عن الجميع ما خلا والديّ العروسين، وكلما ألحف الناس عليهما في السؤال زموا شفاههم وقال بغموض: «لم يخبرانا»، والحق أن كلامهم صحيح لأنهم يعلمون وجهة العروسين دون يصرّحا بذلك.

بعد أن استقر العروسان في مقصورتهما، وشرع القطار يتجاوز الضواحي الغابيّة الممتدة، ويقطع مروج الربيع، أصبح الكلام بينهما أسهل مما كان نيولاند يتصور. فما زالت ماي في مظهرها ولهجتها الفتاة البسيطة التي عرفها بالأمس، متلهفة لمقارنة أحداث الزفاف معه ومناقشة تفاصيله بكل حيادية، كأنها إشبينة تدردش مع إشبين! ظنّ نيولاند في البداية أن هذا الانفصال عن الواقع كان قناعًا يخفي رجفة خوف في داخلها، لكن عينيها الصافيتين لم تظهرا إلا غفلةً مطمئنة. كانت تلك هي المرة الأولى التي تنفرد فيها بزوجها، وما زوجها إلا نديمها الذي عرفته منذ حين، لا أحد تحبه وتثق به أكثر من حبها له وثقتها به. وقمة المتعة التي تختم بها مغامرة الخطوبة الممتعة وتبدأ بها الزواج السعيد هي بانطلاقها معه لوحدهما في رحلة كأي امرأة بالغة، أو بالأحرى كأي «امرأة متزوجة».

كان من الرائع أن يرى في ماي مشاعر جيّاشة عميقة، ولو أنها اختلطت مع غياب الخيال، كما رأى بأم عينه في حديقة الإرسالية في ساينت أوغسطين.

لكنه تذكر الآن - كما تذكر في ذلك اليوم - أنها أثارت عجبه بعودتها لطبيعتها الطفولية العاجزة على التعبير حالما انزاح العبء عن كاهلها، فأدرك أنها سوف تقضي عمرها على الأرجح دون أن تستعد لحوادث الحياة وتجاربها على الإطلاق، بل سوف تتعامل مع كل تجربة على حدة بعد أن تتعرض لها.

ربما كانت قدرة ماي على استغفال الحياة هي ما تمنح عينيها شفافيتهما، وتجعل وجهها وجهًا لا شخصية ولا انفرادية فيه، وجه يمثل صنفًا من الشابات الجميلات النقيات اللاتي قد يختارهن نحاتٌ ليصنع تمثالاً لإلهة إغريقية، أو ليجسد معالم الفضيلة. والدماء التي تجري في عروقها الواضحة تحت بشرتها البيضاء قد لا تكون دماءً حمراء متفجرة كالتي تجري في البشر، بل ربما تكون مجرد مادة باردة تبقيها حية. لكن شبابها العتيد الحصين لم يجعلها قاسية ولا فاترة، بل طبيعية نقية. وفي غمرة هذه التأملات، وجد نيولاند نفسه ينظر إليها بعيني غريب لم يرها قبل تلك اللحظة، فأخذ يدفع ذهنه دفعًا للحديث عن حفل الاستقبال ونجاح الجدة مينغت الباهر في إقامته. وجارته ماي في الحديث عن هذا الموضوع بمتعة بالغة:

-لكني اندهشتُ عندما رأيتُ أن الخالة ميدورا قد أتت. ألم تُدهش مثلي؟ بعثت إليّ إيلين رسالة قالت فيها إنهما متعبتان ولا يمكنهما تحمّل مشاق السفر. ليتها هي من استردّت صحتها! أرأيت الدانتيل الفاخر الذي أرسلته إليّ؟

-أجل... أنا.. لا... نعم، إنه جميل.

نظر إليها بعينين لا تبصران. كان يعلم أن اللحظة آتية لا ريب إن عاجلاً أم آجلاً، لكنه تصوّر أنه يستطيع بقوة إرادته أن يصدّ عدوانها. أكلما سمع اسمها يا ترى سيتداعى الحاجز المنيع الذي تعب في بنائه كما ينهار بيت من ورق؟

-ألستِ مرهقة؟ لعلّنا نشرب قليلاً من الشاي فور وصولنا. أنا واثق أن العمّات قد أعددن كل شيء على أتم وجه.

أخذ لسانه يجري بالكلمات مسابقًا أفكاره، ويده تحتضن يدها. أما هي فسرح عقلها فورًا تفكر بصينية تقديم الشاي والقهوة المذهلة المصنوعة من فضة بالتيمور التي أهدتها أسرة بوفرت لهما، والتي تلائم الصواني والأطباق الجانبية التي بعثها خالها لوڤيل هديةً لهما.

توقف القطار مع انتشار حمرة الشفق في السماء الربيعية في محطة (راينبك)، وسارا على رصيف المحطة تجاه العربة المنتظرة. رأى نيولاند سائق عربة حسن المظهر يقترب منهما، ويأخذ الحقائب من يد الخادمة، فهتف قائلاً:

-يا لكرم ڤان دِر لويدن ولطفه! لقد أرسل سائقه من سكويتركليف للقائنا.

قال المُرسل إليهما:

-أنا آسف جدًا يا سيدي فقد وقعت حادثة صغيرة في منزل الآنسات دو لاك نتج عنها تسرب في خزان المياه. لقد وقعت أمس، ولما عرف السيد ڤان دِر لويدن عن الأمر هذا الصباح، أرسل خادمة في قطار الصباح الباكر لتهيئة منزل سعادته لحضرتكما. وأعتقد أنكما ستجدان المكان مريحًا جدًا يا سيدي. كما أرسلت الآنسات دو لاك الطاهي إلى العزبة، فسيكون المكان معدًا كما لو أنكما في (راينبك).

حدّق نيولاند في الرجل فاغرًا فمه، مما دعا الرجل إلى تكرار كلماته في لهجةٍ أكثر أسفًا:

-سيكون المكان مماثلاً يا سيدي. تأكد من ذلك...

فرفعت ماي صوتها لتملأ الصمت المحرج:

-سيكون مثل (راينبك)؟ في منزل السيد الإقطاعي؟ بل سيكون أفضل من ذلك بألف مرة! أليس كذلك يا نيولاند؟ إن هذا من كرم السيد ڤان دِر لويدن وذوقه.

بعد أن انطلقت العربة بهما، والخادمة تجلس بجانب السائق، وحقائب العروسين الجديدة على المقعد المواجهة لهما، قالت ماي بحرارة:

-تخيل! لم أدخل منزلهما قط. أدخلته أنت؟ إن السيد ڤان دِر لويدن وزوجته

لا يرحبـان إلا بالقليل من الضيوف. لكنهما فتحا منزلهما من أجل إيلين، وقد حكـت لي أنه منزل خلاب جميل. قالت لي إنـه المنزل الوحيد في أمريكا الذي ترى نفسها تعيش فيه بكل سعادة وهناء.

هتف زوجها جذلاً:

-ونحن... نحن سنمكث فيه بكل سعادة وهناء.

فأجابته ببسمة طفولية:

-هذه بداية حظنا... الحظ السعيد الذي سيكون حليفنا إلى الأبد.

الفصل العشرون

قال نيو لاند:

-طبعًا يجب أن نلبي دعوة السيدة كارفري لتناول العشاء في ضيافتها يا عزيزتي.

نظرت زوجته إليه مقطّبة الجبين من فوق أواني بريتانيا[1] الموضوعة على طاولة الإفطار في النُزل الذي يقيمان فيها في لندن. لم يكن هناك سوى شخصين فقط يعرفهما نيو لاند وزوجته في لندن الخريفية المقفرة الماطرة، وقد سعيا حثيثًا أن يتجنبا لقاءهما تماشيًا مع القاعدة النيويوركية القديمة التي تنص على أنه ليس من «الذوق» أن يُقحم المرء نفسه في حياة معارفه في البلدان الأجنبية.

كانت السيدة آرتشر وجايني تطبّقان هذا المبدأ بصرامة لا تحيد خلال أسفارهما في أوروبا، وكانا يقابلان تودد المسافرين الآخرين معهما بتحفظ لا يمكن زعزعته حتى أوشكتا أن تحققا الرقم القياسي في أقل الكلمات المتبادلة مع أي «أجنبي»، باستثناء العاملين في الفنادق ومحطات السكك الحديدية. أما المسافرون الأمريكيون - ما عدا الذين يعرفانهم من قبل السفر أو يعرفان مكانتهم الاجتماعية - فكانوا يلقون من السيدتين احتقارًا صريحًا أكثر مما يلقاه غيرهم. وهما بذلك يقضيان أشهر سفرهما في الخارج في حديث بينهما دون ثالث - إلا إذا قابلا فردًا من أفراد أسرة تشيفرس، أو داغنيت، أو مينغت.

لكن أحيانًا لا تجدي أكثر الاحتياطات صرامةً نفعًا. فذات مرةٍ في بولسانو[2] كانت السيدة آرتشر وجايني تنزلان في فندقٍ، وتسكن في الحجرة المقابلة لحجرتهما سيدتان إنجليزيتان (كانت جايني قد تحرّت فعرفت اسميهما، ومكانتهما الاجتماعية، ولاحظت طريقة لبسهما). وفي إحدى الليالي، طرقت إحدى السيدتين الإنجليزيتين باب جارتيهما لتطلب عبوة مرهم، لأن السيدة

(١) بريتانيا: هي صنف من أواني المائدة الرخيصة المصنوعة من المعدن

(٢) مدينة في شمال إيطاليا

الأخـرى - وهـي أخت الطارقة واسـمها السـيدة كارفـري - أصيبت بنوبة مفاجئة من التهاب الشعب الهوائية. فقدمت لهما السيدة آرتشر التي لا تسافر أبـدًا دون أن يكـون معهـا صيدليـة تناسـب احتياجـات كل الأسرة العلاج المطلوب. ولما كان مرض السيدة كارفري شديدًا، وهي وأختها الآنسة هارلي تسـافران وحيدتـين فقد كانتـا ممتنتين عظيم الامتنان للسـيدة آرتـشر وابنتها اللتين بذلتا كل ما بوسـعهما من وسـائل الراحة للمرأتين، وسخّرتا خادمتهما النشطة لتولي المريضة بالعناية والمساعدة حتى تحسنت صحتها.

وعندمـا رحلت الأم وابنتها عن بولسـانو لم يـدر في خلدهما ولو للحظة أنهما سـوف يلتقيـان بالسـيدة كارفـري والآنسـة هارلي مـرة أخرى، فـلا جريمة أشـنع في حـق الـذوق في نظـر السـيدة آرتشر من أن يفرض الإنسـان نفسـه عـلى «أجنبي» قدّم له خدمـةً عَرَضية في أحد الأيام. غير أن السـيدة كارفري وأختهـا اللتـين لم تعلـما بوجود هذه القاعدة - وإن علمتا فسـوف يسـتعصي عليهما فهمها - شـعرتا أنهـما مدينتان بامتنان أبـدي «للأمريكيتين الحنونين» اللتين قابلتاهما في بولسـانو. وبوفاءٍ يأسر القلب كانت السيدتان تتحينان كل فرصة سـانحة للقاء السيدة آرتشر وجايني خلال محطات سفرهما في أوروبا، وأظهرتا حذاقةً خارقة للطبيعة في معرفة متى بالضبط سـوف تحلان في لندن في طريقهما إلى الولايات المتحدة ذهابًا أو إيابًا. وتوطدت العلاقة بين النسـاء الأربعة وزادت حميمية الصداقة، فكلما نزلت السيدة آرتشر وجايني في فندق بـراون في لنـدن، وجدتـا في انتظارهمـا صديقتيهـما العزيزتين. وثمة قواسـم كثـيرة مشـتركة بينهن؛ فهن يزرعـن السراخس في القبـاب الواردية، ويحكن الدانتيـلات المكرمية، وقد قـرأن مذكرات البارونة بانسـون، ولهن آراء قوية حـول وعظـاء المنابر في الكنائس اللندنية. وكانت السـيدة آرتـشر تردد دومًا أن لندن أضحت مكانًا مختلفًا مذ عرفتا السـيدة كارفري والآنسة هارلي. وقد اشـتدت أواصر الصداقة بينهن حتى إن أسرة آرتشر رأت أن من الضروري أن تدعو السـيدتين الإنجليزيتين لحضور حفل زفاف نيولاند، وقد أرسـلت

الإنجليزيتـان هديـةً جميلة، وهي باقة من أزهار الألـب المجففة المحفوظة في علبة زجاجية. وآخر ما قالته السـيدة آرتشر وهي تودّع نيولاند وزوجته على رصيف الميناء، قبل إبحارهما إلى إنجلترا هو: «يجب أن تصطحب ماي لرؤية السيدة كارفري».

في الحقيقـة لم يكـن للعروسـين أية رغبـة في إطاعة أمـر والـدة نيولاند، لكن السـيدة كارفـري بحذاقتهـا المعهـودة تقصّت أثرهمـا، وبعثت إليهـا بدعوة عشـاء. وبسبب هذه الدعوة غضّنت ماي آرتشر جبينها، بينما كانت وزوجها يحتسيان الشاي ويتناولان الكعك.

-الأمر لا يهمك يا نيولاند لأنك تعرفها. لكنني سوف أخجل من وجودي بين أناس لم أقابلهم من قبل. وماذا سأرتدي؟

تراجـع نيولاند في مقعده وابتسـم لزوجته. كانت أجمل وأكثر شـبهًا بديانا من ذي قبل، والهـواء الإنجليزي الرطب يورّد خديها وينعّم حدة ملامحها، أو ربما يكون هذا أثرٌ من وهج السعادة الداخلية التي تشع كالضوء تحت قالب ثلجي.

-يـا عزيـزتي! ماذا ترتديـن؟! ألم يصلكِ صندوق مـليء بالملابس من باريس الأسبوع الماضي؟

-أجـل، لكن مـا قصدته هو أنني لا أعـرف أيها أرتدي. لم يسـبق لي حضور دعوة عشاء في لندن من قبل، ولا أريد أن يكون مظهري سخيفًا.

حاول أن يفهم حيرتها، فسأل:

-لكن ألا ترتدي الإنجليزيات في المساء ما ترتديه بقية النساء في كل مكان؟

-نيولانـد! إن أسـئلتك حقًـا غريبـة! ألا تراهـن يذهبـن إلى المـسرح وهـن حاسرات الرأس، ويرتدين فساتين حفلات الرقص القديمة؟

-إذًا ربـما يرتديـن فسـاتين حفلات الرقـص الجديدة في المنـزل. على العموم لن تجدي السـيدة كارفري والآنسـة هارلي على تلك الهيئة، بل ستجدين أنهما ترتديان غطاء رأس كالذي ترتديه والدتي... وشالاً ناعمًا.

-نعم، لكن ما الذي سترتديه بقية النساء؟

رد وهو محتارٌ من اهتمامها الفظيع المفاجئ بالملابس، حتى أحس أنه يحدّث أخته:
-لن يكون ما يرتدينه بجمال ما ترتدينه أنتِ يا عزيزتي.
دفعت كرسيها إلى الخلف وتنهدت:
-هذا من لطفك يا نيولاند، لكن كلامك لا يساعدني كثيرًا.
خطرت في ذهنه فكرة، فقال:
-لِمَ لا ترتدين فستان زفافكِ؟ فهذا اختيار صحيح في جميع الظروف.
-أوه يا حبيبي! ليت فستاني معي هنا! لكنني أرسلته إلى باريس ليُعدَّل قبل حلول الشتاء القادم، ولم ينتهِ وورث[1] منه بعد.
قال نيولاند وهو ينهض:
-حسنٌ إذًا. انظري... بدأ الضباب ينقشع! إن عجّلنا بالذهاب إلى المعرض الوطني فقد تسنح لنا الفرصة برؤية بعض اللوحات.

***

حان موعد عودة نيولاند وزوجته إلى وطنهما، بعد قضاء ثلاثة أشهر في رحلة شهر العسل التي وصفتها ماي لصديقاتها في خطاباتها بأنها «هانئة».
لم يذهبا إلى البحيرات الإيطالية، فلم يستطع نيولاند أن يتصوّر وجود زوجته في ذلك المكان بعينه. وقد مالت هي إلى فكرة قضائهما شهر يوليو في التزلج في الجبال، وشهر أغسطس في السباحة (بعد قضاء شهر مع مصممي الأزياء في باريس)، وقد نفذا هذه الخطة فعلاً؛ فأمضيا يوليو في إنترلاكن وغريندلفالد[2]، وأغسطس في مكان صغير يُدعى إتريته على ساحل نورماندي امتدحه شخص ما ووصفه بأنه هادئ وجذاب. وبينما هما على قمة أحد الجبال أشار نيولاند مرةً او اثنتين جهة الجنوب وقال: «إيطاليا هناك»، فابتسمت ماي بحبور وقدماها تداعبان أزهار الجانتيانا، وردّت: «ليتنا نزورها الشتاء المقبل، لكن وجودك في نيويورك ضروري».

(١) تشارلز وورث: من ألمع مصممي الأزياء في باريس في القرن التاسع عشر
(٢) بلدتان في مقاطعة برن في سويسرا

لكـن الحقيقة هي أن اهتمامها بالسـفر والترحال كان أقل مما توقع، حيث إنها كانت تعدّه (بعد أن فرغت من طلب تصاميم ملابسها الجديدة) مجرد فرصةٍ مطوّلة للمشي، وركوب الخيل، والسـباحة، وممارسـة تلك الرياضة الجديدة المذهلـة المدعوة بالتنس. وعندما حلا في لندن (حيث سـيمكثان لأسـبوعين بينا يطلب هو ملابسه) لم تقدر على مداراة ابتهاجها بالإبحار تجاه الوطن.

ولم يثر أي شيء في لندن اهتمامها سـوى المسـارح والمتاجر. ولم تحفل بمسارح لنـدن بقدر ما حفلت «بمقاهي الطرب» في باريـس، حيث رأت ولأول مرة وهـي تطـل من شرفـة المطعم تحت فيء أشـجار الكسـتناء الوارفة في شـارع الشانزليزيه جمهرةً من المومسات، وقد ترجم لها زوجها ما استطاع أن يترجم من كلمات الأغاني، دون أن يخدش حياءها.

وقـد عاد نيولاند إلى اعتناق أفكاره القديمـة الموروثة عن الزواج، لأنه وجد أن من الأسـهل أن ينصاع إلى التقاليد، ويعامـل ماي كما يعامل كل أصدقائه زوجاتهـم بالضبط من أن يحاول تطبيـق النظريات التي تفتق عنها ذهنه الخليّ أيـام العزوبية. فـلا طائل من محاولة تحرير زوجةٍ لا تـدرك على الإطلاق أنها مقيدة، وقد اكتشـف منذ حينٍ أن كل ما سـتفعله مـاي بالحرية التي ترى أنها تملكهـا هو أن تقدّمها قربانًا له أثناء تعبدهـا في محراب الزوجيّة. إن كبرياءها الفطري سـيمنعها دومًا مـن تقديم هذه الهدية الغالية بـذلٍ وخضوع، بل قد يأتي يومٌ (كما جاء من قبل) تجد في نفسـها القوة على اسـترجاع الهدية بأسرها إن هي ظنّت أن في فعلها هذا مصلحته. لكن تصورها التقليدي البسـيط عن مفهـوم الـزواج يعني أن هـذا الاحتمال لا يمكن أن يحـدث إلا إذا وقعت في زواجهما أزمةٌ سـببها سـلوكٌ واضح الفحش يصدر عنه، لكن حبها له يجعل هذه الفكرة في نظرها مسـتحيلة. كان واثقًا كل الثقة أنه مهما حصل، فستظل هي دائمًا وفية شهمة متسامحة، وهذا ما حثّه إلى الاقتداء بها.

إن التفكير في كل هذه الأمور يجعله يرجع إلى تبني أفكاره القديمة. لو كانت بسـاطةُ تفكيرهـا ضحالـةً وتفاهةً في نفسـها لغضـب من نصيبه وثـار عليه،

لكـن الحقيقـة هـي أن ملامح شـخصيتها على قلتهـا لا تقل جمـالاً ولا طهرًا عن قسـمات وجهها، فارتضى أن تكون الحـارس الرقيب على جميع اعتقاداته السابقة ومبادئه التي يكّن لها إكبارًا وتبجيلاً.

صحيحٌ أن هذه الخصال لا تجعل الترحال خارج البلاد بصحبتها تجربةً فائقة المتعـة، ولا تبث روح النشـاط والحيوية في السـفر - ومع هـذا، والحق يقال، فإنّ ماي رفيقة خفيفة الروح وسـهلة المعشر عند السـفر - لكنه يدرك كيف ستسـخّر مـاي هذه الخصال في حياتهـا العادية. إنّه لا يخشـى أن تكون حياته معها مملة خانقة، لأن حياته الفنية والثقافية سـتظل مسـتمرة دائمًا خارج حيز الحيـاة المنزلية كما كانت في السـابق، ولن يكون هنـاك أي حدود لحجم المتعة والحريـة التي سيعيشـها في تلـك الحياة. وبذلك لن تكـون العودة إلى زوجته في نهايـة اليـوم في نظـره كدخول غرفة مكتومـة قابضة، بعد جولـة طويلة في الطبيعة. وعندما يُرزقان بأطفال فسوف يملؤون كل فراغ في حياتهما.

كان نيولاند يستعرض هذه التأملات في ذهنه خلال رحلتهما الطويلة البطيئة من مايفير إلى سـاوث كينزنغتون حيث تقطن السـيدة كارفري وأختها، وكم كان يأمـل أن يتهـرب من تلبية هذه الدعوة. لأنـه لا يختلف عن طباع والدته وأخته عند السفر. فهو يسافر بصفته سائحٌ متفرجٌ ولا يلقي للمسافرين معه بـالاً، ولم يظهر له خلال تنقلاتـه أن أحدًا تلهف على معرفته أو صحبته... ما عدا مرةً واحدة بعد أن تخرّج في هارفارد. فقد أمضى بضعة أسابيع مبهجة في فلورنسـا مع ثلة من الشـباب الأمريكيين المتأوربين(1) الذين يرقصون طوال الليـل مع النبيلات في القصور، ويقامرون نصف النهار في النوادي العصرية مع المعربدين والمتغندرين. ورغم أنه اسـتمتع بإجازته تلك أيما اسـتمتاع فإن كل مـا جـرى خلالها كان كالحلـم أو كالخداع البصري الذي يراه الشـخص في الكرنفالات. فأولئك النسـوة المتحررات الغربيات اللاتي يسردن على من عرفـن ومن لم يعرفن حكايات علاقاتهـن الغرامية بكل تفاصيلها، والضباط

(1) نسبةً إلى أوروبا

الشباب الوسيمون والعجائز المتصابون - وهم أحد أطراف هذه العلاقات الغرامية، إما مستمعين أو مشاركين - كانوا يشكلون عالمًا آخر مختلفًا كل الاختلاف عن الناس الذي نشأ نيولاند بين ظهرانَيهم. فأحس أنه يتفرج على نباتات غريبة الشكل، غالية الثمن، خبيثة الرائحة، محفوظة في صوبات زجاجية. ولم يستسغ هذه الحياة ولا استهوته قط، وما فكر يومًا أن يقدّم زوجته في ذلك المجتمع.

بعد وصولهما إلى لندن بمدةٍ ليست طويلة صادف نيولاند دوق ساينت أوستري، وقد تذكره الدوق على الفور ودعاه بكل دماثة إلى زيارته، لكن لا أمريكي يأخذ هذه الدعوة اللطيفة على محمل الجد، ولهذا فلم يتبع لقاءهما لقاءٌ ثاني. واستطاع وزوجته أن يتحاشيا لقاء خالتها الإنجليزية زوجة المصرفيّ لأنها كانت في يوركشاير في فترة وجودهما، بل إنهما تعمدا تأجيل قدومهما إلى لندن حتى فصل الخريف لكيلا يصلا خلال الموسم الاجتماعي، فيكون وجودهما عبئًا وتطفلاً على هؤلاء الأقرباء غير القريبين. قال نيولاند لماي وهما يجلسان في العربة:

-لن يكون هناك أحد على الأرجح في منزل السيدة كارفري، فلندن مقفرة في هذا الفصل. ولقد أتعبتِ نفسك في التزين لمناسبة بسيطة كهذه.

-لا أريدهم أن يظنّوا أن الأمريكيين همجيون لا يعرفون الذوق.

بدت ماي جميلة جدًا بعباءتها الزرقاء المطرّزة بريش الإوز، فكَرِهَ نيولاند أن يعرضها لسخام لندن، لكنه تعجّب مرة أخرى من القدسية الإلهية التي تظهرها أقل النساء الأمريكيات اهتمامًا بالماديات إزاء اللباس في المناسبات الاجتماعية. قال في نفسه: «اللباس هو درعهن وحاميهن من المجهول، وسلاحهن لمواجهته». وفهم لأول مرة ما سر الجدية التي تملّكت ماي وهي تختار ملابسها وأزياءها الكثيرة وتطلبها من المصممين، كأنها تجري طقسًا دينيًا مهيبًا، وهي التي لا تعرف كيف تربط شريطةً في شعرها كي تتزين من أجله.

كان مصيبًا في توقعه أن قلّة هم المدعوون إلى حفل العشاء في منزل السيدة

كارفـري. فـكان الحضور في غرفة الاسـتقبال الطويلة البـاردة هم مضيفتهما وأختهـا، وسـيدة ثالثة تتدثر شـالاً، وزوجها وهو كاهن دمـث أنيس، وفتى صامـت قدمته السـيدة كارفري لهما على أنه ابن أخيها، ورجل داكن الشـعر، صغير البنية، ذو عينين براقتين وهو مدرس الفتى دعته السيدة كارفري باسم فرنسي. وإلى داخل هـذه الحجرة نصف المظلمة، ونحو هذه الزمرة المضجرة تهادت ماي آرتشر مثل إوزّةٍ غمرتها حمرة الشـفق، فكانت أبهى وأسـمى من أي لحظة رآها فيها زوجها، وهو على يقين أن حمرة وجنتيها وحسـن مظهرها لا يعنيان أن حياءها الطفولي قد هجرها.

ناشـدته عيناهـا بيأس: «عـن أي شيء أتحدث معهـم؟»، والمفارقـة أن جمال طلّتها أثار الهواجس نفسها في صدور من رأوها. لكن الجمال حتى إن لم يكن صاحبـه متيقنًـا من وجوده يبعث الثقة في قلوب الرجـال، وسرعان ما أبدى الكاهن والمدرس الفرنسي لماي رغبتهما في أن يؤانساها ويسلياها.

لكـن رغم جهودهمـا المضنية، كان الحديـث على مائدة العشـاء فاترًا خاملاً، فقد لاحظ نيولاند أن زوجته في حديثها مع الأجانب كانت تتكلم عن أمور وأشـخاص في مجتمعهـا بما لا يمّت بصلةٍ للسـامعين، فأصبـح الكلام معها مضجـرًا لا يوقـد الذهن، رغم أن جمالها يجعل اللسـان طليقًا. سـأم الكاهن بعـد حين من المحاولـة، أما المدرس الـذي كان يتحـدث الإنجليزية بطلاقة وفصاحة، فجاهد بكل صبر في الدردشـة معها، إلى أن صعدت السيدات إلى غرفة الجلوس في الطابق العلوي، فتنفس الجميع الصعداء.

اسـتأذن الكاهن بعد كأس من النبيذ البرتغالي في الانصراف متعللاً باجتماع، وأوى الفتـى الحيـي الـذي يبـدو أنه عليـل الصحة إلى فراشـه، أمـا نيولاند والمـدرس فبقيا يحتسـيان النبيذ من كأسـيهما. وجـد نيولاند نفسـه يتجاذب أطراف الحديث بحرارة لم يحس بها منذ اجتماعه الأخير بنيد وينسـت. عرف مـن مجمـل الحديث أن ابن أخ السـيدة كارفـري أصيب بالسـلّ، فاضطر إلى

مغادرة هارو[1] إلى سويسرا حيث قضى فيها عامين بقرب بحيرة ليمان لأن الجو هناك أكثر اعتدالاً. وحيث إنّ الفتى مولعٌ بالاطلاع وقراءة الكتب فقد عُهد به إلى وصاية مسيو ريڤيير، وقد اصطحبه الأخير في رحلة عودته إلى إنجلترا وسوف يظل معه إلى أن يغادر الفتى إلى أكسفورد في الربيع المقبل. وأضاف مسيو ريڤيير عَرَضًا أنه بعد ذلك سيضطر للبحث عن وظيفة أخرى.

لم يتصور نيولاند قط أن يظل هذا الرجل بلا عمل فترةً طويلة، فاهتماماته جمّة ومواهبه عديدة. كان الفرنسي في الثلاثين من عمره تقريبًا، ذا وجهه طويل دميم (من الوجوه التي تسميها ماي «وجوه العوام»)، تنعكس كل أفكاره في تعبيرات وجهه، لكن إيماءاته لم تكن مزعجة ولا مبتذلة. تُوفي أبوه شابًا وكان يشغل منصبًا دبلوماسيًا صغيرًا، وكان الأمل أن يخلف الولد أباه في المهنة نفسها، لكن نهمه للكتابة رماه في أحضان الصحافة، ثم التأليف (ومن الواضح أنه لم يصب في هذا نجاحًا)، وبعد فترة طويلة من تقلبات الحظ وتجربة أشياء جديدة - لم يقصها كلها على رفيقه - أخذ يعلّم الشباب الإنجليز في سويسرا. لكنه عاش قبل ذلك زمنًا في باريس، فكان يتردد على صالون غونكورت الأدبي، وغالبًا ما ناقش ميريميه في منزل والدته، وقد نصحه موباسان بألا يتابع التأليف (وهذا في نظر نيولاند شرف عظيم، رغم ما في النصيحة من تثبيط). ومن الواضح أن الفقر والقلق صاحبا مسيو ريڤيير دائمًا فهو يعول أمه وأختًا عزباء، ومن الواضح كذلك أن طموحاته الأدبية فشلت، وأن وضعه المادي لم يكن أفضل حالاً من نيد وينست. لكنه عاش كما قال في دنيا لا يجوع فيها من كان زاده الفكر والإبداع، ولأن هذا هو زاد وينست أيضًا فترى المسكين يتضور جوعًا. لم يجد نيولاند إلا أن ينظر بعين الحسد إلى هذا الشاب المفلس المتعطش الذي أُثري ثراءً عظيمًا رغم فاقته.

-ألا ترى مسيو أن محافظة المرء على حريته الفكرية، وحماية قدرته على تذوق الابداع أو النقد المستقل يستحقان التضحية؟ لهذا السبب هجرت الصحافة

(١) هارو: من أفضل المدارس الداخلية في لندن

والتجأت إلى أعمال رتيبة كالتدريس وأعمال السكرتارية. صحيحٌ أن فيها كدح وشقاء، لكن بها يستطيع المرء صون حريته الخلقية، ما نسميها بالفرنسية «quant à soi».. أو احترام الذات. وعندما يستمع المرء إلى الحوارات الشائقة يستطيع إبداء رأيه دون خوف من التصريح بما يفكر به، أو يمكنه أن ينصت ويتأمل ويجيب في دخيلة نفسه. آه ما أجمل الحوارات الممتعة! لا شيء يعدلها. إن هواء الإبداع هو الهواء الوحيد الذي يستحق أن نتنفسه. ولهذا لم أندم قط على هجر الدبلوماسية أو الصحافة، فما هما إلا وجهان لعملة واحدة: ظلم الذات. (ركزّ بصره على نيولاند وأشعل سيجارة أخرى). أن تنظر إلى سر الحياة... ألا يستحق هذا مسيو أن تعيش في خرابة؟ لكن حتى الخرابات لها أجرة. وأنا أعترف أن فكرة انطواء سنيّ عمري في التدريس تؤلمني بقدر ما تؤلمني فكرة العودة إلى بوخارست للعمل كسكرتير. أحيانًا أشعر أن عليّ المخاطرة... أن أجازف مجازفة عظيمة. أتظن مثلاً أن أجد وظيفة شاغرة لي في أمريكا... في نيويورك؟

وجم نيولاند من سؤال محدّثه. يريد أن يعيش في نيويورك! شاب في ربيع عمره، اختلف إلى صالونات غونكورت وفلوبير الأدبية، ويؤمن أن حياة الفكر والإبداع هي الحياة الحقيقية! ظل يحدق في مسيو ريڤيير وهو يفكر كيف يخبره أن مواهبه وميزاته هي أكبر عائق لنجاحه في تلك المدينة. لم يستطع حتى أن يتصور أي وظيفة مكسبة يجدها شاب يرى أن متعة الحوار والنقاشات هي ضرورة من ضرورات الحياة. تلعثم نيولاند وهو يرد:

-نيويورك... نيويورك... لكن أيجب أن تكون نيويورك تحديدًا؟

ارتفعت حمرة الخجل على وجه مسيو ريڤيير الشاحب، وقال:

-ظننتُ... بما أنها مدينتك... أليست الحياة الثقافية نشطة هناك؟

ثم أردف مسرعًا كأنما خشي أن يظن نيولاند أنه يطلب منه أن يسديه معروفًا:

-إنه مجرد اقتراح عشوائي... لم أفكر بالأمر جديًا. وفي الواقع أنا لا أرى حاجةً ملحة...

نهض من مقعده وأضاف بلا تحفظ:

-لا ريب أن السيدة كارفري تريدني أن أصحبك للانضمام إلى السيدات في الغرفة العلوية.

فكر نيولاند مليًا فيما حدث في طريقهما إلى المنزل. فقد بثّت الساعة التي قضاها مع مسيو ريڤيير الهواء إلى رئتيه، وخطر له أن يدعوه إلى العشاء في اليوم التالي، لكن نيولاند سيرى الآن لماذا لا يتصرف الرجال المتزوجون عفويًا إلا ما ندر. قال بتردد لماي وهما في العربة:

-ذلك المدرس الشاب رجل مثير للاهتمام. كان بيننا حوار ممتع بعد العشاء عن الكتب وأشياء أخرى.

أفاقت ماي من شرودها الصامت. وقد كان يقرأ في صمتها معانيَ كثيرة قبل أن تعلّمه الأشهر الستة الماضية من الزواج سرها.

-الفرنسي الهزيل؟ ألم ترَ أنه... أقل مكانةً؟ فهو من العوام.

قالت ذلك ببرود، فخمّن أنه تضمر خيبة أملها من أن تُدعى إلى العشاء لدى أسرة راقية في لندن، ولا تقابل سوى كاهن ومدرس فرنسي. ولم يكن مبعث هذه الخيبة هو شعورها بالخيلاء والتعالي، بل بإحساس النيويوركية التي جازفت فخرجت بكرامتها من بلدها إلى بلاد أجنبية. فلو أن والديّ ماي استضافا السيدة كارفري وأختها في الجادّة الخامسة لقدّما لهما شخصيات أهم من رجل دين ومدرس.

لكن نيولاند كان متحفزًا للجدال، وقد وجد متنفسه. سألها:

-من العوام! أي عوام؟

أجابت بسرعة غير معهودة:

-هو عامي بمقاييس كل البلدان، وليس له قدر إلا في حجرة الدراسة. من هم على شاكلته يكونون دائمًا مرتبكين في المناسبات الاجتماعية.

ثم قالت مخففةً للتوتر:

-لكن إن كان مثقفًا كما تقول فلم أكن لألحظ هذا.

بغـض نيولاند الطريقة التي قالت فيها «مثقـف» بقدر ما كره قولها «عاميّ»، لكـن مـا يخيفه هو نزوعـه إلى ملاحظة ما لا يعجبه فيهـا واختزانه في ذاكرته. لكـن الحقيقـة هـي أن نظرتها للأمـور لم تتغير على الإطلاق عـما كانت عليه، وهي نفسـها نظرة الوسـط الذي تربّى فيه، ويعدها هو من المسلّمات رغم أنه يتجاهلهـا. فهو لم يكن قد قابل امرأة «كريمة الحسـب» تنظـر إلى الحياة بعين مغايرة... إلا قبل شهورٍ قليلة، والرجال لا يتزوجون إلا من هؤلاء «كريمات الحسب». أنهى النقاش بضحكة وقال:

-إذًا لن أدعوه إلى العشاء.

كررت ماي كلامه وهي في حيرة:

-يا إلهي! تدعو مدرس أسرة كارفري إلى العشاء؟!

-لم أكن سأدعوه في الليلة نفسها مع السيدة كارفري إن كنتِ تفضلين ذلك. لكنني أردتُ حقًا أن نجد فرصة ثانية للحديث. إنه يبحث عن وظيفة في نيويورك.

ازداد عجـب ماي وازدادت لامبالاتها، وتصوّر أنها تفكر أنه أصيب في عقله بلوثة اسمها «الإعجاب بالأجانب».

-وظيفـة في نيويـورك؟ أي نـوع مـن الوظائـف؟ لا يوظّف النـاس معلمين فرنسيين. ماذا يريد أن يعمل؟

أجاب زوجها ليشاكسها:

-أن يستمتع بالحوارات الشائقة كما فهمت.

ضحكت زوجته ضحكة رائقة وقالت:

-آه يا نيولاند! كم تضحكني! هؤلاء الفرنسيون!

كان مـسرورًا على العموم أن تكون قد حسـمت هـي الأمر برفضها أن تأخذ رغبته في دعوة مسيو ريڤيير على محمل الجد. فلو دار بينه وبين الفرنسي حوار آخـر لكان مـن الصعب عليه أن يتفادى موضوع انتقالـه إلى نيويورك، وكلما فكر نيولاند بالموضوع اسـتعصى عليه تصور وجود مسيو ريڤيير في نيويورك التي يعرفها بأي صفة كانت.

لكـن الذعـر أنشـب أظفـاره فيه عندمـا أدرك أن كثيرًا من المسـائل الشـبيهة بمسـألة مسـيو ريڤيير سـوف تحل في المسـتقبل على يد زوجته بالرفض التام. ومـع هذا فقد أخذ يواسي نفسـه، وهـو يدفع أجرة العربة ويتبع ذيل فسـتان زوجته الطويل إلى المنزل، بالمبدأ المُسـتهلك القائل إن الشـهور السـتة الأولى هي أصعب فترات الزواج. قال في نفسه: «أعتقد أن بعدها سوف يكون كل منـا قد شـكّل الآخـر على الهيئة التي يريدها». لكن أسـوأ مـا في الأمر هو أن ضغوط ماي عليه قد بدأت بالفعل تؤثر على جوانب شـخصيته التي لا يريد أن يغيرها على الإطلاق.

الفصل الحادي والعشرون

امتـد مرج الحديقة وانبسـط حتـى اتصل بالبحـر العريض، وأُحيط عشـبها بسـياجٍ من أزهـار إبرة الراعـي والقوليـوس القرمزية، وأحـواضُ زرعٍ من الحديـدِ المشـغول المدهون بلـون بني كلون الشـوكولا تقف عـلى مبعدةٍ من بعضهـا، تحـرس الممـر الملتوي الـذي يقـود إلى البحـر، ومن فوقهـا تكللت هامات من أزهار البتونيا وإبرة الراعي تظلل الأرض المفروشة بالحصباء.

في منتصف المسافة ما بين شفير الجرف والبيت الخشبي (ولونه بنيٌّ شوكولاتي كذلك، لكن شرفته مسـقوفة بالصفيح المقلّم باللونين الأصفر والبني ليعطيه شـكل مظلة) نُصب هدفان كبـيران للنِبالة أمام الخمائـل. وفي الناحية المقابلة مـن المـرج، نُصبت خيمـة حقيقية في مواجهـة الهدفين، وفيهـا مقاعد طويلة وكراسي للحديقة. وكان عدد من السـيدات في فسـاتينهن الصيفية والسـادة الذيـن يرتدون بذلاتٍ رمادية ويعتمرون قبعات طويلة يقفون في ربوع المرج أو يجلسـون علي المقاعد. ومـا بين الفينة والأخرى تخرج فتـاة هيفاء بقميص من الموسـلين المُنشّـى من الخيمة، حاملةً معها قوسًـا وسهمًا. وعندما تصوّب سهمها على أحد الهدفين يبتر المتفرجون كلامهم ليروا النتيجة.

نظـر نيولانـد إلى ذلـك المنظـر من موقعـه على الشرفـة بفضول. وعـلى جانبي كل درجـة من درجات السـلم اللامعـة أصائص ضخمة مـن الفخار الصيني الأزرق، مرتكـزة على قوائم مـن الخزف الصيني الأصفـر الفاقع، وتحمل كل منها نبتة خضراء شوكية. وتاخم حاجز الشرفة أسفله شريط عريض من أزهار هايدرنجيـا الكوبيّة الزرقـاء المحاطة بمزيد من أزهار إبرة الراعي الحمراء. أما وراءه مـن حيث أتى فنوافذٌ فرنسـية تفضي إلى حجـرات الجلوس، يلمح المرء مـن سـتائر الدانتيـل المتمايلة أرضيةً خشـبية مصقولـة تتناثر عليهـا هنا وهناك مساند من الشِيت، وكراسي قصيرة، وطاولات من القطيفة بحواشٍ فضية.

كانت من عادة نادي النبالة في نيوبورت[1] أن يعقد اجتماعه في شهر أغسطس في منزل بوفرت دائمًا. ورغم أن الناس بدأوا يهجرون هذه الرياضة – التي لم يكن لها منافسًا حتى ذلك الحين سوى لعبة الكروكيه – ليمارسوا لعبة التنس، فإن كثيرًا منهم ما زالوا يرون أن التنس لعبة أجلف وأغلظ من أن تُمارس في المحافل الاجتماعية. علاوةً على أن في حمل القوس والسهم فرصة مهيأة لاستعراض الفساتين الجميلة والأجساد الرشيقة.

سرح نيولاند ببصره في هذا المنظر المألوف. إنه ليعجب وهو يشاهد الحياة مستمرةً كما كانت، في حين أن ردود أفعاله تجاه أحداثها تغير تغيرًا جذريًا. إن وجوده في نيوبورت هو ما أظهر له حجم هذا التغيير. فلمّا استقر هو وماي خلال الشتاء الماضي في نيويورك في المنزل الأصفر المخضّر الجديد ذي النوافذ المقوّسة والبهو الخانق، عاد بكل ارتياح إلى روتين عمله في المكتب كما كان قبل الزواج، فكان الرجوع لممارسة عاداته اليومية السابقة خيطًا يربطه بشخصيته التي يعرفها. وبعد ذلك انشغل بكل سعادة بموضوع شراء فرس رمادية لعربة ماي (البروم) التي تلقتها هديةً من أسرتها، ثم اعتكف راضيًا مستمتعًا بترتيب مكتبته الجديدة التي زخرفها كما تمنّى بورق جدران داكنٍ ذي نقوش نافرة، وخزائن كتب وكراسي وطاولات على طراز «إيستليك»، وسط احتجاجات الأسرة وامتعاضهم. وفي نادي (سنتشري) تجدد اللقاء بنيد وينست، أما في نادي «نيكرباكر»[2] فوجد الشباب من طبقته ومجتمعه. وما بين الساعات المكرّسة لخدمة القانون، والساعات المخصصة للزيارات والولائم أو استقبال الأصدقاء في المنزل – وما يتخللها من أمسيات يقضيها في الأوبرا أو المسرح – وجد أن حياته «حقيقية» ومليئة بما يشغل وقته.

لكن السفر إلى نيوبورت يعني الفرار من كل الواجبات إلى عالمٍ لا يقطع أيامه أي شغل. وقد حاول نيولاند إقناع ماي بقضاء الصيف على جزيرة نائية على

(١) نيوبورت: مدينة ساحلية في ولاية رود آيلاند

(٢) نيكرباكر: نادٍ اجتماعي تقتصر العضوية فيه على الطبقة العليا، بعكس نادي سنتشري.

مبعدة من ساحل ماين اسمها «ماونت ديزرت» (وهي اسم على مسمى)[1]، حيث يخيّم فيها عدد قليل من الأشخاص من بوسطن وفيلادلفيا في أكواخ بدائية. وقد سمع أن الطبيعة هناك خلابة، والناس يعيشون حياة برية على الصيد ما بين الغابات والشواطئ. لكن حماه وحماته كانا يقضيان الصيف دائمًا في نيوبورت حيث يملكان أحد تلك البيوت الخشبية المطلّة على الجرف، ولم يستطع صهرهما أن يقدّم سببًا وجيهًا لتسويغ عدم قضاء الإجازة معهما. ولما أشارت السيدة ويلند نظره بلهجة لاذعة إلى أنه من الظلم ألا تتمكن ماي من ارتداء أزياء الصيف بعد أن أرهقت نفسها في اختيارها في باريس، لم يحر نيولاند جوابًا على هذه الحجة.

حتى ماي نفسها لم تفهم تردده الغامض في قضاء الصيف في إجازة جميلة ومعقولة كهذه، وذكّرته أنه كان يحب نيوبورت في أيام عزوبيته، ولمّا كانت مصيبة في قولها لم يجد بدًا من أن يخضع ويقول إنه سوف يحب المدينة أكثر الآن بما أنهما سيكونان هناك معًا. لكن الآن، وهو يقف على شرفة بوفرت ويتابع الحديقة المكتظة في ذلك اليوم المشمس، اقشعر جلده وأيقن بأنه لن يحب المكان على الإطلاق. ولا يمكن أن يُنحي باللائمة على ماي المسكينة. فصفو العلاقة بينهما، وإن كان يتعكر قليلاً من حينٍ لآخر خلال ترحالهما، فسرعان ما يعاودهما الانسجام فور رجوعهما إلى الوسط والبيئة التي ترتاح ماي فيها. كان يعلم منذ البداية أنها لن تخذله، وكان في هذا محقًا. لقد تزوج - كما يتزوج أمثاله من الشباب - لأنه وجد الفتاة الجذابة اللطيفة في الفترة التي سأم فيها من السلسلة المتواصلة من العلاقة العاطفية العابرة، فجاءت هي مجسدةً الطمأنينة والاستقرار، والرفقة الطيبة والاحساس الدائم بالاضطلاع بالمسؤولية.

ولا يمكن أن يدعي أنه أخطأ في اختياره لزوجته، لأنها تتحلى بكل المواصفات التي تمنّاها، وليس هناك أي شك في أنه إحساس سار وعظيم أن يكون زوج إحدى أجمل نساء نيويورك وأكثرهن شعبيةً، خاصةً أنها كذلك حميدة

(١) يعني اسمها الجزيرة المقفرة أو المهجورة

السجايا، سهلة المعشر، ومن أعقل الزوجات التي يتمناها الرجل، ولم يكن نيولاند غافلاً أو غير مقدرٍ لمناقبها الحسنة. أما بخصوص تلك النزوة الطارئة التي تملّكته قبيل زفافه... لقد قرر أن يعدّها آخر تجاربه العاطفية الطائشة. يستحيل أن يتصور أنه كان يفكر في وقتٍ ما - وبكامل قواه العقلية - أن يتزوج الكونتيسة أولنسكا! لقد بقيت في ذاكرته مجرد طيف باهت من بين زمرة أطياف تثير فيه الشجن والشفقة.

لكن عمليات الاختزال العاطفي وشطب الذكريات أحالت عقله مكانًا أجوف يتردد في أرجائه الصدى. ولربما كان هذا أحد أسباب صدمته من رؤية كل هؤلاء الناس الذين تفيض من حركاتهم الحياة والنشاط في حديقة بوفرت كما لو كانوا أطفالاً يعبثون في مقبرة.

سمع نيولاند هفهفة تنانير بجواره، ورأى الماركيزة مانسون تخرج من حجرة الجلوس إلى الشرفة مرفرفةً كالطير. وكانت كعادتها دائـمًا متبهرجة ومبالِغة في التزين إلى حد الابتذال، وعلى رأسها قبعة رخوة من قش مثبتة على رأسها بعدة لفاتٍ من وشاح رقيق باهت اللون، وفي يدها مظلة صغيرة من المخمل الأسود ذات مقبض عاجي منقوش.

-نيولاند يا عزيزي! لم أعلم أنك وصلت أنت وماي! أتقول إنك وصلت أمس؟ آها.. العمل... والعمل... ومشاغل المهنة... أعرف شعورك. وأعرف أن أزواجًا كثيرين يستصعبون اللحاق بزوجاتهم إلا في نهاية الأسبوع. (أمالت رأسها جانبًا ورمقته بعينين نصف مغمضتين) لكن الزواج كله تضحية كما أكرر دائمًا على مسامع إيلين...

ارتجّ قلب نيولاند واضطربت دقّاته اضطرابًا غريبًا كما حدث مرةً من قبل، فأحسّ كأن بابًا بينه وبين العالم الخارجي قد أُوصد بغتةً. لكن يبدو أن نوبة الانفصال عن الواقع هذه لم تدم طويلاً، لأنه سمع ميدورا تجيب عن سؤالٍ يبدو أنه وجد في حنجرته بقايا صوتٍ ليطرحه.

-كلا، لستُ ضيفة على بوفرت. أنا مقيمةٌ في منزل أسرة بلنكرز في عزلتهم

الرائعة في بورتسموث. كان من لطف بوفرت أن يبعث إليّ بخيليه الشهيرين هـذا الصبـاح كـي يتسـنى لي أن ألقي ولو لمحـةً سريعة على إحـدى حفلات ريجينـا الرائعـة التـي تقيمها في الحديقة، لكني سـأعود إلى الحيـاة الريفية هذا المسـاء. لقد استأجرت أسرة بلنكرز بيتًا وسـط مزرعة بدائية في بورتسموث حيث يجمعون حولهم أناسًا من شتى مجالات الحياة.

تراجعت محتجبةً بقبعتها، وأردفت وحمرة الخجل تصبغ وجهها:

–سـوف يعقد الدكتور أغاثون كارڤر هذا الأسـبوع سلسـلة من ندوات عن "التفكـير الباطني" هناك. إن الموضوع ولا ريب مناقض تمامًا لهذا التجمع السعيد بالمتع الدنيوية... لكنني عشتُ حياتي كلها على التناقضات! إن الموت الحقيقـي في نظري يكمن في الرتابة. ودائمًا أقول لإيلين: احذري الرتابة فهي أم الخطايـا الموبقات. لكن طفلتي الحبيبة تمـر في حالة من الاكتئاب والبغض للعـالم بـأسره. أتعلـم أنهـا رفضت جميـع الدعوات التـي تلقتهـا للمكث في نيوبـورت، حتى مـع جدتها كاثرين؟ لقـد لاقيت الأمرين في سـبيل إقناعها بالمجـيء معـي إلى منزل بلنكـرز. تخيل! إن الحيـاة التي تفرضها على نفسـها رهيبـة وغير طبيعية. آه... ليتها أطاعتني عندما كان الأمل موجودًا... وباب الفرصـة مفتوحًـا. ألا تريـد أن ننزل إلى الحديقـة ونتابع هذه المبـاراة المثيرة؟ سمعتُ أن ماي إحدى المتنافسات.

عندما وصلا النجيل الأخضر، خرج بوفرت من الخيمة وتقدّم نحوهما. كان يبدو فارع الطول، ثقيل الخطوات، يرتدي سـترةً ضيقة تكاد أزرارها تنخلع من أماكنها، وزهرة أوركيد من أزهار حديقته في عروة معطفه. لم يره نيولاند منذ شهرين أو ثلاثة فذّهل من تغير شكله. فتورّدُ وجهه في ذلك اليوم الصيفي القائـظ جعله يبـدو بدينًا منتفخًا، ولولا مشـيته المنتصبـة ومنكبيه العريضين لظن أنه عجوزٌ متخم قد بالغ في تأنقه. وحول بوفرت تدور شـائعاتٌ مختلفة الأشـكال والتفاصيل. فقـد انطلق في الربيع في رحلـة بحرية طويلة إلى جزر الهند الغربية على متن يخته البخاري الجديد، وقيل إن امرأةً تشـبه الآنسـة فاني

رينغ شوهدت في معيّته في أماكن متفرقة حيثما رسا يخته. وقيل كذلك إن هذا اليخت الذي بُني على ضفاف نهر كلايد[1] يحوي حماماتٍ مبلّطة ورفاهيات أخرى لم يسمع بها أحد من قبل، وإنه كلّف صاحبه نصف مليون. كما تداول الناس فيما بينهم أن عقد اللؤلؤ الذي أهداه إلى زوجته فور عودته كان فاخرًا مذهلاً كما يجب أن تكون عليه أي عطيّة تكفيرية. ولا غرو في هذا فإن ثروة بوفرت الطائلة تحتمل كل هذه التكاليف، ومع هذا فإن الشائعات المقلقة ما زالت تدور... ليس في الجادّة الخامسة فحسب، بل في شارع وول ستريت[2] أيضًا. فقد راجت بين الناس شائعة تقول إنه ضارب في السكك الحديدية وخسر مبالغ كبيرة، وأخرى تدعي أن امرأة «من تلك المهنة» تستنزف أمواله بلا رحمة. وأمام كل هذه الأقاويل التي تتنبأ بقرب إفلاسه تجده يخرسها بعمل باذخ جديد، كأن يبني صفًا جديدًا من الصوبات الزجاجية لزراعة الأوركيد، أو يشتري سلالة كاملة من خيول السباق، أو يضيف إلى مجموعته الفنية لوحة جديدة من أعمال مسيونير أو كابنال.

اقترب بوفرت من نيولاند والماركيزة بابتسامته الهازلة المعهودة، وقال:

-أهلاً يا ميدورا. هل قام الخيلان بعملهما؟ أربعون دقيقة، هاه؟ ... هذا ليس سيئًا، ومن حسن الحظ أنهما أبطأ رحمةً بأعصابكِ.

صافح بوفرت نيولاند، ثم تحرك ليأخذ مكانه على جانب الماركيزة الآخر. قال لها بضع كلمات بصوت منخفض لم يسمعه نيولاند. جفلت الماركيزة، وقالت: "Que voulez-vous?"[3]، فزوى بوفرت ما بين عينيه. لكنه استدار إلى نيولاند وقدم له ابتسامةً مهنئة وقال:

-لا شك لديّ بأن ماي ستفوز بالجائزة الأولى.

هتفت ميدورا:

---

(١) نهر في إسكتلندا وأحد مراكز صناعة السفن والبواخر

(٢) شارع البورصة والأعمال في الولايات المتحدة، ويقع في نيويورك

(٣) سألته بالفرنسية: ماذا تريد؟

-إن مهارة النبالة تجري في دماء أسرتنا.

وصلوا الخيمة المنصوبة واستقبلتهم السيدة بوفرت وهي ترفل في فستانٍ من الموسلين البنفسجي، مع أوشحةٍ متطايرة حولها في كل جانب. خرجت ماي في تلك اللحظة من الخيمة بفستانها الأبيض والرباط الأخضر في خصرها، وإكليل من اللبلاب يطوق قبعتها. ما زالت تذكّره بأنفة ديانا الصيّادة التي لمحها فيها أول ما دخلت قاعة الرقص في منزل بوفرت في مساء خطوبتهما، وكأن لا فكرة عبرت عقلها ولا شعور دق باب قلبها ما بين هذه اللحظة وتلك، وزوجها أعلم الناس بأنها قادرة على التفكير والشعور، ولم يفارقه العجب في أن تجارب الحياة لا تخلّف أي أثر في وجهها.

أمسكت القوس والسهم، وتمركزت على العلامة المرسومة على الأرض بالطباشير، ثم رفعت القوس إلى كتفها وصوّبت. كان الرونق والبهاء يتجسدان في انتصابها حتى إنها أثارت غمغمة إعجاب من شفاه الحضور، فامتلأت نفس نيولاند بذلك الزهو الذي لطالما خدعه فزيّف له سعادة وقتيّة. وقفت منافساتها - زوجة ريجي تشيفرس، وبنات أسرة سيلفريدج ميري، وجمعٌ من الفتيات من ثورلي وداغنيت ومينغت - خلفها في قلقٍ يحسبن النقاط المُحرزَة، ورؤوسهن الشقراء والسمراء في قبعات الموسلين الباهت، وأخرى مكللة بالأزهار تتمازج كألوان قوس قزح. كلهن كنّ شابات جميلات كبراعم متفتّحة في الصيف، لكن لم يكن منهن من حباها الله بما لزوجته من رشاقة الغزلان. وبأعظم تركيز شدّت ماي عضلاتها وعقدت حاجبيها، ثم أطلقت سهمها.

سمع نيولاند لورنس ليفرتس يقول:

-يا للبراعة! لا أحد يحمل القوس كما تحمله هي!

فردّ بوفرت عليه:

-صحيح، وذلك الهدف هو الشيء الوحيد الذي تصيبه في مقتل.

ارتجّ مزاج نيولاند بغضبٍ غير منطقي. إن تعريض مضيفه المتهكم للطف

ماي الشـديد هو ما يتمنى أي زوج أن يسـمع عن زوجته. وإن قال رجل فظ مثل بوفرت أن ماي لا ترتقي لذوقه فهي شهادة على كرم خلقها وكمالها. ومع هـذا فـإن كلماته بعثت في فؤاده اختلاجة واهية وفكـرة مرعبة. ماذا لو كانت هـذه الدرجـة العالية من «اللطف» مـا هي إلا النقيض؟ مـا هي إلا حجاب يـواري... فراغًـا؟ تفـرّس في وجه ماي الهادي المحمر، بعـد أن أطلقت آخر سهم فأصاب قلب الهدف، وشعر بأنه لمّا يزح هذا الستار بعد.

تلقّـت زوجتـه تبريكات منافسـاتها وبقية الجمع بالبسـاطة التـي تمتاز بها. لا يمكن لأي شخص أن تصيبه الغيرة من نجاحاتها لأنها تملك سكينةً لا تتبدل بفـوزٍ أو خسـارة. لكـن عندما التقـت عيناها بعينـيّ زوجهـا أشرق وجهها بنور البهجة المشـعّة في وجهه. وجدا عربة السـيدة ويلند الخشـبية الخفيفة في انتظارهمـا، فانطلقا ضمن العربـات المغادرة؛ ماي ممسـكة باللجام ونيولاند يجلس بجوارها.

كانت شـمس العـصر ما زالت متمسـكةً بـالأرض تلقي بآخر أشـعتها على المـروج الخـضراء والخمائل، وعـلى امتداد جـادّة بلڤيو اصطفّت في مسـارينِ عربـاتٌ بمختلـف الأنواع ومنهـا؛ عربـات (فيكتوريا) الأنيقـة، والعربات ذات الأماكـن المخصصـة للـكلاب، وعربـات (اللانـدو)، والعربات ذات المقاعد المتواجهة. وتحمل على متنها سيدات أنيقات وسادة في أحسن هندام، إمـا عائدين مـن حفلة بوفرت، أو مـن النزهات العصرية على طريق أوشـن درايف. اقترحت ماي فجأة وهما في الطريق:

-أتريـد أن نذهـب لزيارة جدتي؟ أودّ أن أخبرها بنفـسي أنني فزتُ بالجائزة. وأمامنا متسعٌ من الوقت قبل موعد العشاء.

نـزل نيولانـد عنـد رغبتها، فشـدّت لجام الفرسـين نحـو جـادّة ناراغنزت، ثـم اجتازا شـارع سـبرنغ فامتـد الطريـق بهما إلى المـروج الصخريـة. في هذه المنطقـة المنقطعة عن الناس، شـيّدت كاثرين العظيمـة - مقبوضة اليد، التي لا تعبـأ برأي أحد - لنفسـها في شـبابها منزلاً ريفيًا متعـدد القمم ومتصالب

العـوارض، عـلى قطعـة أرض رخيصة تطل عـلى الخليج. وهنـا، في أجمةٍ من أشـجار البلـوط غير مكتملة النمـو، أطلّت شرفات منزلها فـوق مياه الخليج وجـزره المتناثرة. كان الطريق المفضي إلى المدخـل ملتويًا، وعلى جانبيه تماثيل غزلان حديدية، وكرات زجاجية زرقاء مغروسـة في أحواضٍ من أزهار إبرة الراعـي. أمـا المدخل فكان بابه من خشـب الجوز المطـليّ بالورنيش، وأعلاه سـقف الشرفـة المخطط. وعنـد الدخول إلى المنـزل تجد بهوًا ضيقًـا، أرضيته مـن الخشـب المقصوص على هيئة نجـوم باللونين الأسـود والأصفر، وأربع حجـرات صغـيرة عليها ورق جدران مخمـليّ الملمس، أما أسـقفها فزخرفها رسـام إيطالي بكل آلهة أوليمبس. ولما ثقل جسـد السـيدة مينغت تحت وطأة شـحومها، حوّلـت إحـدى هـذه الحجـرات إلى مخـدع لها، وصـارت تقضي في الحجـرة التي تجاورها أيامها، جالسـةً على عرشـها الضخم مـا بين الباب والنافـذة المفتوحين، تهوّي نفسـها دومًا بمروحة من سـعف النخيل. غير أن صدرها النافر الضخم كان يعوق وصول الهواء لبقية جسمها، وما كان يحرّك سوى أهداب الغطاءين على ساعديّ الكرسي.

منذ أن سـاعدت كاثرين العجوز نيولاند في مسـألة تعجيل زفافه وهي تظهر له مودّة الكريم للمعوز الذي انتشـله من ضائقة. فهي مؤمنة أن العشـق كان دافع الشـاب في التعجيل، وبما أنها ميالة إلى التصرف بعفوية دون التدبر مليًا بالأمور (ما لم ينطوِ ذلك على إنفاق مالها)، فكانت تستقبله دومًا بلمعة خبيثة في عينيهـا وتلميحـات غير بريئة لحسـن الحظ أن مـاي لا تفهمها. تفحصت الجـدة جائـزة ماي، وهي دبوس زينة على شـكل سـهم رأسـه مـن الألماس، وقيّمـت ثمنـه باهتمام بالغ، ثم علّقـت أن الجائزة في زمنها كانت دبوسًـا من الذهـب أو الفضـة المنقوشـة وأن ذلـك كان كافيًـا، ومع هذا فقـد أقرّت أن بوفرت لا يبخل في أي شيء. قهقهت السيدة العجوز وقالت:

-ويا لها من إرث تتركينه لكبرى بناتكِ.

قرصت ذراعَ ماي الأبيض وشاهدت وجهها يتخضّب حمرةً، فأكملت:

-ماذا قلتُ يا ابنتي كي يتحول وجهكِ إلى خرقة حمراء؟! ألن يكون هناك أية بنات؟ ... لن تنجبي سوى الأولاد؟ يا ربي! انظر إلى وجهها كأنه سينفجر من الدماء! ماذا؟ ... ألا أستطيع قول هذا أيضًا؟ عندما يرجوني أولادي بأن أطلي السقف بدهان آخر لتغطية كل هؤلاء الآلهة فأنا دائمًا أقول إنني أحمد الله أن أحدًا حولي لا تصدمه هذه الأمور.

انفجر نيولاند ضاحكًا، وضحكت ماي معه والحمرة ما زالت في وجنتيها.

أكملت الجدة حديثها:

-والآن أخبراني عما جرى في الحفل، فلن أنال كلمة واحدة من فم ميدورا.

سألت ماي متعجبةً:

-خالتي ميدورا؟! كنتُ أظن أنها ستعود رأسًا إلى بورتسموث.

-هذا صحيح. لكن يجب أن تأتي إلى هنا أولاً كي تأخذ إيلين معها. ألم تعلمي أن إيلين قد أتت لتقضي اليوم معي هنا؟ لقد رفضت قطعًا أن تقضي الصيف هنا. يا لها من سخافة! لكني يئست من الجدال مع الشباب منذ خمسين عامًا.

حاولت الجدة أن تنحني لترى الحديقة، ثم زعقت:

-إيلين! إيلين!

لم يجد نداءها ردًا، فنقرت السيدة مينغت بعصاها بانزعاج على الأرضية المصقولة. جاءت خادمة خلاسية بعمامةٍ ملونة تلبيةً للنقرات، وأبلغت سيدتها أنها رأت السيدة إيلين تنزل من الممر المؤدي إلى الشاطئ، فالتفتت السيدة مينغت إلى نيولاند، وقالت:

-اجرِ يا عزيزي واستدعها، بينما تحكي زوجتك الجميلة لي كل ما رأت في الحفلة.

وقف نيولاند كأنما هو في حلم. خلال فترة العام والنصف العام التي مرّت منذ آخر مرة رأى الكونتيسة أولنسكا، كان قد سمع اسمها أكثر من مرة، بل كان أيضًا يعرف أهم الأحداث التي جرت في حياتها في تلك المدة. كان يعلم أنها أمضت صيف العام الماضي في نيوبورت حيث تغلغلت بين الأسر وأفراد المجتمع إلى حد كبير. لكن عندما حل الخريف قررت فجأة أن تؤجر «منزلها

المثـالي» الذي تعب بوفرت في البحث عنه مـن الباطن، وأن تنتقل للعيش في واشـنطن. أمـا خلال فصل الشـتاء فقد سـمع أن نجمها قد بزغ في الوسـط الدبلومـاسي الراقـي (كالعهـد دومًا بأي امـرأة جميلة تحل في واشـنطن)، مما سـاعد في رتق أي نقص في المكانة الاجتماعية لأعضاء الحكومة. لقد اسـتمع إلى تلـك الأقاويل - حتى المتضاربة منها - عن مظهرها وأفكارها، وكلامها واختيارهـا للأصدقاء كمن يسـتمع إلى أشـخاص يسـتعيدون ذكرياتهم عن شـخص مـات منذ دهـر. ولم تصبح إيلين أولنسـكا إنسـانةً مـن دم ولحم في ذهنه إلا عندما نطقت ميدورا اسـمها بغتةً في منافسـة النبالة. أعاد اسمهاً إلى عقله ذكرى حجرة الجلوس الصغيرة، ونار المدفأة، وصوت عجلات العربة العائدة في الشـارع المهجور. تذكر قصة قرأها مـرةً عن أطفال بعض فلاحي توسـكاني الذين أشـعلوا النـار في كومة قـش في كهفٍ على جانـب الطريق، فكشف لهم الضوء أشكالاً أثرية صامتة مرسومة على الجدران.

كان الطريـق إلى الشـاطئ يهبـط من التـل الذي ينتصـب فوقه المنـزل إلى ممر مقـام فوق المياه، محاط بأشـجار الصفصاف البابـلي. ومن بين أفرعها لاحت لنيولاند لمعة جزيرة لايم روك بمنارتها البيضاء، والمنزل الصغير الذي تقضي فيه حارسـة المنارة البطلة المبجّلة آيـدا لويس[1] آخر أعوام عمرها. أما خلف الجزيـرة فـرأى أرض جزيرة غاوت المنبسـطة عـلى مرمى البـصر، ومداخن المبـاني الحكوميـة القبيحـة. ورأى ميـاه الخليج تتـلألأ شـمالاً كالذهب حتى جزيـرة برودنس بأشـجار البلوط القليلة، وسـواحل جزيـرة كنيكيت قصيّة خافتة في الغروب.

امتد الممر ليخرج منه رصيف بحري خشـبي مهلهل، وفي آخره مظلة خشبية كبيرة مبنية كالباغودا،[2] تقف تحتها سيدة متكئةٌ على السياج ملقيةٌ ظهرها إلى

---

(١) آيدا لويس: حارسة المنارة في جزيرة لايم روك ولها الفضل في إنقاذ أرواح الكثير من البحارة لمهارتها الفائقة في السباحة.

(٢) باغودا: طراز البناء في المعابد البوذية يتميز بتعدد الأسقف

الشـاطئ. تسـمّر نيو لاند كمن أفاق من حلمه. هذه الصورة التي يراها مجرد ذكـرى أو حلـم. أما الواقع فهو مـا ينتظره في المنزل أعلى التل؛ عربة السـيدة ويلنـد بفرسـيها تطوف المسـار البيضـاوي أمام مدخـل المنزل، ومـاي التي تجلس في غرفة تحت أعين آلهة أولمبيين تشـع سعادة وآمالاً مخبأة، وفيلا السيد ويلند في نهاية جادة بلڤيو وحموه فيها مستعد للعشـاء، يذرع حجرة الجلوس والساعة في يده في نفاد صبرٍ لم يجرّبه إلا العليل.

«من أنا؟ أنا زوج...»

لم تتحـرك السـيدة الواقفة على الرصيف. ظل الشـاب واقفًـا لفترة طويلة في منتصف الطريق أسفل التل، وهو يتابع حركة القوارب الشراعية واليخوت، وزوارق الصيـد والصنادل التي تطلق وراءها سـحابةً من الدخان الأسـود، وتقطرها قوارب القطر المزعجة. يبدو أن السيدة الواقفة تحت المظلة مأخوذة بالمنظر نفسـه. وخلف جدران قلعة فورت آدامز الرمادية انقسـمت شـمس المغيـب التي تأبـى الأفول إلى ألف شـعلةٍ، وأجّجت بضوئهـا أشرعة زورقٍ يسابق الريح مخترقًا القناة بين لايم روك والساحل. تذكر نيو لاند حينئذٍ ذلك المشهد في مسرحية «المتسكع»، ومونتيغيو وهو يرفع رباط آيدا دايز إلى شفتيه دون أن تدرك أنه ما زال في الحجرة.

«إنها لا تدري... إنها لم تشـعر. وأنا؟ ألن أشـعر إن كانت واقفةً خلفي؟ إن لم تلتفت قبل أن يتجاوز الزورق منارة لايم روك فسأرجع».

كان الـزورق ينسـاب بهـدوء على أمـواج الجَزر. دنـا من جزيـرة لايم روك، فتجـاوز منزل آيدا لويس الصغير والمنارة التي تعلّق المصباح بداخلها. انتظر نيو لاند حتى اتسـعت رقعة الميـاه المتلألئة بين آخر شِـعاب الجزيرة ومؤخرة الزورق. ولم يتحرك الطيف الواقف تحت المظلة شبرًا.

نكص على عقبيه وصعد التل.

***

قالت ماي وهما في الطريق إلى المنزل في الغسق:

-يؤسفني أنك لم تجد إيلين... تمنيتُ أن أراها مرة أخرى. لكن ربما لن تأبه بلقائنا... لقد تغيّرتْ كثيرًا.

كان بصر نيولاند معلقًا بآذان الفرسين المرتعشة. ردد بصوت أجوف:

-تغيرت؟

-أقصد أنها لم تعد تبالي بأصحابها... تركت نيويورك ومنزلها، وتقضي جلّ وقتها مع أناس غريبي الطباع. لا شك أن إقامتها في منزل أسرة بلنكرز غير مريحة! إنها تقول إنها تفعل هذا من أجل الخالة ميدورا... لإبعادها عن المتاعب، ولكي تجنّبها الزواج من رجالٍ فظيعين. لكنني أظن أن حياتنا أصابتها بالسأم.

لم يجب نيولاند. تابعت ماي بلهجةٍ قاسية لم يلاحظها من قبل في صوتها الفتيّ العذب:

-أنا أتساءل دومًا.. ألن تكون سعيدة لو إنها بقيت مع زوجها؟

انفجر زوجها ضاحكًا، وصاح متعجبًا:

-Sancta simplicitas![1]

التفتت إليه متعجبةً. أردف:

-لا أظن أني سمعتك تقولين شيئًا بهذه القسوة من قبل.

-قسوة؟

-حتى الشياطين عندما يرون الملعونين يتقلبون في عذاب الجحيم لا يظنون أنهم أسعد حالاً في ذاك العذاب!

-إذًا من سوء حظها أنها تزوجت أجنبيًا.

قالت ماي ذلك بنبرة هادئة ذكرته بنبرة أمها عندما تلاطف زوجها السيد ويلند اتقاء تقلبات مزاجه. وكم اغتاظ عندما رأى أنه وُضع الآن في زمرة الأزواج العصبيين المتعنتين.

أكملا الطريق حتى بلغا جادّة بلڤيو، فاجتازت العربة بوابة فيلا أسرة ويلند،

---

(١) عبارة لاتينية ساخرة تعني: "يا للسذاجة!"

وهـي عمـودان خشـبيان مثلّـمان ومتوجـان بمصباحـين في إناء مـن الحديد المشـغول. رأى الشـاب أن مصابيح الحجرات قد أُشـعلت فعـلاً، ولمح حماه كما تخيّله بالضبط، يمشي في أرجاء حجرة الجلوس وسـاعته في قبضته، وعلى وجهه ارتسمت أمارات الألم لأنه وجد أنها عقاب أنجع من ثورات الغضب.

أحس الشاب وهو يتبع زوجته إلى بهو المنزل بتغير غريب في مزاجه. كان ثمة شيء في تـرف منزل حميه، وجوّه المثقل بالمتابعة الدقيقة لما يفعله كل شـخص فيـه، والالتـزام التام بتطبيـق عاداتٍ محـددة يجعله يحس دائمًا بأنـه تحت تأثير مخـدرٍ ما. السـجاد الثخين، والخدم اليقظون، والدقات المسـتمرة للسـاعات المضبوطة، والبطاقات والدعوات المتجددة المكدسة دائمًا على طاولة البهو... هذه السلسلة التي لا تنقطع من أمور بسيطة مُرتبة بانضباط صارم، تربط بين سـاعات اليوم الواحدة بالأخرى، وكل فـرد في المنزل الواحد بالآخر، تجعل أي وجود آخر أقل رغدًا وتنظيمًا يبدو محض خيال زائل. لكنه شعر الآن بأن منـزل أسرة زوجتـه والحياة التي تنتظره فيها هي الخيـال المختفي، وأن المنظر القصـير على الشـاطئ، عندما وقف مترددًا في منتصـف الطريق إليها، أقرب إليه من الدماء التي تجري في عروقه.

قـضى ليلته بجانب مـاي في غرفة النوم الواسـعة أرقًا يراقب الأشـكال التي يرسـمها ضوء القمر على السـجادة، ويتخيل إيلين أولنسـكا وهي عائدة إلى منزلها تقطع الشواطئ تحت نور القمر في عربة بوفرت.

الفصل الثاني والعشرون

«حفلة على شرف أسرة بلنكرز... بلنكرز؟!»
وضع السيد ويلند الشوكة والسكين على طاولة الغداء، ونظر إلى زوجته بقلق وشك. عدّلت نظارتها الذهبية على أنفها، وقرأت بصوت عالٍ كأنها تقرأ نكتة مسلية:
«يتشرف البرفسور إيمرسون سيلرتون وحرمه بدعوة السيد ويلند وحرمه لحضور اجتماع «نادي عصر الأربعاء» في الساعة الثالثة تمامًا في الخامس والعشرين من أغسطس للقاء السيدة بلنكرز وكريماتها. الحضور في منزل (رد جايبلز) في شارع كاثرين. يرجى تأكيد حضوركم»
شهق السيد ويلند مستغربًا، وكأنه استوعب بعد قراءة الدعوة للمرة الثانية مدى غرابة الأمر. تنهدت السيدة ويلند وقالت:
-مسكينة آيمي سيلرتون... لا يمكن التكهن بتصرفات زوجها الغريبة. أظنه لم يكتشف نساء بلنكرز إلا مؤخرًا.
كان البروفسور إيمرسون سيلرتون شوكةً في عنق مجتمع نيوبورت الراقي، وهي شوكة لا يستطيعون نزعها لأنها ظهرت في غصن من أغصان شجرة أسرةٍ نبيلة عظيمة المقام. كان رجلاً - كما يقول الناس - «تيسر له كل شرف». كان والده عم سيلرتون جاكسون، وأمه من أسرة بينيلو من بوسطن، فكان في كلا الجانبين تكافئًا في الحسب، ونال منهما ثراءً وجاهًا. وكانت السيدة ويلند تردد عادةً أنه لم يجبره شيء في هذه الدنيا على أن يكون عالم آثار، أو عالمًا في أي علم على الإطلاق، ولا شيء كذلك يجبره على احتمال العيش في نيوبورت طيلة العام حتى في فصل الشتاء، أو أن يقوم بأي عمل من أعماله الغريبة. إن كان يريد خرق الأصول وازدراء مجتمعه فهذا شأنه، لكن لِمَ تزوج المسكينة آيمي داغنيت التي توقعت حياة مختلفة قبل زواجها، وأن يقدّم لها

زوجها مالاً يكفي لشراء عربة تخدمها؟
لم يفهم أحد من أسرة مينغت لماذا رضخت آيمي سيلرتون بكل إذعان لتصرفاتٍ غريبة من زوجٍ يملأ بيتها برجال ذوي شعور طويلة ونساء ذوات شعور قصيرة، وعندما يسافران فإنه يأخذها معه لاستكشاف أضرحة يوكاتان[1] بدلًا من زيارة باريس أو إيطاليا. لكن هذه هي حياتهما، وهذه هي طباعهما التي يبدو أنهما لا يعلمان كم هي مختلفة عن بقية الناس. ولأن صلاتهما الأسرية تربطهما بثلاث من أرفع الأسر (سيلرتون وبينيلو وداغنيت)، فإن كل أسرة في نيوبورت تضطر إلى عقد قرعة فيما بينها لإرسال ممثلٍ عنها لحضور حفلتهما السنوية المريعة. قالت السيدة ويلند ساخرةً:
-عجبي! لماذا لم يقررا إقامة الحفلة في يوم السباق؟ أتذكر عندما أقاما حفلة قبل عامين على شرف رجل أسود، في اليوم نفسه الذي أقامت فيه جوليا مينغت حفلها الراقص؟ الحمد لله أن لا أحد يقيم أي مناسبة في اليوم نفسه هذه المرة حسبما أعرف... يجب أن يحضر بعضنا هذه الحفلة.
تنهد السيد ويلند بعصبية:
-يحضر بعضنا! أتعنين يا عزيزتي أكثر من شخص واحد؟! لكن الساعة الثالثة لا تناسبني أبدًا. يجب أن أكون هنا عند الثالثة والنصف لأقطر الدواء في عينيّ. ما الفائدة من إتباع علاج الدكتور بنكوم الجديد إن لم ألتزم بالمواعيد؟ ولو لحقت بكِ، فسيحل الظلام ولن أستطيع رؤية الطريق.
وضع شوكته وسكينه بتعاسة، وظللت وجهه المغضّن غمامة قلق عميق.
أجابته زوجته بمرح مفتعل تدربت عليه طويلاً:
-لا يوجد سبب يدفعك للذهاب على الإطلاق يا عزيزي. لدي بعض البطاقات التي يجب أن أسلّمها إلى معارفنا في آخر جادة بلڤيو، فسأذهب إلى حفلهما عند الثالثة والنصف، وأبقى قليلاً كيلا أجرح مشاعر آيمي المسكينة.
نظرت خلسةً إلى ابنتها، ثم قالت:

(١) شبه جزيرة في أمريكا الوسطى، وفيها الكثير من آثار حضارة المايا

-وإن كان لدى نيولاند ما يشغله في ذلك العصر، فلربما تذهب في جولة مع ماي في عربة الفرسين. وهي فرصة لتجرّب اللجام البني الجديد.

إن إحدى القواعد المتبعة في منزل أسرة ويلند هي أن ساعات المرء وأيامه يجب أن تكون مشغولة دائمًا. والسيدة ويلند إذا ما لمحت أي «وقت فراغ» (خاصة لمن لا يهوى لعبة الويست أو السوليتير[1]) فإن قلبها ينقبض وتحل عليها الكآبة، كما ينقبض قلب الكادح الفقير إذا ما لمح شبح البطالة. ومن قواعدها الأخرى ألا يتدخّل الوالدان في حياة أبنائهما المتزوجين وخططهم اليومية (ولو ظاهريًا)، لكنها وجدت صعوبةً في التوفيق بين احترام استقلال ابنتها ماي، وتلبية مطالب زوجها الملحّة، ولم تجد إلا أن تتسلح بالدهاء الذي يمكّنها من تجاوز هذه العقبة، مما يعني أنها شخصيًا لا تجد لحظة فراغ.

-طبعًا سآخذ أبي في جولة... أنا واثقة أن نيولاند سيجد شيئًا يشغله.

قالتها بلهجةٍ تنبّه فيها زوجها بكل لطف أنه لم يرد على والدتها. لم يكن نيولاند من الأشخاص الذين يخططون لكل ساعة من يومه، وكان هذا من الأمور الذي تثير استياء حماته دائمًا. وعندما كانت تسأله خلال الأسبوعين اللذين قضاهما في منزلها كيف سيصرف وقته، كان يجيبها متخابثًا: «أظن أنني سأوفره اليوم بدلاً من أن أصرفه». وذات مرةٍ اضطرت هي وماي للخروج عند العصر للقيام بزياراتٍ طال تأجيلها، فاعترف نيولاند بعد عودتهما بأنه استلقى طوال العصر تحت ظل صخرة على الشاطئ المقابل للمنزل. تجرأت يومًا السيدة ويلند فاشتكت لابنتها وقالت:

-يبدو لي أن نيولاند لا يخطط لأيامه على الإطلاق!

فأجابت ابنتها بهدوء:

-صحيح. لكن هذا لا يهم. فعندما لا يجد شيئًا يشغله يقضي وقته في قراءة الكتب.

-أجل صحيح. مثل أبيه.

ارتضت والدتها بقولها، واعتبرت طبع نيولاند طبعًا غريبًا موروثًا. ولم يتطرق

(١) كلاهما من ألعاب ورق الشدّة (الكوتشينة)

أحد بعدها إلى موضوع وقت فراغه قط.

ومع هذا، عندما حلّ يوم حفل أسرة سيلرتون بدأت ماي تغتم لأنها ستتركه وحيدًا، فأخذت تقترح عليه أنشطةً تشغله تكفيرًا عن هجرها له سويعاتٍ قليلة، كأن يلعب التنس في منزل تشيڤرس أو أن يبحر في زورق جوليوس بوفرت. وشرعت تطمأنه: «سأعود عند السادسة يا عزيزي. فبابا لا يستطيع القيادة بعد هذا الوقت...» ولم تدخل السكينة على نفسها إلا عندما قال زوجها إنه يفكر في استئجار عربة، والذهاب إلى مزرعة للخيول للبحث عن حصان ثانٍ لعربتها (البروم)، فقد كانا يبحثان عن هذا الحصان منذ فترة طويلة. فتقبلت ماي فكرته بارتياح بالغ، ونظرت إلى أمها كأنها تقول: «أترين؟ إنه يعرف كيف يصرف وقته مثلنا تمامًا».

نمت فكرة الذهاب إلى مزرعة الخيول لشراء حصان (للبروم) في عقل نيولاند في اليوم عينه الذي ذُكرت فيه دعوة إيمرسون سيلرتون أمامه، لكنه أبقاها طي الكتمان كأن رحلته هناك تخفي سرًا، ولو عرفوا عن رحلته فربما يكشفون السر. وكان قد استأجر بالفعل عربةً يجرها حصانان فحلان قويان، يستطيعان أن يقطعا مسافة الثمانية عشر ميلاً على الطريق الممهد. وعندما بلغ عقرب الساعة الثانية قام في عُجالةٍ عن طاولة الغداء، وأسرع راكبًا العربة الخفيفة وانطلق في مشواره.

كان اليوم مثاليًا. فنسيمه العليل يهب من الشمال مزجيًا ندف السحاب على صفحة السماء الناصعة، والبحر الصافي يجري أسفل منها. وكانت جادة بلڤيو خاليةً في تلك الساعة. وبعد أن أنزل نيولاند صبي الاسطبل في شارع ميل، استدار متجهًا إلى طريق أولد بيتش ثم تابع طريقه عابرًا شاطئ إيستمن.

كان مفعمًا بحماس ولهفة غير مفهومة كانت تلازمه دائمًا في مغامراته المجهولة التي كان ينطلق بها في إجازات نصف العام في مراهقته. حسب في عقله خطواته. إذا استمر يقود حصانيه بخطواتٍ متئدة فسيصل إلى مزرعة الخيول التي لا تبعد كثيرًا عن بارادايس روكس قبل الساعة الثالثة، مما يعني أنه بعد

أن يتفحص الحصان (ويجربه إن نال استحسانه) فستبقى أمامه أربع ساعات ذهبية يفعل بها ما يشاء.

لقد فكّر فور سماعه بخبر حفلة سيلرتون أن الماركيزة مانسون ستحضر بالتأكيد مع أسرة بلنكرز إلى نيوبورت، وأن مدام أولنسكا قد تستغل الفرصة فتذهب لتقضي اليوم مرة ثانيةً مع جدتها. وهذا يعني أن مسكن أسرة بلنكرز سيكون خاويًا على الأرجح فيكون باستطاعته - دون خفة أو رعونة منه - أن يرضي فضولاً غامضًا ينتابه بشأن ذلك المكان. لم يكن يدري إن كان يود رؤية الكونتيسة أولنسكا مرة أخرى، لكنه منذ اللحظة التي رآها فيها من مكانه في الممر المؤدي إلى شاطئ الخليج، تملّكته رغبة جامحة لا توصف ولا تُكبح في أن يرى بعينه المكان الذي تنزل فيه، وأن يتابع بعيني خياله تحركات طيفها، كما رآها بعينيه واقفةً تحت المظلة. كان التوق يسيطر عليه ليلاً نهارًا... شهوة ملحة أعياه تفسيرها، كاشتهاء المريض لطعام أو شراب ذاقه مرةً ونسي طعمه منذ دهر. لم يفكر إلى أبعد من هذه الرغبة، ولم يتخيل إلى أين ستقوده، لأنه لم يجد في نفسه أي رغبة في الحديث مع مدام أولنسكا أو سماع صوتها. كل ما يعرفه هو أنه شعر أنه إن حمل معه صورة المكان الذي تطؤه قدماها، وشكله وهو مطوّق بالسماء والبحر فسوف يرى دنياه الخاوية تمتلئ ولو قليلاً.

عندما بلغ مزرعة الخيول عرف من الوهلة الأولى أن الحصان لن يعجبه، ومع ذلك فقد أرسنه وجرّبه كي يثبت لنفسه أنه ليس مستعجلاً. لكن عندما وصلت الساعة الثالثة حرك لجاميّ خيليه المستأجَرين، واتّبع الطرق الجانبية المؤدية إلى بورتسموث. كانت الريح قد همدت، وظهرت غشاوةٌ على الأفق تنبئ بقدوم ضباب يغطي نهر ساكنِت مع تحول التيار، لكن الحقول والغابات من حوله ما زالت مغمورة بأشعةٍ ذهبية. قاد العربة متجاوزًا بيوت المزارع المسقوفة بالألواح الرمادية وسط البساتين، ومتخطيًا حقول القش وأغياض شجر البلوط، وعابرًا قرى ترتفع أبراج كنائسها خارقةً السماء. وبعد وقفة قصيرة ليسأل بضعة رجال يعملون في أحد الحقول عن الطريق، وصل

أخيرًا ممرًا تحفّه أزهار عصا الذهب وأشجار العُلّيق. كان النهر يلتمع في نهاية ذلك الممر، لكنه رأى عن شِمـاله بيتًا طويلاً مهلهلاً تقشّر طلاؤه الأبيض عن جدرانه، يقف أمام صفٍ من أشجار البلوط والقيقب.

انتصبت سقيفة مفتوحة على جانب الطريق في مواجهة المدخل. كانت من تلك السقائف التي يحفظ فيها مزارعي نيو إنجلاند معدّات الزراعة، ويستعملها الزائرون لربط ركائبهم. قفز نيولاند نازلاً عن العربة وقاد خيليه إلى السقيفة، فربطهما بعمود ثم التفت إلى المنزل. وصل الإهمال بالحديقة الأمامية أن أصبحت أقرب إلى حقل من القش، ومن جهة اليسار حوض كبير مهمل مليء بأزهار الأضاليا، وشجيرات الورد الذابلة تحيط بمظلةٍ متهالكة مصممة على شكل تعريشة كانت في يوم ما بيضاء اللون، وفي قمتها تمثال خشبي لكيوبيد فقد قوسه وسهمه، ومع هذا فهو مستعد للتصويب.

اتكأ نيولاند لحظات على البوابة. لم يرَ أحدًا ولم يسمع صوتًا من نوافذ البيت المفتوحة. وأمام الباب ينام كلب أشهب اللون من فصيلة (نيوفوندلاند)، ومهارته في الحراسة ليست أفضل حالاً من كيوبيد الذي فقد سهمه. من الغريب أن يكون هذا البيت الصامت المهدّم هو مسكن أسرة بلنكرز التي تتدفق في أفرادها الحيوية، لكن نيولاند كان متأكدًا أنه وصل المنزل الصحيح.

وقف في مكانه لمدة طويلة قانعًا بتسجيل تفاصيل المكان، وخاضعًا رويدًا رويدًا تحت سحر كسله وخموله. استفاق بعد حينٍ عندما أدرك أن الزمن لم يتوقف هنا، وأن عقارب الساعة ما زالت تدور. أيملأ عينيه من المنظر ثم يرحل؟ وقف متذبذبًا. تمنى فجأة أن يرى المنزل من الداخل ليتصور الحجرة التي تجلس فيها مدام أولنسكا. لا شيء يمنعه من الاقتراب من الباب ودق الجرس. وإن كانت قد غادرت مع بقية الأسرة كما يعتقد فيمكن أن يقول لمن يفتح الباب من هو، ويستأذنه في الدخول إلى حجرة الجلوس لترك رسالة.

لكنه لم يفعل هذا. عبر الحديقة واتجه إلى حوض الأزهار، فلمح شيئًا زاهي اللون تحت مظلة الحديقة، ولما دقق النظر وجد أنها شمسية وردية اللون.

جذبته تلك الشمسية كالمغناطيس. كان واثقًا أنها شمسيتها. ولج المظلة وجلس على المقعد المتقلقل. أمسك بالشمسية الحريرية ونظر إلى مقبضها المنقوش. كان المقبض مصنوعًا من أحد أنواع الخشب النادر تفوح منه رائحة عطرية. رفع نيولاند المقبض إلى شفتيه.

سمع هفهفة قماش بجانب المظلة لكنه لم يتحرك. ظل مستندًا على مقبض الشمسية بين يديه، وهو يسمع هفهفة القماش تدنو منه أكثر فأكثر دون أن يرفع عينيه. كان يعرف أن هذه اللحظة آتية لا ريب...

-سيد آرتشر!

هتف صوت شابة فرفع عينيه ورأى صغرى بنات السيدة بلنكرز وأعظمهن بنيةً تقف أمامه. كانت شقراء غير مهندمة، عليها رداء رث من الموسلين. وكان على أحد خديها بقعة حمراء من أثر الوسادة. نظرت إليه بعينين ناعستين نظرة مرتبكة لكن مرحبة.

-يا إلهي! من أين جئت؟ لابد أنني كنت غارقة في نوم عميق على السرير المعلّق. ذهب الجميع إلى نيوبورت. هل دققت الجرس؟

كانت حيرة نيولاند أعظم من ارتباكها.

-أنا... لا... أقصد... كنتُ سأدقه حالاً. جئتُ إلى مزرعةٍ قريبة لأعاين حصانًا، فقررتُ المرور لأرى السيدة بلنكرز وضيوفها. لكن البيت بدا خاليًا... فجلستُ لأنتظر.

نفضت الآنسة بلنكرز عن عينيها غبار الوسن، ونظرت إليه باهتمام متزايد:

-المنزل خالٍ فعلاً. أمي ليست هنا، وكذلك الماركيزة... لا يوجد أحد هنا سواي.

حملت نظرتها شيء من التقريع وقالت:

-ألم تعلم أن البرفسور سيلرتون وزوجته يقيمان حفلاً لأمي ولنا جميعًا عصر اليوم؟ لم أستطع الذهاب للأسف، فحنجرتي ملتهبة وخشيت والدتي عليّ من برودة المساء. أرأيتَ حظًا أسوأ من حظي؟! لكن لو علمتُ أنك قادم لما أردتُ الذهاب معهم.

وجد نيولاند القوة في نفسه ليسأل من بين عبارات تغنجها الثقيل:
-لكن مدام أولنسكا... أذهبت إلى نيوبورت هي أيضًا؟
نظرت إليه الآنسة بلنكرز باستغراب:
-مدام أولنسكا؟ ألم تعلم أنها سافرت؟
-سافرت؟
-أوه... هذه شمسيتي المفضلة! لقد أعرتها لكايتي الخرقاء لأن لونها يلائم لون شرائط فستانها. يبدو أن تلك المهملة رمتها هنا! نحن بنات بلنكرز كلنا متشابهات... بوهيميات!
أخذت الشمسية بيد غليظة، وبسطت قماشها الوردي فرفعتها فوق رأسها. عادت إلى ثرثرتها:
-أجل. اضطرت إيلين إلى السفر أمس. إنها تسمح لنا أن ندعوها إيلين! وصلتها برقية من بوسطن. قالت إنها ستغيب ليومين على الأرجح. تعجبني طريقتها في تصفيف شعرها...
اخترقتها نظرات نيولاند كأنها شفافة. كان كل ما يراه هو الشمسية الزاهية السخيفة المعلقة فوق وجهها الضاحك. استجمع شتات نفسه فقال:
-ألا تعلمين ما سبب سفر مدام أولنسكا إلى بوسطن؟ أرجو ألا تكون قد وصلتها أنباء سيئة؟
تلقّت الآنسة بلنكرز سؤاله بريبة هازلة:
-لا أظن ذلك. لم تخبرنا بمضمون البرقية. أعتقد أنها لم ترغب في أن تعرف الماركيزة بمحتواها. أليست حالمة في مظهرها؟ ألا تذكرك بالممثلة ماري سكوت سيدنز عندما تنشد قصيدة «في حب الليدي جيرالدين»[1]؟ أسمعتها وهي تلقيها؟
كانت الأفكار تتزاحم في ذهن نيولاند. شعر بأن مستقبله يمتد أمامه فجأة كأنه بساط، وفي وسط فراغه المستديم رأى شبحًا يتضاءل ويتقلص... شبح

(١) قصيدة من نظم الشاعرة إليزابيث باريت براوننغ

رجل لن ينال أي شيء في حياته. أجال نظره في الحديقة غير المشذبة، والمنزل المتهالك، وأجمة أشجار البلوط التي تحاول التقاط آخر أنفاس الشفق. كان مؤمنًا أن هذا هو المكان الذي سيجد فيه مدام أولنسكا... لكنها بعيدة عنه أميالاً وأميالاً... حتى الشمسية الوردية لم تكن هي صاحبتها.

انعقد حاجباه وتردد في القول:

-ألا تعلمين مكانها؟ ... سوف أسافر إلى بوسطن غدًا. لو استطعتُ فربما أتمكن من مقابلتها...

أحس أن الآنسة بلنكرز بدأت تضيق به رغم أن ابتسامتها لم تتغير:

-طبعًا. سيكون هذا لطف منك! إنها تنزل في فندق باركر هاوس. لا شك أن الطقس فظيع هناك.

لم يتذكر نيولاند بعد هذا عمّا تحدثا، كل ما يتذكره هو مقاومته العظيمة لتوسلاتها لانتظار عودة أسرتها وشرب الشاي معهم قبل عودته إلى المنزل. استطاع بعد حين أن يهرب من عيني كيوبيد الخشبي والفتاة ما زالت بجواره، وأن يفك رباط الخيلين ويغادر. وعند مفترق الطريق استدار، فرأى الآنسة بلنكرز واقفةً عند البوابة تلوح بشمسيتها الوردية.

الفصل الثالث والعشرون

نـزل نيولاند في الصباح التـالي من القطار الذي انطلق مـن مدينة فول ريفر، فاسـتقبله في محطة بوسـطن صيف قائظ شـديد الرطوبة. واكتظت الشـوارع المجاورة للمحطـة بروائح الجعة والقهوة والفاكهة المتعفنة، ومن بينها يمشي النـاس بأكـمام قصيرة بـلا اكتراث، كمـن يعبر الطرقـة في منزلـه نصف عارٍ قاصدًا الحمام.

وجـد نيولانـد عربة أجرة فأوصلتـه إلى نادي (سومرسـت) ليتناول إفطاره. حتى الأحياء الراقية في المدينة تعيش حياة فوضوية لا تسمح أية مدينة أوروبية لنفسـها أن تنحـدر إليها. وكان حـرّاس منازل الأثرياء يسـتلقون بقمصانهم القطنية بتكاسـلٍ أمام عتب الأبواب، أمـا حديقة ذا كومن فتحولت في ذلك الصبـاح إلى حديقة ملاهٍ معدّة لإقامة نزهة ماسـونية صاخبة يؤمّها الآلاف. لو حاول نيولاند أن يتصوّر إيلين أولنسكا في أماكن مختلفة لعجز أن يتخيلها في بوسطن المهجورة في هذه الحرارة المستعرة.

تنـاول نيولانـد إفطـاره بتـأنٍ وشـهية مفتوحة. بـدأ بشريحة مـن البطيخ، ثم قـرأ صحف الصباح وهو ينتظر التوسـت والبيض المقلي. كان جسـده مفعمًا بالحيوية منذ اللحظة التي أخبر فيها ماي البارحة أن لديه عملاً يتطلب وجوده في بوسـطن، وأنه سيسـتقل السـفينة المغادرة من فول ريفر في تلك الليلة، ثم يكمل سـفره إلى نيويورك في المسـاء التـالي. كانت خطتهما الأساسـية هي أنه سـوف يعود إلى نيويورك في بداية الأسـبوع، لكن عندما عاد من مشواره إلى بورتسـموث رأى رسـالةً مـن الشركة على زاويـة طاولة الصالـة، فوجد أنها العـذر المناسـب لتغيير خطته عـلى نحو مباغت. والحق أنه شـعر بالخزي من السهولة التي يسّرت فيها الظروف ترتيبه للرحلة، وقد تذكر أكاذيب لورنس ليفرتس التي يلفّقها بكل مهارة كي يضمن حريته. لكن ضميره لم يؤنبه لفترة

طويلة لأنه لم يكن في مزاج يسمح له بتحليل تصرفاته والحكم عليها.

بعد أن فرغ من افطاره دخن سيجارًا وتصفح صحيفة (كوميرشال آدڤيرتايزر) الاقتصادية. وبينما هو يقرأها دخل النادي رجلان أو ثلاثة من معارفه، فتبادلوا التحيات المعتادة، فالعالم هو عالمه نفسه لم يتغير رغم أنه أحس بأنه تسلل إلى مكان وزمان مختلفين. نظر إلى ساعته فوجدها تشير إلى التاسعة والنصف، فنهض واتجه إلى حجرة الكتابة وكتب رسالة قصيرة، ثم أمر الساعي أن يستأجر عربة ليوصلها إلى فندق باركر هاوس وينتظر الإجابة. بعدها جلس يقرأ صحيفةً أخرى وهو يحسب في عقله كم ستستغرق عربة الأجرة للوصول إل الفندق، حتى باغته صوت النادل بجانبه يقول:

-كانت السيدة خارج الفندق يا سيدي.

تلعثم نيولاند كأن الكلمات قد قيلت بلغة غريبة:

-خارج...؟

نهض واتجه إلى البهو. لا ريب أنه مخطئ. لا يمكن أن تخرج في هذه الساعة! تصاعد في نفسه الغضب من غبائه. لماذا لم يرسل الرسالة فور وصوله؟! التقط قبعته وعصاه وخرج إلى الشارع. أصبحت المدينة الآن شاسعة وغريبة وخاوية، كأنه مسافر قادم من بلاد قصيّة. تردد للحظات وهو يقف عند عتبة الباب، ثم قرر أن يذهب إلى فندق باركر هاوس. ماذا لو أن الساعي قد أخطأ وأنها ما زالت هناك؟

سار إلى أن وصل الحديقة قاصدًا عبورها، إذ به يراها جالسةً تحت الشجرة على أول مقعد يمرّ به. كانت ممسكةً بشمسية رمادية فوق رأسها. كيف تصور ولو للحظة أن مثلها يملك شمسية وردية؟! اقترب منها، فاندهش من خمولها الفاتر وجلوسها باسترخاء تام، فقد كانت تجلس هناك وكأنها لا تجد شيئًا تفعله. كما لاحظ شعرها المعقوص تحت قبعتها الداكنة، والقفاز الطويل المتغضن في اليد التي تحمل الشمسية. اقترب خطوة أو خطوتين، فالتفتت ونظرت إليه.

ولأول مرة، رأى الدهشة على وجهها، ثم انجلت في لحظات وحلّت مكانها ابتسامة بطيئة تحمل في طياتها العجب والرضا. همهمت بكلمة «أوه!» وهو ما زال ينظر إليها واقفًا. ودون أن تنهض أفسحت له مكانًا على المقعد.

قال نيولاند:

-جئتُ إلى هنا في مهمة عمل... لقد وصلتُ للتو. ولكن ماذا تفعلين أنتِ في هذا المكان؟!

لم يكن يدري لماذا بدأ يتظاهر بالدهشة لرؤيتها هنا، والحقيقة أنه لم يكن يدري بماذا ينطق لسانه. شعر بأنه يهتف بالكلمات، وأن صوته يحاول أن يقطع مسافات طويلة ليقع في مسامعها، فقد تختفي مرة ثانية قبل أن يلحق بها.

أدارت رأسها تجاهه ليتحدثا وجهًا لوجه، قالت:

-أنا؟ أنا هنا في مهمة عمل أيضًا.

لم يكن يدري كذلك ماذا قالت، فكل ما أحس به هو صوتها فقط، ودهشته الفائقة عندما أدرك أن ذاكرته لم تختزن نبراته. فلم يتذكر حتى إنه خفيض مبحوح، خاصةً عندما تنطق الأحرف الساكنة. قال وقلبه يتسارع في نبضاته كمن سيعترف بشيء لا رجعة فيه:

-تغير شعرك.

-تغيّر؟ لا... كل ما في الأمر أنني أصففه بنفسي عندما لا تكون ناستاسيا معي.

-ألم تصحبكِ ناستاسيا؟

-لا.. أنا هنا لوحدي. لم أجد سببًا لإحضارها في رحلة لن تستغرق سوى يومين.

-لوحدكِ... في باركر هاوس؟

رمته بنظرة تحمل تهكمها القديم.

-أترى أن المكان خطر عليّ؟

-لا... ليس خطرًا...

-لكنه اختيار غير تقليدي؟ أعرف... أظن أنك محق. أنا لم أفكر في الأمر، لأنني فعلتُ أمرًا يفوق هذا غرابةً. (تسللت نبرة سخرية إلى صوتها) لقد

رفضتُ استرداد مبلغ من المال قبل قليل... من مالٍ هو من حقي.
هبّ نيولاند واقفًا وسـار خطوة أو خطوتين. طوت مدام أولنسكا شمسيتها وبدأت تخطّ بطرفها أشكالاً على الأرض الحصباء. رجع فورًا ووقف أمامها.
-هل أتى شخص... إلى هنا للقائكِ؟
-نعم.
-ومعه عرض لكِ؟
هزت رأسها إيجابًا.
-ورفضتِ... بسبب شروط هذا العرض؟
ردّت بتأنٍ، وهو يجلس:
-لقد رفضت.
-ما الشروط؟
-لم تكن شروطًا تعجيزية. كل ما عليّ هو أن أجلس في صدر مائدته من حينٍ لآخر.
شملهما الصمت. تسارعت خفقات قلبه تسارعًا غريبًا، وحاول أن يجد شيئًا يقوله لكن بلا جدوى.
-يريد استرجاعكِ... بأي ثمن؟
-بل بثمن غالٍ. إن المبلغ ضخم... بالنسبة لي.
تمهل قبل أن يسأل السؤال الذي يتحرق لطرحه.
-أجئتِ إلى هنا للقائه؟
دهشت وضحكت عاليًا:
-ألتقي بزوجي؟ ... وهنا؟!! إنه يصيّف دائمًا في كاوز أو بادن.[1]
-أرسل شخصًا ما؟
-نعم.
-بخطاب؟
-لا. مجرد رسـالة شفهية. إنه لا يكتب خطابات أبدًا. لا أظن أني تلقيت غير

(١) بادن: مدينة سياحية في النمسا

خطابٍ واحد منه.
أثارت ذكرى تلك الرسالة حمرة خديها، واحمرّ وجه نيولاند كذلك.
-لماذا لا يكتب خطابات قط؟
-ولماذا يكتب؟ وما نفع السكرتير إذًا؟
تصاعدت الدماء في وجهه مرة أخرى. نطقت الكلمة ببساطة وكأنها لا تحمل أي معنى خاص لديها. كاد أن يقول: «أأرسل سكرتيره إذًا؟» لولا أن كلمات رسالة الكونت أولنسكي الوحيدة إلى زوجته ما زالت حاضرةً بقوة في ذهنه.
ترك الصمت يحل بينهما ثم جازف بالسؤال:
-وهذا الشخص؟
-المبعوث؟ ربما يكون قد رحل. لكنه أصر على الانتظار حتى المساء في حال... إذا ما...
-وأتيتِ إلى هنا للتفكير في الموضوع؟
-أتيتُ إلى هنا لأني أريد أن أتنفس، فالفندق خانق مكتوم. وسوف أستقلّ قطار الظهر إلى بورتسموث.
جلسا في صمت لا ينظران إلى بعضهما بل إلى السائرين في ممر الحديقة أمامهما. وبعد لحظات أدارت بصرها تنظر إليه.
-لم تتغير.
أراد أن يجيب: «بل تغيرت... إلى أن رأيتكِ». لكنه لم يقل شيئًا. فوقف فجأة وأجال نظره في الحديقة القائظة القذرة.
-هذا المكان سيء. لماذا لا نتمشى عند الخليج؟ ستخفف نسمات البحر من هذا الحر. ويمكننا أن نركب القارب البخاري إلى بوينت آرلي.
نظرت إليه بتردد فتابع محاولاً إقناعها:
-لن يكون القارب مكتظًا في صباح الإثنين. وقطار عودتي إلى نيويورك لن يغادر إلا في المساء. لماذا لا نذهب؟
لم تجب أو تتحرك، فقال مندفعًا:

-ألا يكفي أن نفعل ما «يجب» أن نفعله طوال عمرنا؟

غمغمت بكلمة غير مفهومة، ثم وقفت وبسطت شمسيتها مرة أخرى، وهي تنظر في مكانهما كأنها تتأكد أنه فعلاً لا يصلح للجلوس. نظرت إلى وجهه فقالت:

-لا أريد أن أسمع مثل هذا الكلام.

-سأقول ما تريدين... أو سأصمت. لن أفتح فمي إلا إذا أمرتني. أفي ذهابنا ضرر لأحد؟ كل ما أريده هو أن أستمع إليكِ.

أخرجت ساعةً ذهبية صغيرة بسلسلة مطلية بالمينا. فقال بحرارة:

-لا تحسبي الساعات! أعطيني يومكِ... أريد أن أبعدكِ عن ذاك الرجل. متى سيعود؟

تورّد وجهها وأجابت:

-عند الحادية عشرة.

-إذًا يجب أن تأتي حالاً.

-يجب ألا تخاف عليّ... إن لم آتِ معك.

-ويجب ألا تخافي... إن أتيتِ معي. أقسم أني لا أريد إلا أن أسمع أخباركِ، وأعرف ما جرى في حياتكِ. مضت مائة سنة مذ التقينا... وقد تمر مائة أخرى قبل أن نلتقي ثانيةً.

بدا التردد واضحًا عليها. علّقت عينيها القلقتين بوجهه وسألته:

-لماذا لم تأتِ إلى الشاطئ لتناديني عندما كنتُ في بيت جدتي؟

ضحك بصبيانية:

-لأنكِ لم تلتفتي... لأنكِ لم تشعري بوجودي. لقد أقسمت ألا أقترب إلا إذا استدرتِ.

-لكنني لم أستدر عمدًا.

-عمدًا؟

-كنتُ أعلم أنك هناك... لقد رأيتُ العربة وعرفت الفرسين. لذلك ذهبتُ إلى الشاطئ.

-لتبتعدي عني قدر استطاعتكِ؟
قالت بصوتها الخفيض:
-لأبتعد عنك قدر استطاعتي.
ضحك مرة أخرى، لكن هذه المرة بجذل الانتصار.
-والآن عرفتِ أن لا طائل من ابتعادكِ. وسوف أخبركِ إذًا... أني ما جئتُ إلى هنا إلا لكي أبحث عنكِ. يجب أن نتحرك وإلا رحل القارب دوننا.
قطّبت وجهها في حيرة ثم ابتسمت:
-القارب؟ لكن يجب أن أرجع إلى الفندق أولاً. يجب أن أترك رسالةً...
أخرج من جيبه مفكرة صغيرة وأحد أقلام الحبر السائل الجديدة.
-اكتبي هنا ما تريدين من رسائل. ومعي ظرف أيضًا.. أترين كيف أن كل شيء ميسّر لنا؟ تفضلي... ثبتي المفكرة على ركبتكِ، وسوف أجعل الحبر يجري في القلم حالاً. إنه يحتاج إلى بعض التحريك... انتظري (ضرب يده التي تحمل القلم على ظهر المقعد) مثل تحريك الزئبق في مقياس الحرارة. جربيه الآن...
ضحكت مدام أولنسكا ثم انحنت على الورقة التي بسطها على غلاف مفكرته، وشرعت في الكتابة. نأى نيولاند بنفسه جانبًا ينظر للمارّين نظرات مليئة بالسعادة، وهم يبطئون في مشيهم محملقين بتلك السيدة الأنيقة التي تكتب رسالةً على ركبتها وهي جالسة على مقعد في حديقة عامة! أدخلت الرسالة في الظرف وكتبت اسمًا عليه، ثم وضعته في جيبها ووقفت هي أيضًا.
سارا إلى أن بلغا شارع بيكون، فرأى نيولاند عربة (هيريدك)[1] الفاخرة التي أوصلت رسالته إلى فندقها، وكان سائقها يستريح من عناء يومه ويرش وجهه برذاذ ماءٍ من صنبور.
-قلتُ لكِ أن كل شيء ميسّر لنا! ها هي عربة في انتظارنا. أرايتِ؟!
ضحكا مندهشين من هذه المعجزة، فقد وجدا عربة نقل عام في تلك الساعة وفي ذلك المكان، في مدينةٍ ما زالت ترى أن مواقف عربات الأجرة بدعة

(١) عربة خيل تشبه الحافلة تحمل ثمانية أشخاص تقريبًا

«أجنبية». تحقق نيو لاند من ساعته ليتأكد أن لديهما متسع من الوقت للمرور ببارك هاوس قبل التوجه إلى مرفأ القوارب. سارت بهما العربة في الشوارع الحارة، ووقفت أمام مدخل الفندق. مدّ يده وقال:

-أتحبين أن أضع الرسالة لدى الاستقبال؟

هزت مدام أولنسكا رأسها رافضةً، ووثبت من العربة ثم دخلت الفندق من بابه اللامع. لم تصل الساعة إلى العاشرة والنصف بعد، لكن ماذا لو أن هذا المبعوث تعجل ردها، ولم يجد شيئًا يشغل وقته، فجلس ينتظرها في خضم أولئك المسافرين الذين رآهم يرتشفون المشروبات الباردة عندما دخلتْ؟

أخذ يذرع الرصيف أمام العربة جيئة وذهابًا ينتظرها. عرض فتى صقلي ذو عينين تشبهان عيني ناستاسيا أن يلمّع حذاءه، وحاولت عجوز إيرلندية أن تبيعه بعض الخوخ. وبين فينة وأخرى يُفتح باب الفندق فيخرج رجال إلى الجو الصيفي الملتهب، وهم يرتدون قبعات من قش ويميلونها إلى مؤخرة رؤوسهم، ويرمونه بنظرات سريعة. تعجب من كثرة رواد الفندق، وتشابه الخارجين منه تشابهًا عظيمًا فيما بينهم، وتشابههم مع كل الرجال الآخرين الذين صلتهم شمس الصيف في تلك الساعة في طول البلاد وعرضها، وهم خارجون وداخلون عبر أبواب الفنادق.

ظهر فجأة من بين الوجوه وجهٌ شعر أنه لا ينتمي إليهم. لم يلتقط سوى لمحةٍ سريعةٍ، لأن خطواته حملته إلى أبعد نقطة في سيره، وعندما استدار إلى الفندق رأى مجموعة عادية من الأشخاص... الرث أشعث الشعر، والمكتنز، والساكت ذا الذقن العريض. أما هذا الوجه فهو يجمع صفات أكثر بكثير، وأشياء متباينة. كان وجه شاب شاحب ممتقع، إما من الحرّ أو القلق أو كليهما، لكنه مع هذا أكثر نباهةً وتيقظًا، وصورته أقوى في ذاكرة نيو لاند. أو ربما يكون هذا مجرد انطباعه عنه لأنه مختلف عن غيره. علّق نيو لاند صورة الشاب بخيط رفيع من خيوط ذاكرته وحاول أن يشده، لكنه انقطع. وبقيت الصورة هائمة مع الوجه الذي اختفى عن ناظريه... على الأرجح أنه مجرد

رجل أعمال أجنبي، وأن رؤيته في هذا المكان أثارت فيه الاستغراب. اختفى الوجه بين المشاة، وتابع نيولاند سيره.

لم يرغب في أن يراه الناس يتفحص ساعته وهو ينتظر أمام الفندق، فحسب في ذهنه كم مضى من الوقت على دخول مدام أولنسكا، وقرر أنها إن تأخرت أكثر من ذلك، فهذا يعني أن ذلك المبعوث كان متربصًا به فاضطرت للقائه. وعندما تخيل هذا، تحولت مخاوف نيولاند إلى فزع. قال: «إن لم تخرج قريبًا فسأدخل وأبحث عنها».

فُتح الباب مرةً أخرى وما هي إلا ثوانٍ فكانت إلى جانبه. ركبا العربة وانطلقت بهما إلى المرفأ. كان الحديث مستحيلاً مع أصوات النوافذ المتخلخلة والعجلات التي تمشي على الحصباء. أخرج نيولاند ساعته فرأى أنها لم تغب سوى ثلاث دقائق فحسب!

***

بعد أن جلسا متجاورين على أحد مقاعد القارب الفارغ تقريبًا، اكتشفا أنهما لا يجدان ما يتحدثان عنه، أو بالأحرى أن كل الكلمات التي يريدان أن يقولاها عبّرت عن نفسها بالصمت اللذيذ في لحظات نادرة من الحرية والانعزال.

ومع تقلّب عجلات التجديف، وتراجع المرافئ وأرصفة الشحن عن الأنظار في ضباب رقيق كوّنته الحرارة، أحسّ نيولاند أن كل ما يعرفه في عالمه القديم يتراجع معها أيضًا. كان يتمنى أن يسأل مدام أولنسكا إن كان هذا الإحساس يتملكها هي كذلك؛ إحساس بأنهما ينطلقان في رحلة طويلة قد لا يرجعان منها أبدًا. لكنه كان يخشى أن يقول ذلك، أو يقول أي شيء آخر قد يزعزع ثقتها الواهنة أصلاً به. إنه لا يريد أبدًا أن يخون هذه الثقة. فكم من ليالٍ وأيام قضاها وذكرى قبلتهما تحرق شفتيه! حتى عندما كان في الطريق إلى بورتسموث قبل يومين ألهبت صورتها خياله. لكن الآن... وهي جالسة بجواره... وهما ينجرفان في هذا العالم المجهول، شعر أن روحيهما انصهرتا، وأن أي لمسة قد تفرقهما.

غادر القارب المرفأ ميممًا شطر البحر الواسع ونفحات الهواء تهب على

جانبيـه، وماء الخليج تتقطّع إلى أمواج طويلة ثم تنقسـم إلى تموجات صغيرة يتطاير من فوقها الرذاذ. ورغم أن السـحابة الضبابية السـاخنة ما زالت تحوم فـوق هامة المدينـة، فإن أمامهما عالمًا منعشًـا في هذا البحـر وقطعًا مبعثرة من اليابس تحمل فوقها منارات تلتمع في الشـمس. كانت مدام أولنسـكا تستند إلى سـور القارب ترتشـف البرودة بشـفتين منفرجتين. وكانت قد أحكمت ربـط قبعتها بوشـاحٍ طويل لم يغطِ وجههـا، فتأمل نيولاند السـعادة المطمئنة المرتسمة على ملامحها، كأنها ترى أن مغامرتهما هذه أمر روتيني، لا هي خائفة من هذا اللقاءِ غير المتوقع ولا هي فرحة به... وهذا أسوأ بكثير.

كان يرجـو أن يكونـا لوحدهمـا عندما دخلا غرفـة الطعام في النُـزل، لكنهما وجـدا مجموعـة صاخبة من النسـاء والرجـال - كانوا معلمـين ومعلمات في إجـازة كـما أخبره صاحـب النُزل - فاكتـأب نيولاند لأنهما لن يجـدا الفرصة للحديث وسط هذه الضوضاء. قال:

-هذا أمر لا يطاق! سأطلب مقصورة خاصة.

لم تعـترض مدام أولنسـكا عـلى فكرتـه، وانتظرته بصمت. كانـت المقصورة ذات شرفـة خشـبية واسـعة تطـل على البحـر. لم تكـن مكتظـة بالأثاث غير طاولـةٍ مغطاةٍ بقماش مقلم خشـن الملمس، وفوقها علبة مـن المخلل، وطبق يحـوي فطيرة التوت الأزرق مغطاة بـشيء كالقفص. غريبٌ كيف أن لقاءهما السرّي أوصلهما لغرفة بسيطة بريئة مثل هذه. ظنّ نيولاند أنه رأى الاطمئنان عـلى وجه مدام أولنسـكا عندما ابتسـمت بعذوبة وهي تنظـر إلى المقصورة، ثم جلسـت على الكرسي المقابل له. إن أي امـرأة تهجر زوجها - وتهرب مع رجـل آخر كما يقول الناس - تكون في الغالـب قد أجادت فن الحصول على مـا تريد، لكن شـيئًا مـا في هدوئها وسـكينتها أبعد هذا الخاطر السـاخر عن ذهنه. لقد أزالتْ بهذا الهدوء وأخذها الأمور كما هي بلا تعجب كلَ العادات والتقاليـد، كأنها تعلّمه أنه من الطبيعي أن يبحث صديقان قديمان عن الخلوة لأن الكلام بينهما لم ينتهِ بعد...

الفصل الرابع والعشرون

تناولا وجبة الغداء برويةٍ واستمتاع، تخترق وصلاتٌ من الصمت سيلَ حديثهما. وكأنما التعويذة قد انفكت، فأخذا يتحدثان ويتحدثان. ومع ذلك مرت لحظاتٍ تبادل الصمت والكلام دوريهما، فعبّر الصمت بما لم يفصح عنه الكلام. تجنب نيولاند الحديث عن أحواله، ليس عمدًا وإنما لأنه لم يرد أن يفوّت كلمة مما تحكيه عما جرى لها. كانت تميل بجذعها على الطاولة بينهما، وتسند ذقنها إلى أصابع يديها المتشابكة، وتقص عليه أحداث العام ونصف العام منذ أن التقيا لآخر مرة.

كانت قد برمت مما يسميه الناس «مناسبات المجتمع»، فنيويورك حنون ومضيافة إلى درجة الاختناق، وهي لن تنسى ما حييت كيف استقبلتها بكل ترحاب. لكن بعد فترة بدأت الأمور تسير على وتيرة واحدة مملة، ووجدت نفسها حسب قولها «مختلفة» فلا يمكنها أن تهتم بما يهتم به الناس في نيويورك، ولهذا قررت أن تجرب الحياة في واشنطن حيث يقال إن المرء يقابل فيها جنسيات متنوعة وشخصيات مختلفة. رأت أن أفضل خيار أمامها هو الاستقرار فيها، وأن تأخذ معها ميدورا المسكينة التي ضجر منها كل أقربائها الآخرين في الوقت الذي كانت أشد ما تحتاج فيه إلى رعايتهم وحمايتهم من مخاطر الوقوع في الزواج.

-لكن الدكتور كارڤر... ألا تخشين من د. كارڤر؟ نمى إلى علمي أنه نازلٌ في ضيافة أسرة بلنكرز مثلكما.

ابتسمت وقالت:

-لقد زال خطر الدكتور كارڤر. إنه رجل ذكي. يريد زوجة غنية تموّل مخططاته، وميدورا مجرد «مؤمنة» بمعتقداته، ودعاية جيدة للترويج لها.

-مؤمنة بماذا؟

-بمخططات اجتماعية مستحدثة وغريبة. لكن.. أتدري أن هذا يثير اهتمامي أكثر من الطاعة العمياء للتقاليد... التقاليد التي يسنها الآخرون، والتي أرى أصحابنا أنفسهم يتبعونها. أرى أن من الحماقة أن تُكتشف أمريكا فنجعلها نسخة عن بلد آخر. (ابتسمت وهي تنظر إليه عبر الطاولة) أتظن أن كريستوفر كولمبوس كان سيخوض كل ما خاضه لمجرد أن نحضر الأوبرا بمعية أسرة سيلفريدج ميري؟

احمرّ وجه نيولاند. سأل فجأة:

-وبوفرت؟ أتقولين هذه الأشياء لبوفرت؟

-لم أره منذ وقت طويل. لكن كنت أتحدث معه عن هذه الأمور، وهو يفهم ما أعنيه.

-هذا ما قلته لكِ دومًا... نحن لا نعجبكِ. وترتاحين مع بوفرت لأنه ليس منا.

نظر حوله في أرجاء الغرفة الخاوية ثم أشاح ببصره إلى الشاطئ الخالي، وصفوف الأكواخ البيضاء على طول الشاطئ. تابع كلامه:

-نحن مملون كئيبون. بلا شخصية ولا لون ولا تنوع... حتى إني لأسأل نفسي؛ لِمَ لا ترجعين إلى أوروبا؟

ازدادت نظرتها حدةً، وتوقع منها ردًا ساخطًا، لكنها تمسّكت بصمتها كأنها تفكر مليًا بما قاله، فازداد خوفه خشية أن تقول إنها تفكر حقًا بالعودة. قالت بعد حين:

-أنت السبب.

لم يسمع في حياته اعترافًا بالحب أكثر تجردًا من العاطفة، أو بنبرةٍ تطعن خيلاء الشخص الذي قيلت له. احمر وجه نيولاند حتى الصدغين، لكنه لم يجرؤ على الحركة أو الكلام، كأن كلماتها فراشةٌ نادرة قد ترفرف بجناحيها فزعةً من أقل حركة، لكن إن تُركت دون ازعاج فقد تجمع من حولها سربًا كاملاً من جنسها.

-أو بالأحرى... أنت من أراني أن تحت غطاء الملل والرتابة تكمن أشياء

عظيمة ورقيقة ومرهفة تجعل كل ما أحببته في حياتي الأخرى بخسة. لا أدري كيف أشرح لك شعوري... لكني أشعر بأنني لم أفهم من قبل كيف يمكن أن تُشترى أجمل المتع بأثمان رخيصة حقيرة.

أراد وبشدة أن يقول: "أجمل المتع... ما أعظم أن يذوقها الإنسان!". لكن نظرة التوسل في عينيها أخرسته. تابعت:

-أريد أن أكون صادقة تمامًا معك... ومع نفسي. تمنيت لفترة طويلة أن تسنح لي هذه الفرصة، أن أخبرك كيف ساعدتني، وماذا صنعت مني...

كان نيو لاند جالسًا يحدق فيها عاقد الحاجبين. قاطعها بضحكة:

-وما رأيكِ فيما صنعتِ مني أنا؟

امتقع وجهها قليلاً وردت:

-منك أنت؟

-نعم. أنا من صنع يديك أكثر مما أنت من صنع يدي. أنا الرجل الذي تزوج امرأةً لأن أخرى أمرته بذلك.

تحول شحوب وجهها إلى حمرة ملتهبة.

-اتفقنا... لقد وعدتني... أنك لن تقول مثل هذا الكلام اليوم.

-آه... أنت ككل النساء! تخلقن ظروفًا سيئة ولا تردن أن ترين عواقبها.

قالت هامسةً:

-أهو وضع سيء... بالنسبة لماي؟

وقف أمام النافذة ينقر أصابعه على إطارها، وقد لمس بكل ذرة في وجوده الرقة الحزينة التي نطقت بها اسم قريبتها. أعادت السؤال بإلحاح:

-لأن هذا هو ما يجب أن يكون هاجسنا الأول والأخير... صحيح؟ أليس هذا الدرس الذي لقنتني إياه؟

لم تفارق نظرته الخاوية مياه البحر لكنه كرر كلمتها:

-الدرس الذي لقنتك إياه؟

أكملت حديثها تردف فكرتها الأولى بأفكار متلاحقة كمن يحدّث نفسه:

-إن لم يكن الأمر يستحق... إن لم يستحق أن نستسلم، وأن نحرم أنفسنا من أشياء رائعة كي ننقذ الآخرين من حياة تعيسة كلها أوهام... إذًا كل ما عدتُ لوطني لأجله، وكل ما كان يجعل حياتي الأخرى جرداء رخيصة لأن لا أحد فيها كان يستحق... كل هذا زيف.. أو حلم...

أدار رأسه دون أن يتحرك من مكانه وأتمّ كلامها:

-إذا كان كل هذا زيف أو حلم، فلا سبب إذًا يجعلك لا تعودين إلى هناك؟

تعلقت عيناها فيه بقنوط:

-صحيح؟ لا يوجد أي سبب؟

قال بقسوة:

-لا سبب يبقيكِ إن كنتِ تراهنين على فشل زواجي. لن يكون زواجي حياة سعيدة تُسرك مراقبتها. كيف لها أن تكون وأنتِ أول من جعلني أرى الحياة الحقيقية؟ لكنك لم تعطني منها إلا لمحة خاطفة، ثم طلبتِ مني أن أعيش حياة أخرى زائفة. هذا أكثر مما يحتمله أي إنسان... هذه هي الحقيقة.

صاحت والدموع تترقرق في عينيها:

-لا تقل هذا! هأنذا أحتملها!

أسقطت ذراعيها على جانبي الطاولة، وبقي وجهها متضرعًا مكشوفًا أمام نظراته. كان وجهها كافيًا ليكشف كل ما يعتمل في روحها، أكثر حتى مما يمكن أن يكشفه سائر الجسد. فوقف نيولاند مشدوهًا صاغرًا مما رآه في داخلها.

-أنتِ أيضًا... أوه! طوال هذا الوقت... أنتِ أيضًا؟

فرت من عينيها دموع ساخنة زحفت ببطء إلى الأسفل إجابةً عن سؤاله.

كانا يجلسان وعرض الغرفة يفصل بينهما، لكن لم يحاول أي منهما الاقتراب من الآخر. عرف نيولاند أنه لا يبالي إن كانت قريبة منه بجسدها. لم يكن ليلاحظ البتة لولا أن إحدى يديها على الطاولة استحوذت على انتباهه، كما حدث في لقاء جمعهما في منزلها الصغير في الشارع الثالث والعشرين، عندما ركز نظرته على يدها لئلا ينظر إلى وجهها. والآن أخذت مخيلته تدور وتدور

كالدوامة حول تلك اليد، ومع هذا لم يحاول أبدًا الاقتراب. لقد عرف الحب الذي يتغذى على اللمسات ويغذّيها، لكن هذا الحب الذي كان متغلغلاً في عظامه لا يحتاج إلى إرضاء سطحي. كان خوفه الوحيد أن يفعل شيئًا يطمس صوت كلماتها أو أثرها، وكانت فرحته الوحيدة هي أنه لن يشعر بالوحدة أبدًا بعد هذه اللحظة.

وما هي إلا لحظات حتى اجتاحه الإحساس بالضياع والفقدان. ها هما معًا أخيرًا، قريبان آمنان في خلوتهما، لكنهما يرسفان بالقيود كلاً نحو مصيره الخاص فكأنما يقف العالم بأكمله حائلاً بينهما.

-وما الفائدة؟ ... وأنتِ ستعودين إليه؟

هذا ما نطقه، لكن ما خبأته الكلمات كانت صرخة يأس تناشدها: "قولي لي بالله عليكِ كيف أبقيكِ؟".

كانت جالسة بلا أدنى حركة، وقد أسدلت جفنيها.

-لا... لم أقرر الذهاب بعد!

-لم تقرري بعد؟ أتحتاجين إلى مزيد من الوقت إذًا؟ هل حددتِ كم من الوقت تحتاجين؟

رفعت عينيها إليه فكانتا أشد ما تكونان صفاءً.

-أعدك... لن أذهب طالما أنت محتملٌ الحياةَ... وطالما أننا ننظر إلى بعضنا هكذا بلا حواجز.

ألقى جسده على كرسيه. ما تقصده بإجابتها هو: "إن غيّرتَ من ظروفنا شيئًا فسوف تجبرني على العودة... العودة إلى البشاعات التي تعرفها، وكل المغريات التي تصورتَها". فهم ما تعنيه كأنما نطقت الكلمات بلسانها، فألزمه ذلك الخاطر مكانه من الطاولة في استسلام مبجل.

-يا لها من حياة بائسة ستعيشينها!

-طالما أن وجودي جزء من حياتك...

-ووجودي جزء من حياتكِ أيضًا؟

أومأت برأسها أي نعم.

-وهذا كل ما سنعيش عليه... نحن الاثنان؟

-هذا كل ما نستطيع فعله... صحيح؟

هبّ واقفًا، ناسيًا كل شيء ما عدا وجهها الجميل. وقفت هي ببطء وهدوء، ليس كمن يقف ليعانق شخصًا، وليس كمن يفر من عناق شخص، بل كمن أتمّ مهمة عويصة صعبة ولم يبقى أمامها سوى الانتظار. نهضت بهدوء شديد حتى إن ذراعيها الممدودتين لم تكونا درعين يصدانه بل دليلين يهديانه. وعندما وضعت ذراعيها في ذراعيه أبقته بعيدًا عنها لتدع وجهها المستسلم يقول بقية الكلام.

ربما تكون ساعاتٌ قد مضت وهما واقفان هكذا، وربما كانت بضع لحظات. لكن الوقت كان كافيًا لها ليعبر صمتها عن كل ما يدور في خلدها، وكافيًا له ليصل إلى قرار حازم، يجب ألا يسمح لهذا اللقاء أن يكون لقاءهما الأخير، يجب أن يأتمنها على مستقبلها وألا يطلب منها إلا أن تتمسك به بكل ما أوتيت من قوة.

أبعدت يديها عنه وقالت بصوت كسير:

-لا... لا تحزن.

فأجاب وكأنه ينوء تحت حمل الفكرة:

-لن تعودي... لن تعودي إلى هناك؟

-لن أعود.

استدارت ففتحت الباب، وخرجت إلى صالة الطعام العامة. كانت زمرة المعلمين والمعلمات الصاخبة يجمعون حاجياتهم تأهبًا للعودة سريعًا إلى المرفأ. قاربهم البخاري الأبيض راسٍ على الرصيف البحري، وبوسطن تلوح تحت هالة ضبابية عبر المياه اللامعة تحت ضوء الشمس.

الفصل الخامس والعشرون

عندما ركب نيولاند السفينة، وبوجود آخرين من حوله، أحس بطمأنينة روحية أدهشته بقدر ما شدّت ظهره وجعلته صلبًا.

كان يومه حافلاً بالفشل الذريع بكل المقاييس، فلا هو الذي نال ولو قبلة على يد مدام أولنسكا، ولا الذي أخذ منها عهدًا بلقاءٍ آخر. ومع هذا، رغم أنه رجل أضناه العشق الذي لم ينطفئ لهيبه، وقد فارق معشوقته لفترة لا يعلم كم ستطول، فإنه يشعر بهدوء وراحة نفسية عظيمة. إنّ ذلك التوازن الدقيق الذي أقامته بين ولائها للآخرين وصدقها مع نفسيها هو ما أسكن اضطراب نفسه وهيّج عواطفه في آن واحد؛ ذلك التوازن الذي لم تحسبه بعقلها - كما هو واضح من عبراتها واضطرابها - لكنه ناتج عن استقامتها التي هي جزء من طبيعتها. والآن، بعد أن زال خطر اللقاء، أُفعم باحترام شديد لها، وجعل يحمد الله أن لم يتدخل طمعه فيقلب هذا التوازن. حتى بعد أن تلاقت كفاهما في وداع أخير في محطة فول ريفر، وبعد أن أصبح لوحده، كان مؤمنًا أنه كسب من لقائهما أضعاف ما خسر.

عاد بعد ذلك إلى النادي، وانفرد بنفسه في المكتبة الخالية، فأخذ يقلّب في ذهنه كل لحظة وكل ثانية من ساعاتهما معًا. أيقن - وما زال تصديقه لهذه الفكرة يزداد كلما نظر إليها بعين الفحص والتدقيق - أنها إن قررت العودة إلى أوروبا والرجوع إلى زوجها فلن يكون دافعها هو أنها اشتاقت لحياتها القديمة، حتى لو أغراها زوجها بتقديم بعض التنازلات. كلا... لن ترحل إلا إذا أحسّت أنها أصبحت فتنةً تحيد بنيولاند عن الطريق القويم الذي رصفاه معًا. لقد اختارت أن تظل بقربه شريطة ألا يطلب منها الاقتراب أكثر، والأمر بيده هو... أن يبقيها في مكانها ذلك آمنةً منعزلةً.

استقّل القطار وما زالت هذه الأفكار تصحبه، فأحاطت به كهالة ذهبية

جعلت الوجوه من حوله بعيدةً مطموسة السحنات، ولو تحدث إلى أحد المسافرين معه فلن يفهم أي شخص ما يقوله، لأنه يعيش في حالة غياب عن الوعي، ظلّت تغشاه حتى استيقظ في الصباح التالي في نيويورك في يوم خانق من أيام سبتمبر. رأى الوجوه التي أذبلتها الحرارة تجري أمامه، وذلك الضباب الذهبي يخفي ملامحها. ولكن بعد أن غادر محطة القطار، رأى وجهًا ينفصل عن سيل الوجوه، فيقترب منه ويفرض نفسه على وعيه. تذكر فورًا أن هذا هو وجه الشاب الأجنبي الذي رآه أمس وهو يسير أمام فندق باركر هاوس؛ الوجه الذي لم يماثل بقية الوجوه الأمريكية.

وكما راوده ذلك الإحساس أمس، شعر الآن أنه يعرف هذا الرجل من قبل. كان الشاب يلتفت حوله محتارًا مشوشًا وهو الأجنبي الذي رماه حظه القاسي في السفر في ربوع أمريكا. اقترب من نيولاند، ورفع قبعته وقال بالإنجليزية:

-أظن أننا تقابلنا مسيو في لندن؟

-آاه... طبعًا. في لندن!

صافحه نيولاند بفضول وتعاطف. قال متعجبًا وعيناه تجولان وجه مدرس أسرة كارفري الفرنسي الهزيل النبيه:

-إذًا فقد قررت القدوم إلى هنا؟

كان مسيو ريفيير يمسك حقيبةً خفيفة بيدٍ مكسوة بالقفاز، وهو ينظر إلى نيولاند بحيرة وقلق وشيء من التوسل. ابتسم بشفتيه الرفيعتين وأجاب:

-نعم جئتُ إلى هنا... لكن لن أبقى طويلاً، فسأعود بعد غدٍ. في الواقع مسيو، أود أن أسألك... بما أن حظي السعيد قادني إليك لو يمكنك أن...

-كنتُ سأقترح هذا عليك... يسرني أن أدعوك إلى تناول الغداء معي... يمكننا أن نلتقي في وسط المدينة. قابلني في مكتبي، وسآخذك إلى مطعم ممتاز في تلك الأنحاء.

ظهرت الدهشة والامتنان جليتين على وجه مسيو ريفيير. قال:

-كرمك عظيم يا سيدي! لكني كنتُ سأسألك إن كنت تستطيع أن تدلني

على أقرب وسـيلة للموصلات... فلا يوجد حمالون هنا ولا أحد من الناس يريد أن يساعدني...

-أجل. لا شـك أن محطاتنا الأمريكية تثير عجبك. إن سـألت عن حمال دلوك على مكان بيع العلك. تعال معي وسوف أنقذك. ويجب أن تتناول الغداء معي.

أجاب الشـاب بعد تردد واضح بأن شـكر نيولاند كثيرًا، ثم اعتذر عن عدم تلبيـة الدعـوة بنبرة لا توحي بالصـدق متذرعًا بأنه مرتبـط بمواعيد أخرى، لكن عندما خرجا من المحطة إلى الشارع استأذنه في المرور على مكتبه عصرًا.

حـدد نيولانـد سـاعةً للقاء فلم تكن مواعيـده كثيره في فصل الصيـف، ثم دوّن عنوانه على ورقة أدخلها الفرنسي في جيبه وهو يلهج بالشكر، ثم رفع قبعته عاليًا تحيةً لنيولاند. ركب الشاب العربة التي تنتظره، أما نيولاند فمشى على قدميه.

وفي السـاعة المحددة للقاء ظهر مسـيو ريڤيير حليقًـا مهندمًا، رغم أن جديته وشحوبه لم يختفيا. كان نيولاند يجلس وحيدًا في مكتبه، فبدأ الشاب الفرنسي بالحديث مباشرةً، قبل أن يقبل الجلوس على الكرسي الذي عرضه نيولاند:

-أعتقد أني رأيتك يا سيدي أمس في بوسطن.

لم تكـن العبارة تحمـل أهمية أو خطورة، وكان نيولاند سـيرد بالإيجاب فورًا، لـولا أنـه رأى أن ضيفه يحدّق فيه بنظرةٍ غامضة وواضحة في الوقت نفسـها.

أردف مسيو ريڤيير:

-إنه لعجبٌ عجاب حقًا أن نلتقي في هذه الظروف!

تساءل نيولاند إن كان الفرنسي قد قصده بغرض اقتراض بعض المال، فسأل:

-أية ظروف تقصد؟

ظل مسيو ريڤيير يتمعن في نيولاند بنظرات مترددة. أجاب:

-لقـد أتيـتُ إلى هنا لا لأبحث عن وظيفة كـما قلتُ لك في آخر لقاء بيننا، بل جئتُ في مهمة خاصة...

هتف نيولاند:

-آها...!

ربـط ذهنه اللقاءين بلمح البصر، فتمهل لدراسـة الموقف الذي وجد نفسـه فيه. وكان مسيو ريڤيير أيضًا صامتًا كأنه يعلم أن ما قاله فيه الكفاية. وبعد أن طال الصمت كرر نيولاند كلماته:

-مهمة خاصة..

بسـط الشاب الفرنسي كفيه ورفعهما في الهواء، والرجلان ينظران إلى بعضهما مـن مكانيهـما إلى أن نطـق نيولاند عبارة واحـدة فقط: «تفضـل بالجلوس»، فأحنـى مسـيو ريڤيير قامتـه، وجلس على كـرسي بعيد قليلاً وانتظـر صامتًا.

سأله نيولاند:

-وأردت أن تستشيرني بشأن هذه المهمة؟

-ليـس لمنفعة أبتغيها، فأنا... أنـا راضٍ عن نفسي من هذا الجانب. لكني أود أن أتحدث معك إن سمحت لي بشأن الكونتيسة أولنسكا.

كان نيولاند يعلم منذ بداية الحوار أن اسمها سوف يُذكر في هذا اللقاء، ومع هذا فعندما نطق اسمها صعدت الدماء إلى صدغيه كمن تلقى ضربةً مفاجئة على رأسه.

-وتريد أن تناقشني بأمرها نيابةً عمن؟

واجه مسيو ريڤيير السؤال بثبات.

-أسـتطيع أن أقول بالنيابة عنها، لولا أن هذا حق لم تمنحني إياه. فاسـمح لي إذًا أن أقول: إني أتحدث نيابةً على العدالة المجردة.

نظر إليه نيولاند ساخرًا:

-تقصد إذًا أنك مبعوث الكونت أولنسكي؟

رأى أن وجه مسيو ريڤيير الشاحب بطبيعته قد احمرّ من شدة الإحراج.

-لستُ مبعوثًا إليك مسيو. أنا أتيتُ إليك لمناقشة الأمر على صعيد آخر مختلف.

-ومن أعطاك الحق في هذه الظروف أن تتحدث في أي صعيد على الإطلاق؟! إن كنتَ المبعوث فالكلام لا يكون بلسانك.

-مهمتي قد أتممتها. وبعد أن التقيت بالكونتيسة أولنسكا عرفت أنها فشلت.

قال نيولاند بسخرية لاذعة:
-وليس بيدي أن أساعدك في هذا الصدد.
-صحيح. لكن تستطيع أن تساعد...
سكت مسيو ريڤيير فجأة، وأخذ يقلّب قبعته بين يديه المكسوتين بالقفاز بعناية، ثم نظر إلى بطانتها ورفع عينيه إلى وجه نيولاند.
-أن واثق مسيو أنه يمكنك أن تساعد بأن تخيّب مساعي أسرتها كما خابت مساعيّ.
دفع نيولاند كرسيه إلى الخلف بقوة ونهض صائحًا:
-وهذا ما سأفعله طبعًا.
وضع يديه في جيبيه وسدد نظرات غاضبة للفرنسي الضئيل الذي نهض فورًا، ورغم أن الرجلين كلاهما واقفين فإن الضيف كان أدنى من مستوى نظر نيولاند بإنش أو اثنين. عاد وجه مسيو ريڤيير إلى شحوبه الطبيعي، ثم شحب أكثر فأكثر. تابع نيولاند والغضب يغلي في دمه:
-بما أنك أتيتَ إليّ بسبب صلة القرابة التي تربطني بمدام أولنسكا، فلماذا تظن إذًا أن رأيي في الموضوع سيختلف عن رأي أسرتها؟!
كان يكفي أن يرى نيولاند تغيّر التعبيرات المرتسمة على وجه مسيو ريڤيير ليعرف الجواب، فقد تغير وجهه من الخجل والخوف إلى البؤس الشديد، ورغم أن هيئته العادية توحي بالخنوع وقلة الحيلة، فإن هذا البؤس الجديد زاده ضعفًا وهوانًا.
-أوه... مسيو...
-لا يمكنني أن أتخيل السبب الذي دفعك للمجيء إليّ أنا رغم أن هناك آخرين أقرب مني إلى الكونتيسة، وليس هذا فحسب... بل ما الذي جعلك تظن أني سأقبل نقل حججك التي بُعثتَ بها إليها؟!
واجه الفرنسي هذا الهجوم بتذلل محرَج، وأجاب:
-إن الحجج التي أود أن أعرضها عليك مسيو هي حججي أنا، وليست الحجج التي بُعثتُ بها.

-وهذا سبب أدعى ألا أستمع إليها.
نظر مسيو ريڤيير مرة أخرى إلى قبعته كأنه يفكر ما إذا كانت جملة مضيفه الأخيرة إشارةً كافية ليضعها فوق رأسه ويغادر. عندها تحدث بحزم قاطع:
-مسيو... هلا أجبت عن سؤال واحد فقط؟ أحقي في المجيء إليك هو ما تشكك به؟ أم أنك تظن أن الموضوع قد حُسم وانقضى؟
كان ثبات مسيو ريڤيير الهادئ على موقفه هو ما نجح في فرض وجوده، وهو كذلك ما جعل نيولاند يشعر بحماقة انبرائه بالتهديد والسخط، فتورد وجهه قليلاً، ثم عاد إلى كرسيه فجلس، وأشار إلى الشاب بالجلوس.
-أستميحك عذرًا، لكن لماذا لم ينقضِ الأمر بعد؟
رماه مسيو ريڤيير بنظرات مغتمّة وأجاب:
-أتتفق إذًا مع بقية أسرة الكونتيسة أن العرض الجديد الذي جئتُ به يجعل من المستحيل عليها ألا ترجع إلى زوجها؟
هتف نيولاند: «يا إلهي!»، وغمغم زائره مؤكدًا كلامه.
-هذا صحيح. قبل أن أقابلها، قابلتُ - بناءً على طلب الكونت أولنسكي - السيد لوڤيل مينغت، وتحدثت معه مرارًا قبل سفري إلى بوسطن. وحسبما فهمت فإنه يمثل والدته السيدة مينغت، وأن تأثيرها قوي وآراءها مسموعة لدى كل أفراد أسرتها.
جلس نيولاند صامتًا وهو يشعر بأنه يتعلق بحافة جرف زلق. فقد عرف الآن أنهم استبعدوه من هذه المشاورات الأسرية، بل ولم يخبروه أن ثمّة مفاوضات تجري بين الطرفين، وكانت تلك مفاجأة عظيمة أخرست لسانه وبلبلت أفكاره. برقت خاطرةٌ في ذهنه فانقشع الظلام. إن كانت الأسرة قد توقفت عن استشارته فهذا يعني أن غريزةً قبلية عميقة الجذور أنذرتهم بأنه لم يعد في صفهم. استعاد في ذاكرته قول ماي، أثناء عودتهما من منزل الجدة مينغت، في يوم مسابقة النبالة. قالت: «ألن تكون إيلين أسعد لو أنها بقيت مع زوجها؟». تذكر الآن وعقله مشوّش إثر هذا الاكتشاف الجديد ردَّه الحانق

عليها، وأن زوجته لم تذكر مدام أولنسكا أمامه بعدها قط. كان ذكرها لابنة خالها عرضًا وبلامبالاة هي ذرات التراب التي رمتها في الهواء لترى من أين تهب ريحه، وقد أبلغت أهلها بالنتيجة، وعليها أقصوه عن مجالسهم بلباقة. وجد في نفسه إعجابًا بسطوة الأسرة التي جعلت ماي تخضع لقرارهم. كان متأكدًا أنها لم تكن لتفعل هذا لو أن ضميرها أنّبها، لكنها على الأرجح تتفق مع رأي أسرتها. من الأفضل أن تكون مدام أولنسكا زوجة تعيسة على أن تكون امرأة منفصلة عن زوجها، ولا طائل من مناقشة نيولاند في الأمر لأنه أحيانًا لا يؤمن إيمانًا أعمى بمسلماتهم.

رفع نيولاند عينيه وقابل نظرة زائره القلقة.

-أيعقل مسيو... أيعقل أنك لا تعلم أن أسرتها بدأوا يرون أن من الأفضل ألا يشجعوا الكونتيسة على رفض عرض زوجها الأخير؟

-العرض الذي جئتَ به؟

-العرض الذي جئتُ به.

كادت الكلمات تندفع من بين شفتي نيولاند. كاد أن يقول: «ما أعرفه أو لا أعرفه ليس من شأنك»، لكن نظرة مسيو ريفيير التي تنطق بالتواضع والعناد الجسور جعلته يبعد الفكرة عن باله، فقابل سؤال الشاب بسؤال:

-إلامَ ترمي بحديثك معي عن هذا الموضوع؟

أتاه رد مسيو ريفيير سريعًا:

-أن أرجوك مسيو... أن أتوسل إليك بكل ما لدي من قوة... ألا تدعها ترجع إليه. أرجوك لا تدعها.

تعاظمت دهشة نيولاند. لا شك خامره على الإطلاق أن ألم الرجل حقيقي صادق، وأن عزيمته قوية صُلدة، وأنه قرر أن يجازف بكل ما عنده مقابل أن يسجل موقفه ويصرح برأيه. قال نيولاند بعد حين:

-أتسمح لي بأن أسألك، أصارحت الكونتيسة أولنسكا برأيك هذا؟

اتّقد وجه مسيو ريفيير بحمرة الحرج، لكنه لم يشح بصره عن نيولاند:

-لا مسيو. لقد قبلتُ القيام بمهمتي بنية صادقة. لقد صدّقتُ حقًا لأسباب لا أريد أن أزعجك بتعدادها أن من مصلحة مدام أولنسكا العودة إلى وضعها السابق، واستعادة ثروتها والمكانة الاجتماعية التي تنعمّت بها جراء مقام زوجها الرفيع.

-هذا ما ظننتُه. وإلا كان من الصعب أن تقبل بهذه المهمة.

-ما كان يجب أن أقبل بالمهمة.

-إذًا ما الذي تغيّر؟

-بعد أن رأيتُها مسيو، وبعد أن استمعتُ إلى حديثها تأكدتُ أن بقاءها هنا خير لها.

-تأكدتَ؟!

-مسيو... لقد أتممتُ مهمتي بإخلاص، ووضعتُ عرض الكونت بين يديها وقدّمت لها حججه، دون أن أضيف رأيًا مني أو تعليقًا. وقد أكرمتني الكونتيسة بأن أنصتت للرسالة بحلم، بل وغمرتني بسخائها بأن قابلتني مرتين، وفكرتْ في كل ما قلته لها بموضوعية. ومن خلال هاتين المقابلتين غيّرتُ رأيي، وبدأتُ أرى الأمور بنظرة مختلفة.

-أتسمح بأن أسألك ما الذي دفعك إلى تغيير رأيك؟

-لأنني رأيت التغيير فيها.

-التغيير فيها؟ أكنتَ تعرفها من قبل؟

تورد وجه الشاب مرة أخرى. أجاب:

-كنتُ أراها من وقتٍ لآخر في منزل زوجها. أنا أعرف الكونت أولنسكي منذ سنواتٍ طويلة. ولابد أنك ترى أنه لم يكن ليرسل غريبًا في مهمة كهذه.

جالت نظرة نيولاند أنحاء المكتب وجدرانه الخالية، ثم توقفت على التقويم المعلّق فوق ملامح رئيس الولايات المتحدة الصارمة. لم يصدق عقله ولم يتخيل قط أنه يناقش شخصًا بهذا الأمر هنا في مكتبه.

-ما التغيير الذي لاحظته عليها؟

-ليتني أستطيع أن أخبرك مسيو! اكتشفتُ شيئًا غاب عن ملاحظتي، أدركتُ أنها أمريكية. وأن الأمريكي مثلها ومثلك لا يقبل ولا يطيق حتى بعض الأمور المقبولة في المجتمعات الأخرى، أو التي يُغض الطرف عنها في تلك المجتمعات كنوع من التنازل الذي يخدم العلاقة بين شخصين. لو أن أقرباء مدام أولنسكا يعلمون ما هذه الأمور لكان رفضهم لرجوعها قاطعًا حازمًا كرفضها، لكنهم يرون أن رغبة زوجها في استعادتها برهانٌ على توقه الشديد لحياةٍ زوجية مطمئنة... والحقيقة أبعد ما تكون عن هذا التحليل البسيط.

حرّك نيولاند بصره ما بين رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وسطح مكتبه، والأوراق المتناثرة عليه. لم يستطع الكلام. وطال صمته إلى أن سمع صوت كرسي مسيو ريڤيير وهو يرجعه إلى الخلف، وأحس بحركة الشاب وهو ينهض. عندها رفع عينيه إلى زائره فوجده متأثرًا مضطربًا كحاله تمامًا.

قال نيولاند ببساطة:

-شكرًا لك.

تهدّج صوت مسيو ريڤيير كأن الحديث يرتجّ عليه هو أيضًا:

-لا داعي لشكري مسيو، بل أنا الذي... (قال بصوت أقوى وأشد) أريد فقط أن أضيف شيئًا واحدًا؛ كنتَ قد سألتني إن كنتُ أعمل لحساب الكونت أولنسكي. أنا في هذه اللحظة من موظفيه، فقد رجعتُ إليه قبل بضعة أشهر لأسباب حتّمتها الظروف الملحة... ظروف الرجل الذي يعيل المريض والمسنّ. لكن منذ اللحظة التي خطت فيها قدماي إلى مكتبك لأقول لك ما قلته، فأنا أعتبر نفسي مستقيلاً من عملي، وسوف أبلغه بذلك حال عودتي مقدمًا له الأسباب. هذا كل ما عندي مسيو.

انحنى مسيو ريڤيير وتراجع خطوةً إلى الوراء. صافحه نيولاند وشكره للمرة الثانية.

الفصل السادس والعشرون

تفتح منازل الجادّة الخامسة في الخامس عشر من شهر أكتوبر في كل عام دَرَفات نوافذها، وتبسط سجاجيدها، وترفع ستائرها الثقيلة ذات الطبقات الثلاثة. وبحلول الأول من نوفمبر تغلق النوافذ، وترفع السجاجيد، وتسدل الستائر، ويبدأ المجتمع يتحسس نفسه ويرى ما الذي تبدل فيه. وحالما يحل الخامس عشر من الشهر، يكون الموسم الاجتماعي قد بلغ أوجه، فتقدّم المسارح ودور الأوبرا عروضها الجديدة، وتتراكم دعوات العشاء في البريد، وتُحدد مواعيد حفلات الرقص. وفي هذا الوقت تحديدًا تقول السيدة آرتشر دائمًا كلمتها المعهودة: "لقد تغيّرت نيويورك".

فهي تستطيع من برجها العاجي وتمنّعها عن المشاركة في الحياة الاجتماعية، وبمساعدة السيد سيلرتون جاكسون والآنسة صوفي أن تقتفي أثر كل شرخ جديد يظهر في سطح المجتمع، وكل الأعشاب الضارة الغريبة التي تطل برأسها بين صفوف خضروات المجتمع المنظّمة. عندما كان نيولاند يافعًا، كانت تسليته السنوية أن ينتظر والدته كي تقول قولها الشهير هذا، وأن يسمعها تعدّد أمارات انحلال مجتمعهم الدقيقة التي لم تلحظها عينا نيولاند. فنيويورك برأي السيدة آرتشر لا تتغير إلا إلى الأسوأ، والآنسة صوفي تتفق معها في هذا الرأي.

التزم السيد سيلرتون جاكسون - وهو الرجل المحنّك الذي عركته الحياة - جانب الحياد فلم يصرّح برأي، واكتفى بالاستماع مستمتعًا بندب السيدتين، لكن حتى هو لا يمكنه الادعاء أن نيويورك لم تتغير. أما نيولاند في شتاء عامه الثاني من الزواج فيعترف في قرارة نفسه أنه إن لم تكن نيويورك تغيرت فهي حتمًا في طور التغير.

كانت تلك هي الموضوعات التي ناقشوها على مائدة عشاء عيد الشكر في منزل السيدة آرتشر. ففي اليوم الذي يجب عليها أن تشكر فيه الإله على نعمه التي أكرمهم بها طوال السنة، كانت عادتها أن تقيّم عالمها باكتئاب (وإن خلا من المرارة)، وأن تتحسر على حال المجتمع - إن كان ما يعيشون فيه الآن يمكن أن يُسمّى مجتمعًا - فحاله الآن يستنزل كل لعنات الكتاب المقدس.

والكل يعرف لماذا اختار القسيس الدكتور آشمور شواهد من سفر إرميا (الإصحاح الثاني، الآية 25) ليلقيها في خطبة عيد الشكر. لقد أُختير د. آشمور ليشغل منصب القسيس الجديد في كنيسة (القديس ماثيو) لأنه رجل عصري، وخطبه جريئة في أفكارها رشيقة في ألفاظها. وعندما كان يشجب حال المجتمع كان دائمًا ما يتحدث عن "تياراته". ورغم أن السيدة آرتشر كانت مهتمة بهذه التيارات الجديدة فإنها أيضًا خائفة من أن تغزو مجتمعها.

-إن الدكتور آشمور مصيب في كلامه. هناك تيارات واضحة.

قالتها وكأنها أشياء يمكنها أن تراها وتقيسها كصدوع الجدران. أيّدتها الآنسة جاكسون ثم قالت:

-لكن من الغريب أن يلقي خطبةً كتلك في عيد الشكر.

ردّت مضيفتها بجفاء:

-لأنه يريدنا أن نشكر الإله على ما تبقى من الدنيا التي نعرفها.

كان نيولاند يبتسم دائمًا عندما يسمع تنبؤات أمه السنوية، لكن هذا العام حتى هو اضطر أن يقر وهو ينصت إلى سردها للتغيرات التي حدثت أن هذه "التيارات" واضحة بيّنة. قالت الآنسة جاكسون:

-كل هذا البذخ في الأزياء! أخذني سيلرتون معه في أول ليلة من عروض دور الأوبرا، وكانت جاين ميري هي الوحيدة التي ترتدي فستانًا من أزياء العام الماضي، رغم أنه لم يسلم من التغيير والتعديل. أنا متأكدة أنها اشترته من وورث قبل عامين فحسب لأن خيّاطتي هي التي تعدّل فساتينها التي تشتريها من باريس قبل أن ترتديها.

تنهّدت السيدة آرتشر وقالت:

-جاين ميري واحدة منا.

وكأن جاين ميري تناضل في هذا الزمن الذي بدأت فيه السيدات يتباهين بارتداء فساتين الباريسية فور وصولها من دور الأزياء، بدلاً من أن يقفلن عليها في خزانة الملابس ليرتدينها بعد حين كما تفعل السيدات من جيل

السيدة آرتشر. ردّت الآنسة جاكسون:
-نعم. إنها من الأقلية. كان عيبًا في شبابي أن ترتدي المرأة آخر الأزياء. وكانت آيمي سيلرتون تقول لي دائمًا أن العادة في بوسطن هي ألا ترتدي المرأة أزياءها الباريسية الجديدة لعامين كاملين. وزوجة السيد باكستر بينيلو العجوز وهي من أرقى السيدات كانت تشتري اثني عشر فستانًا في السنة؛ اثنان من القطيفة، واثنان من الساتان، واثنان من الحرير، والستة الباقية من أجود أصناف البوبلين والكشمير. كانت هذه طلبيتها الدائمة في كل سنة، وعندما ماتت وجدوا ثمانيةً وأربعين فستانًا جديدًا من تصميم وورث ما زالت في عُلبها التي أُرسلت فيها، لأنها كانت مريضة لمدة سنتين قبل وفاتها. فارتدت بناتها من هذه الفساتين في الحفلات الموسيقية بعد انقضاء مدة الحداد دون أن تبدو أزياؤهن سابقة للموضة.
-بوسطن أكثر تحفظًا من نيويورك، لكنني أتفق معكِ فعلاً أن على السيدة ألا ترتدي فساتينها الفرنسية الجديدة في أول موسم.
-إن بوفرت هو من سنّ هذه البدعة عندما جعل زوجته ترتدي ملابسها الجديدة فور وصولها. صدقيني أحيانًا أظن أنه لولا وجاهة ريجينا لباتت كأنها... كأنها...
أدارت الآنسة جاكسون بصرها في الوجوه حول طاولة الطعام، ورأت نظرة جايني آرتشر الجائعة شاخصة إليها تنتظر، فارتأت اللَواذ بغمغمة غير مفهومة. قال السيد سيلرتون جاكسون وكأنه ينهي نكتة فظة:
-كأنها إحدى منافساتها.
دمدمت السيدتان بضيق، ثم قالت السيدة آرتشر بغية صرف تفكير ابنتها عن هذه الموضوعات المحرمة:
-مسكينة ريجينا! لا شك أنها تقضي عيد الشكر في كدر وقلق. أسمعتَ الشائعات عن مضاربات بوفرت يا سيلرتون؟
أومأ السيد جاكسون بلا اكتراث. كل الناس قد سمعوا تلك الشائعات،

وكان مقامه في نقل الأخبار أعلى وأجلّ من ترديد حكاية لاكتها الألسن. حطّ صمت كئيب على الحضور. فرغم أن الجميع كانوا يبغضون بوفرت، ويظنون بحياته الخاصة أسوأ الظنون، فإن مجرد التفكير في أنه قد يحيق بأسرة زوجته خسائر مالية فادحة كان يسبّب الصدمة حتى في نفوس أعدائه. فنيويورك التي يعرفها نيولاند آرتشر تتغاضى عن النفاق طالما أنه محصور في العلاقات الخاصة، لكن في شؤون العمل فإنها تستوجب استقامة ووضوحًا لا غبار عليهما. مضى زمن طويل منذ أن حل فشل مخزٍ بمصرفيّ معروف، لكن كل الناس يتذكرون الدمار الاجتماعي الذي نزل على أصحاب الشركة التي وقعت فيها خسارة من هذا القبيل. وسينزل الدمار نفسه على بوفرت وزوجته رغم سطوته وشعبيتها، ولو تحالفت أسرة دالاس عن بكرة أبيها وبكل قوتها لما استطاعت أن تنقذ ريجينا المسكينة، إن كانت هذه الأقاويل عن مضاربات زوجها غير القانونية تحمل شيئًا من الحقيقة.

انتقل الحديث إلى موضوعات أقلّ سوداوية، لكن كل شيء يتحدثون عنه يؤكد كلام السيدة آرتشر عن تيّارات التغيير في محيط المجتمع. قالت السيدة آرتشر:

-أعرف أنك تسمح لماي طبعًا بالذهاب إلى أمسيات الأحد التي تقيمها السيدة ستراثرز يا نيولاند...

قاطعتها ماي بحبور:

-كل الناس يذهبون إلى حفلات السيدة ستراثرز هذه الأيام كما تعلمين، وقد دعتها جدتي في حفل الاستقبال الذي أقامته مؤخرًا في منزلها.

تأمل نيولاند كيف تتغير نيويورك؛ فهي تتجاهل التغييرات حتى تشيع وتسود، ثم تتظاهر وبنية صافية أنها من عاداتهم التي اتّبعتها منذ زمن سابق. ودائمًا ما يكون هناك خائن (أو في الغالب خائنة) في معقلهم يسلّم مفاتيحه للعدو، فما الجدوى من التظاهر بأن المعقل حصين منيع؟ وبعد أن ذاق الناس متعة أمسيات السيدة ستراثرز وحلاوة ضيافتها، لن يقنعوا بالبقاء في بيوتهم مذكّرين أنفسهم أن الشمبانيا التي تضيّفهم جاءت من "تلميع الأحذية".

تنهدت السيدة آرتشر وقالت:

-أعرف يا عزيزتي.. أعرف. لا عجب في ذلك طالما أن الناس يلهثون وراء الملهيات. لكنني لم أسامح قريبتكِ مدام أولنسكا قط على كونها أول من شجّع السيدة ستراثرز.

تصاعدت حمرة مباغتة إلى وجنتيّ زوجة ابنها، وقد تفاجئ الحضور من ذلك حتى زوجها. وقالت بهمس: "أوه. إيلين..."، بنبرة مستنكرة اتهامية كأنها والداها عندما يقولان: "أوه. أسرة بلنكرز...".

وكانت تلك نبرة كل أفراد الأسرة عند ذكر اسم الكونتيسة أولنسكا، منذ أن فاجأتهم وأزعجتهم بموقفها المعاند في صدّ محاولات زوجها لإرضائها. لكن استعمال ماي لهذه النبرة جعلته يفكر مليًا. ورغم أن والدته عادةً ما تكون حساسةً للموضوعات التي تعكّر صفو الاجتماعات، فإن حدسها قد خاب هذه المرة لأنها أصرت على إكمال حديثها:

-أنا أؤمن أن من واجب الأشخاص الذين عاشوا في المجتمعات الأرستقراطية من أمثال الكونتيسة أولنسكا أن يساعدوننا على الحفاظ على عاداتنا الاجتماعية لا أن يتجاهلوها.

اتّقد وجه ماي واضطرم، كأن فيما سمعته معنى خفيًا يتجاوز خجلها من تجاهل الكونتيسة أولنسكا أوامر المجتمع. قالت الآنسة جاكسون بفظاظة:

-لا شك لدي أننا كلنا نتشابه في أعين الأجانب.

قالت ماي كأنها تفتش في عقلها عن أكثر العبارات إبهامًا:

-أعتقد أن إيلين لا تهتم بالوسط الاجتماعي، لكن لا أحد يعرف ما الذي تهتم به حقًا.

تنهدت السيدة آرتشر مرةً ثانية. كان خبر غضب أسرة الكونتيسة عليها معروفًا لدى الجميع. وحتى السيدة مينغت العجوز أقوى ناصريها لم تجد في جعبتها حيلةً تدافع بها عن سبب رفضها الرجوع إلى زوجها، ومع هذا فإن الأسرة لم تجاهر باستنكارها، لأنها تؤمن بضرورة الحفاظ على أواصر

العلاقـات الأسريـة قويةً متينـة. لكن هـذا لا يمنع أنهم غسـلوا أيديهم منها كما قالت السـيدة ويلند: "دعوا إيلين المسـكين تجد المكان الذي ترتاح فيه"، فكان ذلك المكان هو الدرك الأسفل الذي تتزعمه أسرة بلنكرز، ويعيش فيه "معشر الكتّاب" في خضم طقوسهم العجيبة. فكانت الحقيقة المذهلة هي أن إيلين رغم نشـأتها الراقية وحياتها التي وفّـرت لها أجمل الفرص قد أصبحت "بوهيمية"، وهذا ما شمّت الناسَ بها واتخذوه دليلاً على أن رفضها العودة إلى الكونـت أولنسـكي كان خطـأً فادحًـا، فلا مكان للمرأة إلا تحت سـقف زوجهـا، خاصـةً إذا كانت قـد تركت بيته في ظـروف... لا يسرها أن يعرفها أحد. قالت الآنسـة صوفي بلهجة من يحاول أن يذكر محاسن الشخص، لكن في الحقيقة إن نيتها هي دس السم بالعسل:

-إن الرجال يتهافتون على مدام أولنسكا.

وافقتها السيدة آرتشر بحزن:

-وهذا هو الخطر الفظيع الذي تتعرض له الشابات مثل مدام أولنسكا دائمًا.

نهضت السـيدات فرفعن أذيال فساتينهن واتجهّن إلى غرفة الجلوس، أما نيولاند والسيد سيلرتون جاكسون فانسحبا إلى المكتبة القوطية. بعد أن جلسا أمام قضبان المدفأة، وعزّى السيد جاكسون نفسه بالسيجار الرائع ليُذهب طعم العشاء السيء من فمه، أصبحت شهيته للحديث مفتوحة. بدأ كلامه بإنذار متشائم:

-إن حلّت الخسائر ببوفرت فسيكون هناك تحقيقات في كل شؤونه المالية.

رفع نيولاند رأسـه بسرعة. لم يسـتطع أن يسمع هذا الاسـم دون أن تقفز إلى ذهنـه صورة بوفرت بقامته العريضـة، وهو يتدثر الفراء الثقيلة، ويقترب من ذلك البيت الصغير في سكويتركليف.

أردف السيد جاكسون:

-وسـوف تنكشـف أمور كثيرة وتبعاتها سـيئة جدًا. إنه لم يصرف كل أمواله على ريجينا.

قال الشاب يريد تغيير الموضوع:

-لكن مصروفاته هذه لا تحسب. أنا أرى أنه سيتجاوز هذه المحنة.
أقر السيد جاكسون على كلامه بتردد:
-ربما... ربما. ما أعرفه هو أنه ذهب للقاء بعض الشخصيات المؤثرة اليوم. فلنأمل أن يقبلوا دعمه مؤقتًا... ولو لهذه المرة فقط. لا أستطيع أن أتصور أن تعيش ريجينا المسكينة في مكان حقير غريب، مع المفلسين والسكارى.
لم يرد نيولاند. من الطبيعي أن تنزل مصيبة بالمال الحرام ليُكفَّر عنه، حتى لو وقع على إثرها مصائب أخرى، لكن عقله على أية حال لم يركز على دمار السيدة بوفرت، بل سرح إلى أسئلة هي أقرب لاهتمامه. ما سر احمرار وجه ماي عندما ذُكرت الكونتيسة أولنسكا؟
لقد مرت أربعة أشهرٍ منذ ذلك اليوم الصيفي الذي قضاه مع مدام أولنسكا، ولم يرها منذ ذلك الحين. علم أنها عادت إلى واشنطن، إلى المنزل الصغير الذي تقطنه وميدورا مانسون. وأرسل إليها رسالةً مرة واحدة فقط - بضع كلمات يسألها متى سيلتقيان ثانيةً - فأجابت بكلمات أقل: "ليس الآن"، ولم يكن بينهما أي اتصال بعدها. كان قد بنى في داخله حرمًا يضم أسراره الخاصة ورغباته الدفينة، وكانت هي سيدة هذا الحرم وشاغلة فكره. ورويدًا رويدًا بات هذا المكان هو حياته الحقيقية ومنطقه ويقظته؛ إليه يجلب الكتب التي قرأها، وفيه يختزن الأفكار والمشاعر التي تغذّي روحه وآراءه وأحلامه. أما خارج الحرم، فهو يتوكأ على الزيف والنقص ليسير على أرض الواقع، ويتخبط في الأعراف المشهودة والتقاليد المعروفة، كرجل غافل يتخبط في أثاث حجرته. الغفلة... هذه هي علته. كان غافلاً عن كل شيء ملموس أو محسوس يهم من هم حوله، حتى إنه يتعجب عندما يفيق من غفلته أحيانًا بأنهم يرونه معهم وبينهم.
استفاق الآن على نحنحة السيد جاكسون تأهبًا لكشف المزيد من الحقائق.
-أنا لا أدري طبعًا ماذا سمعت أسرة زوجتك من أقاويل الناس عن... عن رفض مدام أولنسكا عرض زوجها الأخير.
ظل نيولاند متمسكًا بصمته، فأردف السيد جاكسون:

-من المؤسف... إنه مؤسف حقًا أنها رفضت الرجوع إليه.
-مؤسف؟ لماذا بالله عليك؟
نظر السيد جاكسون إلى ساق بنطاله، ثم إلى جوربه وحذائه اللامع.
-لو فكرنا بالأمر في أسوأ الأحوال... من سيعيلها الآن؟
-الآن؟
-إذا بوفرت...
هبّ نيولاند واقفًا، وضرب بقبضة يده طاولة الكتابة السوداء، فتراقصت دواتي الحبر النحاسيتين في مكانيهما.
-ماذا تقصد يا سيدي؟!
تململ السيد جاكسون قليلاً في كرسيه، ونظر بهدوء إلى وجه الشاب المحتقن.
-لقد نمى إلى علمي من مصدرٍ موثوق... في الواقع سمعت من فم كاثرين العجوز شخصيًا أن الأسرة قلّصت مخصصات الكونتيسة أولنسكا المالية إلى حد كبير بعد أن رفضت العودة إلى زوجها رفضًا قاطعًا. وحيث إنها برفضها خسرت كذلك مخصصاتها المالية المستحقة لها بصفتها زوجة الكونت - المخصصات التي عرض أولنسكي أن يدفعها لها إن عادت - فما الذي تعنيه أنت عندما تسألني يا ولدي الطيب عما أقصده؟
سار نيولاند نحو رف المدفأة، وانحنى على قضبانها الحديدية القصيرة ليذر رماد سيجاره.
-لا علم لي على الإطلاق بشؤون مدام أولنسكا الخاصة، لكن لا أحتاج إلى أن أعرف كي أكون واثقًا أن ما تلمح إليه...
-أوه.. أنا لا ألّمح إلى أي شيء... في الحقيقة ليفرتس هو الذي لّمح.
قال نيولاند بازدراء:
- ليفرتس! الذي تودد إليها وصدّته؟!
-آها... أهذا صحيح؟
قالها السيد جاكسون كأنه صيّاد وجد أن الفريسة وقعت في فخه. كان يجلس

ونار المدفأة عن جانبه، فلم تنزل عيناه الصارمتان بنظرتها الفولاذية لحظةً عن وجه نيولاند. قال:

-على أية حال... من المؤسف أنها لم تعد إلى زوجها قبل مصيبة بوفرت. فإن عادت الآن بعد أن يخسر بوفرت أمواله، فسيؤكد هذا ظنون الناس. وهو بالمناسبة في أذهان الناس جميعًا، وليس ليفرتس لوحده.

-لن تعود إليه الآن... ولا في المستقبل!

ما أن خرجت الكلمات من فم نيولاند شعر أن هذا بالضبط ما كان يصبو إليه السيد جاكسون. تفرس فيه الرجل المسنّ، ثم قال:

-أهذا رأيك؟ هاه... أنت أعلم طبعًا. لكن لو سألت أي شخص فإنه سيقول لك أن البنسات القليلة التي تملكها ميدورا مانسون كلها في يد بوفرت. ولا يسعني أن أتصور كيف ستنجو السيدتان من هذه المحنة إلا إذا نجا هو. ربما تستطيع مدام أولنسكا تليين قلب كاثرين العجوز رغم أنها أشد المعارضين على بقائها، وبيد العجوز أن تمنحها من المخصصات ما تشاء. لكن كلنا نعرف أنها تكره تبذير المال، أما بقية الأسرة فلا يحبذون بقاء مدام أولنسكا هنا.

كان نيولاند يغلي غضبًا كالمرجل. وقد بلغ تلك الحالة التي يعرف المرء فيها أنه سيرتكب تصرفًا أحمقًا ومع هذا فإنه لا يستطيع أن يمنع نفسه. رأى بكل وضوح أن السيد جاكسون تعجب لما عرف أن لا علم للشاب بخلافات مدام أولنسكا مع جدتها وأقربائها، وأن الرجل العجوز استنتج بنفسه الأسباب التي دفعت الأسرة إلى إقصاء نيولاند عن مشاوراتهم. وهذا ما جعل نيولاند يقرر أن من الواجب عليه أن يحترس في حديثه، لكن تلك التلميحات بشأن بوفرت أطاشت صوابه. ذكر نفسه بأن السيد جاكسون ضيفه في منزل والدته. وأصول نيويورك القديمة تقضي باتّباع اتيكيت الضيافة بحذافيره، ومنه ألا يتحول أي نقاش مع ضيف إلى خلاف أبدًا. أسقط السيد جاكسون رماد عقب سيجاره في منفضة السجائر النحاسية بجانبه، فاقترح نيولاند بجفاف أن ينضما إلى والدته وبقية السيدات في غرفة الجلوس في الأعلى.

في طريق عودة الزوجين إلى منزلهما كان صمت ماي غريبًا، وقد أحس نيولاند رغم الظلام أن حمرة الإحراج تلك ما برحتها. صحيح أنه لم يفهم معناها بعد، لكنه واثق تمام الثقة أن اسم مدام أولنسكا هو ما أثارها. عندما صعدا إلى الأعلى اتجه هو إلى المكتبة. كانت عادةً تلحق به إلى هناك، لكنه سمعها تعبر الطرقة متجهةً إلى غرفة نومها.

-ماي!

ناداها بضيق، فرجعت وعلى وجهها سيماء المفاجأة من نبرته. تذمّر باضطراب:

-الدخان يخرج من المصباح ثانيةً. أليس من الواجب على الخدم أن يقصوا الفتيلة كما يجب؟

-أنا آسفة جدًا. لن يتكرر الأمر.

أجابته بتلك اللهجة المرحة التي تعلمتها من أمها، وشدّ ما أثارت غيظ نيولاند لّما رأى أنها بدأت فعلاً تسايره، كأنه النسخة الشابة عن أبيها. انحنت على المصباح لتُخفض الذبالة، وعندما وقع وهج النور على كتفيها الأبيضين وقسمات وجهها الناعمة قال في نفسه: «إنها ما زالت شابة صغيرة! كم من سنين طويلة سنعيش فيها هذه الحياة!». أحس في تلك اللحظة بشبابه القوي والدم الحار الذي يسري في شرايينه. قال بغتةً:

-اسمعي... قد أسافر إلى واشنطن لبضعة أيام... قريبًا. ربما الأسبوع القادم.

ظلّت يدها معلّقة بمفتاح المصباح وهي تستدير ببطء لتنظر إليه. ورغم أن حرارة الشعلة أضفت عليها وهجًا، فإنه رأى امتقاع وجهها بوضوح.

-في مهمة عمل؟

سألته بنبرةٍ توحي بأنه لا يمكن أن يكون هناك أي سبب آخر يدفعه إلى الذهاب، وأنها ألقت السؤال تلقائيًا كأنها تود إنهاء جملته.

-في مهمة عمل طبعًا. ثمة قضية براءة اختراع سوف تُعرض أمام المحكمة العليا...

قال اسم المخترع وأضاف تفاصيل أخرى بعفوية وسلاسة يحسده لورنس ليفرتس عليها. وكانت هي تنصت إليه باهتمام وتقول: «نعم. مفهوم» ما بين

الفينة والأخرى. عندما فرغ من الكلام قالت ببساطة:

-سوف ينفعك التغيير... ويجب أن تذهب لتسلّم على إيلين.

قالت ذلك وهي تنظر إلى عينيه مباشرةً وبابتسامةٍ صافية، كأنها تحثه على القيام بواجب أسري ثقيل.

لم يناقشا الموضوع أكثر من ذلك، لكن وفقًا للرموز التي تدرّبا منذ صغرهما على فهمها فإن ما تعنيه بكلامها هو: «أنا أعرف كل الأقاويل التي يتناقلها الناس عن إيلين، وأنا أؤيد أسرتي في محاولاتهم لإقناعها بالرجوع إلى زوجها. وأنا أعلم كذلك لسببٍ ما لم تصارحني به أنك قد أقنعتها بألا ترجع إليه، ضاريًا بآراء رجال أسرتي وجدتي عرض الحائط. إن إيلين تتحدّانا بسببك، والنتيجة أنها تعرّض نفسها لانتقادات كالتي أسمعك إياها السيد جاكسون هذا المساء. أليست هي تلك التعريضات التي جعلتك ساخطًا الآن؟ وما زالت الأقاويل في ازدياد. لكن بما أنك لا تريد أن تسمع من الآخرين فاسمع مني إذًا بالطريقة الوحيدة التي يستطيع أمثالنا من الأشخاص ذوي النشأة الحسنة أن يتحدثوا بها عن الأشياء التي لا تسر؛ فاعلم أني أعرف أنك ستذهب لزيارة إيلين عندما تسافر إلى واشنطن، بل ربما يكون هذا هو السبب الوحيد لسفرك. وبما أنك ستراها فأريد أن يكون ذلك بعلمي وموافقتي الصريحة، وأن تريها ما نهاية الطريق الذي شجعتها على السير فيه».

كانت يدها ثابتة على مفتاح المصباح مع آخر كلمات رسالتها الصامتة التي تلقّاها كاملةً، فأخفضت وهج الشعلة، ورفعت الزجاجة، ونفخت على الفتيلة المحتضرة. قالت:

-إذا نفختُ على الفتيلة فلن تنتشر رائحة الدخان.

وقفت على عتبة الباب وانتظرت حتى جاء ليقبلها كما يفعل كل مساء.

الفصل السابع والعشرون

ذاعت في اليوم التالي أنباء مطمئنة في وول ستريت عن وضع بوفرت. لم تكن أخبـارًا مؤكَّدة لكنها تبعث على التفاؤل. فقد تهامس الناس أنه نجح فعلاً في كسـب دعم أكثـر القوى المحرّكة في السـوق تأثيرًا. وفي ذلك المسـاء، عندما ظهرت السيدة بوفرت في دار الأوبرا، وعلى وجهها ابتسامتها المعتادة وحول عنقها عقد جديد من الزمرد، تنفس الجميع الصعداء.

كانـت نيويـورك قاسـية صارمة في تجريمهـا لرجال الأعمال الذيـن يرتكبون مخالفـات في أعمالهـم، ولا تضـع اسـتثناءات لقاعدتهـا التي يخضع لهـا أهلها جميعًا، وهي أنه يجب على أولئك الذين يحيدون عن طريق الاستقامة أن ينالوا العقاب. والجميع على أتم اسـتعداد لتطبيق هذا الشرع على بوفرت وزوجته بـلا أدنـى تردد. لكـن هذا لا يعنـي أن إيقـاع العقاب لن يؤلمهـم ويضرهم، فاختفـاء بوفـرت مـن وسـطهم الاجتماعـي الضيـق المحدود سـيترك فجوة عميقـة، ومن كان منهم جاهـلاً بمدى فداحة الكارثة الأخلاقية أو غير مبالٍ بها انتحب مقدمًا على خسارة أفضل قاعة للرقص في نيويورك.

كان نيولاند قد عقد نيته على السـفر إلى واشـنطن، وما كان ينتظر سـوى بدء المرافعة في القضية التي حدّث ماي عنها كي يتوافق تاريخها مع تاريخ زيارته، غـير أنـه علم من السـيد ليتربلـير في يوم الثلاثـاء أن القضية قـد تؤجل لعدة أسـابيع. لكـن هـذا لم يثنه عن قراره، فقـد عاد إلى منزله في ذلك المسـاء وهو مصمم على السـفر في المسـاء التالي مهما كان الأمر. ثمة احتمال كبير ألا تعلم مـاي عـن تأجيـل القضية - إن أُجّلـت - فهي لا تعـرف أي شيء عن حياته المهنيـة ولم تبدِ اهتمامًا بها قط، وقد لا تتذكر أسـماء المتنازعَين إن ذُكرا أمامها. وهـو لا يسـتطيع عـلى أية حال أن يرجـئ رؤية مدام أولنسـكا أكثر من هذا، فثمة أمور كثيرة يجب أن يقولها لها.

في صبـاح يوم الأربعاء عندما وصل إلى مكتبه اسـتقبله السـيد ليتربلير بوجه

مهمـوم. يبدو أن بوفرت لم ينجح في تأمين الدعم المالي الذي سـوف ينتشـله من المأزق، لكنه نشر الشائعة التي تدّعي أنه حصل على هذا الدعم، فاطمأن المودعون وهمَتِ الإيداعات الطائلة في خزينة المصرف حتى مساء أمس حين ذاعـت الأقاويل المقلقة وطغت على أحاديث النـاس. وعليه فقد فُتح تحقيق في وضع المصرف المالي، وسوف تغلق أبوابه قبل أن ينتهي اليوم. نال بوفرت أقذع الشـتائم والاتهامات بسـبب مناورته الدنيئة، فإخفاقه الوشـيك سوف يكون أسوأ فضيحة في تاريخ وول ستريت.

شلّت قوة النكبة السيد ليتربلير، فاصفرّ وجهه وامتقع. قال لنيو لاند:

-لقد شـهدتُ مصائب في حياتي لكن لم أرَ مصيبة بهذه السـوء. كل شـخص نعرفه سـيتأثر فيهـا بطريقة أو بأخرى. وماذا سـيحل بالسـيدة بوفرت؟ وما بأيدينـا أن نفعلـه لأجلهـا؟ أنا أشـفق على السـيدة مينغت العجـوز أكثر من أي شـخص آخر، فلا أحد يسـتطيع التنبؤ بما سـيحل بامرأة مسنةٍ في عمرها عندمـا يبلغهـا الخبر. وهي التـي كانت معجبـة ببوفرت... بل إنهـا مدّت له يد الصداقة! ولا تنسَ أقرباءهما من أسرة دالاس. السـيدة بوفرت المسـكينة تربطها صلة القرابة بكل فرد من أسرتك. إن فرصتها الوحيدة في النجاة هي بترك زوجها... لكن كيف يجرؤ أي امرئ على أن يقترح عليها هذا الاقتراح؟ إن واجبهـا أن تظل إلى جانبه... ومن حسـن الطالع أنهـا تغض بصرها دومًا عن... نزواته الأخرى.

طُرق الباب فأدار السيد ليتربلير رأسه بحدة وقال:

-ما الأمر؟ لا أريد أن يزعجني أحد.

دخل أحد الموظفين يحمل رسـالة موجهةً إلى نيو لاند، رأى فيها الشـاب خط زوجته، ففتح الظرف وقرأ الرسالة:

«آمـل أن تأتي إلى منزل جدتي بأسرع مـا يمكن. أُصيبت جدتي بجلطة خفيفة ليلـة البارحـة بعد أن بلغها الخبر السيء عن المصرف بطريقة ما قبل أن يعرف الجميـع. خـالي لوفيل مسـافر في رحلة صيـد، وأخبار الفضيحـة أقلقت بابا

المسكين جدًا حتى أصيب بالحمى والتزم فراشه. تحتاج ماما إليك بشدّة. آمل أنك تستطيع ترك عملك في الحال، واللحاق بنا في منزل جدتي».

مدّ نيولاند الرسالة إلى شريكه المسنّ، وبعد بضع دقائق كان يركب عربة مزدحمة متجهًا إلى شمال المدينة، ثم نزل منها واستقلّ إحدى الحافلات المرتفعة في الشارع الرابع عشر، ووصل إلى منزل كاثرين العجوز بعد الساعة الثانية عشرة. عندما دخل حجرة الجلوس في الطابق الأرضي، وجد ابنتها السيدة ويلند تجلس بجوار النافذة التي كانت الجدة تتخذها مكانًا للجلوس على عرشها. عندما رأته حماته أومأت إليه مرحبةً بإنهاك، وقابلته ماي عند باب الحجرة. خيّمت ظلال قاتمة على المنزل؛ ظلال شبح المرض إذا حلّ بالمنازل العامرة. فالملاءات والفراء مكوّمات على الكراسي، وحقيبة الطبيب ومعطفه على الطاولة، وبجوارهما حزم رسائل وبطاقات لم تمسّها أي يد.

كانت ماي مبتسمة رغم شحوبها، فالدكتور بنكوم - في زيارته الثانية - بدا أكثر تفاؤلاً، كما أن تمسك الجدة العنيد بالحياة، وتصميمها على الشفاء رفع معنويات بقية أفراد الأسرة. قادت ماي نيولاند إلى حجرة جلوس السيدة العجوز حيث رأى أن الباب المنزلق المفضي إلى مخدعها قد أغلق، وأُسدلت فوقه ستارة الحرير المقصب الأصفر. هنا حكت له حماته في همسات متهدجة تفاصيل الأزمة. حسبما فهمتْ فإن أمرًا غامضًا مفزعًا حصل ليلة البارحة. فعند الساعة الثامنة، وبعد أن انتهت السيدة مينغت من لعب السوليتير كعادتها بعد طعام العشاء، دُقّ جرس الباب. وعندما فتح الخادم وجد امرأةً لا يعرفها تخفي وجهها تحت خمار سميك، تطلب أن يُؤذن لها بزيارة السيدة العجوز. عندما سمع الخادم صوتها عرف من تكون، ففتح باب حجرة جلوس سيدته، وقال: «حرم السيد جوليوس بوفرت»، ثم أغلق الباب وترك السيدتين لوحدهما. قال إنه يعتقد أنها مكثت لساعة تقريبًا، فعندما دقت السيدة مينغت الجرس لاستدعائه لم يجد السيدة بوفرت معها، فلابد إذًا أنها خرجت دون أن يراها أحد. كانت السيدة العجوز تجلس لوحدها على

كرسيها العملاق ممتقعة الوجه ومهتاجة، فأمرت خادمها أن يساعدها على الذهاب إلى حجرتها. كانت في تلك اللحظات حاضرة الذهن متحكمة في جسدها رغم استيائها الواضح. ساعدتها خادمتها الخلاسية على الاستلقاء على سريرها، وأحضرت لها كوبًا من الشاي كالعادة، ورتّبت كل شيء في الحجرة ثم غادرت. وعند الساعة الثالثة صباحًا سمع الخادمان جرس سيدتهما، فخفا إليها متعجبَين من استدعائهما في هذه الساعة (لأن كاثرين العجوز عادةً تنام نومًا عميقًا)، فوجدا سيدتهما مستندةً على وسائدها وعلى وجهها ابتسامة ملتوية، وإحدى يديها مرتخيةٌ تتدلى من ذراعها الضخم.

كان واضحًا أن الجلطة التي أصابتها ليست قوية، لأنها كانت تستطيع النطق وشرح ما تريد. وبعد زيارة الطبيب الأولى لها بدأت تستعيد التحكم بعضلات وجهها. لكن جزع أسرتها كان شديدًا بقدر شدة غضبهم عندما فهموا من عبارات السيدة مينغت المتقطّعة أن ريجينا بوفرت جاءت لتسألها بوقاحة لم ترها من قبل أن تساعد زوجها، وتشد من أزرهما في محنتهما - «وألا تتخلى عنهما» كما قالت - وأن تحث كل أفراد الأسرة على ستر احتيال زوجها الفظيع، والصفح عنه. حكت السيدة العجوز بعبارات متلعثمة همسًا في أذن ابنتها بصوت ثقيل: «قلت لها: هنا في منزل مانسون مينغت الشرف شرف والأمانة أمانة، وسيظلان قائمين إلى أن ترينني محمولة على النعش، وعندما قالت: «لكن اسمي يا خالة... أنا اسمي ريجينا دالاس»، أجبتها: «كان اسمك ريجينا بوفرت عندما غطّاكِ بالجواهر، ويجب أن يظل اسمكِ بوفرت الآن بعد أن جلّلكِ بالعار».

أنهت السيدة ويلند سردها بدموع ونحيب متألم، كانت مصفرّة الوجه منهارةً من هذا الخزي الذي لا مفر منه. ناحت المسكينة:

-يا ليتني أستطيع أن أخفي الأمر عن حماكَ. إنه دائمًا يقول لي: «أوغستا.. بالله عليكِ اتركيني في أوهامي»... كيف أحميه من معرفة هذه المصيبة؟

هوّنت عليها ابنتها فقالت:

-لن يُضطرّ إلى رؤيتها يا ماما.

تنهدت الأم وردت:
-أجل. آه... الحمد لله أنه آمن في فراشـه. وقد وعد الدكتور بنكوم بإبقائه في الفراش حتى تتحسن أمي المسكينة، وترحل ريجينا إلى مكان آخر.
جلس نيو لانـد بجانب النافـذة وحـدّق بنظرة جوفـاء في الحي الخـاوي. كان استدعاؤه مجرد طلب لتقديم الدعم المعنوي للسيدات المصدومات، لا لخدمة محـددة يقدمهـا لهن. لقـد أبرقوا للسـيد لوڤيل مينغـت، وبعثوا بسـعاةٍ محملين برسائل إلى أفراد الأسرة الذين يعيشون في نيويورك. فلا شيء يفعلونه الآن إلا التحدث بأصوات خافتة عن فضيحة بوفرت، وتصرف زوجته الذي لا يُغتفر.
انضمّت إليهم زوجة لوڤيل مينغت بعدما فرغت من كتابة الرسائل في حجرة أخرى، وأدلت بدلوها في المناقشـة. كانت السـيدتان الكبيرتان تقولان إن في زمنهـما لم يكن أمام زوجة الرجل الذي يرتكب ما يسيء إلى سـمعته في عمله إلا حلاً واحدًا؛ أن تتدارى عن الناس، وأن تختفي معه. قالت السيدة ويلند:
-هـذا ما حـدث مع جـدتي سـبايسر.. أم جدتك يا مـاي... كانـت متاعب جـدكِ الماليـة خاصـة طبعًا، إما أنـه خسر أموالـه في القمار أو كتب شـيكات بـدون رصيد.. وأنا لا أعرف بالضبط ماذا فعل، لأن جدتكِ لم تكن تتحدث عـن الأمر قط. لكنها نشـأت في الريف لأن أمها اضطـرت إلى ترك نيويورك بعد الفضيحة. كانتا تعيشـان بقرب نهر هدسون صيفًا وشتاءً لوحدهما حتى بلغت أمي السادسـة عـشرة. لم تكن جدتي لتجرؤ عـلى أن تطلب من أسرتها أن «تشـد من أزرهما» كـما تقول ريجينا! رغم أن تلك كانت مشـكلات مالية خاصة، ولا تُقارن أبدًا بفضيحة تدمّر حياة المئات من الأبرياء.
أيّدتها زوجة لوڤيل بقولها:
-هـذا صحيـح. الأولى أن تختفـي ريجينـا عـن النـاس بـدلاً مـن أن تطلـب مسـاعدتهم. سـمعتُ أن عقـد الزمرد الـذي ارتدتـه في الأوبرا يـوم الجمعة الماضيـة كان مُسـتعارًا من محـل «بول وبـلاك» للمجوهـرات في عصر اليوم عينه. هل يا ترى سيسترجعونه منها؟

أصغى نيولاند بأذن غير واعية إلى هذه «الاسطوانة المشروخة». كان مبدأ النزاهة المالية المتناهية مغروسًا فيه بعمق، فهو أول قاعدة من قواعد الرجل النبيل، ولا يمكن أن يتزعزع لأي اعتبارات عاطفية. فيمكن لمغامر مثل ليميول ستراثرز أن يجني ملايينه من ملمع حذاء بسبب بعض التعاملات المالية المشبوهة، لكن النزاهة التامة كانت شرطًا أساسيًا للتعاملات المادية لدى أفراد الطبقة الرفيعة في نيويورك القديمة. ولم يكن يعنيه مصير السيدة بوفرت كثيرًا. صحيح أنه يشفق عليها أكثر مما يشفق عليها أقرباؤها الساخطون، لكن برأيه أن الوثاق الذي يربط بين الزوج والزوجة - وإن كان لا بأس في حلّه في الرخاء - يجب ألا يُحل أبدًا في الشدة. فكما قال السيد ليتربلير إن مكان الزوجة هو بجوار زوجها في أوقات المحن. لكن المجتمع لا يقف إلى جانب بوفرت، وكون السيدة بوفرت تعتقد أن على المجتمع بأسره أن يقف معه فهذا يجعلها شريكة في ذنبه. إن قيام امرأة بالتماس المساعدة من أسرتها للتستر على تجاوزات زوجها في أعماله أمر غير مقبول البتة، لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي لن تساند الأسرة فيه أحد أفرادها أبدًا.

استدعت الخادمة الخلاسية زوجة لوفيل مينغت إلى البهو، ثم عادت الأخيرة بعد لحظات عاقدة الجبين.

-إنها تريدني أن أبرق إلى إيلين أولنسكا. لقد بعثتُ رسالةً إلى إيلين طبعًا وإلى ميدورا أيضًا، لكن يبدو أن هذا ليس كافيًا. أمرتني أن أبرق إليها فورًا، وأن أخبرها أن تأتي لوحدها.

تلقى الموجودون الخبر بصمت. تنهدت السيدة ويلند باستسلام، وقامت ماي من مقعدها لتجمع بعض الصحف المتناثرة على الأرض.

-أعتقد... أن عليّ أن أنفذ الأمر.

قالتها زوجة لوفيل بتردد كأنها تأمل أن يعارضها أحدهم، لكن ماي استدارت في منتصف الحجرة وقالت:

-طبعًا يجب أن ننفذ الأمر. إن جدتي تعرف ما تريد، ويجب أن نطيع رغباتها

كلها. أتحبين أن أكتب البرقية عنكِ يا خالتي؟ إن أرسلناها حالاً فربما تستطيع إيلين أن تأتي بالقطار في رحلة الصباح الباكر.

نطقت ماي اسمها وهي تشد على أحرفه بوضوح غريب، وكأنها تقرع جرسًا فضيًا مع كل حرف.

-لا يمكن أن نرسل البرقية حالاً. لقد خرج جاسبر والغلام كلاهما لإيصال الرسائل والبرقيات.

التفتت ماي إلى زوجها وابتسمت:

-لكن نيولاند هنا، وهو مستعد لفعل أي شيء. هل تسمح بإرسال البرقية يا نيولاند؟ هناك متسع من الوقت قبل موعد الغداء.

نهض نيولاند بادئ الاستعداد، فجلست زوجته على طاولة الكتابة المصنوعة من خشب الورد، وطفقت تكتب الرسالة بخطها الكبير غير المنسّق. نشّفت الحبر بعناية بعدما فرغت من الكتابة، وأعطت الورقة إلى نيولاند، ثم قالت:

-يا للأسف! يبدو أنك ستفوّت لقاء إيلين!

أضافت وهي تلتفت إلى أمها وزوجة خالها:

-طُلب من نيولاند أن يسافر إلى واشنطن ليتابع قضية براءة اختراع مرفوعة أمام المحكمة العليا. أعتقد أن خالي لوفيل سيعود ليلة الغد، وبما أن جدتي في تحسنٍ مستمرٍ فلا أرى سببًا يستدعي أن نطلب من نيولاند التغيب عن موعد مهم لعمله.. ألستُ محقة؟

سكتت تنتظر إجابة، فبادرت السيدة ويلند بالقول:

-طبعًا.. طبعًا يا عزيزتي. إن جدتكِ لن ترضى بغير ذلك.

سمع نيولاند وهو يخرج من الحجرة حماته تسأل زوجة أخيها:

-لكن أنا لا أفهم لماذا طلبت منكِ الإبراق إلى إيلين أولنسكا؟!

وسمع رد ماي بكل وضوح:

-ربما تريد أن تذكّرها مرة أخرى أن واجبها هو البقاء مع زوجها.

أُغلق الباب الخارجي خلف نيولاند، وسار بخطى حثيثة تجاه مكتب البرق.

الفصل الثامن والعشرون

«أولي... أول... كيف تتهجى هذا الاسم؟»

سألت الموظفة الشابة بجفاء بعد أن مدّ نيولاند إليها برقية زوجته من فوق رف الشبّاك النحاسي في مكتب (ويسترن يونيون) للبرق. استعاد الرسالة منها ليكتب الاسم الأجنبي بأحرف واضحة فوق خربشة يد ماي، وأعاد الاسم:

-أولنسكا. أو-لن-سكا.

علّق صوتٌ لم يتوقع نيولاند أن يسمعه:

-هذا الاسم غير مألوف في مكاتب البرق في نيويورك... أو في هذه الحي على الأقل.

وعندما استدار وجد أن لورنس ليفرتس واقف بجواره، وهو يفتل شاربه بهدوء ويحاول ألا يخفض بصره ليقرأ المكتوب في الرسالة.

-مرحبًا يا نيولاند. لقد علمتُ قبل قليل عن جلطة السيدة مينغت، وبينما أنا ذاهب إلى منزلها رأيتك تسير في هذا الشارع، فقررتُ اللحاق بك. أعتقد أنك أتيتَ من هناك؟

أومأ نيولاند برأسه إيجابًا، ثم دفع برقيته تحت الحاجز الحديدي. أردف ليفرتس:

-أحالتها بهذه السوء؟ أنت تبرق إلى أفراد الأسرة كما أظن. أعتقد أن الوضع لا ريب سيء جدًا إن كنتَ تبرق حتى إلى الكونتيسة أولنسكا.

أطبق نيولاند شفتيه من الغيظ، وانتابته رغبة همجية في أن يعاجل هذا الوجه الوسيم بلكمة من قبضة يده. سأله:

-لماذا؟

رفع ليفرتس الذي عُرف عنه أنه ينكل عن الجدال حاجبيه بسخرية متجهمة، قصد بها أن ينذر نيولاند من افتعال شجارٍ أمام الشابة التي تراقبهما خلف الحاجز. ذكّرته النظرة أن من عدم «الذوق» أن يظهر المرء غضبه في مكان

عـام. لم يكـن نيولاند في تلك اللحظـة عابئًا بأصول الـذوق، لكنه مع هذا لم يفعـل أي شيء لأن رغبتـه في إلحاق ضرر جسـدي بلورنـس ليفرتس كانت عابرة، كما أنه لم يستسـغ أن يُقذف باسـم إيلين أولنسـكا مع هذا الرجل وفي تلك الظروف، مهما كان الأمر مستفزًا. دفع أجرة البرقية وخرج الشابان معًا إلى الشارع، وقد نجح نيولاند في كبح جماح عصبيته، فبادره إلى الحديث:

-تحسّنت السيدة مينغت كثيرًا. والطبيب مطمئنٌ جدًا على وضعها.

أبـدى ليفرتس ابتهاجه الشـديد بهذه الأخبار، وسـأله إن كان قد سـمع عن الشائعات السيئة الجديدة التي انتشرت عن بوفرت...

***

نُشرت أخبار خسـارة بوفرت في كل صحف الظهـيرة، وغطّت على خبر إصابة السيدة مينغت بالجلطة، وقد عزا الجميع مرض كاثرين العجوز إلى تراكم الشحم وتزايد العمر، إلا القلة الذين كانوا على علمٍ بالرابطة الغامضة بين الحدثين.

خيّمت على سـماء نيويورك غيمة سـوداء جلبتها تصرفـات بوفرت المخزية. فكـما قال السـيد ليتربلير لم يكن في ذاكرته فضيحة أسـوأ مـن هذه، ولا حتى في زمن جده الذي أسـس الشركة وسـمّاها باسمه. كان المصرف قد استمرّ في قبـول الإيداعات المالية لمدة يوم كامل رغـم أن انهياره كانت حتميًا، وما زاد الطين بِلّة هو أن كثيرًا من عملائه كانوا من أسر نيويورك «الحاكمة». ولو أن السـيدة بوفرت لم تقل إن هذه الضائقة (كما سـمّتها) «هي امتحان يعرف فيه المرء مَن صديقه وَمن عدوه»، لنالت رحمة الناس وشفقتهم، ولخفّف هذا من سـورة غضبهم على زوجها. لكن تعجرفها وتبجّحهـا - خاصةً بعد أن علم النـاس بموضوع زيارتها الليلية للسـيدة مينغـت - جعلتهم يلقون عليها من اللـوم ما ألقوه عـلى زوجها وأكثر قليلاً، فهي لا تملك العذر الذي سـوّغ فيه البعـض أفعـال زوجها وهو أنـه «أجنبي». وقد التمس بعـض الناس (ممن لم تتأثر خزائنهم بهذه المصيبة) راحةً بتذكير أنفسـهم أنه ليس منهم، حتى خرج مـن أقربـاء زوجتـه أسرة دالاس في كارولاينا الجنوبية رجـلٌ وقف في صف

بوفرت، وتشدّق بكل حماقة «أنه سيقف على قدميه مرة أخرى قريبًا»، فاحتدم النقاش بين الناس وأسقط في أيديهم. فليس أمامهم سوى القبول بهذا الدليل البـيّن على أن الـزواج رابط قدسي بين الأسر لن ينحل أبدًا، وأنه يجب للحياة أن تسـتمر في المجتمع دون وجود بوفرت وزوجته فيها، وأنه لابد أن ينسـى الجميع ما حدث.. ما عدا طبعًا ضحاياه منكودي الحظ مثل ميدورا مانسون المسـكينة، والأختين لانـنـغ العجوزين، وغيرهن من السـيدات المخدوعات من أسرٍ كريمةٍ. يا ليتهن أطعن نصيحة السيد هنري ڤان دِر لويدن...

قالت السيدة آرتشر، كما لو كانت طبيبة تصف العلاج لمريضها:

-إن أفضـل شيء يفعلـه بوفرت وريجينا هـو أن ينتقلا للعيـش في منزل ريجينا الصغير في كارولاينا الشمالية. إن لبوفرت إسطبل خيول سباق هناك، والأجدر أن يبدأ بتربية أحصنة للسباق، ففيه كل الخصال المناسبة لتاجر الخيول.

وافـق الجميع على كلامها، لكن لم يهتم أي منهم بأن يسـأل ما الذي سـيفعله بوفرت وزوجته حقًا.

كانـت صحـة السـيدة مينغـت أفضل بكثـير في اليـوم التالي، فقد اسـتعادت صوتها بما يكفي لأن تأمر مَن حولها ألا يذكروا اسم بوفرت أو زوجته أمامها ثانيةً، وعندما عادها الدكتور بنكوم سـألته لماذا يثير أولادها كل هذه الضجة بسـبب وعكة بسـيطة. «وما الـذي يتوقعونـه إن أكلت امرأة مثلي وفي سـني سـلطة دجاج في العشاء؟!»، فقام الطبيب بتعديل نظامها الغذائي كما أرادت مما أحال الجلطة إلى عسر في الهضم.

لكن القوة التي دبّت في صوتها لم تعد إليها نظرتها السابقة إلى الحياة، فأحسّت بوخـزات الشـيخوخة وتقلـص اهتمامها بمتاعـب الآخريـن - وإن لم يُجتث تطفّلها على شـؤون جيرانها بشـكل كامل - وتناست كارثة بوفرت بسهولة. وقد استجدّ أمران فيها لم يكن لهما أثر في شخصيتها من قبل؛ أصبحت متعلّقة بمتابعة أعراضها المرضية، وأخذت تظهر اهتمامًا مشوبًا بالعاطفة ببعض أفراد أسرتها الذين لم تكن توليهم أي اهتمام من قبل. وقد نال السـيد ويلند تحديدًا

شرف اجتذاب انتباهها. فهو الوحيد من أزواج بناتها الذي كانت تتجاهله باستمرار، وكانت العجوز دائمًا تقابل محاولات ابنتها في تصوير زوجها على أنه رجل قوي الشخصية وأنه - لو أراد - لاستطاع بذكائه وثقافته أن يكون ذا شأن بضحكة سخرية واحتقار. لكن خبرته الطويلة في المرض والتمارض والخوف من الأدواء جعلته محط اهتمامها الشديد، فأصدرت السيدة مينغت أمرًا ملكيًا باستدعائه ليمثل أمامها كي يقارنا بين نظاميهما الغذائيين... فور شفائه من الحمى طبعًا. فكاثرين العجوز باتت الآن تدرك خطورة أي ارتفاع في درجة الحرارة وإن كان بسيطًا.

* * *

بعد مضي أربع وعشرين ساعة من إرسال البرقية إلى مدام أولنسكا، وصلت إليهم برقية تخبرهم بأنها سوف تصل من واشنطن في مساء اليوم التالي. كان نيولاند وزوجته مدعوّين لتناول الغداء في منزل أسرة ماي، وقد تناولوا بالنقاش مسألة استقبالها في محطة القطار في جيرزي ستي.[1] رأوا أن من المستحيل على السيدة ويلند الذهاب إلى جيرزي ستي لأنها سوف ترافق زوجها إلى منزل كاثرين العجوز في تلك الظهيرة، ولا تستطيع كذلك التخلي عن (البروم) لأن السيد ويلند قد «تنتكس حالته» عند رؤية حماته لأول مرة بعد إصابتها بالجلطة، ويحتاج إلى العودة إلى منزله في أية لحظة. أما ابناهما فسيكونان طبعًا مشغولين بأعمالهما في المدينة. والسيد لوڤيل مينغت سيكون في طريق عودته إلى المدينة بعد أن قطع رحلة الصيد، وستكون عربة أسرة مينغت في استقباله، وليس من المعقول أن يطلبوا من ماي أن تستقلّ العبّارة إلى جيرزي ستي لوحدها في آخر ساعات العصر في يوم شتائي، حتى لو كانت تركب عربتها الخاصة. ومع هذا فمن سوء الضيافة أن تصل مدام أولنسكا دون أن يكون في استقبالها في المحطة أي فرد من الأسرة، علاوةً

(١) مدينة تقع في ولاية نيوجيرزي، ولم يكن هناك محطة قطار تربط واشنطن بنيويورك مباشرة في ذلك الزمن.

على أن في هذا مخالفة لرغبات الجدة كاثرين. تذمّرت السيدة ويلند المسكينة في لحظة نادرة ثارت فيها على القدر وترتيباته:

-هذا ما نجنيه دائمًا من إيلين. كل شيء يتعلق بها معقد وصعب! إن الشيء الوحيد الذي يقنعني بأن ماما لم تستعد كامل صحتها كما يدّعي الدكتور بنكوم هي رغبتها العنيدة في رؤية إيلين على الفور، حتى لو لم يناسب لقاؤها بقية الأسرة.

كان كلامها مجرد تنفيس عن نوبة حنق مؤقتة، فهي لم تفكر مليًا بما قالته، ولكن زوجها انتفض في هلع عندما سمعها وشحب، فوضع شوكته على الطاولة وقال:

-أوغستا.. أترين حقًا أن الدكتور بنكوم طبيب لا يُعتمد على براعته؟ ألاحظتِ أي شيء يدل على إهماله في متابعته لحالتي أو حالة والدتكِ؟

عندها اصفرّ وجه السيدة ويلند وهي ترى عواقب زلة لسانها. فضحكت واقتطعت لنفسها قطعة ثانية من طبق المحار المطبوخ بالقشدة، ثم قالت بابتهاجها المصطنع:

-يا عزيزي... كيف يمكن أن تتصور ذلك؟ ما قصدته هو أن موقف والدتي بشأن واجب إيلين تجاه زوجها كان حاسمًا، فمن الغريب أن تعتريها هذه الرغبة المفاجئة في رؤيتها، مع أنها كانت تستطيع أن تطلب أيًا من أحفادها الآخرين... لكن يجب ألا تنسينا حيوية ماما ونشاطها أنها امرأة مسنة جدًا.

كان واضحًا من انزواء حاجبيّ السيد ويلند أن باله لم يهدأ، وأن خياله المضطرب تشبّث بجملتها الأخيرة. قال:

-صحيح. إن والدتكِ امرأة مسنة جدًا. وقد لا يكون بنكوم ماهرًا في علاج أمراض الشيخوخة، فهي سلسلة مستمرة من الأعراض والأمراض كما قلتِ، وقد أحتاج إلى البحث عن طبيب جديد بعد عشر أو خمس عشرة سنة من الآن. من الأفضل أن يتخذ المرء قراراته في هذه الأمور قبل أن تضطره الظروف أو تباغته.

وبعد أن توصّل السيد ويلند إلى هذا القرار العنتري، رفع شوكته برباطة جأش وتابع الأكل. فرغوا من الطعام واتجهوا إلى غرفة الجلوس الخلفية المفروشة

بأثاث ذي لونين أرجواني وأخضر تقودهم السيدة ويلند وهي تقول:
-أنا أحب أن يكون كل شيء معدًا قبل موعده بأربع وعشرين ساعة على الأقل، لكن ما زلتُ لا أعرف كيف ستصل إيلين إلى هنا مساء الغد؟
كان نيولاند يتمعن في النظر إلى لوحة صغيرة بإطارٍ ثماني الأضلاع من الأبنوس المرصّع بالعقيق تصوّر أسقفين في حالة عربدةٍ وثمالة. استدار بعد أن سمع كلام حماته، فاقترح وقلبه ينبض بقوة وسعادة:
-أتحبين أن أذهب لاستقبالها؟ يمكنني الخروج من عملي بسهولة. وتستطيع ماي أن ترسل عربتها (البروم) لأركبها في العبّارة.
تنهدّت السيدة ويلند بامتنان، واستدارت ماي من مكانها عند النافذة لتمنحه ابتسامة رضا وسرور، ثم مالت على والدتها تقبّل جبينها المتغضّن وقالت:
-أرأيتِ يا ماما؟ كل شيء سيكون معدًا قبل أربع وعشرين ساعة كما تحبين.

* * *

كانت عربة (البروم) الخاصة بماي تنتظرهما عند الباب، فهي ستُوصل زوجها إلى ميدان يونيون ليركب عربة أجرة توصله إلى الشركة. قالت بعد أن جلست في زاويتها:
-لم أشأ أن أقلق ماما بذكر عقبات أخرى، لكن كيف سيتسنى لك أن تقابل إيلين غدًا وتحضرها إلى نيويورك، وأنت ستسافر إلى واشنطن؟
-لن أسافر.
سألت بصوت معتدل النبرات، مفعم بالاهتمام الزوجي:
-لن تسافر؟ لماذا؟ ما الذي حدث؟
-أُلغيت القضية... أُرجئت.
-أُرجئت؟ غريبة! رأيتُ اليوم خطابًا بعثه السيد ليتربلير إلى ماما يذكر فيه أنه سيسافر إلى واشنطن غدًا من أجل قضية مهمة تتعلق ببراءة اختراع سوف يترافع بها أمام المحكمة العليا. قلتَ لي إن قضيتك قضية براءة اختراع، أليس كذلك؟
-وهذه... وهذه هي المشكلة، لا يمكن أن يسافر كل الموظفين. قرر ليتربلير

صباح اليوم أن يسافر.
-إذًا لم تُؤجّل القضية؟
شعر بالدماء تخضّب وجهه وأجاب:
-لا... لكن سفري هو الذي أُرجئ.
كان إلحاحها ليس من طبيعتها. لعن في خاطره المسوّغات التي قدّمها لها عندما أبلغها بعزمه على السفر إلى واشنطن، وحاول أن يتذكر أين قرأ العبارة التي تقول: «الكاذب الجيد يغذّي كذبته بالتفاصيل، لكن الكاذب الماهر يصمت». لقد انزعج عندما كذب عليها، لكنه تألّم وهو يراها تتظاهر بأنها لم تكشف كذبته.
أردف وهو يختبئ خلف قناع السخرية:
-سألحق به فيما بعد، وهذا من حسن حظ أسرتك.
أحس بعينيها مسلّطتين عليه وهو يتكلم، فأدار عينيه يقابل نظرتها كيلا تظن أنه يتحاشاها. التقت أعينهما لثانية، وفيها عرف كلٌّ منهما ما يدور في رأس الآخر حتى وإن لم يسألا.
ردت بانشراح:
-نعم... يا لحسن حظنا أنك ستقابل إيلين! لقد رأيتَ كم كانت ماما شاكرة لعرضك هذا.
-ويسعدني أن أقوم بذلك.
توقفت العربة وقفز خارجًا منها. مالت ماي ووضعت يدها على يده وقالت:
-مع السلامة يا حبيبي.
استدار وهو يفكر بأنه لم يرَ عينيها تلتمعان بزرقةٍ كهذه من قبل. أكان ذلك من أثر الدموع؟ قطع ميدان يونيون على قدميه وهو يكرر في داخله، كأنما هو يترنّم بالعبارة:
-ساعتان كاملتان بين جيرزي ستي ومنزل كاثرين العجوز... ساعتان كاملتان... ساعتان كاملتان وربما أكثر.

الفصل التاسع والعشرون

وجد نيولانـد عربة زوجته الزرقاء (التي لم تبهـت طبقة الورنيش من دهانها منـذ يـوم الزفاف) في انتظاره عند العبّارة، فنقلتـه إلى محطة القطار في جيرزي سـتي. كان الجو مثلجًا متجهمًا، ورغم أن الوقت عصر فإن المصابيح الغازيّة مضـاءةٌ داخـل المحطـة الضاجّة بالأصـوات والنـاس. أخذ يـذرع رصيف المحطة جيئةً وذهابًا في انتظار قطار واشـنطن السريع، وفكّر في أولئك الذين يظنـون أنه في يومٍ ما سـيكون هنـاك نفقٌ تحت نهر هدسـون تجري من خلاله القطـارات إلى نيويـورك مبـاشرةً. وهـذه إحـدى نبوءات الحالمـين أصحاب الرؤى الذين يتنبؤون كذلك ببناء سـفن تقطع عباب الأطلسي في خمسة أيام، واخـتراع المركبات الطائرة، والإنارة باسـتعمال الكهرباء، والتواصل الهاتفي بلا أسلاك، وغيرها من أعاجيب ألف ليلةٍ وليلة.

قـال نيولانـد في نفسـه: «لا يهمني تحقق أيّة رؤيـة من هذه، طالمـا أن النفق لم يُحفر بعد». وبفرح طفولي سـخيف تصوّر نزول مدام أولنسكا من المقطورة، ورؤيتها من مسـافةٍ بعيدة في غمرة الوجوه المطموسـة، وتعلقها بذراعه وهو يقودهـا إلى العربـة، واقتراب العربـة ببطء نحو رصيف المرفـأ ما بين الخيول العاديـات، والعربـات المحمّلـة بالبضائع، وزعيق السـائقين، ثم يأتي نقيض ذلـك... هـدوء العبّارة وجلوسـهما معًـا متجاورين في العربـة المتوقفة تحت غطاء الثلج، والأرض تميد بهما مذعنةً لأمواج البحر. كم هي كثيرة الأشـياء التـي يـود أن يبوح بها إليهـا، وبأي فصاحة ستتسـابق الكلمات أيها تخرج من فمه أولاً...

تناهـى إلى سـمعه هديـر القطار وصريـر عجلاته، وهـو يتهـادى مقتربًا من المحطـة بأنـاةٍ، كأنـه وحش يلج وكْـره وفمه مطبـق على آخر ضحايـاه. دفع نيولانـد الحشـد بمنكبه حتى اقترب مـن القطار، وحـدّق بنوافذ المقطورات

العالية الواحدة تلو الأخرى، فرأى فجأة وجه مدام أولنسكا الشاحب المندهش قريبًا منه، فعاد إليه ذاك الشعور المقيت بأنه نسي شكلها.

التقيا وتلاقت كفاهما، فتأبط ذراعها وقال:

-من هنا... العربة تنتظرنا.

أما ما حدث بعد هذا فكان كما تصور تمامًا. ساعدها على ركوب (البروم) مع حقائبها، ورغم أنه لم يتذكر فيما بعد ما قالاه فإنه يتذكر أنه طمأنها عن صحة جدتها، وأعطاها نبذة عما حصل لبوفرت (ولشد ما ذُهل عندما قالت بعذوبة: «مسكينة ريجينا!»). حملتهما العربة خارج المحطة، وشقت طريقها تجاه رصيف الميناء بحذرٍ بالغ فوق منحدرٍ زلق، تحاول اتّقاء شر عربات الفحم المترنّحة، والخيول المهتاجة، وعربة أخرى تحمل كفنًا خاويًا... ذلك الكفن! أغلقت عينيها بقوة عندما مر بجانبهما، وضغطت على يد نيولاند.

-أدعو الله ألا يكون هذا نذير شؤم... يا جدتي المسكينة...

-لا.. لا... إنها أحسن صدقيني... حالها أفضل بكثير. انظري... لقد ذهبت العربة.

وكأن تجاوز الكفن لعربتهما سينسيها رؤيته! ظلت يدها لاجئةً في كفه. وبينما العربة تندفع فوق اللوح الخشبي العريض الذي يصل رصيف الميناء بالعبّارة، انحنى نيولاند وفك أزرار قفازها البنيّ الضيق من كفها، ولثم راحة يدها رافعًا لها آيات التبجيل. سحبت يدها بابتسامةٍ واهنة. سألها:

-لم تتوقعي رؤيتي اليوم؟

-لا

-كنتُ سأذهب إلى واشنطن لأراكِ. وقد أعددتُ كل الترتيبات... كنتُ سأسافر في نفس موعد حضوركِ.

اتسعت عيناها في عجب، كما لو أن الخوف اعتراها بعد أن أدركت أنها كادت ألا تراه.

-أتعلمين... أكاد لا أتذكركِ.

-لا تتذكرني؟

-أعني... كيف أفسر لك هذا؟ أنا... في كل مرةٍ أقابلكِ أشعر دائمًا أنني أراكِ لأول مرة.

-أجل... أجل.. أعرف ما تقصده.

-وهل... أتشعرين مثلي... عندما ترينني؟

أومأت رأسها إيجابًا وهي تنظر من النافذة.

-إيلين... إيلين... إيلين..

لم تجبه فشـملهما الصمت. أخذ ينظـر إلى انعكاس وجهها المتموّج على زجاج نافذتها التي غطّاها الجليد. يا ترى كيف مضت عليها الشهور الأربعة الطويلة مذ التقيا؟ إنهما لا يعرفان عن بعضهما إلا القليل! أحس بالدقائق الثمينة تسير بسرعـة، لكنـه نسي كل شيء أراد أن يقوله لها، فلم يجـد غير أن يفكر مقهورًا بأحجيـة بعدهما واقترابهما، فها هما يجلسـان متجاوريـن لا يفصل بينهما شيء ومع هذا لا ينظران إلى بعضهما.

أشاحت وجهها فجأة عن النافذة وسألته:

-كم هي جميلة هذه العربة! أهي عربة ماي؟

-نعم.

-إذًا ماي هي التي أرسلتك لإحضاري؟ يا للطفها!

ظل صامتًا للحظة قبل أن يقول بحدة:

-جاء سكرتير زوجكِ ليراني بعد أن تقابلنا في بوسطن.

لم يذكر في رسـالته الموجزة إليها أي شيء عن زيارة مسيو ريڤيير، وكان ينوي أن يدفـن هذا الخبر في أعـماق صدره. لكن تذكيرها له بأنهـما في عربة زوجته استفزّه، فأراد أن يثأر منها. هل تحب أن يذكر أمامها ريڤيير كما تحب أن تذكر ماي أمامه؟! لكن كما حدث في كل المرات السـابقة عندما حاول أن يخرجها مـن سـكونها ويزعزع ثباتها، لم يبـدُ على وجهها أية أمـارات اندهاش. عرف عندئذٍ أن السكرتير على اتصال بها.

-جاءكَ مسيو ريڤيير ليقابلك؟

-نعم. ألم تعلمي بزيارته؟
-لا.
-أولستِ مندهشة؟
-لِمَ أندهش؟ لقد قال لي في بوسطن أنه يعرفك... أنه قابلك في لندن كما أتذكر.
-إيلين... يجب أن أسألكِ سؤالاً واحدًا.
-نعم؟
-أردتُ أن أسألكِ هذا السؤال بعد أن قابلته، لكني لم أستطع أن أكتبه في الرسالة. أكان مسيو ريڤيير هو الشخص الذي ساعدك على الابتعاد... عندما تركتِ زوجكِ؟
شعر بغصة خانقة في حلقه، وأن دقات قلبه تسارعت. أتراها ستجيب على هذا السؤال بنفس الثبات؟
قالت دون أدنى اضطراب في نبرة صوتها الهادئ:
-أجل. أنا مدينة له بالكثير.
كان لهدوء لهجتها ولامبالاتها في نفس نيولاند أثر الماء في النار المضطرمة. استطاعت مرة أخرى ببساطتها الخالصة أن تُشعره بأنه ما زال الرجل المكبّل بالتقاليد في الوقت الذي كان يظن أنه رمى أغلاله من النافذة. هتف نيولاند:
-أعتقد أني لم أقابل في حياتي امرأة أشد منكِ صدقًا!
أجابت وهي تبتسم:
-لستُ أصدقَ النساء، ولكني لا أنزعج بسهولة.
-سمّها كما تشائين. أنتِ تنظرين للأمور كما هي دون مبالغة.
-ليس باختياري... لقد نظرتُ إلى ميدوسا.
-لكنها لم تُعمكِ! بل رأيتِ أنها مجرد مسخ لا يضر.
-إنها لا تعمي بصر المرء، بل تنضب دموعه.[1]

(١) تحكي الأساطير الأغريقية أن ميدوسا امرأة قبيحة مخيفة بشعر من ثعابين، وأن من ينظر إليها يتحول إلى حجر، بخلاف ما قاله نيولاند بأنها تعمي عينيّ من ينظر إليها.

ألجمت كلماتها نيولاند، فلقد رأى أنها نطقتها من نبع تجارب يستحيل عليه بلوغه مهما حصل. كانت العبّارة تتقدم من المرفأ ببطءٍ إلى أن توقفت حركتها فارتطمت مقدمتها بالرصيف بعنفٍ جعل العربّة تتمايل، فطوّحت نيولاند ومدام أولنسكا فارتطما ببعضهما. أحسّ الشاب بكتفها يضرب صدره، فأحاطها بذراعه.

-إن لم تكوني عمياء فلابد إذًا أنكِ ترين أن هذا لن يستمر.

-ما الذي لن يستمر؟

-قربنا... وانفصالنا.

قالت بصوتٍ لم يكن صوتها:

--كلا. ما كان عليك القدوم اليوم.

ألقت مدام أولنسكا ذراعيها حول عنقه بغتةً، وقبّلته. في تلك اللحظة بدأت العربة تتحرك، وسطع ضوء مصباح الغاز في رأس الرصيف عليهما عبر النافذة. ابتعدت عنه وجلسا بصمت وسكون، بينما العربة تحاول الخروج من زحمة العربات المتجمّعة حول مرفأ العبّارة. وحالما خرجا إلى الشارع الرئيسي قال نيولاند بسرعة:

-لا تخافي مني... لا داعي لأن تحشري نفسكِ في زاويتكِ هكذا، فأنا لا أريد قبلات مختلسة. انظري... أنا لا أحاول حتى أن ألمس كُمّ معطفكِ. أرجو أن تعرفي أنني أتفهم الأسباب التي تدفعكِ إلى ألا ترخصي ما بيننا فتكون مجرد علاقة غرامية سرية. وأؤكد لكِ أن تفكيري كان مختلفًا أمس، لأن الشوق يستحوذ كل فكرة وكل خاطرة عندي عندما نكون مفترقين حتى تحترق جميعًا في لهب متّقد. ثم تحضرين... فأرى فيكِ بعيني أكثر مما أتذكر. وما أريده منكِ أكثر من ساعة أو اثنتين من حينٍ لآخر، وبين كل لقاء ولقاء ساعاتٌ طويلة من الانتظار المضني. أريد أن أجلس بلا أي حركة بجانبكِ كما أجلس الآن، وحلمي يحوم في عقلي وأنا واثق أنه سيتحقق.

مرت لحظات صمت قطعتها بسؤال مهموس:

-ماذا تقصد أنك واثق أنه سيتحقق؟
-أنت تعلمين أنه سيتحقق يومًا ما...
ضحكت فجأة ضحكة مريرة قاسية وقالت:
-حلمك بأن نكون معًا؟ ونِعمّ ما اخترتَ من مكان بأن تحكي حلمك لي هنا!
-أتقصدين لأننا في عربة زوجتي؟ أتحبين إذًا أن نخرج ونتمشّى؟ لا أظن أن قليلاً من الثلج سيضايقكِ..
ضحكت ثانيةً، لكن هذه المرة كانت ضحكتها ألطف. قالت:
-لا... لا أريد أن أخرج وأتمشّى، لأن ما يهمني هو أن أصل إلى جدتي بأسرع ما يمكن. وسوف تظل جالسًا بجواري، وسوف ننظر إلى الواقع لا إلى الأحلام.
-لا أعرف ماذا تعنين بالواقع. فالواقع الوحيد في نظري هو هذا.
لم ترد على كلماته وطال صمتها. سارت العربة في شارع جانبيّ غير معروف، ثم انعطفت إلى أضواء الجادّة الخامسة المرحبّة.
-أتقترح إذًا أن أعيش معك عشيقةً لك... بما أنني لا أستطيع أن أكون زوجتك؟
باغته فحش السؤال. كانت النسوة من طبقته يعرضن عن استعمال هذه الكلمة، حتى لو أنهن تحدثن عن الموضوع فإنهن لا ينطقنها. أما مدام أولنسكا فقد لاحظ أنها نطقتها كما لو أن للكلمة وقعٌ متكرر على لسانها، وتساءل إن كانت الكلمة قد قيلت بلا إحجام في حضرتها مرارًا في تلك الحياة الشنيعة التي فرّت منها. اعتدل في جلسته، وحاول أن يجمع شتات أفكاره:
-أريد... أريد أن أهرب معك بطريقةٍ ما إلى عالم لا توجد فيه هذه الكلمة... ولا هذه التصنيفات. عالم يضمّ شخصين يحبان بعضهما ولا حياة لهما عندما يفترقان، ولا شيء آخر يهمّهما في الدنيا.
أطلقت من صدرها زفرةً حارة انتهت بضحكة أخرى. سألته:
-آه.. يا عزيزي المسكين... أين يقع هذا البلد؟ أزرته من قبل؟ أعرف الكثيرين ممن حاولوا إيجاده، وصدقني كلهم نزلوا خطأً في محطاتٍ على

طريقهم، في أماكن مثل بولوني وبيزا ومونت كارلو، ولم تكن مختلفة أبدًا عن الأماكن التي رحلوا عنها، بل هي أصغر وأقذر وأكثر انحلالاً.

لم يسمعها تتحدث بهذه الطريقة قط، وتذكر العبارة التي قالتها قبل قليل:

-معكِ حق... يبدو أن ميدوسا أنضبت دموعكِ.

-لكنها فتحت عينيّ أيضًا. إن الخرافة تقول إنها تُعمي أبصار الناس، لكن الحقيقة هي العكس... إنها تلصق جفونهم بحواجبهم حتى لا ينعم الإنسان بعدها بالظلام. أليست هذه طريقة تعذيب صينية؟ إنها طريقة فعّالة. صدقني... إن البلد الذي تبحث عنه تعس فظيع.

قطعت العربة الشارع الثاني والأربعين، كان حصان عربة ماي القوي يشق الطرق شمالاً في سرعةٍ كأنه يسابق الريح. أحس نيولاند بغصة الدقائق الضائعة والكلمات الجوفاء تكتم أنفاسه. قال:

-إذًا ماذا تريدين أن تفعلي بنا؟

-بنا؟ لا يوجد (نا) تجمعنا نحن الاثنين! لا يمكن أن نكون قريبين إلا إذا ابتعدنا. عندها فقط نستطيع أن نكون على طبيعتنا... وإلا سنكون نيولاند آرتشر زوج قريبة إيلين أولنسكا، وإيلين أولنسكا قريبة زوجة نيولاند آرتشر، وهما يحاولان أن يصنعا سعادتهما من وراء أظهر الناس الذين منحوهما ثقتهم.

زمجر بغضب:

-لقد رأيت هذا الوضع، وسئمته.

قالت بصوتٍ غريب:

-لا، أنت لم تعش فيه ولم تره قط. أنا... أنا رأيته وأعرف ما الحياة التي ستعيشها هناك.

جلس صامتًا وهو يحس بأن ذهنه مشوش من الألم. تحسس حوله في ظلام العربة حتى وجد الجرس الصغير الذي يتواصل به مع سائق العربة. تذكر أن ماي تقرعه مرتين إن أرادت أن تأمره بالتوقف، فقرعه وتوقفت العربة بمحاذاة الرصيف. تعجبت مدام أولنسكا فهتفت:

-لماذا توقفنا؟ لم نصل منزل جدتي بعد!

-أعرف... سوف أنزل هنا.

فتح الباب وهو يتلعثم بكلماته، ثم وثب إلى الرصيف. رأى بنور مصباح الشارع وجهها المذهول، ويدها الممدودة لا شعوريًا كأنما لتبقيه في العربة. أغلق الباب ومال إليها عبر النافذة. قال بصوت منخفض كيلا يسمعه السائق:

-أنت محقة. ما كان يجب أن آتي اليوم.

مالت هي بدورها كأنها تريد أن تقول شيئًا، لكنه ابتعد وأمر السائق بمتابعة السير. أخذت العربة تبتعد أكثر فأكثر بينما هو متسمرٌ في مكانه في الزاوية. كان الثلج قد توقف وحل مكانه هبّات لاسعة من الرياح أخذت تلدغ وجهه. أحس فجأة بشيء باردٍ قاسٍ على أهدابه، فعرف أنه كان يبكي وأن الرياح قد جمّدت دموعه. حشر يديه في أعماق جيبيه، وحث خطاه في الناحية الأخرى من الجادّة الخامسة نحو منزله.

الفصل الثلاثون

نزل نيولاند في ذلك المساء إلى غرفة الجلوس قبل العشاء فألفاها خاوية. كان سيتناول طعام العشاء مع ماي لوحدهما بعد أن أُلغيت كل المناسبات الأسرية على إثر مرض الجدة مينغت. وقد فوجئ بأن ماي لم تسبقه إلى غرفة الجلوس لأنها كانت أكثر التزامًا منه بالمواعيد. كان متأكدًا أنها موجودة في المنزل لأنه سمعها تتحرك في غرفتها بينما كان يرتدي ملابسه. تساءل في نفسه ما الذي أخّرها.

أصبح التخمين والتكهن عادته التي يأنس بها ووسيلته في ربط أفكاره بأحداث الواقع. كان يشعر أحيانًا أنه حلّ لغز هوس حميه بتوافه الأمور... فلربما كان للسيد ويلند في زمانه أحلام وتصورات، فالتجأ إلى الاهتمام بصغائر الحياة ليبعد عن عقله هذه الأشباح.

جاءت ماي فقرأ على وجهها التعب والإرهاق. كانت ترتدي فستان العشاء ذا الدانتيل الضيق وفتحة الصدر المكشوفة الذي تفرض أحكام أسرة مينغت عليها ارتداءه في أقل المناسبات رسميةً، وكانت ترفع شعرها الأشقر في خصلات مجعّدةٍ فوق رأسها. أما وجهها فلم يناسب أناقتها، فقد كان ممتقعًا شاحب اللون. لكنها أقبلت عليه برقتها المعتادة وبعينين تلتمعان زرقةً وصفاءً. سألت ماي:

-ماذا حدث لك يا عزيزي؟ كنتُ أنتظركَ في منزل جدتي، لكن جاءت إيلين لوحدها وقالت إنك نزلت في مكان ما في الطريق إلينا لأن عملاً طارئًا استرعى انتباهك. أحدث شيء ما؟

-كنتُ قد نسيتُ كتابة بعض الخطابات، وأردتُ أن أنجزها قبل موعد العشاء.

قالت بعد لحظات:

-يؤسفني أنك لم تلحق بنا إلى منزل جدتي... إلا إذا كانت الخطابات عاجلة..

تعجب من نبرة الإلحاح في صوتها فرد:

-نعم، كانت عاجلة. ثم ما الذي يجعلني أذهب إلى منزل جدتكِ؟ فأنا لم أكن أعلم أنكِ هناك.

أدارت ماي ظهرها إليه، واتجهت نحو المرآة المعلّقة فوق رف المدفأة، ووقفت أمامها رافعةً ذراعها لتصلح خصلات سقطت من مكانها. لاحظ نيولاند لأول مرة البلادة والجمود اللذين يغلّفان تحركاتها، وسأل نفسه إن كانت رتابة حياتها المميتة تغتالها هي أيضًا. عندها تذكر أنها نادته من فوق السلم وهو يغادر المنزل في الصباح، وقالت له إنها ستنتظره في منزل جدتها كي يعودا إلى البيت معًا. وقد أجابها بمرح: «حاضر»، ثم انغمس في أحلامه ونسي وعده تمامًا. والآن ضرب الندم على قلبه، لكنه مع هذا تضايق من أنها تحسب ضده سهوة بسيطة كهذه بعد عامين تقريبًا من الزواج. كم سأم العيش في شهر عسلٍ بارد أزلي، في علاقة تلزمه بأن يكنّ في فؤاده مشاعر عميقة رغم أنها تحرمه من حرارة العواطف! لو أن ماي صرّحت بشكواها - وهو يظن أن لديها من الشكاوى الكثير - فلربما اتخذ الأمر هزوًا، لكنها تدربت على إخفاء جروحها المتخيلة وراء ابتسامة صابرة محتملة.

أراد أن يخفي تبرمه فسألها عن حال جدتها، أجابت أنها ما زالت في تحسنٍ، لولا أن آخر الأخبار عن بوفرت قد أقلقتها.

-أية أخبار؟

-يبدو أنهما سيبقيان في نيويورك. أعتقد أنه سيعمل في مجال التأمين أو شيء من هذا القبيل. إنهما يبحثان عن منزلٍ أصغر.

كانت استحالة الفكرة أكبر من أن يناقشها، فاتجها إلى طاولة الطعام لتناول العشاء، وكانا يتبادلان الحديث في موضوعات محصورة مملة، لكن نيولاند لاحظ أن زوجته لم تشر إلى مدام أولنسكا، ولا لاستقبال كاثرين العجوز لها ولو بكلمة. ورغم أنه كان ممتنًا لأنها لم تفعل فإنه أحس بأن هذا نذير شؤم، وإن لم يعرف السبب.

صعدا بعد العشاء إلى المكتبة لشرب القهوة، وأشعل نيولاند سيجارًا ثم سحب مجلدًا من أعمال ميشليه.[1] كان قد اتخذ قراءة كتب التاريخ في المساء عادةً له منذ بدأت ماي تطلب منه أن يقرأ لها بصوتٍ عالٍ كلما رأت معه ديوانًا شعريًا، وليس السبب هو أنه يكره سماع صوته ولكن لأنه كان يتنبأ بالتعليقات التي ستلقيها حول ما يقرأه قبل أن تقولها. كانت في أيام خطوبتهما - كما عرف الآن - تردد ما يقوله لها بلا تفكير، لكن مذ كفّ هو عن مشاركتها بآرائه طفقت تخاطر بتشكيل آراءٍ من عقلها، فكانت النتيجة أن دمّرت استمتاعه بالكتب التي تعلّق عليها.

رأت ماي أنه انتقى كتابًا في التاريخ، فجلبت سلة الحياكة وقرّبت كرسيًا من المصباح ذي الغطاء الأخضر، وأخرجت منها وسادةً كانت تطرّزها من أجل أريكته. لم تكن ماهرةً في التطريز وأشغال الإبرة، فيداها الكبيرتان خلقتا لامتطاء الخيول، والتجديف، وممارسة الرياضة، لكن كل الزوجات يطرّزن وسائد لأزواجهن، ولم ترد أن تُنقصَ من واجباتها الزوجية شيئًا.

كانت تجلس في مكانٍ يستطيع نيولاند بمجرد رفع عينيه عن كتابه أن يراها. وكانت منكفأة على إطار التطريز، وكماها المكشكشان ينزلقان عن ذراعيها المشدودين، وخاتم خطوبتها الياقوتي يلتمع في يدها اليسرى فوق دبلة الزواج الذهبية، أما يدها اليمنى فمشغولة بتسديد طعناتٍ متأنية دقيقة في أنحاء القماش. سرح وهو ينظر إلى جبينها الأملس تحت نور المصباح، ويقول في نفسه وهو يرتعد فرقًا أنه سوف يعرف دائمًا ما الأفكار التي تدور في رأسها، وأنها في كل سنينهما القادمة لن تفاجئه أبدًا بمزاجٍ غير متوقع، أو بفكرة جديدة، أو ببادرة ضعف، أو بتصرف قاسٍ، أو بشعورٍ عاطفي. لقد أنفقت كل ما فيها من رومانسية وشاعرية على أيام توددهما القصيرة، ولم يعد في المخزونِ شيءٌ لأن الحاجة انتفت. وهي الآن تتحول إلى نسخة من والدتها، وبطريقة غير مباشرة تحوّله إلى نسخة من أبيها. وضع كتابه ووقف

(١) جول ميشليه: من أبرز مؤرخي فرنسا

بضجر، فرفعت ماي رأسها فورًا.
-ما بك؟
-الغرفة خانقة... أحتاج إلى نسمة هواء.
كان قد أصرّ أن تكون ستارة المكتبة من النوع الذي يمكن تحريكه يمنةً ويسرةً بحلقاتٍ تتحرك على قضيب كي يتمكن من إغلاقها في المساء، لا كمثل ستائر حجرة الجلوس المثبّتة بالمسامير على الإفريز المذهّب، ولها طبقات متراكمة من الدانتيل لا يمكن تحريكها. أزاح الستارة ففتح النافذة، ومال ليملأ صدره بهواء الليل المثلج. إن مجرد إقصاء عينيه عن رؤية ماي الجالسة إلى طاولته مستنيرةً بنور مصباحه، والنظر إلى المنازل والأسقف والمداخن الأخرى، وتخيل حياة أناس آخرين يشاركونه هذه الدنيا، في مدنٍ غير نيويورك وفي عالم أوسع منها... كل هذا ساعده على تصفية ذهنه وتنقية صدره.
بعد أن أمضى بضع دقائق وهو يميل ملتمسًا الظلام، سمعها تقول:
-نيولاند! أغلق النافذة، وإلا ستموت من البرد!
أغلق النافذة واستدار إليها، وقال:
-سوف أموت؟!
أراد أن يكمل فيقول: "لكنني مت منذ زمن. أنا ميت... مت منذ أشهر طويلة".
ظلّ صدى الكلمة يتردد في عقله حتى تحول إلى فكرة جامحة. ماذا لو أنها هي التي ماتت؟! ماذا سيحدث لو أنها ماتت في وقت قريب وحررته من قيدها! كان ذلك هو الإحساس الذي غمره وهو واقف هناك، في تلك الغرفة الدافئة الأنيسة، ينظر إليها ويتمنى موتها... كان إحساسًا غريبًا جدًا، ومذهلاً جدًا، وقاهرًا جدًا، حتى إنه لم يدرك بشاعته في تلك اللحظة. كل ما شعر به هو أن الحظ قدّم له فرصةً جديدة تعلّقت بها روحه المريضة. أجل... قد تموت ماي. والناس يموتون كل يوم... شبابٌ، وأصحاء مثلها. قد تموت وتحرره فجأة.
رفعت رأسها تنظر إليه، فعرف من ذهول عينيها أنها رأت في عينيه شيئًا غريبًا.
-نيولاند! أأنت مريض؟

هز رأسه نافيًا واستدار راجعًا إلى كرسيه، فعادت تنكفئ على عملها. ولما مرّ بجانبها وضع يده على رأسها وقال:

-مسكينة أنت يا ماي.

قالت بضحكة متكلّفة:

-مسكينة؟ لماذا؟

أجاب وهو يضحك:

-لأنني لن أستطيع أن أفتح نافذة أبدًا إلا وأقلقتكِ.

صمتت قليلاً قبل أن تجيب بصوت منخفض جدًا، ورأسها منحنٍ على تطريزها:

-لن أقلق أبدًا إن كنتَ سعيدًا.

-آه يا عزيزتي... ولن أكون سعيدًا أبدًا إلا إذا فتحتُ النوافذ.

-في هذا الجو؟!

تنهد نيولاند ودفن رأسه بين دفتي كتابه.

* * *

مضت ستة أو سبعة أيام لم يصل نيولاند خلالها أي شيء من مدام أولنسكا، وعرف كذلك أن لا أحد من أفراد الأسرة سيذكر اسمها في حضوره. لم يحاول أيضًا أن يراها لأن هذا مستحيل مع ملازمتها جانب جدتها كاثرين العجوز قعيدة الفراش. ترك نفسه يسرح في ضبابية الموقف عالمًا أن تحت سطح أفكاره كانت هناك نيةٌ مبيّتة خطرت له عندما مال من نافذة مكتبته في تلك الليلة المثلجة. وكانت تلك النية من القوة والصلابة بحيث سهّلت عليه الانتظار بصبر.

وفي يومٍ أبلغته ماي أن السيدة مينغت طلبت أن تراه. لم يكن في طلبها ما يثير الاستغراب، فصحة السيدة العجوز في تحسنٍ مستمر، وهي دائمًا تصرّح بأنها تؤثر نيولاند على بقية أزواج حفيداتها. وقد أبلغته ماي باستدعائه بسعادة جلية، فهي فخورة بإعجاب جدتها كاثرين بزوجها. لم يجب نيولاند عليها فورًا. وعندما طال الصمت بينهما، أحس أن من واجبه أن يقول:

-حسنٌ... أتحبين أن نذهب معًا عصر اليوم؟
تهلل وجه زوجته وأجابت فورًا:
-من الأفضل أن تذهب لوحدك. إن جدتي تسأم من رؤية الأشخاص أنفسهم يومًا بعد يوم.
كان قلب نيولاند ينبض بعنف وهو يدق جرس منزل السيدة مينغت. كان يفضل فعلاً أن يذهب لوحده لأنه كان واثقًا أنه سيحظى بفرصة الاختلاء والحديث مع الكونتيسة أولنسكا. كان مصممًا في الأيام الماضية أن ينتظر إلى أن تدق الفرصة بابه بنفسها، وها هو الآن يدق باب المنزل كما أراد وتصور. وخلف هذا الباب، ووراء ستائر الحجرة ذات الحرير المقصب الأصفر على يمين الصالة لا ريب أنها تنتظره. وبعد لحظة سيراها، وسيتحدث معها قبل أن تقوده إلى غرفة الجدة المريضة. لم يكن يريد إلا أن يسألها سؤالاً واحدًا فقط، وبعدها سيتضح الطريق الذي سوف يسير فيه. كان يريد أن يسألها عن موعد عودتها إلى واشنطن، ولا يرى سببًا يجعلها ترفض الإجابة عن هذا السؤال.
لكن لم يكن ينتظره أحد في حجرة الجلوس الصفراء إلا الخادمة الخلاسية التي تلتمع أسنانها البيضاء كمفاتيح البيانو. أزاحت الباب المنزلق وقادته إلى مكان كاثرين العجوز. كانت الجدة تجلس على كرسي يشبه كرسي العرش بجوار سريرها، وبجانبها طاولة صغيرة من خشب الماهوغاني عليها مصباح نحاسي ذو كرة منقوشة، وفوقه غطاء ورقي أخضر اللون. لم يكن حولها كتاب ولا صحيفة، ولا أي أثر للأشياء التي تشغل النساء أنفسهن فيها عادةً، فالحديث هو متعة السيدة مينغت الوحيدة، وتظاهرها بالاهتمام بالتطريز وما شابهه فيه احتقار لنفسها.
لم يلحظ نيولاند أثرًا في وجهها للتشويه البسيط الذي نجم عن الجلطة. لم يلحظ إلا أنها شحبت قليلاً، وزادت الظلال الداكنة في ثنايا جسدها المتخم وانعطافاته. كانت تضع فوق رأسها قبعةً من القماش الخفيف مثبّتة بإحكام برباط معقود بين اثنين من ذقونها، ووشاح من الموسلين فوق قميصها

الأرجـواني الضخـم، فبدت كجـدةٍ حكيمة حنون، لا تملـك إرادة قوية أمام متع المائدة.

صافحته بإحدى يديها الصغيرتين التي تعشعشان في تجويف حُجرها الضخم كطائرين أليفين. ثم قالت للخادمة:

-لا تدعي أحدًا يزعجنا. وإن جاءت إحدى بناتي فقولي لها إنني نائمة.

اختفت الخادمة، والتفتت الجدة إلى الشـاب. سـألته بمـرح ويدها تفتش عن أطراف الوشاح فوق جسدها الضخم:

-أرأيـت كم أنا بشـعة يـا عزيزي؟ إن بنـاتي يقلن إن هذا لا يهم في سـني... وكأن القبح لا يهم طالما صعُب على المرء إخفاؤه!

أجابها نيولاند بالنبرة المرحة عينها:

-بل أنت أجمل من قبل يا عزيزتي!

ألقت الجدة رأسها إلى الوراء من شدة الضحك، ثم قالت وعيناها تبرقان بخبث:

-لكن لستُ بجمال إيلين!

أردفت قبل أن يجيب:

-ألم يسحرك جمالها في اليوم الذي أحضرتها فيه من العبّارة؟

ضحك نيولاند وتابعت الجدة:

-أهـذا مـا حـدث إذًا؟ أقلتَ لهـا أن جمالها سـحرك، فطردتك مـن العربة في منتصف الطريق؟ في شبابي لم يكن الشباب يتركون الحسناوات إلا إذا طُردوا!

قهقهت مرة أخرى ثم قطعت ضحكتها لتقول بنبرة تأنيب:

-وأسـفاه! يا ليتها تزوجتك مثلما نصحتها دائمًا. كان ذلك سيجنبني كل هذا القلق. لكن منذ متى يفكر الشخص في إراحة بال جدته؟

تساءل نيولاند إن كان المرض قد أثّر في عقلها إلا أنها سرعان ما قالت:

-لقد حُسـم الأمر على أية حال... سوف تبقى إيلين معي ولا يهمني ما رأي بقيـة الأسرة. ما كاد يمضي على وجودها خمس دقائق حتى توسـلتُ إليها أن تبقى هنا، ولو كنتُ أرى الأرض لجثوتُ على ركبتّي.

لم يقاطعها نيولاند بأية كلمة، فأكملت:
-لقد جادلوني كما تتخيل بالتأكيد، وحاولوا اقناعي... لوڤيل، ولِيتربلير، وأوغستا ويلند، وكل أفراد الأسرة. حاولوا اقناعي بأن أتمسك بموقفي وأحرمها من مخصصاتها، حتى تذعن وترى أن واجبها أن تعود إلى أولنسكي. ظنّوا أنهم أقنعوني عندما جاء ذاك السكرتير أو مهما كانت وظيفته ومعه آخر عرض. وأنا أعترف أن عرضه كان سخيًا. فمهما كان ما حدث، يظل الزواج زواجًا والمال مالاً... وكلاهما أمران مهمان... ولم أعرف بماذا أجيب.
توقفت عن الحديث وتنهدت بعمق، كما لو أن الكلام بات شاقًا عليها.
-لكن بمجرد أن وقعت عيناي عليها، قلت: «يا عصفورتي الجريحة! يريدون أن يحبسوكِ في ذاك القفص مرة ثانيةً؟! مستحيل!». والآن قد قُضي الأمر.. سوف تبقى هنا وترعى جدتها ما دامت جدتها على قيد الحياة. إنه ليس أمرًا مفرحًا لكنها لا تمانع، وقد أمرتُ ليتربلير طبعًا أن يصرف لها مخصصاتها بلا نقصان.
شعر الشاب بالدم يضطرم في عروقه وهو ينصت إليها، لكن تشوش ذهنه منعه من تمييز إحساسه؛ أهذه سعادة أم ألم؟ كان قد أتى عاقدًا العزم على السير في الطريق الذي اختاره، أما الآن فلم يستطع أن يرتب أفكاره. لكنه شعر فجأة بفرحة عظيمة وهو يرى العقبات أمامه تنحل، والفرص فجأة تُتاح. إن كانت إيلين قد وافقت على الانتقال للعيش مع جدتها، فلا ريب أن السبب هو إدراكها أنها لم تعد تستطيع التخلي عنه. هذه هي إجابتها عن مناشدته لها في ذلك اليوم، ولو أنها لم ترغب في أن تتخذ تلك الخطوة المتهورة التي رجاها أن تتخذها، فهي على الأقل قد قبلت أن تقدم له تسوية ترضيه. تراخى كتفاه براحةٍ لا مثيل لها؛ راحة الرجل الذي كان مستعدًا للمجازفة بكل ما يملك، فأُعطي فجأة الأمان.
هتف متعجبًا:
-لم يكن من الممكن أن ترجع إلى هناك... هذا مستحيل!
-آه يا عزيزي. كنتُ أعرف أنك في صفها دائمًا، ولهذا بعثت أطلب رؤيتك

اليوم. ولهذا أيضًا قلتُ لزوجتك الجميلة عندما اقترحتْ أن تأتي معك: «لا يا حبيبتي، أنا مشتاقة إلى رؤية نيولاند، ولا أود أن يشاركنا أحد الحديث». يجب أن تعلم يا عزيزي... (أرجعت العجوز رأسها إلى الوراء بقدر ما تسمح به طبقات الشحوم في رقبتها، ونظرت إلى عينيه دون أن يطرف لها جفن) يجب أن تعلم أن المعركة ما زالت أمامنا. فالعائلة لا تريدها هنا، وسوف يدّعون أنها تلاعبت بعواطفي لأنني مريضة، ولأنني عجوز واهنة. ولم أستعد كامل قوتي بعد لأحاربهم واحدًا تلو الآخر، فيجب أن تحاربهم أنتَ مكاني.

-أ... أنا؟!

-نعم... أنت. لمَ لا؟

رمته بالسؤال وعيناها المستديرتان ترشقانه بنظرات حادة كالخناجر. تحركت يدها من مسند كرسيها إلى يده، وتمسّكت به بأظافر صغيرة باهتة كمخالب طير. استفهمت منه ثانيةً:

-لمَ لا؟

استجمع نيولاند تحت ثقل نظرتها المثخنة شتات نفسه.

-لأن رأيي لا يُعتد به... أنا لستُ مهمًا.

-أنت شريك ليتربلير، أليس كذلك؟ يجب أن تؤثر فيهم عن طريق ليتربلير. إلا إن كان هناك سببًا يمنعك؟

-يا عزيزتي... أراهنكِ أن باستطاعتكِ التصدي لهم جميعًا دون مساعدتي، لكن إن احتجتِ إليّ فأنا تحت أمركِ.

-إذًا نحن في أمان.

زفرت الجدة وأسندت رأسها إلى الوسائد، ثم قالت وهي تبتسم بدهاء عتيد:

-كنتُ واثقة أنك ستكون في صفنا، لأنهم لا يذكرون اسمك أبدًا عندما يتحدثون عن واجبها في العودة إلى زوجها.

جزع قليلاً من فراستها المرعبة، وتمنّى أن يسألها: «وماي؟ أيذكرون اسمها؟»، لكنه ارتأى أن الأسلم هو تغيير السؤال.

-ومدام أولنسكا؟ متى سأراها؟

ضحكت السيدة العجوز ضحكة قصيرة وأغلقت عينيها بقوة، ثم قالت بمكر:

-لن تراها اليوم. لقد خرجت.

ظهرت خيبة الأمل على وجهه. تابعت الجدة:

-لقد خرجت صغيرتي بعربتي لزيارة ريجينا بوفرت. إن تأثير تلك الفتاة فيّ عظيم. بعد أن وصلتْ إلى هنا بيوم رأيتها تعتمر أفضل قلنسوة عندها، وقالت لي بكل وقار وثبات إنها ذاهبةٌ لزيارة ريجينا بوفرت. قلت لها: «أنا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم. مَن تكون؟» فقالت: «إنها إحدى حفيداتكِ. وهي امرأة تعيسة جدًا»، فقلت: «إنها زوجة ذلك السافل»، فأجابت: «وأنا مثلها زوجة رجل سافل، ومع هذا فإن أسرتي تريدني أن أرجع إليه». لقد أفحمتني بردها، فتركتها تذهب. وفي اليوم الذي يليه قالت إن السماء تمطر بغزارة ولا يمكن أن تسير على قدميها، وكانت تريدني أن أعيرها عربتي. سألتها: «لماذا؟»، فردّت: «سأذهب لزيارتي قريبتي ريجينا». تخيّل... قريبتي! ولّما نظرتُ من النافذة لم أرَ قطرة ماء تنزل من السماء، لكنني فهمت مقصدها وتركتها تأخذ العربة.... مهما كان فإن ريجينا امرأة شجاعة، وإيلين كذلك شجاعة. ولا شيء يعجبني أكثر من الشجاعة.

انحنى نيولاند ولثم يدها الصغيرة التي ما زالت تُمسك بيده. أطلقت العجوز ضحكتها الساخرة، وقالت:

-أوه! يدُ مَن أيها الشاب التي تظن أنك تقبلها؟ يد زوجتك كما آمل؟

وعندما نهض للخروج نادت من وراءه وقالت:

-بلّغها تحيات جدتها، لكن إياك أن تذكر لها شيئًا مما دار بيننا من حديث.

الفصل الحادي والثلاثون

اعترى الذهول نيولاند بعدما سمع تلك الأنباء من كاثرين العجوز. إنّ من الطبيعي أن تهرع مدام أولنسكا عائدةً من واشنطن استجابةً لاستدعاء جدتها، إلا أن قرار بقائها مع جدتها – خاصةً بعدما استعادت السيدة مينغت صحتها وقوتها – أمر يصعب تفسيره. كان واثقًا أن العوز المادي لم يكن العامل المؤثر في قرارها. فهو يعرف المبلغ الزهيد الذي يصرفه زوجها لها منذ افتراقهما، ويعرف أن مدخولها لن يكون كافيًا لمعيشتها – حسب تعريف المعيشة في قاموس أسرة مينغت – دون إضافة المبلغ الذي خصصته جدتها لمصروفاتها. والآن أصبحت ميدورا مانسون التي تشاركها حياتها معوزةً بعدما حدث، فيكاد هذا المدخول الضئيل لا يكفي ليقيم أود المرأتين أو يكسوهما.

ورغم هذا فإن نيولاند كان متأكدًا أن مدام أولنسكا لم تقبل عرض جدتها بالبقاء بسبب فائدة شخصية تجنيها. فهي تستطيع العيش دون أشياء كثيرة يعدّها أقرباؤها عصب الحياة، ففيها سخاء جمّ، ولامبالاة بالبذخ ولا بالمال لا يعرفهما إلا من أَلِفَ العيش في ثراء طائل. كانت زوجتا ويلند ولوفيل مينغت تردّدان دومًا باستهجان أن من ذاق متعة ترف الحياة في منازل الكونت أولنسكي يجب ألا يسأل من أين أتى المال. ولم ينسى نيولاند أن أشهرًا عديدة مضت منذ أن حرمتها جدتها من مخصصاتها، ومع ذلك فإنها لم تحاول استمالة عواطف جدتها على الإطلاق. ولذا فلا شك أن سببًا آخر دفعها إلى تغيير رأيها.

لم يكن هناك حاجة إلى إنهاك ذهنه في التفتيش عن هذا السبب. ففي طريق عودتهما من العبّارة كانت قد قالت له إن من واجبهما أن يفترقا، لكنها قالت ذلك وهي تسند رأسها إلى صدره. لم تكن تلك كلمات امرأة متغنّجة تتلاعب تلاعبًا مدروسًا بمشاعره، بل امرأة تحارب قدرها مثلما حارب قدره، وتحاول

التمسـك بما بقي في نفسـها من إرادة كيلا يخونا الأشخاص الذين وثقوا بهما. لكـن ربما شـعرت من صمته خلال الأيام العشرة التـي أمضتها في نيويورك، ومـن عدم محاولتـه أن يراها أنه يدرس في عقله خطوةً مـا؛ خطوة إن اتخذاها فـلا تراجـع بعدهـا أبـدًا. ولربما غشـيها خوف مـن ضعفها عندمـا خطر لها هـذا الخاطر، فـرأت أن مـن الأفضل أن ترضى بالمسـاومة المعتـادة في علاقة كعلاقتهما، وأن تتبع أسلم الطرق.

كان نيولانـد قد تصـوّر أن طريقه قد أصبح واضحًا أمامـه عندما رنّ جرس السـيدة مينغت قبل ساعة، وقد عزم على التحدث مع مدام أولنسكا بانفراد، وإن لم يتسـنَّ له رؤيتها فكان سيسـأل جدتها عن موعد عودتها إلى واشـنطن وفي أيـة رحلة بالتحديد. وكان سـينضم إليها في تلـك الرحلة وعلى متن ذاك القطار، ليرحل معها إلى واشـنطن، أو إلى أبعد مـكان تود الذهاب إليه. كان خيالـه يرحل به معها إلى اليابان، لكن هذا لا يهم. المهم هو أن تفهم أنه حيثما تذهب سيذهب معها. وكان سيترك لماي رسالة تجعل المضي قدمًا بخطته هذه أمرًا لا مناص عنه.

لم يجـد في نفسـه الشـجاعة على اتخاذ هـذه الخطوة الجريئة فحسـب، بل وجد تلهفًا وتحمسًا، ورغـم ذلك فإن أول إحساس داهمه عندما سمع أن خطّته قد تغـيّرت هو الارتياح. فكر الآن وهو يسـير إلى منزله عائدًا من منزل السـيدة مينغت أن في قلبه نفور عظيم من الطريق الوحيد الذي لم يُسـد أمامهما الآن. فهـو يعـرف هذا الطريق ويألـف مطباته، لكن عندما سـار عليه من قبل كان شابًا حرًا لا يحاسبه أحد على تصرفاته، ولا ضير عليه إن اشترك في هذه اللعبة باسـتمتاع المغامـر، وخـاض كل مراوغاتها، وكل ما تتطلّبه مـن تخفٍ وتمويه وانقيـاد وخضوع. هـذه اللعبة التي تحمل اسـم «صون شرف المـرأة» والتي اطّلع على أسرارها من بين صفحات أفضل الأعمال الأدبية، وخَبِر طرقها في شبابه من حديث كبار السن في أسرته في مجالس المتسامرين.

إنـه الآن يـرى اللعبة مـن منظور جديد، فعـرف أن دوره فيهـا كان معدومًا.

فكل ما كان عليه هو أن يراقب باستهتارٍ متواريًا السيدةَ راشوورث وهي تخدع زوجًا محبًا غافلاً بأكاذيب مستمرة متسللة بين الابتسامات والمزاح والضحك. كذبةٌ في النهار وكذبةٌ في الليل، كذبةٌ في كل لمسة وفي كل نظرة، كذبةٌ في كل مداعبة وفي كل خصام، كذبةٌ في كل كلمة وفي كل صمت.

إنّ خداع الزوجة لزوجها بهذه الطريقة أيسر وأقل وضاعةً، فالمجتمع يؤمن - ضِمنًا - أن معايير الصدق لدى النساء أدنى من الرجال؛ فالمرأة هي المخلوقة الخاضعة التي تعرف كيف تكون عبدةً مطواعة. وعندما تأتي فعلاً كهذا فهي تستطيع دائمًا أن تتذرع بنفسيتها أو أعصابها، ولها الحق في ألا يقسُ الناس في حكمهم عليها. حتى في أشد المجتمعات تحفظًا يكون الزوج دائمًا محط السخرية.

لكن في عالم نيولاند الصغير لا يسخر أحد من الزوجة المخدوعة، بل يلحق قدرٌ من الازدراء بالزوج الذي لا يكف عن علاقاته الغرامية بعد الزواج. فحياة المرء كالأرض التي يزرع فيها محاصيل شتى، وثمة موسم واحد فقط يطلق فيه العنان لشهواته، فيزرع ويقطف كما يشاء، لكن المهم هو ألا يتكرر هذا الموسم مرة ثانية.

وهذا هو المبدأ الذي يؤمن به نيولاند، ولهذا فهو يرى في قرارة نفسه أن ليفرتس رجل خسيس. لكن حبه لإيلين أولنسكا لا يعني أنه أصبح مثل ليفرتس. وجد نفسه ولأول مرة يواجه تلك الحجة المفزعة؛ حجة «نحن لسنا مثلهم». إن إيلين أولنسكا ليست كغيرها من النساء، وهو ليس كغيره من الرجال، ولهذا فحكايتهما لا تماثل حكاية أحد آخر، وليس لأحدٍ أن ينصب نفسه قاضيًا ليحكم عليهما.

أجل... لكن بعد عشر دقائق سيصل عتبة بابه، وستكون ماي في الداخل، ومعها العادات، والشرف، وكل الصفات الكريمة التي يتمسك بها أهله... ترددت خطواته عند الزاوية، ثم أكمل سيره في الجادّة الخامسة.

***

في تلك الليلة الشتائية، انتصب أمامه منزل كبير مظلم. اقترب منه وهو يتذكر كم مرةً رآه يضيء بالأنوار، مدخله مظلل وأرضه مفروشه بالسجاجيد، والعربات تنتظر في صفين لتقترب من رصيفه. ففي مشتل ذلك المنزل الذي يمتد بحجراته المظلمة على طول الشارع قبّل ماي لأول مرة، وعلى سناء شموع قاعة الرقص لمح طولها الفارع وبريقها، فذكّرته بديانا الصيّادة.

أما الآن فالمنزل مظلم موحش كأنه ضريح، ما خلا مصباحًا خبا وهجه في القبو، ونورًا في إحدى غرفات الطابق العلوي التي لم تُسدل ستائرها. وصل نيولاند إلى زاوية الطريق فرأى أن العربة الواقفة عند الباب هي عربة السيدة مينغت. لو أن سيلرتون جاكسون مرّ من هنا لوجدها فرصة لا تعوض ليحرّك ألسنة الناس بالحديث. صحيحٌ أن نيولاند قد أكبر في مدام أولنسكا حدبها على السيدة بوفرت كما حكت له كاثرين العجوز، لكنه يعلم جيدًا أية حكايات وهمية ستُنسجُ في النوادي وفي حجرات الجلوس حول زيارة إيلين أولنسكا لقريبتها.

توقف ونظر إلى النافذة المضيئة. لابد أن المرأتين جالستان معًا في تلك الغرفة، أما بوفرت فعلى الأرجح أنه خرج يفتش عن سلواه في مكان آخر. ثمة شائعات تدّعي أنه رحل عن نيويورك مع فاني رينغ، لكن وجود السيدة بوفرت يجعل هذه الشائعة بعيدة الاحتمال.

أسدل الليل غطاءه على الجادّة الخامسة، فلم يكن فيها في تلك الساعة إلا نيولاند لأن معظم الناس كانوا في منازلهم يتأهبون لتناول العشاء، فسُرَّ في دخيلة نفسه أن خروج إيلين لن يكون ملحوظًا. ما أن عبر هذا الخاطر فكره حتى فُتح الباب وخرجت هي منه، وخلفها ضوءٌ واهنٌ كأن أحدًا كان يقودها عبر السلم إلى الباب لينير لها الطريق. استدارت لتقول شيئًا لمن خلفها، ثم أُغلق الباب ونزلت الدرج. ناداها بصوت خفيض عندما وصلت الرصيف:

-إيلين.

توقفت وقد باغتها النداء، وفي تلك اللحظة رأى شبح شابين أنيقين يقتربان.

كان ثمة شيءٌ مألوف في لبسهما لمعطفيهما وطريقة التفاف شاليّ الحرير الأبيض الفاخر حول ربطتي عنقيهما البيضاوين، وتساءل ما الذي جعل شابين في هذه الأناقة يخرجان للعشاء في هذه الساعة المبكرة جدًا! عندها تذكر أن ريجي تشيڤرس الذي يسكن قريبًا من هنا كان يقيم حفلاً كبيرًا في ذلك المساء على شرف آديلايد نيلسون التي قامت بدور جولييت في مسرحية «روميو وجولييت»، وأن الاثنين لابد قاصدان ذلك الجمع. عبر الشبحان تحت مصباح الشارع، فرأى أنهما لورنس ليفرتس وشاب آخر من أسرة تشيڤرس. تبخرت أمنيته بألا يرى أحدٌ مدام أولنسكا عند باب بوفرت عندما شعر بدفء يدها. قال فجأة دون أن يعي ما يقول:

-سوف أراكِ الآن... سوف نكون معًا.

-أخبرتك جدتي؟

لاحظ أن ليفرتس ورفيقه وصلا إلى طرف الشارع المقابل، ثم تسللا بعيدًا عنهما وعن الجادّة الخامسة. كان هذا نوعًا من التضامن الذكوري الذي غالبًا ما مارسه هو عندما قابل رجالاً في موقف مثل موقفه، لكن تسترهما الآن أصابه بالغثيان. أكانت تتصور حقًا أنهما سيعيشان بهذه الطريقة؟ وإن لم يكن هذا تصورها، فما الذي تريده إذًا؟

قال بصوت تعجّبت أذناه من نبرة الغضب الذي تسللت إليه:

-يجب أن أراكِ غدًا... في مكان ما نكون فيه وحدنا.

-لكنني سأكون في منزل جدتي... في الوقت الراهن على الأقل.

أعاد عليها ملحًّا:

- في مكان ما نكون فيه وحدنا.

ضحكت ضحكة خفيفة أغاظته.

-في نيويورك؟ لكن لا توجد كنائس... ولا نصب تذكارية...

-في متحف الفنون سنلتقي... في سنترال بارك. في الثانية والنصف. سأنتظركِ عند الباب...

ركبت العربة بسرعة دون أن تجيب. ظنّ أنه رآها تلوح مودّعةً في الظلام بعد أن تحركت العربة، ولبث يحدق فيها والمشاعر المتضاربة تتصارع بداخله. لم يشعر أنه يتحدث مع المرأة التي يعشقها، بل مع امرأة يدين لها بأن منحته متعًا زائلة أقضّت مضجعه، وكم يكره أن يكون سجينًا لهذه الصورة المبتذلة! قال لنفسه باحتقار: «سوف تأتي».

***

تجنب نيولاند ومدام أولنسكا «مجموعة وولف» ولوحاتها القصصية الذائعة الصيت التي تملأ إحدى القاعات الرئيسية في معرض الميتروبوليتان للفنون. وكان المتحف نفسه غابة عجيبة من المشغولات الحديدية، والقاعات المغطاة بالسيراميك. عبرا ردهةً أوصلتهما إلى القاعة المهجورة التي تضم «آثار ساسنولا»[1] بلا زائر ولا معجب. انتبذا تلك القاعة الكئيبة، وجلسا على المقعد المجاور للتدفئة المركزية، وظلا ساهمين محدقين بالحجيرات الزجاجية المنتصبة فوق خشب الأبنوس التي تعرض الآثار المحطمة المستخرجة من أنقاض طروادة. قالت مدام أولنسكا:

-هذا غريب! لم آتِ إلى هنا من قبل.

-أعتقد أنه سيكون متحفًا عظيمًا يومًا ما.

-أجل.

نهضت وطفقت تجول في أرجاء القاعة، فأخذ نيولاند يراقب من مكانه حركاتها الناعمة الفتيّة رغم طبقات الفراء الثقيلة التي تغطيها، وريشة مالك الحزين المثبّتة ببراعة في قبعتها، والخصلتين المعقوفتين من شعرها الداكن اللتين تلتصقان بخديها فوق الأذنين. استحوذت تفاصيلها الفاتنة التي تجعلها مختلفة عن بقية النساء على عقله ككل مرة يلتقيها. قام واقترب من الخزانة التي تقف أمامها. تجمّعت على أرففها الزجاجية آثار صغيرة مكسورة من أوانٍ منزلية، وتحف، ومقتنياتٍ شخصية غير واضحة المعالم مصنوعة من

(١) مجموعة من الآثار القبرصية القديمة التي نقّب عنها عالم الآثار الإيطالي لويجي ساسنولا

الزجاج، ومن الصلصـال، ومن البرونز حائل اللون، وغيرها من المواد التي سرق الزمان اسمها من عقول البشر.

قالت:

-أليس من القسـوة أن تفقد الأشـياء أهميتها بعد حين؟ كهذه الأشـياء الصغيرة التـي كانـت في زمنٍ ما مهمة وضرورية لأناس منسـيين، والآن نحاول نحن أن نخمّن ماذا تكون تحت العدسة المكبرة، ونضع عليها عبارة «مجهولة الاستخدام».

-أجل، لكن حتى ذلك الحين...

-حتى ذلك الحين...

وقفـت بمعطفهـا الطويل من جلد الفقمـة، ويداها مختبئتـان بمُدفِّئة اليدين، ووجههـا مغطـى بخـمارٍ يصل إلى طـرف أنفها يشـبه القناع الشـفاف، وباقة أزهار البنفسج التي أحضرها لها تتمايل مع أنفاسها المتلاحقة، فتعجّب كيف لأعجوبة اللون والحُسن المتناغمة أن تخضع لقانون التغير المتعسّف. قال:

-حتى ذلك الحين، كل شيء يهم... كل شيء يخصكِ يهم.

تفرّسـت فيـه للحظة ثـم اسـتدارت لتعود إلى المقعـد. جلس هـو إلى جانبها وانتظـر، غير أن صوت خطـواتٍ بعيدة في أقصى القاعـات الخالية تناهى إلى سـمعه، فأحس بتلاحق الدقائق وسرعة جريها. سـألت وكأن أذنها التقطت الإنذار ذاته:

-ماذا كنتَ تريد أن تخبرني؟

-ماذا أردتُ أن أخبركِ؟ أردتُ أن أخبركِ أنني أعتقد أنكِ جئتِ إلى نيويورك لأنكِ خائفة.

-خائفة؟

-من مجيئي إلى واشنطن.

أخفضت بصرها إلى مُدفِّئة يديها، ورأى أنها تحركهما بقلق.

-أجل.

-كنتِ خائفة حقًا! عرفتِ...

-أجل، كنتُ أعرف... والوضع أفضل الآن، أليس كذلك؟
-أفضل؟
-سيكون جرحنا للآخرين أخف. أليس هذا ما أردتَه دائمًا؟
-أتقصدين... بوجودكِ هنا؟ قريبة مني وبعيدة عني في الوقت نفسه؟ أن ألقاكِ بهذه الطريقة خفيةً؟ إن هذا هو خلاف ما أريده تمامًا. قلتُ لكِ ما أريده.
ترددت قليلاً ثم سألته:
-إذًا... أنتَ ترى أن هذا... أسوأ؟
-أسوأ بألف مرة. من الأسهل أن أكذب عليكِ، لكن الحقيقة أنني أكره هذا الوضع.
هتفت بارتياح شديد:
-وأنا أيضًا!
هب واقفًا بنفاد صبرٍ وقال:
-إذًا... حان دوري لأسألكِ: ما الذي ترينه أفضل بالله عليكِ؟
نكست رأسها وظلت تعتصر يديها تحت مُدفِّئتها. اقتربت الخطوات وظهر حارس بزيه الرسمي، وأخذ يطوف بتمهلٍ في أنحاء القاعة كشبح يتجول في مدينة أموات. سارع الاثنان في آن واحدٍ في النظر إلى ما هو معروض أمامهما، وعندما اختفى الموظف بين المومياءات والنواويس، تكلّم نيولاند:
-ما الأفضل برأيكِ؟
-وعدتُ جدتي بالبقاء معها لأنني رأيتُ أنني أكثر أمانًا هنا.
-آمنة مني؟
أخفضت وجهها دون أن تنظر إليه.
-آمنة من حبكِ لي؟
لم يتحرك فيها شيءٌ، غير دمعةٍ فرّت من بين أهدابها وتعلّقت بين خيوط خمارها. قالت:
-آمنة من ارتكاب ضرر لا يمكن إصلاحه. لا تجعلنا مثل الآخرين!
-أي آخرين؟ أنا لا أدعي أنني مختلفٌ عن بقية الرجال... فلي مثل رغباتهم

ومطامعهم.
نظرت إليه جافلةً، وقد تورّد خداها. ثم قالت بصوت واضح:
-أتريد إذًا أن أمنحك لقاءً واحدًا ثم أعود إلى بيتي؟
تصاعدت الدماء إلى وجه الشاب. أحس بأنها تمسك قلبه في قبضة يدها، مثل الكأس الممتلئ الذي ينضح من أخف حركة. لكن فجأة وقعت كلمتها الأخيرة على مسمعه واكفهرّ وجهه. سألها:
-تعودين إلى بيتكِ؟ ماذا تقصدين؟
-أعود إلى بيت زوجي.
-أتتوقعين أن أقول: نعم عودي؟
رفعت عينيها المحتارتين إليه وقالت:
-وماذا بقي إذًا لأفعله؟ لا يمكنني البقاء هنا وخداع الأشخاص الذين أكرموني.
-وهذا هو السبب الذي يجعلني أطلب منكِ أن نرحل!
-أرحل معك فأدمّر حياتهم؟ وهم لم يفعلوا شيئًا غير مساعدتي على استعادة حياتي؟!
نهض نيولاند بحنق وأخذ ينظر إليها بيأس كظيم. سيكون من الأسهل أن يقول: «أجل... فلتمنحيني لقاءً واحدًا»، وكان يدرك مدى القوة التي ستضعها بين يديه إن هي وافقت، ولن يجد صعوبةً بعدها في إقناعها ألا تعود إلى زوجها.
لكن شيئًا يجهله كمم فاه. هذا الصدق البالغ الذي لمسه فيها جعل من المحال أن يجتذبها إلى ذلك الفخ المعروف. قال في نفسه: «لو أخذت منها لقاءً واحدًا، فيجب أن أدعها ترحل من جديد». وهذا أمر يستحيل أن يحتمله. لكنه رأى فيء رموشها على خدها المبتل وتردد.
-كلانا يعيش حياةً مرسومةً له، ولا طائل من محاولة تحقيق المستحيل. أنتِ امرأة متفتحة العقل، ورأيتِ من الحياة ما رأيتِ، بل نظرتِ إلى ميدوسا كما تقولين، فلا أدري لمَ أنتِ خائفة من مواجهة مسألتنا، والتعامل معها كما هي... إلا إذا كنتِ ترين أننا لا نستحق التضحية.

وقفت هي بدورها وشفتاها مضمومتان وحاجباها معقودان. أخرجت ساعتها الصغيرة من جيبها وقالت:

-سمِّها ما تشاء... يجب أن أذهب.

أدارت ظهرها، فلحق بها وأمسك معصمها. قال وقد تملّكه الرعب من فقدانها:

-حسنٌ إذًا... امنحيني لقاءً واحدًا.

نظرا إلى بعضهما لثانيةٍ أو اثنتين كأنهما عدوّان. قال:

-متى؟ غدًا؟

ترددت ثم قطعت أمرها:

-لا. اليوم الذي يليه.

-يا حبيبتي!

حررّت معصمها من بين أصابعه، لكنهما لبثا ينظران إلى بعضهما، فرأى أن وجهها الذي كان ممتقعًا بالغَ الشحوب قبل قليل، قد غمره إشراقٌ وبهجة عميقة. تسارعت نبضات قلبه إجلالاً لهذا الجمال. لم يرَ الحب متجسدًا كما يراه الآن.

هتفت وهي تحث خطاها عبر القاعة الطويلة:

-سوف أتأخر... مع السلامة. لا... لا تقترب أكثر من هذا.

كأنما رأت انعكاس الإشراق في عينيه فوجلت. وعندما وصلت الباب، استدارت ولوّحت له مودّعةً.

***

سار نيولاند متجهًا إلى منزله لوحده، وكان الظلام قد حلّ وهو يدخل منزله. جالت عيناه تمسح البهو وكل ما فيه، كأنه قد وصل لتوه من رحلةٍ في عالمٍ غير هذا العالم. يبدو أن الخادمة قد سمعت خطواته لأنها ركضت تصعد السلم تسبقه لتضيء المصابيح في طريقه.

-هل السيدة آرتشر موجودة؟

-لا يا سيدي. ذهبت السيدة آرتشر بالعربة بعد تناول الغداء، ولم تعد بعد.

شعر بالارتياح، فدخل المكتبة وجلس على مقعده. لحقت الخادمة به ومعها المصباح، وألقت بقطعٍ من الفحم على النار الخابئة، ثم خرجت. ظل نيولاند مسندًا كوعيه إلى ركبتيه، وذقنه إلى أصابعه المتشابكة، وعيناه تنظران إلى المدفأة الحمراء. كان جالسًا بسكون تام، لا أفكار تحوم في ذهنه، ولا دقائق تجري في الزمن. جالسٌ في انذهال شديد أمسك الحياة عن الدوران بدلاً من أن يدفعها إلى الإسراع. أخذ يردد في نفسه: «هذا ما يجب أن يحدث... هذا ما يجب أن يحدث»، كأن يد الهلاك تمسك بتلابيبه. كان ما حلم به يختلف اختلافًا شاسعًا عما جرى، حتى إنه شعر ببرودة قاتلة تتسلل إلى فرحته.
فُتح الباب ودخلت ماي. سألته وهي تمرر يدها على كتفه في ملاطفة نادرة:
-لقد تأخرتُ كثيرًا... هل أقلقك غيابي؟
نظر إليها مندهشًا:
-هل الوقت متأخر؟
-تجاوزت الساعة السابعة. ربما أخذتك سنة من النوم!
ضحكت وسحبت دبابيس قبعتها المخملية ثم رمتها على الأريكة. كانت رغم شحوبها تكاد تثب من مكانها حيويةً وبريقًا.
-ذهبتُ لأزور جدتي، وعندما هممتُ بالعودة إلى هنا، عادت إيلين من نزهتها، فبقيت وأخذنا الحديث. مرّ زمن طويل منذ أن تحدثنا بصراحة هكذا.
جلست على مقعدها المعتاد المواجه لمقعده، ومسّدت شعرها بأصابعها. أحس أنها تنتظر منه أن يتكلم. تابعت حديثها باهتمام شعر نيولاند أنه غير طبيعي:
-كان حديثًا طويلاً وممتعًا. شعرتُ أنها إيلين التي أعرفها وأحبها... لم أكن منصفةً في حقها مؤخرًا. ظننتُ أحيانًا...
نهض نيولاند وانحنى على رف المدفأة بعيدًا عن نور المصباح. كرر كلمتها عندما توقفت عن الحديث:
-نعم، ظننتِ...؟
-ربما أكون قد ظلمتها. إنها مختلفة جدًا... أو أنها تبدو كذلك. إنها تخالط أناسًا

غريبين، ولا يهمها ما يُقال عنها. ربما كان هذا تأثير الحياة الأوروبية السريعة التي عاشتها، ولا شك أنها تجد الملل في وسطنا. لكنني لا أريد أن أظلمها.

سكتت وهي تلهث قليلاً من طول حديثها غير المعتاد، وقد تورّد خداها بلونٍ قانٍ وانفرجت شفتاها قليلاً. ذكّره منظرها بالإشراق الذي طلّ من وجهها في حديقة الإرسالية في ساينت أوغسطين، وشعر بأنها تبذل مجهودًا للوصول إلى هدف ما لا يقع في محيط بصرها. قال في نفسه: «إنها تكره إيلين، لكنها تحاول أن تتغلب على هذا الشعور، وتحاول أن تجعلني أساعدها على الانتصار عليه». أحس بالشفقة عليها حتى كاد أن يحطّم الصمت الدائم الحائل بينهما، وأن يرمي نفسه تحت رحمتها. تابعت ماي كلامها:

-أنت تتفهم ولا شك سبب انزعاج الأسرة منها أحيانًا. لقد فعلنا كل ما بوسعنا من أجلها في البداية، لكن يبدو أنها لم تفهم. والآن أصبحت تزور السيدة بوفرت... وتذهب إليها في عربة جدتي! لا ريب أنها أفسدت العلاقة بينها وبين السيد ڤان دِر لويدن وزوجته...

ضحك نيولاند ضحكة محبطة. كان الباب بينهما مفتوحًا ثم أُوصد بغتةً. ابتعد عن المدفأة وسألها:

-حان الوقت لتغيير ملابسنا، ألن نتعشى في الخارج؟

وقفت ماي لكنها لم تبتعد عن مقعدها، وعندما مرّ بجوارها تحركت فجأة أمامه كأنها تريد إيقافه. التقت عيناهما، ورأى أن عينيها تلتمعان بتلك الزرقة التي رآها عندما غادرها للذهاب إلى جيرزي ستي. أحاطت عنقه بذراعيها وألصقت خدها بخده. همست وهي ترتعش بين ذراعيه:

-نسيتَ أن تقبلني اليوم.

الفصل الثاني والثلاثون

قال السيد سيلرتون جاكسون مبتسمًا يستعيد ذكرياته:

-في قصر التويلري، كانوا يتعاملون مع هذه الأمور بانفتاح وبلا خجل.

أما المكان فهو حجرة الطعام ذات الأثاث المصنوع من خشب الجوز الأسود في منزل ڤان دِر لويدن في جادّة ماديسون، أما الزمان فهو المساء الذي عقب زيارة نيولاند إلى متحف الفنون. قد رجع السيد ڤان دِر لويدن وزوجته إلى المدينة لبضعة أيام من عزبتهما في سكويتركليف التي فرّا إليها فجأةً فور إعلان نبأ فضيحة بوفرت، إلى أن قيل لهما أن التشتت والانفصام الذي وقع في المجتمع على إثر هذا الموضوع الشائن يجعل حاجة المدينة إلى وجودهما أشد من ذي قبل. فهذا هو أحد الأوقات التي - كما قالت السيدة آرتشر لهما - يجب عليهما فيه أن «يردا دينهما إلى المجتمع» بأن يظهرا في دار الأوبرا، بل وأن يفتحا بابهما للضيوف.

-لا يصح يا عزيزتي لويزا أن ندع الحبل على الغارب، فيظن أولئك من أمثال السيدة ستراثرز أن بإمكانهم احتلال مكان ريجينا. فهذه هذه الأوقات التي يستغلّها الأناس الجدد ليقحموا أنفسهم، ويستحدثوا لأنفسهم مكانًا. وعندما انتشر وباء جدري الماء في نيويورك في الشتاء الذي حلّت فيه السيدة ستراثرز في المدينة، كان الرجال المتزوجون يتسللون إلى منزلها، بينما زوجاتهن يرعين الأطفال! يجب أن تسدّي أنتِ وهنري الشرخ كما تفعلان دومًا.

لم يستطع السيد ڤان دِر لويدن وزوجته أن يصمّا أذنيهما عن نداء الواجب، فعادا متردِدَين مضحيَين إلى المدينة، وفتحا منزلهما، وأرسلا الدعوات إلى أفراد المجتمع لحضور حفلتي عشاء، وحفل استقبال.

وفي ذلك المساء، كانا قد دعوا السيد سيلرتون جاكسون، والسيدة آرتشر، ونيولاند وزوجته للذهاب بمعيّتهما إلى دار الأوبرا، حيث ستُغنّى مسرحية «فاوست» للمرة الأولى في ذلك الشتاء. ولأن لا شيء يتم تحت سقف ڤان دِر لويدن دون مراسم فاخرة، فقد بدأوا يتناولون الطعام مبكرًا عند السابعة تمامًا، كيلا يستعجل الخدم في تقديم الأطباق المتلاحقة (رغم أن الضيوف أربعة

فحسب)، وكي يتبقى من الوقت ما يتيح للرجال الاستمتاع بتدخين سيجاراتهم. لم يرَ نيولاند زوجته منذ مساء أمس، فقد غادر إلى الشركة في الصباح الباكر حيث انهمك في أداء أعمالٍ غير مهمة. وفي العصر زاره أحد الشركاء الرئيسيين على حين غرة، فلم يصل إلى المنزل إلا متأخرًا، فكانت ماي قد سبقته إلى منزل ڤان دِر لويدن، ثم أرسلت العربة إليه لتقلّه. وهو يراها الآن وبينهما طاولةٌ عامرةٌ بأزهار القرنفل من سكويتركليف وأطباق الطعام الضخمة، فرآها شاحبة ذابلة رغم بريق عينيها وحديثها المطعّم بالإيماءات المسرفة.

أما موضوع النقاش على المائدة فقد أثارته مضيفتهم - عمدًا كما يظن نيولاند - وهو ما هيّج الذكريات في نفس السيد سيلرتون جاكسون. ما زال موضوع فضيحة بوفرت، أو بالأحرى تصرفات بوفرت بعد فضيحته هو الحديث الذي لا يملّ منه حرّاس الفضيلة في مجالسهم. وبعد أن ناقشوا الأمر وقلّبوا جوانبه واستهجنوه، أدارت السيدة ڤان دِر لويدن عينيها اليقظتين إلى ماي آرتشر.

-أيمكن أن يكون ما سمعته صحيحًا يا عزيزتي؟ قيل لي أن عربة جدتكِ مينغت كانت واقفةً أمام باب السيدة بوفرت.

لاحظ الجميع أنها لم تعد تذكر السيدة المسيئة باسمها الأول. احمرّ وجه ماي، فهبّت السيدة آرتشر تقول بسرعة:

-إن كان هذا صحيحًا فلا ريب أن هذا حدث بلا علم السيدة مينغت.

-أحقًا هذا ما تظنين؟

تنهدت السيدة ڤان دِر لويدن، ونظرت إلى زوجها الذي قال:

-أخشى أن قلب مدام أولنسكا الطيب قد قادها إلى التهور بزيارة السيدة بوفرت.

أضافت السيدة آرتشر بلهجة جافة وعيناها تحدّقان ببراءة إلى ابنها:

-أو ربما ذوقها الغريب في الناس.

قالت السيدة ڤان دِر لويدن:

-يؤسفني أن يبدر هذا التصرف من مدام أولنسكا.

تأسفت السيدة آرتشر:

-تفعل هذا بعد أن ضيّفتها مرتين في سكويتركليف!

وكانت تلك اللحظة هي التي أقحم السيد جاكسون فيها ذكراها المحبّبة. قال وقد شعر بأعين من حوله تلتفت إليه:

- في قصر التويلري، كان تعاملهم مع هذه الأمور متهاون جدًا. فإن سألتَ موروني[1] «من أين لك هذا؟»، أو من يسدد ديون بعض فاتنات البلاط الملكي...

ردّت السيدة آرتشر:

-آمل يا عزيزي سيلرتون ألا تقترح أن نقتدي بهم؟

أجابها السيد جاكسون بهدوء:

-أبدًا... أبدًا. لكني أقصد أن نشأة مدام أولنسكا في البلاد الأجنبية ربما جعلتها أقل مراعاةٍ...

قاطعته السيدتان بتنهيدة ضجرة. وعارضه السيد ڤان دِر لويدن فقال:

-حتى وإن كان قولك مصيبًا، لكن أن تترك عربة جدتها أمام باب ذاك المختلس!

حدس نيولاند أن الرجل يتحسّر ولابد على سلال أزهار القرنفل التي كان يبعثها إلى منزل الكونتيسة.

قالت السيدة آرتشر:

-لطالما قلتُ إنها ترى الأمور بنظرة تختلف عنا.

صعدت حمرة الخجل إلى جبين ماي، فنظرت إلى زوجها وقالت بسرعة:

-أنا واثقة أن نية إيلين كانت سليمة.

قالت السيدة آرتشر وكأن لا عزاء فيما قالته زوجة ابنها:

-الطيش رفيق النيّات السليمة.

وهمهمت السيدة ڤان دِر لويدن:

-لو أنها استشارت أحدًا...

فردّت السيدة آرتشر:

-لكنها لا تستشير أحدًا قط.

(١) موروني: سياسي فرنسي، والأخ غير الشقيق لنابليون الثالث.

عندها رمق السيد ڤان دِر لويدن زوجته، فمالت إلى السيدة آرتشر، وما هي إلا لحظات حتى خرجت السيدات الثلاثة من الباب وهنّ يجرجرن أذيال فساتينهن البرّاقة خلفهن، بينما جلس الرجال يدخنون سيجاراتهم. وكان السيد ڤان دِر لويدن يقدّم لضيوفه في الأمسيات التي يعتزمون فيها حضور الأوبرا سيجاراتٍ قصيرة لكنها ممتازة جدًا، حتى إن ضيوفه يتحسرون على التزام مضيفهم الصارم بمواعيده.

بعد أن انتهى الفصل الأول من المسرحية الأوبرالية، نأى نيولاند بعيدًا عن جماعته واتجه إلى مقصورة النادي، فجلس في آخر صف فيها يتابع - من فوق أكتاف الشباب من أسرة تشيڤرس ومينغت وراشوورث - المشهد عينه الذي تابعه قبل عامين، في الليلة التي قابل فيها إيلين أولنسكا لأول مرة. توقع أن يراها تظهر ثانيةً في مقصورة السيدة مينغت العجوز لكن المقصورة ظلت خاوية، فجلس دون أن يتحرك قدر أنملة وعيناه تحملقان فيها، حتى سمع صوت مدام نيلسون العذب وهي تقول: «يحبني... لا يحبني». أدار نيولاند بصره إلى خشبة المسرح، فرأى المشهد نفسه بوروده وبنفسجه الكبيرة، والضحية الشقراء الضخمة نفسها التي تذعن لغواية الرجل الأسمر القصير نفسه.

انتقل بصره من خشبة المسرح إلى المقصورة التي تجلس فيها ماي بين سيدتين عجوزين، كما كانت تجلس في تلك الليلة البعيدة بين زوجة خالها لوڤيل وقريبتها «الأجنبية» التي وصلت مؤخرًا. وكما كانت في تلك الليلة تتّشح بالبياض هي الليلة كذلك، ولاحظ نيولاند لأول مرة في ذلك المساء أنها ترتدي ساتان أبيض مزرّق مطرّزٌ بدانتيل عتيق؛ لقد كانت تلبس فستان زفافها. فقد كانت العادة في نيويورك القديمة أن ترتدي العرائس فساتينهن الباهظة أكثر من مرةٍ خلال العامين الأوليين من الزواج، وهو يعلم أن أمه تحتفظ بفستان زفافها مغلفًا بمناديلٍ ورقية على أمل أن يأتي يومٌ لترتديه جايني، رغم أن جايني المسكينة قد بلغت السن الذي يرى الناس أن «الأنسب» للعروس فيه أن ترتدي فستانًا رماديًا وألا يصحبها أية إشبينات.

وانتبه نيولاند - لأول مرة أيضًا - أن ماي لم تلبس فستان زفافها منذ عودتها من أوروبا إلا نادرًا، وحملته مفاجأة رؤيتها فيه على المقارنة بين مظهرها الآن ومظهر تلك الصبية التي كان يراقبها بشغفٍ مشبوب قبل عامين.
وعلى الرغم من أن جسد ماي أصبح أثقل قليلاً، فإن استقامتها ورشاقتها وصفاء أنوثتها لم تتغير، ولولا الإعياء الذي لاحظه عليها مؤخرًا لكانت هي تلك الفتاة نفسها لم تتغير؛ الفتاة التي كانت تمسح بتلات زنابق الوادي بأناملها في ليلة خطبتها. حرّكت تلك الصورة مشاعر الشفقة عليها، فتلك البراءة تشبه براءة الطفل الذي يقبض يد البالغ مؤتمنًا نفسه عليه. ثم تذكر كرمها العميق المتخفي تحت وداعتها ولامبالاتها، وتذكر نظرة التفهم في عينيها عندما أصرّ على إعلان خطوبتهما في حفل بوفرت الراقص، وتردد صدى صوتها وهي تقول له في حديقة الإرسالية: «لا يمكن أن أبني سعادتي على باطل... على ظلم يقع على أي شخص آخر». استولت عليه لهفة قوية ليصارحها بالحقيقة... أن يتوسل إليها طامعًا في كرمها أن تمنحه الحرية التي رفضها من قبل.
لكن نيولاند آرتشر كان رجلاً متزنًا رزينًا، والالتزام بآداب مجتمعه وطبقته كان جزءًا من طبيعته. ولهذا فقد كان يمقت أية تصرفات ميلودرامية تجذب الانتباه، وأية أفعال يستقبحها السيد ڤان دِر لويدن أو يستنكرها أولئك الجالسون في مقصورة النادي. بيد أن عينيه لم تعد تبصران مقصورة النادي، ولا السيد ڤان دِر لويدن، ولا كل ما كان يطوّقه ويحميه من قواعد وحدود. سار في البهو الدائري في مؤخرة الدار، وفتح باب مقصورة السيدة ڤان دِر لويدن كأنها بوابة إلى العالم المجهول.
صاحت مارغريت من خشبة المسرح منتصرةً: «يحبني!»، واستدار كل من في المقصورة متعجبين من دخول نيولاند، فقد خالف إحدى قواعد عالمه التي تمنعه من دخول المقصورة أثناء غناء الفنان منفردًا. تسلل جالسًا بين السيد ڤان دِر لويدن والسيد سيلرتون جاكسون، ثم مال هامسًا في أذن زوجته:
-أصابني صداع شديد، لكن لا تخبري أحدًا. أيمكننا العودة إلى المنزل؟

نظرت ماي إلى وجهه بتعاطف، ثم رآها تهمس في أذن والدته، فأومأت الأخيرة مشفقةً، وغمغمت تستأذن السيدة ڤان دِر لويدن. نهضت ماي من مقعدها في اللحظة التي سقطت مارغريت فيها بين ذراعيّ فاوست. وبينما كان نيولاند يساعد زوجته على ارتداء عباءة الأوبرا، لمح السيدتين المسنّتين تتبادلان ابتسامة خفية ذات مغزى.

وضعت ماي يدها على يده بحياءٍ وهما في العربة، وقالت:

-يا عزيزي المسكين! يبدو أنهم يحمّلونك أعمالاً فوق طاقتك في الشركة.

أجاب مضطربًا وهو يفتح زجاج نافذته:

-لا... أبدًا. أتمانعين إن فتحتُ النافذة؟

جلس يحدّق في الشارع وهو يشعر بأسئلة زوجته الصامتة تحاول سبر نفسه، لكنه ظلّ مركزًا نظره بثبات على البيوت التي يمرون عليها. عندما نزلا أمام باب منزلهما، انحشر طرف فستان ماي بعتبة العربة فتعثرت وسقطت على زوجها، لكنه أمسكها وساعدها على استعادة توازنها. سألها:

-هل أصابكِ مكروه؟

-كلا، لكن انظر إلى فستاني!... لقد مزّقته!

انحنت لترفع طرف الفستان الملطّخ بالوحل، وتبعته صاعدةً السلم إلى بهو المنزل. لم يتوقع الخدم عودتهما مبكرًا، فلم يكن ثمة نورٌ في المنزل ما عدا وهجًا بسيطًا من مصباح الغاز في بسطة الدرج العلوية. فصعد نيولاند الدرج وزاد من قوة الشعلة، وأشعل عودًا من الكبريت لينير المصباحين المعلّقين على جانبيّ رف المدفأة في المكتبة. كانت الستائر منسدلة في الغرفة، فأعاد النور إلى جوّها الحميمية والدفء كأنما التقى صديقًا في بلاد غريبة. لاحظ أن وجه زوجته ممتقع جدًا، فسألها إن كانت تريد أن يحضر لها كأسًا من البراندي. رفضت مُحرجةً وهي تخلع عباءتها، ثم سألته عندما رأته يفتح علبة فضية على الطاولة ويخرج منها سيجارةً:

-أليس من الأفضل أن تأوي إلى فراشك؟

رمى نيولاند السيجارة في مكانها، واتجه إلى مقعده المعتاد بجانب المدفأة.

-لا... صداعي ليس بهذا السوء. وثمة شيء أريد أن أقوله... شيءٌ مهم... يجب أن أقوله لكِ الآن.

كانت قد جلست على أحد الكراسي، فرفعت رأسها تنظر إليه وهو يتحدث. أدهشه قلة فضولها وعجبها من هذه المقدمة التي بدأ بها، حيث إنها ردّت بكل هدوء:

-نعم يا عزيزي؟

-ماي...

كان واقفًا على بعد بضع أقدام من كرسيها، لكنه يرى بينهما هوة سحيقة لا جسر عليها، وصدى صوته يتردد في صمت المنزل القابض. قال:

-ثمة شيء يجب أن أخبركِ به... عن نفسي...

كانت جالسة كالتمثال، بلا حركة ولا حتى طرفة من عينها. صحيحٌ أن وجهها ما زال شاحبًا، لكن كانت تغطيه مسحةٌ من السكون النابع من مكان خفي داخلها. حبس نيولاند عبارات لوم النفس وجلد الذات التي تجمّعت وراء شفتيه، فقد كان مصممًا على أن يضع المسألة بين يديها بلا تجريم وبلا أعذار.

-مدام أولنسكا...

رفعت زوجته كفها لتُسكته، فانعكس ضوء المصباح على دبلة الزواج في إصبعها. سألته بفتور:

-لماذا تريد أن نتحدث عن إيلين الليلة؟

-كان يجب أن أكلمكِ في هذا الموضوع من قبل.

-أيستحق الأمر الحديث عنه يا حبيبي؟ أعلم أنني ظلمتها في بعض الأحيان... ربما كلنا قد ظلمناها. ولا شك أنك كنتَ أقرب إليها منّا، وعاملَتها بلطف بالغ. لكن ما الذي يهم الآن، وقد انتهى الأمر؟

نظر إليها زوجها نظرة خاويةً، أيعقل أن تكون زوجته قد أحسّت بأنه محبوس في سجن اللاواقعية؟ سألها بلسانٍ ثقيل:

-انتهى؟ ماذا تقصدين؟

نظرت إليه ماي بعينين رائقتين:

-مـاذا أقصد؟... بما أنها سـوف تعود إلى أوروبـا قريبًا بعد أن تفهّمت جدتي موقفهـا ووافقت على عودتها... وقد أمرتْ أن يُصرف لها من المال ما يجعلها مستقلةً عن زوجها...

تلمّس نيولاند زاوية رف المدفأة بيدٍ مرتجفة، وحاول أن يسـند جسـده إليها، وأن يسيطر عبثًا على أفكاره المترنّحة. سمع صوت زوجته الهادئ يقول:

-ظننـتُ أن الترتيبات المالية لرحيلها هي التي أخّرتك هذا المسـاء. لقد تقرر الأمر صباح اليوم.

أخفضت عينيها، وتورّد وجهها تحت وطأة حملقته المشدوهة. شعر أن وجهه أسـفر عن الكثير فاسـتدار، وأسـند كوعيه إلى الـرف وغطّى وجهـه بكفيه. صوتٌ ما يقرع ويطنّ في أذنيه، ولم يعرف أكان ذلك تدفق الدم في عروقه، أم دقات السـاعة على الرف؟ حسـبت تلك السـاعة خمس دقائق، وماي جالسة بـلا حركة ولا كلام. سـقطت كتلـة من الفحم على حاجـز المدفأة الحديدي، وسمعها تنهض لإعادتها مكانها، فاستدار نيولاند وواجهها متعجبًا:

-هذا مستحيل.

-مستحيل؟

-كيف عرفتِ... هذا الخبر؟

-لقد رأيتُ إيلين أمس... قلتُ لك إنني رأيتها عند جدتي.

-لكنها لم تخبركِ بذلك أمس. صحيح؟

-صحيح. وصلتني منها رسالة عصر اليوم. أتريد أن تراها؟

لم يجـد في حنجرته صوتًا ليجيـب. فخرجت من الغرفة ثم عادت على الفور، وقالت ببساطة:

-ظننتك تعرف.

وضعت ورقة على الطاولة، فمدّ يده وأخذها. لم تكن الرسـالة تحوي سـوى أسطر قليلة.

«عزيزتي ماي. لقد أقنعتُ جدتي أخيرًا أن زيارتي لها هي مجرد زيارة لا أكثر، وقد تفهمت رغبتي بعطفها وكرمها. وتفهمت أيضًا أنني إن عدتُ إلى أوروبا فسوف

أعيش مستقلةً لوحدي، أو بالأحرى مع عمتي ميدورا التي ستأتي معي. سوف أسرع في المغادرة إلى واشنطن لحزم أمتعتي، وسوف نبحر إلى أوروبا في الأسبوع القادم. أرجو أن تعتني بجدتي في غيابي، كما غمرتني بلطفكِ دائمًا. إيلين.

ملاحظة: لو أراد أحد ما أن يحاول اقناعي بالتراجع عن قراري، فآمل أن تخبريه أن لا جدوى من هذا على الإطلاق».

قرأ نيولاند الرسالة مرتين وثلاثة، ثم طرحها جانبًا وانفجر ضاحكًا. أذهله صوت ضحكته، وذكّرته بنوبة الضحك التي باغتته وأخافت جايني في منتصف الليل، عندما وصلته برقية ماي تبلغه بتقديم موعد زفافهما. حاول بقوة أن يكتم ضحكاته فسأل:

-لماذا كتبتْ هذا؟

أجابت ماي بصدق ثابت:

-ربما لأننا تحدثنا عن أمور كثيرة أمس...

-أية أمور؟

-أخبرتها أنني ربما أكون قد قسوتُ عليها... أنني لم أفهم كم كان صعبًا عليها أن تنتقل إلى نيويورك وتعيش فيها، وأن تكون وحيدة بين أناس هم أقرباؤها ولكنهم في الوقت نفسه غرباء عنها... أقرباء رأوا أن لهم حق الانتقاد دون أن يعرفوا الظروف. أعرف أنك أنت الصديق الوحيد الذي وقف إلى جانبها دائمًا، وأردتُ أن أخبرها أننا - أنا وأنتَ - شخص واحد، ومشاعرنا تجاهها... أيضًا واحدة.

سكتت كأنها تنتظره أن يتكلم، ولمّا لم يفعل أردفت ببطء:

-لقد فهمتْ الأسباب التي دفعتني لأن أقول لها ذلك... أعتقد أنها فهمت كل شيء.

اقتربت ماي من نيولاند، وأخذت كفه الباردة ورفعتها لتلامس خدّها.

-أنا أيضًا رأسي يؤلمني. تصبح على خير يا عزيزي.

اتجهت إلى الباب وهي تجرّ من ورائها فستان زفافها الممزق الملطّخ بالوحل.

الفصل الثالث والثلاثون

قالت السيدة آرتشر للسيدة ويلند وهي تبتسم إن نيولاند وماي اختارا مناسبة ممتازة ليقيما أول حفل عشاء كبير في منزلهما.

فقد أقام نيولاند وماي حفلات عشاء بسيطة كثيرة منذ أن استقرا في منزلهما، وكان نيولاند يحب أن يدعو ثلاثة أو أربعة من أصدقائه إلى العشاء، وكانت ماي ترحب بهم باستعداد يثير الإعجاب ورثته عن أمها، كما أخذت منها سائر التصرفات في كل ما يتعلق بشؤون الزواج. وكان زوجها يظن أنها – لو كان الأمر بيدها – لما دعت أحدًا على الإطلاق إلى المنزل، لكنه قد استسلم منذ فترة طويلة ولم يعد يحاول أن يفرّق بين شخصيتها الحقيقية، والشخصية التي رسمتها التقاليد والتربية. وإن كان من الواجب أن يضيّف أيُّ زوجين شابين ثريين في نيويورك معارفهما في أمسياتٍ عديدة، فإن الواجب مضاعف إن كان الزوج من أسرة آرتشر والزوجة من أسرة ويلند.

بيد أن إقامة حفل عشاء كبير يعد أمرًا مختلفًا ومهمة لا يُستهان بها؛ وحفل العشاء هذا يعني استئجار طاهٍ متخصص وخادمين إضافيين، وتقديم شراب البَنش الروماني، وشراء ورود من محل هندرسون، وكتابة قائمة الطعام على بطاقات ذات حواف ذهبية. والسر يكمن في البَنش الروماني كما قالت السيدة آرتشر، ليس في الشراب نفسه بل فيما ينطوي عليه من رموز عديدة، فتقديم البنش الروماني يعني أن أصناف الطعام المقدمة ستكون إما لحم بط أو سلاحف، مع نوعين من الحساء، وحلوى ساخنة وأخرى باردة، ويعني أن بإمكان السيدات ارتداء فساتين ذات ياقاتٍ مكشوفة وأكمام قصيرة، ويعني أن الضيوف لهم مقام رفيع وقيمة.

وكم هو مبهج أن يرسل الزوجان الشابان بطاقات الدعوة لحفلهما الأول بتلك الصياغة الجميلة: "يتشرف السيد فلان وحرمه..."! ونادرًا ما كانت

دعوات الحفل الأول مرفوضة، حتى وإن كان المدعو شخصية مرموقة جدًا أو ممن تكثر عنده الدعوات. لكن نيولاند وماي حققا انتصارًا بحصولهما على موافقة السيد ڤان دِر لويدن وزوجته على البقاء في المدينة نزولاً عند طلب ماي، لحضور حفل العشاء الذي تقيمه توديعًا للكونتيسة أولنسكا.

كانت الحماتان تجلسان في حجرة الجلوس في منزل ماي في عصر ذلك اليوم العظيم؛ أما السيدة آرتشر فكانت تكتب قوائم الطعام على بطاقات سميكة ذهبية الحواف من محلات تيفاني، وأما السيدة ويلند فكانت تشرف على ترتيب أحواض النباتات والمصابيح.

وصل نيولاند من عمله متأخرًا فوجدهما ما زالتا في حجرة الجلوس. وكانت السيدة آرتشر قد صرفت انتباهها إلى كتابة بطاقات الأسماء التي ستُوزّع على الطاولات، أما السيدة ويلند فكانت تفكر في تحريك الأريكة المذهّبة الكبيرة إلى الأمام كي تفسح مكانًا أكبر بين البيانو والنافذة. أخبراه أن ماي في غرفة الطعام تتفقد الورود التي ستوضع في منتصف الطاولة، وتوزيع حلوى "ميارد" في سلالٍ فضيةٍ بين الشمعدانات. كان على البيانو سلةٌ كبيرة من أزهار الأوركيد بعثها السيد ڤان دِر لويدن من سكويتركليف. وباختصار، كان كل شيء يبدو جاهزًا لاستقبال جمع كبير في مناسبةٍ مهمة.

راجعت السيدة آرتشر القائمة، وأخذت تشطب كل اسم بقلمها الذهبي:

-هنري ڤان دِر لويدن - لويزا - أسرة لوڤيل مينغت - أسرة ريجي تشيڤرس - لورنس ليفرتس وغيرترود (نعم.. أحسنت ماي إذ دعتهما) - أسرة سيلفريدج ميري - سيلرتون جاكسون - ڤان نيولاند وزوجته (ما أسرع مرور السنين! ألا تشعر أنه كان بالأمس وصيفك في حفل زفافك يا نيولاند؟) - والكونتيسة أولنسكا... نعم، أظن أن هؤلاء هم كل المدعوين...

نظرت السيدة ويلند إلى صهرها بود وقالت:

-خيرًا فعلتما يا نيولاند بإقامة حفل وداع لإيلين.

قالت السيدة آرتشر:

-لابد أن ماي أرادت أن تخبر قريبتُها الأجانب أننا لسنا همج أو لا نتقن الأصول.
أكملت السيدة ويلند بفرح:
-أنـا متأكـدة أن إيلين تقـدّر لكما هـذا. كان موعد وصولها صبـاح اليوم كما أعتقـد. وسـيكون الحفل انطباعًا أخـيرًا مشرّفًا عن نيويـورك. دائمًا ما تكون الليلة التي تسبق يوم السفر بحرًا مقلقة.
توجه نيولانـد صوب الباب، فهتفت حماته: «ادخل وألقِ نظرةً على الطاولة. ولا تجعـل مـاي ترهـق نفسـها كثـيرًا». لكنه تظاهـر بأنـه لم يسـمعها، وقفز الدرجات نحو مكتبته. بدت مكتبته كمخلوق غريب الشكل مهندم المظهر، فعـرف أن أحـدًا ما رتّبها بلا رحمة، وأعدّها للسـادة كي يدخنوا فيها، بعد أن رأى منافض السـجائر وصناديق خشـب الأَرز التي تحوي السـجائر موزّعةً توزيعًا دقيقًا. قال في نفسـه: «لا بأس، سـينتهي كل شيء قريبًا...»، ثم ذهب إلى غرفة نومه.

***

مضت عشرة أيام مذ رحلت مدام أولنسكا عن نيويورك. وخلال تلك الأيام العـشرة لم يصلـه منها أية إشـارةٍ، إلا أنها أعـادت إليه مفتاحًـا مغلّفًا بمنديل ورقـي في ظرفٍ مختـوم، كتبت عليه عنوان مكتبه بخـط يدها. كان هذا ردها على طلبه الأخير منها، ولو كان رجلاً غيره لفسر معناه على أنه الرد التقليدي في هذه اللعبة الأزلية بين الرجل والمرأة، لكن الشاب اختار أن يفسره تفسيرًا آخر. فهي ما زالت تحارب قدرها، لكنها سوف ترحل إلى أوروبا ولن ترجع إلى زوجهـا. إذًا لا شيء يمنعـه من اللحاق بها إلى هنـاك. وبعد أن يتخذ هذه الخطوة التي لا تراجع عنها - وبعد أن يثبت لها بأن لا رجعة فيها - فلا شك لديه أنها لن ترده خائبًا.
كانت هذه الثقة في المسـتقبل هي الـشيء الوحيد الذي يجعله يحتمل الحاضر، وهي ما تربط جأشه كيلا يرسل إليها أية رسائل، ولا يظهر تعاسته وذله بأي تلميح أو تصرف. فهو يؤمن أنه ما زال يحمل الورقة الرابحة في لعبة الصمت

القاتل التي يلعبانها. ولهذا فهو ينتظر.

وعلى الرغم من ذلك فقد مرّت لحظاتٌ صعبة جدًا عليه، مثل ذلك اليوم الذي تلا مغادرة مدام أولنسكا، عندما بعث السيد ليتربلير يستدعيه ليراجع معه تفاصيل الوديعة التي تريد السيدة مينغت إنشاءها لأجل حفيدتها. وظل نيولاند لساعتين يدقق في شروط المستند مع رئيسه، ويخامره إحساس غامض أنه في الحقيقة لم يستشره إلا لغرض آخر غير صلة القرابة التي تربطه بها، وأن هذا الغرض سيتضح في نهاية الاجتماع.

بعد أن غمغم السيد ليتربلير وهو يقرأ ملخص المستند، قال:

-لا تستطيع الكونتيسة أن تنكر أن هذا الاتفاق منصف وسخي جدًا. بل أشعر في الواقع أنها تلقت عروضًا سخية من جميع الأطراف.

ردّ نيولاند بنبرة استخفاف:

- من جميع الأطراف؟ أتقصد عرض زوجها بأن يرد إليها مالها الذي هو حق لها؟

ارتفع حاجبا السيد ليتربلير الكثّين قدر أنملة.

-يا سيدي العزيز. إن القانون قانون. وقد تزوجت قريبة زوجتك بموجب القانون الفرنسي. ويجب أن نفترض أنها كانت تعلم علامَ ينطوي ذلك.

-حتى لو أنها كانت تعلم، ما حدث بعد ذلك...

لكن نيولاند أحجم عن المتابعة. وضع السيد ليتربلير قلمه على أنفه الضخم، وكان ينظر إليه وعلى وجهه ذاك التعبير الذي يرتسم على وجوه كبار السن الفضلاء عندما يريدون أن يوضحوا للشباب أن حسن النية لا يسوّغ الجهل.

-يا سيدي العزيز، أنا لا أحاول أن أهوّن مما اقترفه الكونت من تجاوزات مجحفة، ولكن... لكن من الجانب الآخر... لو لم ترد هي له الصاع بصاعٍ... مع ذلك الشاب المنقذ...

فتح السيد ليتربلير أحد أدراج مكتبه، ودفع ورقةً مطويةً تجاه نيولاند.

-هذا تقرير يحوي نتائج تحريات سرية...

لمّـا رأى المحامي أن نيولاند لم يتحرك للاطـلاع على الورقة أو ينكر التلميح، تابع بلهجةٍ فاترة:

-أنا طبعًا لا أقول إن التقرير حاسم أو نهائي... لا طبعًا. لكن... لا دخان... وعلى كل حال، إنه لمن المفرح جدًا أن توصّل جميع الأطراف إلى هذا الحل.

قال نيولاند وهو يدفع الورقة تجاه المحامي العجوز:

-أجل... مفرح جدًا.

وبعد يومٍ أو اثنين، أُبتليت روحه باختبارٍ أشد عندما استدعته السيدة مينغت العجوزٌ، فوجدها مكتئبةً برمةً. فشنّت هجومها عليه فورًا:

-أتعلم أنها تخلّت عني؟ أوه... ولا تسألني عن السبب! فقد عدّدتْ لي أسبابًا كثيرة، ونسـيتها كلها. أنا أشـك أنها لم تعد تسـتطيع احتمال الضجر، وهذا ما تعتقده أوغستا وزوجات أبنائي. وأنا لا ألومها. صحيحٌ أن أولنسكي سافلٌ لكـن لا ريـب أن الحياة معه كانت أكثر متعةً وبهجةً منها في الجادّة الخامسـة. لكـن البقيـة لن يقروا بذلـك، فهم يرون أن الجادّة الخامسـة هـي جنة الله في أرضـه. وحبيبتـي إيلـين لن تعـود إلى زوجهـا طبعًا، لقـد أكّـدت لي أنها لن تتزحزح عن قرارها هذا أبدًا. لذلك سـوف تستقر في باريس مع تلك المغفّلة ميـدورا... آه. لكن... لا بـأس بباريس، والحياة هنـاك رخيصة. وقد كانت سعيدة جدًا بموافقتي، لكنني سأشتاق إليها.

انحـدرت دمعتان من دمـوع الهَرَم الجافـة على خديها المنتفخـين، واختفتا في تلافيف صدرها. قالت وعيناها تبرقان بلهفة:

-كل ما أطلبه هو ألا يلقوا عليّ مزيدًا من الهم. لقد اشتقت إلى طعم العصيدة...

وبعـد عودتـه إلى المنزل في ذلك المسـاء أخبرتـه ماي بعزمها عـلى إقامة حفل عشـاء لتوديع قريبتها. لم ينطق أحدهما باسـم مدام أولنسـكا منذ الليلة التي رحلت فيها إلى واشنطن. نظر نيولاند إلى زوجته في عجب وسألها:

-حفل عشاء... لماذا؟

-ظننتُ أن الأمر سيسعدك... فأنت تستلطف إيلين....

-إنه لطف كبير منك... هذا صحيح. لكني لا أرى سببًا...
قاطعته وهي تنهض بهدوء وتتجه إلى مكتبها:
-لقد عزمتُ على الأمر يا نيولاند. هذه هي الدعوات جاهزة. ساعدتني أمي في كتابتها... وهي تتفق معي في ضرورة أن نقيم الحفل.
بدت محرجة رغم ابتسامتها، فرأى نيولاند فجأة «الواجب» يتجسد أمامه في صورة زوجته. نظر بعين غير واعية إلى قائمة الضيوف التي وضعتها في يده وقال:
-حسنٌ... لا بأس.

***

عندما دخل إلى حجرة الجلوس قبل موعد العشاء، وجد ماي تنحني فوق نار المدفأة تحاول أن تجعل قطع الحطب تحترق على بلاط المدفأة الجديد. كانت جميع المصابيح الطويلة مضاءة، وأزهار الأوركيد التي أرسلها السيد ڤان دِر لويدن منسّقة في أماكن واضحة، في مزهريات عديدة من الخزف الحديث والفضة المنقوشة. فكانت غرفة جلوس حرم نيولاند آرتشر بارعة الجمال، حيث وُضعت آنية كبيرة من البامبو المذهّب تتجدد فيها أزهار الربيع والخرفيش في مواعيد ثابتة لتسدّ الطريق المؤدي إلى الشرفة (في حين قد يفضل التقليديون وضع نسخة برونزية عن التمثال الشهير «ڤينوس دي ميلو» لأداء هذا الغرض)، وتجمّعت الأرائك والكراسي المطرّزة معًا حول طاولات من القطيفة، تعلوها تحف فضية وحيوانات خزفية وإطارات صورٍ زاهية، ونُصبت مصابيح عالية ذات أغطية وردية، كأنها أزهار استوائية باسقة بين أحواض السراخس. أجالت ماي النظر حولها بفخر - ويحق لها الفخر - وقالت وهي تستقيم واقفةً ووجهها محتقن من أثر الإجهاد:
-أعتقد أن إيلين لم ترَ هذه الحجرة مضاءةً من قبل.
سقط الملقط النحاسي الذي أسندته إلى جانب المدخنة على الأرض، فأحدث قرقعةً عاليةً غطّت على رد زوجها، وقبل أن يتمكن من التقاطه، أعلن الخادم عن وصول السيد ڤان دِر لويدن وحرمه. ومن خلفهما توارد الضيوف

الآخـرون، حيـث إن الجميع يعلمـون أن هنري ولويزا ڤـان دِر لويدن يحبان تناول العشاء في الموعد المحدد. كانت الحجرة ممتلئة تقريبًا، ونيو لاند منهمكٌ في عرض لوحة «الخراف» للبلجيكي ڤيربكهوڤن - التي أهداها السيد ويلند إلى مـاي في عيد الميلاد - على السـيدة سـيلفريدج ميري، إذ بمدام أولنسـكا واقفةٌ بجانبه.

كان وجههـا ممتقعًـا شـديد الاصفـرار، فأظهـر هـذا الامتقاع كثافة شـعرها الداكـن وغزارتـه أكثر مـن أي وقت مضى، وفي جيدها حبـات الكهرمان في عقـدٍ مرصوفٍ. لم يدرِ أكان شـعرها أم عقدها هو الـذي ذكّره بإيلين مينغت الصغـيرة التي كان يرقص معها في حفلات الأطفال عندما أحضرتها ميدورا مانسون إلى نيويورك.

إما أن حبات الكهرمان كانت لا تلائم بشرتها أو أن فستانها كان غير لائقٍ... إنه لا يدري، لكن شـيئًا ما جعل وجههـا باهتًا حتى قارب القبح، ومع ذلك فإنـه لم يحبهـا كما أحبهـا في تلك اللحظـة. تصافحا، وظن أنه سـمعها تقول: «نعم، سـوف نبحر غدًا على متن سـفينة (روسـيا)...»، عقـب ذلك صوت أبواب تُفتح وتُغلق، ثم صوت ماي وهي تقول:

-نيو لاند! لقد أعلن الخادم أن العشاء جاهز. هلا صحبتِ إيلين إلى المائدة؟

وضعت مدام أولنسـكا يدها على ذراعه، ولاحظ أن يدها غير مغطاة بقفاز، فتذكـر كيـف أنه حـدّق في هذه اليـد في ذلك المسـاء، عندما جلـس معها في حجـرة الجلـوس في منزلها الصغير. بدا لـه أن كل الجمال الذي نبذ وجهها قد تجمّع في أصابعها الطويلة البيضاء، فقال في نفسـه: «سـأتبعها إلى آخر الدنيا، ولو لم يكن إلا لأرى يدها مرة أخرى».

لم تكن السـيدة ڤان دِر لويدن لتقبل بأن يكون مقعدها عن يسـار سـيد المنزل إلا في حالة واحدة: أن تكون المناسبة مقامة على شرف «شخصية أجنبية».[1] والحقيقـة أن كل شيء في هـذا التكريـم الوداعـيّ لمـدام أولنسـكا يشـير، بل

(١) جرت العادة أن تجلس أرفع السيدات مقامًا على يمين المضيف.

ويشـدد على حقيقة واحدة؛ وهي أن مدام أولنسـكا امـرأة أجنبية. ولهذا فلم تقبـل السـيدة ڤـان دِر لويدن بمقعدها المحدد لها فحسـب، بـل أذعنت بكل ودٍ ممـا يوحي باستحسـانها لهذا التصرف. ثمة أمور معينـة في عُرف نيويورك القديمة يجب على الناس فعلها، وإن فعلوها فيجب أن تنفّذ على أكمل وجه، بـلا عيـوب أو نقائص. وأحد هذه الأمور هو تآزر أفـراد الأسرة حول امرأةٍ منهم على وشـك أن تُنبذ من العشـيرة. فلا يوجد شيء على وجه الأرض لن يفعلـه أهل الكونتيسـة أولنسـكا مـن أسرة ويلند أو مينغـت لإظهار محبتهم الخالصة لها... الآن بعد أن تأكدوا من أنها ابتاعت تذكرتها إلى أوروبا. جلس نيولانـد على رأس مائدته متعجبًا من هؤلاء الذين اتفقوا بإجماع صامت على أن يحتفوا بها، ويُخرسـوا شـكواهم ضدها، ويغفروا ماضيها. ها هي السـيدة ڤـان دِر لويـدن تنظر إليها بعين الحدب والإحسـان اللذين هما أقرب ما تعبر بهـما عـن محبتها، وها هو السـيد ڤان دِر لويـدن - من مقعده عـلى يمين ماي - يلقي نظراته فرحًا بأن أزهار القرنفل التي أرسـلها من سـكويتركليف إلى الكونتيسة لم تضع هباءً منثورًا.

أحـس نيولاند بأن جسـده فقد وجـوده المادي، فهـو يطفو فوقهـم معلّقًا ما بين الثريّا والسـقف، وهو يتسـاءل ما دوره في هذه المسرحية؟ تنقّلت نظراته ولحظاته ما بين الوجوه الوديعة الممتلئة، فرأى أن كل هؤلاء المسالمين العاكفين عـلى تناول طبق لحم البط المشـوي ما هم إلا عصبة مـن المتآمرين الصامتين، وأنه والمرأة الشـاحبة التـي تجلس عن يمينه واقعان في قلـب المؤامرة. عندها فقـط تجمّعـت عشرات الومضـات القصيرة فكوّنـت بارقـة إدراك في ذهنه. لقـد أدرك أنهـم جميعًـا يعتقدون أنه ومدام أولنسـكا ليسـا مجـرد حبيبين، بل هما عشـيقان... عشـيقان بالمعنى «الأجنبي» للكلمة. أدرك أنه ولا ريب كان لأشـهرٍ طويلة على مرأى من أعينهم المراقبة بصمت، وعلى مسمع من آذانهم المصغيـة بصبر، وأيقن بـأن الفصل بينه وبين شريكتـه في الجريمة قد تم دون أن يعي كيف، وأن العشـيرة الآن تشـد أزر زوجته بأن يتظاهروا بأن لا أحد

يعـرف أي شيء، أو حتى تخيّل أي شيء، وأن ما هذه المناسـبة إلا حفل وداع محبٍ أقامته ماي آرتشر لصديقتها وقريبتها.

هـذا هو ديدن نيويورك القديمة؛ أن تنتزع الروح دون أن تريق الدماء. وهذه هـي عـادة الناس الذين يخشـون الفضيحة أكثـر من الوباء.. الذيـن يقدّمون اللباقة على الجسـارة.. الذين يؤمنون ألا أحطّ قدرًا ممن يجاهرون بانفعالاتهم أمام الناس.

توالـت هـذه الأفكار واحدةً تلو الأخرى في عقل نيولاند، فشـعر بأنه أسـير في وسـط معسـكر مسـلّح، ولمس مدى قسـوة معتقليه من نـبرات أصواتهم بحديثهم عن بوفرت وزوجته وهم يقضمون عيدان الهليون. قال في نفسـه: «إنهم يريدون أن أرى ماذا سـيحدث لي...»، فكان التلميح والتشـبيه أجدى مـن التصرف المبـاشر، والصمـت أبلغ من الكلـمات المتهورة، وقـد أطبقت إشاراتهم عليه من كل جانب وأوصدت الأبواب في طريقه.

ضحـك نيولاند، ورأى نظرة العجب في عيني السـيدة ڤان دِر لويدن. قالت بابتسامةٍ مغتصبة:

-أتـرى الأمـر مضحـكًا؟ أعتقـد أنك محـق، فبقاء ريجينـا في نيويـورك فكرة سخيفة حقًا.

غمغم نيولاند بالموافقة.

انتبـه في تلـك اللحظـة إلى أن الضيـف الجالـس في الجانب الآخـر عن مدام أولنسكا مشغولٌ بالحديث مع السيدة التي تجلس عن يمينه، ورأى كذلك أن مـاي - التـي تجلس على الجانب المقابل من الطاولة بين السـيد ڤان دِر لويدن والسـيد سـيلفريدج ميري - قد أرسـلت نظـرةً سريعةً تجاهه، فعـرف أنه لا يمكن أن يظل صاحب الوليمة والسـيدة التي عن يمينه سـاكتين طوال فترة العشاء. فالتفت إلى مدام أولنسكا وقابلته هي بابتسامتها الشاحبة التي تقول له: «أرجوك، دعنا ننتهي من هذا العذاب». سألها بصوت أدهشه ثباته:

-هل أرهقكِ السفر؟

-لا أبدًا. لم أسافر قط برحلةٍ مريحة كهذه، لو لا أن الجو كان حارًا جدًا داخل القطار.
فقال إنها لن تعاني من الحرارة في البلد التي سترحل إليها. وأضاف بحرارة:
-لم أشعر في حياتي كلها بالبرد كما شعرتُ بذلك البرد القارس في أبريل على متن قطار بين كاليه وباريس.
فردّت أن على الشخص أن يحمل معه دائمًا دثارًا غليظًا، وإن لكل رحلة مشاقها، فأجابها بأن كل مشاق السفر لا تهم طالما أن الإنسان ينعم بالرحيل.
احمرّ وجهها، فقال بغتةً بصوت عالٍ:
-أنوي أن أسافر أنا أيضًا قريبًا.
عبرت رجفة واهنة قسمات وجهها، فهتف وهو يميل إلى ريجي تشيفرس:
-ما قولك يا ريجي في أن تصحبني في رحلة حول العالم الآن... أقصد الشهر القادم؟ أنا مستعد إن كنتَ مستعدًا...
فردت زوجة ريجي أنها لا يمكن أن تسمح لزوجها بالذهاب إلا بعد الحفل الراقص الخيري الذي تعدّه لأجل مأوى المكفوفين خلال أسبوع عيد الفصح، وأضاف زوجها بخنوع أنه بعد ذلك سوف يكون منهمكًا بالتدرب للمشاركة في مباريات البولو. بيد أن أذن السيد سيلفريدج ميري التقطت عبارة "حول العالم"، وحيث إنه قد دار العالم مرةً على متن يخته البخاري، فقد انتهز الفرصة كي يسهب في الحديث عن ضحالة الموانئ في حوض البحر الأبيض المتوسط، ثم استدرك وقال إن هذا لا يهم لأنك إن زرت أثينا وسمرنا والقسطنطينية فلم يبقَ شيئًا لتراه. وقالت السيدة سيلفريدج ميري إنها ممتنة جدًا للدكتور بنكوم الذي أخذ عليهما عهدًا بألا يزورا نابولي تفاديًا للحمى. ونصح زوجها نيولاند أن يخصص ثلاثة أسابيع لاستكشاف الهند، كيلا يظن السامعون أنه رحالة عابث همه هو التنقل من بلد إلى آخر فقط.
عندها صعدت السيدات إلى غرفة الجلوس.

***

كان صوت لورنس ليفرتس هو الأعلى في المكتبة، رغم وجود شخصياتٍ

أجلّ قدرًا منه.

كان الحديث قد تحوّل كالعادة إلى بوفرت، وكان الجميع صامتين ينصتون إلى تقريع الشاب، حتى السيد ڤان دِر لويدن والسيد سيلفريدج ميري اللذين تُرك لهما كرسيان في صدر المجلس. لم يتغنَّ ليفرتس بمكارم الرجولة وفضائلها، وحرمة الأسرة وهيبتها كما تشدّق في ذلك المساء. وقد أمدّه الغضب بفصاحةٍ لاذعة، فبيّن للآخرين أنهم لو حذوا حذوه، واتبعوا النهج الذي ينادي به لما كان المجتمع بالضعف الذي يجعله يرحب بأجنبي مثل بوفرت... لا يا سادة، حتى والله لو أنه كان متزوجًا بامرأةٍ من أسرة ڤان دِر لويدن أو لاننغ، لا من أسرة دالاس. ثم سألهم ليفرتس بسخط أنى لرجل مثله أن يتزوج من أسرة عريقة كدالاس، لولا أنه نخر لنفسه طريقًا يدخل منه منازل محددة، كما سنحت الفرصة لأمثال السيدة ستراثرز أن ينخروا لأنفسهم طريقًا في غيابه؟ حتى لو فتح المجتمع أبوابه لنساء لا أصل لهنّ فإن الضرر ليس كبيرًا، رغم أن النفع ليس عظيمًا أيضًا، لكن عندما يسمح المجتمع لنفسه بأن يحتمل وجود رجال لا تُعرف أنسابهم ولا أصل ثرواتهم فإن النهاية هي الانحلال لا محالة، ولن يكون موعدها ببعيد.

ضج صوت ليفرتس، كأنه نبيّ شاب في بذلة أنيقة لم يُلقّم الحجارة بعد:

-ولو استمر الحال على هذا المنوال، فسوف نرى أبناءنا يتهافتون على الدعوات إلى منازل المحتالين، ويتزوجون من أولاد بوفرت غير الشرعيين.

هتف ريجي تشيفرس وڤان نيولاند الشاب:

-ليفرتس! لا داعي لهذا الحديث!

غطى ذعرٌ حقيقي على قسمات السيد سيلفريدج ميري، أما السيد ڤان دِر لويدن فظهر على وجهه الحساس تعبير يمزج بين الألم والتقزز. تحرك السيد سيلرتون جاكسون في مقعده متحمسًا لسماع نميمة جديدة فهتف:

-أحقًا له أبناء غير شرعيين؟

ضحك ليفرتس متجاهلاً السؤال، فهمس جاكسون العجوز في أذن نيولاند:

-عجيب أمر هؤلاء الرجال الذين يريدون إصلاح كل شيء... لكن باب النجار مخلوع. سمعتُ أن ثمة أسباب تلحّ على صاحبنا ليفرتس كي يخطب فينا خطبته اللاذعة هذه... سمعتُ أنها ناسخة على الآلة الكاتبة هذه المرة...

تدفق الحديث حول نيولاند كنهر يجري ويجري، ولا يعرف كيف يتوقف. رأى في وجوه من حوله اهتمامًا واستمتاعًا، بل وفرحًا أيضًا، فاستمع إلى ضحكات الشباب، وإلى السيد ڤان دِر لويدن والسيد سيلفريدج ميري وهما يمتدحان بكل ذوق نبيذ "ماديرا" الذي قدّمه نيولاند. ومن خلال الحديث والمزاح أحس بأن شيئًا من الود قد ناله منهم، كما لو أن حرّاس الأسير يحاولون أن يخففوا وطأة حبسه. فما زاده هذا الإحساس إلا رغبة أقوى وتصميمًا أشد في أن يحصل على حريته.

عندما انتقلوا إلى غرفة الجلوس لينضمّوا إلى السيدات، قابلت عيناه عيني ماي المنتصرة، ورأى فيهما سعادةً بأن كل شيء تم بنجاح. نهضت ماي من مكانها بجانب مدام أولنسكا، فأشارت السيدة ڤان دِر لويدن فورًا إلى الأخيرة كي تجلس بجانبها على الأريكة المذهبة. وقطعت السيدة سيلفريدج ميري عرض الغرفة لتنضم إليهما، فاتضح لنيولاند أن هناك شقًا ثانيًا للمؤامرة؛ الإصلاح ومحو الأثر. إن هذه الجماعة الصامتة التي تتحكم في عالمه الصغير مصممةٌ على أن تعلن أنها لم تشك أبدًا في سلوك مدام أولنسكا وأدبها، ولا في سعادة نيولاند الزوجية وهنائها. فهؤلاء السمحاء العتاة مشتركون جميعًا في لعبة التظاهر أمام بعضهم البعض بأنهم لم يسمعوا، ولم يشكّوا، ولم يخطر لهم قط بأن العكس ممكن. ومن خلال هذا الرياء الواضح المتفق عليه تأكد نيولاند بما لا يدع مجالاً للشك بأن نيويورك تظن أنه عشيق مدام أولنسكا. لمح بريق الفوز في عيني زوجته، ففهم لأول مرة أنها هي أيضًا تشاطر نيويورك هذا الاعتقاد. أيقظ هذه الاكتشاف عفاريتًا في داخله تضحك ضحكًا هستيريًا، وحاولت أن تطل برؤوسها فتفسد عليه محاولاته لمناقشة الحفل الراقص الخيري مع السيدة تشيڤرس وزوجة ڤان نيولاند الشابة. وهكذا تدفق المساء

كنهر يجري ويجري، ولا يعرف كيف يتوقف.

رأى بعد حين أن مدام أولنسكا نهضت من مقعدها وأنها تودّع الحاضرين. سوف تختفي بعد لحظات من حياته. حاول أن يتذكر ما قاله لها على مائدة العشاء، لكن ذاكرته لم تسعفه بكلمة واحدة. توجهت إلى ماي وقد تجمّع بقية الحضور حولها لوداعها، فتصافحت الشابتان ومالت ماي لتقبّل قريبتها.

-لا شك أن مضيفتنا هي الأجمل بين الاثنتين.

سمع نيولاند ريجي تشيفرس يقول ذلك لزوجة ڤان نيولاند الصغيرة في صوتٍ منخفض، فتذكر عبارة بوفرت الساخرة بأن جمال ماي بارد.

وبعد لحظات كان نيولاند يساعد مدام أولنسكا على وضع عباءتها فوق كتفيها. رغم الضباب الذي أحاط بعقله طوال المساء فإنه كان متمسكًا بشيء واحد؛ ألا يقول شيئًا يفزعها أو يقلقها، فهو مؤمن أنه لا توجد قوة تستطيع أن تحول بينه وبين مرامه، ولهذا فقد وجد في نفسه الإرادة والعزم كي يترك الأمور تجري كما تشاء. لكن بينما هو يتبع مدام أولنسكا إلى البهو اشتاق إلى أن يظل معها لوحدهما، ولو لدقيقة واحدة عند باب عربتها. فسألها:

-هل وصلت عربتكِ؟

في تلك اللحظة كان أحدهم يُلبس السيدة ڤان دِر لويدن معطف فراء السمور الفاخر، فأجابته بلطف:

-سوف نوصل إيلين إلى منزلها.

انتفض قلب نيولاند. أمسكت مدام أولنسكا طرف عباءتها ومروحتها في يد، ومدت الأخرى تصافحه.

-وداعًا.

ردّ بصوتٍ عالٍ حتى أحس بأنه يصرخ:

-وداعًا... لكنني سوف أراكِ في باريس قريبًا.

-أوه! إن أتيتَ أنت وماي...

اقترب السيد ڤان دِر لويدن مادًا ذراعه لها، فاستدار نيولاند ينظر إلى السيدة

فان دِر لويدن، فلمح في ظلمة (اللاندو) المتلاطمة وجهها الأبيض الصغير وعينيها اللامعتين تنظران إليه بثبات... ثم اختفت.

بينما كان نيولاند يصعد سلم منزله قابله لورنس ليفرتس وزوجته وهما ينزلان. أمسك ليفرتس كمّ نيولاند كي يستوقفه في حين تابعت زوجته النزول.

-اسمع يا صديقي العزيز... هلا قلتَ لمن يسأل إنني سوف أتناول العشاء معك في النادي مساء الغد؟ شكرًا جزيلاً يا صاحبي! وتصبح على خير.

****

سألت ماي وهي واقفة عند باب المكتبة:

-كانت الوليمة رائعة، أليس كذلك؟

جفل نيولاند من وجودها، فقد صعد إلى المكتبة فور مغادرة آخر عربةٍ، وأغلق الباب على نفسه أملاً في أن تذهب زوجته إلى غرفتها مباشرةً. لكن ها هي واقفة أمامه شاحبةً هزيلةً، رغم أن طاقةً قوية تشعّ منها تُذهب آثار التعب. سألته:

-هل تسمح بأن أدخل وأتحدث معك؟

-طبعًا، إن أحببتِ. لكن لابد أنكِ تشعرين بالنعاس...

-لا، لا أشعر بالنعاس. وأود أن أجلس معك قليلاً.

قرّب كرسيها إلى المدفأة وقال:

-تفضلي.

جلست ماي وعاد نيولاند إلى كرسيه، لكن لم ينبس أحدهما بكلمة لمدة طويلة، إلى أن قطع الصمت فقال:

-بما أنكِ لستِ متعبةٌ وتريدين أن نتحدث، فثمة أمر أود أن أخبركِ به. لقد حاولت أن أتكلّم من قبل...

-أجل يا عزيزي... كنتَ تريد أن تخبرني شيئًا ما عن نفسك؟

-عن نفسي. أنتِ تقولين أنكِ لستِ متعبة، ولكن أنا متعب... أنا منهك جدًا...

تحولت زوجته في لحظة إلى كتلة من القلق والحنان:

-أوه! لقد رأيت بوادر التعب عليك يا نيولاند! إنهم يرهقونك بالعمل فوق طاقتك...

-ربما يكون هذا هو السبب. على أية حال، أود أن أستريح من كل ذلك...

-تستريح؟ تريد أن تترك العمل في المحاماة؟

-أود أن أرحل... حالاً. في رحلة طويلة تأخذني إلى أبعد مكان... بعيدًا عن كل شيء...

سكت وقد أدرك أنه فشل في أن يتحدث بلامبالاة الرجل الذي يتوق إلى التغيير، ومع ذلك فإنه مرهق ولا يستطيع تحمله. كرر:

- بعيدًا عن كل شيء...

-إلى أبعد مكان؟ إلى أين مثلاً؟

-أوه، لا أدري... الهند أو اليابان.

أحنى نيولاند رأسه وأسند ذقنه على يديه. نهضت ماي من كرسيها وأحس من دفء جسمها وعبير عطرها أنها تحوم حوله.

قالت بصوتٍ غير ثابت:

-إلى هذه البلاد البعيدة؟ أنا آسفة، لكنك لا تستطيع يا عزيزي، إلا إذا أخذتني معك.

ولّما لم يتكلم تابعت بنبرة واضحة جدًا وثابتة جدًا، كأن كل حرفٍ نقرةٌ من رأس المطرقة على عقله.

-هذا لو سمح لي الأطباء بالذهاب... لكن أعتقد أنهم لن يسمحوا. لأن يا نيولاند... لقد تأكدتُ هذا الصباح من شيءٍ كنتُ أتمناه وآمل حدوثه منذ زمن طويل...

نظر إليها بعينين ذاهلتين، فألقت نفسها بشذاها ونضارتها، ووضعت جبينها على ركبته.

-آه... يا عزيزتي!

احتضنها ويده الباردة تمسح على شعرها. شملهما الصمت الطويل، لكن

العفاريت داخله لم تكن صامتة، بل أخذت تفتح أفواهها بضحكاتٍ مصرصرة. حررت ماي نفسها من بين ذراعيه ووقفت.

-ألم تشك...؟

-نعم ولكن... لا... أنا.. كنتُ آمل طبعًا...

نظرا إلى بعضهما بصمت، ثم أشاح عينيه عنها وسأل:

-هل أخبرتِ أحدًا غيري؟

-أمي وأمك فقط.

سكتت قليلاً ثم أضافت بسرعة ودماء الخجل تتصاعد إلى صدغيها:

-لكني... أخبرتُ إيلين أيضًا. أتذكر عندما أخبرتك أننا تحدثنا حديثًا مطولاً في أحد الأيام؟ كم كانت سعيدة من أجلي.

توقف قلب نيولاند عن النبض. شعر أن زوجته تراقبه عن كثب.

-أمستاءٌ أنت لأنني أخبرتها أولاً يا نيولاند؟

استجمع شتات نفسه الممزقة وقال:

-مستاء؟ ولماذا أستاء؟ لكن... لقد تحدثتِ معها قبل أسبوعين، أليس كذلك؟ ألم تقولي أنكِ لم تتأكدي سوى اليوم؟

اضطرم وجهها واتقد، لكنها لم تبعد نظرتها عن وجهه.

-صحيح. لم أكن متأكدة في ذلك الوقت... لكنني قلت لها أنني كذلك. وكما ترى... كنت محقة!

التمعت عينا ماي بعبرات الانتصار.

الفصل الرابع والثلاثون

جلس نيولاند آرتشر على طاولة الكتابة في مكتبة منزله في الشارع التاسع والثلاثين شرقيّ نيويورك.

كان قد عاد للتو من حفل رسمي كبير بمناسبة افتتاح صالات العرض الجديدة في متحف الميتروبوليتان، ولمّا رأى تلك المساحات العظيمة تكتظّ بغنائم القرون، وحشودٌ كثيرة من الأشخاص المهندمين تتجول بين خزائن ملأى بالكنوز المصنّفة على نهج علمي، تفجر في داخله ينبوع الذكريات القديمة.

سمع أحدهم يقول: «أتعرف؟ كانت هذه القاعة إحدى قاعات ساسنولا القديمة»، فتلاشى فجأة كل شيء حوله، ورأى نفسه يجلس وحيدًا على مقعد جلدي قاسٍ بجانب التدفئة المركزية، وطيف امرأة ترتدي معطفًا من الفراء يسير مبتعدًا في قاعات المتحف القديم.

لقد أثارت هذه الذكرى مجموعة أخرى من الذكريات المتداخلة، فجلس يقلب بصره حوله كأنها يرى لأول مرة المكتبةَ التي كانت مسرح تأملاته الخاصة، ومحادثات الأسرة ومسامراتها لأكثر من ثلاثين عامًا. ففي هذه الغرفة، وقعت معظم أحداث حياته الحقيقية. هنا أخبرته زوجته قبل حوالي ستة وعشرين عامًا بتورية حيية تثير الضحك في بنات الجيل الجديد أنها حامل، وهنا عمّد فخر الأبرشية صديقهما العزيز أُسقف نيويورك المبجل ابنهما البكر دالاس، لأن في إخراجه إلى الكنيسة في فصل الشتاء خطر على صحته، وهنا خطا دالاس خطواته الأولى وهو يصيح «بابا»، وماي والمربية تضحكان من وراء الباب، وهنا أعلنت ابنتهما ماري (التي تشبه أمها كثيرًا) خطوبتها إلى أحد أبناء ريجي تشيفرس الكثر، وهو شاب ممل معدوم الخيال، وهنا قبّلها والدها من وراء الخمار يوم زفافها قبل أن يركبا السيارة التي نقلتهما إلى كنيسة (غرايس). فمهما تقلّب العالم وتغيّر، يظل الزفاف في كنيسة

(غرايس) عادة تقليدية راسخة.

وفي هـذه المكتبـة اعتـاد أن يناقش مع ماي مسـتقبل أبنائهـما؛ كتعليم دالاس وأخيـه الصغير بيل، وعجزهما عن تخفيـف لامبالاة ماري بتحقيق أي انجاز مميز وشـغفها بالرياضـة والأعمال الخيرية، وميل دالاس المحب للاسـتطلاع والاستكشـاف إلى «الفـن» ممـا قـاده إلى العمـل في مكتـب أحـد المهندسـين المعماريين الواعدين في مدينة نيويورك.

بـات الشـباب في هـذه الأيام يحـررون أنفسـهم من قيـود المحامـاة والتجارة، وينخرطـون في مجـالات كثيرة وجديدة. فإن لم ينغمسـوا في سياسـة الولاية أو الإصلاح البلدي، فهم في الغالب يدرسون علم الآثار في أمريكا الوسطى، أو فن العمارة أو هندسـة عمارة البيئة. ويولون اهتمامًا خاصًا بسـمات عمارة ما قبل الثورة في بلدهم، ويدرسون الطراز الجورجي ويقتبسون من أمثلته، ويعترضون على استعمال كلمة "استعماري" في وصف الأبنية في غير مكانها الصحيح. فلا أحد الآن يبني منزله على الطراز "الاستعماري" سوى المليونيرات الذين أثْروا من تجارة السلع الغذائية، فانتقلوا للعيش في الضواحي.

لكـن أهم ما حـدث في هذه المكتبة - وأحيانًا يضـع نيولاند هذا الحدث على رأس القائمـة - هـو أن حاكـم نيويورك[1] زاره ذات مسـاء قادمًـا من ألباني ليتنـاول العشـاء ويبيـت ليلتـه، فـكان أن التفت ضيفـه إليه ضاربًـا الطاولة بقبضته وهو يعض ذراع نظارته وقال:

-اللعنة على السياسـيين كلهم! أنت الرجل الذي تحتاج البلد إليه يا نيولاند. إن كنا نريد أن ننظف البلد، فيجب أن يشارك رجال مثلك في التنظيف.

«رجـال مثلـك...». لا توصف سـعادة نيولانـد بهذه الكلمـة! ولا يوصف حماسـه وهـو يلبي النـداء! كانت كالصـدى الذي تـردد الآن عـن رجاء نيد وينسـت في الماضي بأن يشـمّر عن سـاعديه ويخوض في الوحل، لكن النداء

(١) كان حاكم نيويورك في ذلك الوقت ثيودور روزفلت، الذي أصبح من أبرز الرؤساء في الولايات المتحدة الأمريكية

هـذه المـرة صدر مـن رجلٍ وضع نفسـه قـدوة وخـاض الوحـل، وكان من المستحيل رفض النداء.

عندمـا يسـترجع نيولاند تلك الأيـام فإنه لا يظـن أن البلد كانـت تحتاج إلى الرجـال مـن أمثالـه، أو أنها لم تحتج إليهـم في الخدمة الفعليـة في الحكومة كما قال ثيودور روزفلت. والدليل على ذلك أنه خدم عامًا واحدًا فقط في مجلس الولاية ولم يُنتخب مرةً ثانيةً. فانطوى شاكرًا إلى كواليس العمل البلدي النافع بعيدًا عن الأعين، ومنها إلى كتابة المقالات من حين لآخر في إحدى المجلات التجديديـة الأسـبوعية التي تحاول إيقاظ البلد من غفوتـه وركوده. قد يبدو أن مـا عملـه في حياتـه قليلٌ، لكـن عندما يتذكر مـا كان يتطلع إليـه الرجال مـن جيله وطبقتـه - روتين ضيق بين العمل وممارسـة الرياضة والمناسـبات الاجتماعيـة، وتطلعات قـاصرة لا ترى غير هذا - فإن إسـهاماتِه الضئيلة في تشـكيل الأوضاع الجديدة في الدولة لها قيمتها وأهميتها، كما لكل طوبة أهمية في بنـاء جـدار منيـع. ولم تكـن حياته العامـة مسرحًا يضجّ بالأحـداث، فهو إنسـانٌ مجبول عـلى التأمل ومداعبة الهوى، ولكن حياته كانت حافلة بأشـياء عظيمـة يتفكـر فيها، ومتـع طيبة يتنعم بهـا، وصداقة رجل عظيـم منها قوته وفيها فخره.

لقد كان باختصار ما يسميه الناس اليوم «مواطن صالح»، فكل حركة جديدة برزت في نيويورك على مدى السـنوات العديدة الماضية سـواءً أكانت خيرية، أم بلدية، أم فنية كانت تنشـد رأيه ومشـورته، وتتطلع إلى ضمه إلى صفوفها. فلطالمـا تناصـح الناس بقولهم: «اسـأل آرتشر»، وقد فعلـوا في أحيانٍ كثيرة؛ عندمـا قرروا إنشـاء أول مدرسـة للأطفـال المعاقين، وإعـادة تنظيم متحف الفنون، وتأسـيس نادي (غرولير)[1]، وافتتاح المكتبة العامة الجديدة، وإقامة جمعية حديثة لموسيقى الصالون. كانت أيامه حافلة ومشغولة. ماذا يريد المرء أكثر من هذا؟

---

(١) نادٍ للمهتمين بجمع الكتب النفيسة والنادرة

إنه يعرف أنه ضيّع شيئًا واحدًا: زهرة شبابه. لكنه عوّد نفسه على أن يفكر بأنه لم يكن ليحصل عليها لأنها كانت بعيدة المنال مستحيلة الإدراك، وأن حزنه على ضياعها يشبه حزن مَن لم يفز بالجائزة الأولى في اليانصيب، فقد كان هناك مئات الملايين من التذاكر في يانصيبه، ولم تكن هناك سوى جائزة واحدة فقط، فكان الحظ عدوه وخصيمه. عندما يفكر بإيلين أولنسكا فإنها تتراءى له بصورة تجريدية خيالية، كما يتذكر الإنسان شخصية محبوبة قرأ عنها في كتاب أو رآها في لوحة. ولقد كانت هي الرؤية التي تجمع كل الفرص التي فوّتها في حياته. صحيحٌ أن الرؤية باهتة واهية لكنها حجبت عينيه عن أية امرأة أخرى. لقد كان زوجًا مخلصًا طوال حياته، وعندما باغت الموت ماي - إثر انتقال عدوى الالتهاب الرئوي من ابنهما الصغير إليها بينما كانت ترعاه أثناء مرضه - كانت فاجعةُ فقدها أليمة حقًا. فالعمر الذي أمضياه معًا علّمه أنه لا يهم إن كان الزواج واجبًا يطغى الفتور عليه، ما دام أنه يقوم بهذا الواجب بإخلاص، وأنه لولا الإخلاص لكان الزواج حربًا طاحنة تتنازع فيها الرغبات القبيحة. إنه يحترم ماضيه ويبكي فقده، فقد رأى فيه أيامًا سعيدة.

جالت عيناه في أركان الغرفة التي أعاد دالاس تصميمها حيث أضاف الشاب نقوشًا إنجليزية، وخزائن (تشبنديل)، وقطعًا متنوعة باللونين الأزرق والأبيض، ومصابيح كهربائية مغطاة. نظر إلى طاولة الكتابة القديمة من طراز (إيستليك) التي لم يرضَ أبدًا بأن يتخلى عنها، وفوقها صورة ماي الأولى ما زالت تتصدر المكتب بجانب دواة الحبر. كانت الفتاة التي في الصورة كاعبًا طويلة القامة ميّاسة القد، عليها قبعة من قشٍ ترفرف حوافها، وقميص من الموسلين المنشّى كما رآها تحت أشجار البرتقالِ في حديقة الإرسالية. وقد ظلّت على صورتها كما رآها في ذلك اليوم، فمع أنها قصرت قليلاً لكن لم يتغير فيها أي شيء آخر. فهي الكريمة المخلصة التي لا تعرف الكلل، ولكنها أيضًا الفتاة عديمة الخيال، غير القادرة على النمو، حتى إن العالم الذي تعرفه في

شبابها تضعضع وانهار، ثم بنى نفسه مرة أخرى دون أن تشعر هي بأيٍ من هذه التغيرات، لأن هذا العمى الكامل أبقى أفقها كما هو بدون تبدل. ثم إن عدم قدرتها على تقبل التغيير أجبر أبناءها على إخفاء وجهات نظرهم عنها كما فعل نيولاند، فكان بين الأب وأبنائه منذ البداية اتفاق لا شعوري غير معلن بالتظاهر بالوحدة والتوافق، فسيطر على حياتهم ضربٌ من النفاق الأسري البريء. وقد ماتت وهي تؤمن أن العالم مكان جميل معمورٌ ببيوتٍ مطمئنة رغدةٍ محبّة كبيتها، فاستسلمت لرحيلها المحتوم عنه لأنها واثقة أن نيولاند سيستمر في غرس المبادئ والأهواء الجائرة التي حكمت حياتهما في ابنهما دالاس مهما حدث، وأن دالاس سوف ينقل هذه الوديعة النفيسة إلى بيل الصغير بعد أن يلحق نيولاند بها، أما ماري فقد ربّتها هي كما تريد وتهوى. ولهذا، بعد أن انتزعت ماي بيل الصغير من براثن الموت، ووضعت نفسها مكانه انتقلت برضا إلى آخر منازلها في الدنيا في ضريح أسرة آرتشر في مقبرة كنيسة (القديس مارك)، حيث ترقد السيدة آرتشر من قبلها آمنةً من «التيارات» التي لم تعلم زوجة ابنها أصلاً بوجودها.

وأمام صورة ماي كانت صورة ابنتها. كانت ماري تشيفرس شقراء طويلة كأمها، لكنها غليظة الخصر، ضامرة الصدر، محدّبة الكتفين قليلاً. وما كانت ماري لتحقق إنجازاتها الرياضية العظيمة لو أنها ورثت خصر أمها الدقيق. كأن الفرق بين شكليهما يرمز إلى الفرق بين شخصيتيهما، فحياة الأم كانت ضيقة بضيق قدّها، أما ماري – التي لم تكن أقل تمسكًا بالتقاليد من أمها ولا أكثر منها ذكاءً – فكانت حياتها أوسع أفقًا، وآراؤها أكثر تسامحًا. وفي الجيل الجديد خيرٌ كثير.

رنّ الهاتف فأشاح نيولاند وجهه عن الصور، ورفع السماعة. ما أبعد تلك الأيام حينما كانت سيقان الصبية المراسلين هي وسيلة التواصل السريعة الوحيدة في نيويورك!

"شيكاغو تطلبك".

لا بد أنها مكالمة خارجية من دالاس، فقد أرسلته شركته إلى شيكاغو لمناقشة مشروع قصر يعتزمون تشييده لمليونير شاب يحب الأفكار الجديدة، فالشركة ترسل دالاس دائمًا في هذه المهمات.

"آلو؟ أبي... نعم، دالاس. اسمع... ما رأيك بالذهاب في رحلةٍ بحرية يوم الأربعاء على متن "موريتانيا"؟[1] نعم... الأربعاء القادم. يريد عميلنا أن أرى بعض الحدائق الإيطالية قبل أن نتفق على أي شيء، فطلب مني أن أسافر في الرحلة المقبلة. يجب أن أعود في 1 يونيو طبعًا. (قطع دالاس كلامه بضحكة خجلة مرحة) فيجب أن نسرع. هيا يا أبي! تعال معي فأنا أحتاج إلى مساعدتك».

كان دالاس يتحدث كما لو كان معه في الغرفة نفسها، فصوته كان قريبًا وطبيعيًا كأنه يجلس في مقعده المحبب بجوار المدفأة إلى جانب أبيه. لم يعد الحديث باستعمال الهاتف يثير عجب نيولاند، فالمكالمات بعيدة المدى باتت من أساسيات الحياة مثل الإنارة الكهربائية والرحلات العابرة للأطلسي خلال خمسة أيام. لكن الضحكة أذهلته، فجددت عجبه من أن تقطع ضحكة دالاس الآلاف والآلاف من الأميال عبر أراضي الدولة، عبر الغابات والأنهار، والجبال والبراري، والمدن الصاخبة وملايين البشر المشغولين غير المكترثين؛ أن تصله ضحكة ابنه ومفادها: «طبعًا يجب أن أعود في 1 يونيو مهما حصل، لأنني سوف أتزوج فاني بوفرت في الخامس من ذلك الشهر».

عاد صوت ابنه ليقول:

«تفكر في الأمر؟ لا يا سيدي... ولا دقيقة واحدة. يجب أن تقول نعم الآن. لمَ لا؟ أريد أن أعرف السبب. إن كنتَ تستطيع أن تذكر سببًا واحدًا... لا تستطيع، أليس كذلك؟ كنتُ متأكدًا. إذًا اتفقنا؟ لأنني سأوكل إليك حجز التذاكر من مكتب «كونارد لاين» صباح الغد، ولا تنسَ أن تحجز تذكرتي عودة في رحلة تنطلق من مارسيليا. أرجوك وافق يا أبي، ستكون هذه رحلتنا الأخيرة معًا قبل زواجي... عظيم! كنتُ واثقًا أنك ستوافق».

(١) موريتانيا: كانت أسرع سفينة عابرة للمحيط الأطلسي، ولها رحلات منتظمة

انتهى اتصال نيو لاند بشيكاغو، فنهض وأخذ يذرع الغرفة. إن الفتى محق. هذه هي رحلتهما الأخيرة قبل زواجه. كان والده متأكدًا أنهما سيسافران معًا كثيرًا بعد زواجه، فالاثنان رفيقان حميمان، ولا يعتقد أن فاني بوفرت - مهما اختلفت الآراء حولها - سوف تؤثر في علاقتهما المقرّبة، بل إنه يتوقع حسبما رآه في شخصيتها أن تندمج مع أسرته اندماجًا طبيعيًا. لكن يظل التغيير تغييرًا والاختلافات موجودة. ومهما أحس بالألفة والأنس تجاه خطيبة ابنه، فإنه لا يمكن أن يرفض هذه الفرصة الأخيرة لقضاء بعض الوقت مع ابنه لوحدهما.

لم يكن ثمة سبب يمنعه من اغتنام هذه الفرصة، ما عدا أن رغبته في السفر اضمحلّت بمر السنين. فماي كانت تكره السفر إلا لأسباب وجيهة، كاصطحاب الأطفال إلى البحر أو إلى الجبال، ولم تتصور أسبابًا أخرى تدفعها إلى ترك منزلهما في الشارع التاسع والثلاثين، أو جناحهما المريح في منزل والديها الصيفي في نيوبورت. عندما نال دالاس شهادته، رأت والدته أن من واجبها أن تسافر معه لستة أشهر، فرحلت العائلة بأسرها لتقوم بالجولة التقليدية قاطعين فيها إنجلترا وسويسرا وإيطاليا، ونظرًا لضيق الوقت (ولا أحد منهم يعرف لمَ وقتهم ضيّق!) اضطروا إلى حذف فرنسا من خط الرحلة. وما زال نيو لاند يتذكر غضب دالاس عندما اقترح الآخرون الذهاب إلى مون بلون[1] بدلًا من ريمس وشارتر[2]، فماري وبيل كانا يريدان تسلق الجبل، وقد بلغ الملل فيهما أشده وهما يتبعان دالاس من كاتدرائية إنجليزية إلى أخرى. وحيث إن ماي كانت عادلة بين أبنائها فقد أصرّت على الموازنة بين نزعاتهم الفنية وميولهم الرياضية. وهذا ما جعلها تقترح أن يذهب زوجها إلى باريس لأسبوعين مع دالاس، ثم يقابلهم في البحيرات الإيطالية بعد أن يزوروا سويسرا، بيد أن نيو لاند رفض متذرعًا بضرورة بقائهم معًا، فتهللت أسارير زوجته من تصرف زوجها القدوة

(١) أعلى قمة جبلية في سلسلة جبال الألب في أوروبا، وتقع هذه القمة في إيطاليا

(٢) مدينتان حافلتان بالآثار التاريخية والمعمارية في فرنسا

التي يجب أن يحتذي دالاس به.
لكن منذ وفاتها قبل عامين لم يعد هناك سبب لاستمراره في هذا الروتين. وقد ألحّ عليه أولاده بالسفر، فماري كانت واثقة أنه سيكون أسعد حالاً بالترحال و»زيارة المعارض»، رغم أنها لا تفهم كيف يمكن لهذا العلاج أن يكون ناجعًا فإنها واثقة من فعاليته. لكن نيولاند وجد في نفسه تشبثًا بالعادات، والتجاءً إلى الذكريات، وعزوفًا مفاجئًا مفزعًا عن كل شيء جديد.
أما الآن، وهو يستعرض شريط ماضيه في ذهنه، أدرك أنه قد وقع في فخ الروتين. إن أسوأ ما في التزام المرء بالقيام بواجبه بتفانٍ هو أنه يجعله غير قادرٍ على فعل أي شيء غيره، وذلك ما كان يؤمن به أبناء جيله. لكن الحدود الفاصلة بين الصح والخطأ، والصدق والكذب، والشرف والدناءة لم تدع مجالاً لوقوع المجهول. فثمة لحظات ترتقي فيها بغتةً مخيّلة الإنسان التي روّضها الواقعُ بسهولة وكبح جماحها إلى درجاتٍ أعلى من مستواها العادي، فتشرف من علوها على حبال القدر الطويلة الملتوية. تعلّق نيولاند في ذاك العلو وتأمل...
ما الذي بقي من العالم الذي نشأ فيه والذي كبّلته قوانينه؟ إنه يتذكر الآن نبوءة لورنس ليفرتس الساخرة قبل أعوام عديدة التي نطقها في هذه الغرفة تحديدًا: «ولو استمر الحال على هذا المنوال، فسوف نرى أبناءنا يتزوجون من أبناء بوفرت غير الشرعيين». وهذا بالضبط ما سيفعله بكره وقرّة عينه، لكن لا أحد شجب ولا استنكر. حتى جايني عمة الفتى التي لم يتغيّر شكلها عن أيام شبابها المتأخر أخرجت لآلئ أمها وزمردها من مكمنها، وحملتها ويداها تنتفضان إلى العروس. أما فاني بوفرت فعوضًا عن أن تحزن لأنها لم تتلقَ «طقمًا» من صائغ باريسي، قد ذهلت من جمالها الأثري، وقالت إنها ستشعر بأنها صورة من صور إيزبيه المنمنمة عندما ترتديها.
ظهرت فاني بوفرت في نيويورك بعد وفاة والديها وكانت في الثامنة عشرة، فخلبت لب أهل المدينة كما فعلت مدام أولنسكا قبل ثلاثين عامًا، لكن بدلاً

مـن أن يلتقيها المجتمع بالارتياب والخشـية، تلقاها بسلاسـة وفرح. فالفتاة جميلـة ومسـليّة وراقية. ومـاذا يتمنى النـاس غير ذلك؟ ولا أحـد منهم كان متحجر العقل أو محدود الأفق لينبش الماضي شبه المنسي من تاريخ أبيها أو من أصلها. ولم يكن أحد سـوى كبار السن يتذكرون انهيار بوفرت؛ ذاك الحدث القديـم الـذي وقع في عـالم التجارة في نيويـورك، أو زواجه بهدوء من سـيئة السمعة فاني رينغ بعد وفاة زوجته، ورحيله مع زوجته الجديدة وفتاة صغيرة ورثت عنها جمالها. سـمع الناس بعد حينٍ عن انتقاله إلى القسطنطينية، ثم إلى روسـيا. وبعد مـضي أكثر من عقد مـن الزمان، كان المسـافرون الأمريكيون يحكـون عن إكرامه وحسـن ضيافته لهـم في بيونس آيرس حيـث يعمل ممثلاً لشركـة تأمينـات كبرى. وهناك توفي هو وزوجته في عـز ثرائهما. وفي يوم من الأيـام قدمت ابنتهـما اليتيمة إلى نيويـورك في كنف زوجة السـيد جاك ويلند الـوصيّ القانوني على الفتاة، وهـو أخو ماي آرتشر. وهذا يربـط الفتاة بصلة تشـبه القرابة بأولاد نيولاند آرتشر، فلم يسـتغرب أحد عندما أُعلنت خطبة دالاس إليها.

ولا مثـال أبلغ من هذا على التغيير الجذري الذي حصل في العالم. والناس في هذه الأيام مشـغولون... شـغلتهم الإصلاحات «والحركات»... وشغلتهم الصرعـات والموضـات والتفاهات - حتى إن الجـار لا يعرف من هو جاره. وما أهمية ماضي الإنسان، والناس قطعٌ ملونة متحركة تدور في صورة واحدة داخل مشكالٍ ضخم؟

***

شـعر نيولاند آرتشر بقلبه ينبض باضطراب الشباب ونشاطه، وهو يطل من نافذة غرفته في الفندق على حيوية شوارع باريس وفخامتها. مضى زمنٌ طويلٌ لم يختلج فيه قلبه بين عظامه المسنّة، لكن سرعان ما تركه قلبه بين أطلال صدرٍ خاويـة وعقـل هائـج. أهكذا يا تُرى يفعـل قلب ابنه في حضور الآنسـة فاني بوفـرت؟ كلا. إنه يدق بسرعـة ولا ريب، لكن الإيقـاع مختلف. تذكر كيف

أعلن ابنه الشاب بهدوء وثقة خطوبته، واثقًا من موافقة أسرته. قال في نفسه: «إنّ الفرق هو أن هؤلاء الشباب يؤمنون أنهم سينالون ما يريدون، بينما نحن كنا نؤمن أننا لن ننال شيئًا مما نريد. لكن... إن كان المرء يعرف أنه سينال شيئًا ما، أيدق قلبه بجنون كما يحدث عندما لا يعرف ولا يتوقع؟»

كان ذلك يومهما الثاني في باريس، وكانت أشعة شمس الربيع تغمر نيولاند بدفئها عبر نافذته المفتوحة فوق ميدان ڤاندوم الفضي الرحب. كان أحد الشروط التي وضعها نيولاند - أو بالأحرى شرطه الوحيد - للموافقة على السفر إلى الخارج مع دالاس، هو ألا يجبره على الذهاب إلى أحد «القصور» الحديثة الغريبة في باريس. وكان رد دالاس على ذلك: «حسنٌ... لا بأس. سوف آخذك إلى مكان ما قديم الطراز يسعد قلبك... ما رأيك ببريستول؟» ففجع والده عندما سمع ابنه يتحدث عن مقر الملوك والأباطرة لقرن كامل كأنه مجرد نُزلٍ عتيق يرتاده الزائر لسكونه واحتفاظه بعبق الماضي!

كثيرًا ما كان نيولاند يتخيّل عودته إلى باريس خلال تلك الأعوام الأولى التي اكتوى فيها بألم الفراق، إلى أن تلاشى هذا الحلم، فأصبح يرى المدينة على أنها المكان الذي تقضي فيه مدام أولنسكا حياتها. كم من ليلةٍ مسهدة قضاها وحيدًا في مكتبته بعد أن هجع كل من في البيت، وهو يرى بعين الخيال تفتح براعم الربيع في جادّات باريس المظلّلة بأشجار الكستناء، والأزهار والتماثيل في الحدائق العامة، ونفحات عطر البنفسج من عربات الزهور، وتموجات النهر العظيم تحت الجسور المذهلة، وحياة الفن والتأمل والمتعة التي تضخ بقوةٍ في كل شريان من شرايينها. وها هو المشهد أمامه بكل بهائه، لكنه يشعر الآن بأنه كائن صغير ضعيف، ما هو إلا لطخة رمادية على شكل إنسان لا تشبه في شيء الرجل العتيد الشديد الذي كان يحلم بأن يكون...

وضع دالاس يده على كتف أبيه بمرح:

-مرحبًا يا أبي. ما أجمل هذا المنظر!

وقفا يطلان من النافذة بصمت، ثم أردف الشاب:

-بالمناسبة، لدي رسالة لك: إن الكونتيسة أولنسكا تنتظرنا عند الخامسة والنصف.
قالها باستخفاف وبلا اكتراث، كأنه يبلغ والده بأي معلومة عادية.. كأنه يقول له عن موعد رحلتها إلى فلورنسا في مساء الغد. نظر نيولاند إليه، فخيّل إليه أنه رأى في عينيّ الشاب المرحتين بريقًا من خبث جدته مينغت العجوز.
-ألم أقل لك؟ لقد استحلفتني فاني أن أفعل ثلاثة أشياء في باريس: أن أحضر لها تسجيلاً لآخر أغاني ديبوسي[1]، أن أذهب إلى (غراند غنيول)[2]، وأن أرى مدام أولنسكا. لقد كانت بالغة العطف على فاني عندما أرسلها السيد بوفرت من بيونس آيرس للدراسة، ولمّا لم يكن لفاني أي أصدقاء في باريس، فقد كانت مدام أولنسكا توليها برعايتها، وتأخذها في جولات في أيام العطلات. أعتقد أنها كانت صديقة حميمة لزوجة السيد بوفرت الأولى، وهي فوق ذلك طبعًا قريبتنا. فاتصلتُ بها صباح اليوم قبل أن أخرج، وأخبرتها أنك أتيت معي وأننا سنبقى ليومين، ونود رؤيتها.
حملق نيولاند في وجهه مشدوهًا.
-قلتَ لها إنني هنا؟
-طبعًا... لِمَ أخفي ذلك؟
رفع دالاس حاجبيه ساخرًا. ولمّا لم يجد إجابةً، دس ذراعه في ذراع أبيه، وضغط عليها كصاحب يريد أن يعرف سر صاحبه.
-أخبرني يا أبي... كيف كانت الكونتيسة؟
شعر نيولاند بوجهه يتورد تحت نظرة ابنه التي لا تعرف الخجل.
-هيّا! قل وأفصح... ألم تكونا صديقين حميمين؟ ألم تكن إنسانة مذهلة؟
-مذهلة؟ لا أدري... كانت مختلفة.
-آها... أرأيت؟! هذا هو السر. عندما تقابل تلك المرأة التي تراها... مختلفة... ولا تدري ما السبب. هذا هو شعوري بالضبط تجاه فاني.

(١) ديبوسي: من أشهر المؤلفين الفرنسيين
(٢) مسرح في فرنسا اشتهر بالعروض المرعبة

تراجع أباه خطوة إلى الوراء وسحب ذراعه. قال:
-تجاه فاني؟ لكن يا ولدي... رائعٌ أن يكون هذا شعورك. غير أني لا أرى ما علاقة...
-أخرج ما في جعبتك يا أبي ولا تكابر! ألم تحتل الكونتيسة مكانةً في قلبك يومًا كالتي تحتلها فاني في قلبي؟
كان دالاس ينتمي إلى الجيل الجديد روحًا وجسدًا. ومع أنه ابن نيولاند وماي آرتشر، لكنهما لم يستطيعا قط أن يغرسا فيه ولو ذرة من التحفظ. وعندما كانا يطلبان منه التكتم على أمر ما وغض البصر، كان يعترض ويتذمر ويقول: «وما الفائدة من خلق الألغاز؟ هذا ما يجعل الناس ينبشون ويفتشون». رأى نيولاند وهو ينظر في عينيه الآن اهتمامًا صادقًا وراء هزله.
-ماذا تقصد؟
-كانت هي المرأة التي كنت ستضحي بكل شيء من أجلها... لكنك لم تفعل.
ردد نيولاند بتهيّب:
-لم أفعل.
-نعم يا صاحبي... لم تفعل. لكن أمي قالت...
-أمك؟!
-نعم. قبل وفاتها بيوم. عندما طلبتْ أن تراني لوحدي... أتتذكر؟ قالت إنها واثقة أننا سنكون دائمًا وأبدًا في أمان في رعايتك، لأنك قد تخليت مرةً عن أكثر شيء تريده في الوجود عندما طلبتْ منك ذلك.
لاذ نيولاند بالصمت وهو يسمع هذا الكلام الغريب، وعيناه شاخصتان في الميدان المزدحم تحت أشعة الشمس دون أن يرى أي شيء. قال بعد حينٍ بصوت منخفض:
-لم تطلب مني قط.
-طبعًا. لقد نسيتُ... لم تكونا تطلبان من بعضكما أي شيء، ولا تقولان أي شيء. كنتما تجلسان يراقب أحدكما الآخر، وتخمنان بما يفكر الآخر وما يجول في ذهنه كأنكما أصمين أبكمين. ما يعجبني في جيلكما هو أن الشخص يعرف

أفكار الآخر الخاصة وأسراره أكثر مما يعرف الواحد منا الآن أفكاره.

صمت دالاس قليلاً ثم أردف:

-قل لي يا أبي... أغاضب أنت مني؟ إن كنت غاضب فاقبل دعوتي للغداء في مطعم أونريه. يجب أن أذهب إلى قصر فيرساي بعد ذلك.

***

لم يذهب نيولاند مع ابنه إلى فيرساي، وفضّل أن يقضي العصر وحيدًا ليتجوّل في أنحاء باريس. كان يحتاج إلى أن يصفّي حسرات متكومة وذكريات مكتومة جمّعها في حياة عاشها بلا لسان.

لكن بعد سويعات من التفكير وجد أنه لا يشعر بالندم على ما فعله دالاس بطيشه وما أسرّ به إليه. بل إنّ معرفته بأن شخصًا ما كان قد أحس بألمه وأشفق عليه أزاح قيدًا عاصرًا كان ملتفًا حول قلبه... وأن يكون هذا الشخص هو زوجته هيّج مشاعره بشكل لا يُوصف. ولم يكن دالاس ليفهم ذلك رغم فطنته ورأفته، فالفتى ولا ريب يرى أن ما حصل ليس إلا مثالاً محزنًا لآمالٍ ذهبت أدراج الرياح، وأحلامٍ لم ترَ نور الصباح. لكن... أكانت حقًا كذلك؟

جلس نيولاند لوقتٍ غير قصير على مقعد في الشانزليزيه وتدبر الأمر، بينما الحياة تجري أمامه.

على بُعد بضعة شوارع من هنا، وبعد ساعات معدودة سوف تكون إيلين أولنسكا بانتظاره. إنها لم ترجع قط إلى زوجها، وعندما توفي قبل بضعة أعوام، لم تغيّر شيئًا في أسلوب حياتها. لا شيء يحول بينها وبين نيولاند الآن... وسوف يراها عصر اليوم.

نهض ومشى قاطعًا ميدان الكونكورد وحدائق التويلري إلى متحف اللوڤر. لقد قالت له ذات مرة إنها ترتاد المتحف كثيرًا، فحدّثته نفسه على أن يقضي الوقت المتبقي على لقائها في مكانٍ قد تكون زارته مؤخرًا. تجول لساعةٍ أو أكثر متنقلاً من قاعة إلى صالة، وضوء الظهيرة الباهر يعمّها جميعًا. وأخذت اللوحات تختال أمامه بجمالها شبه المنسي واحدةً تلو الأخرى، تفعم روحه

بأصداء الحسن التي لم تبلغه إلا الآن. كم كانت حياته جرداء مقفرة!

وجد نفسه واقفًا أمام لوحة من لوحات تيتيان المتألقة، فسمع نفسه يقول فجأة: "لكني ما زلت في السابعة والخمسين..."، ثم استدار خارجًا. قد يكون الأوان قد فات على غرس الأحلام الربيعية الرومانسية، لكن ثمة وقتٌ باقٍ لحصاد الصداقة والصحبة، والتنعمّ هانئًا بقربها.

عاد إلى الفندق حيث اتفق ودالاس على اللقاء هناك، وسارا معًا عبر ميدان الكونكورد ثانيةً، وعبرا الجسر الذي يؤدي إلى مجلس النوّاب. لم يشعر دالاس بما يدور في خلد أبيه، فكان يتحدث عن فيرساي بحماسةٍ وإسهاب. لم يكن قد رأى القصر إلا كلمح البصر في رحلةٍ خلال إحدى الإجازات القصيرة، وقد حاول أن يحشر فيها كل المعالم السياحية التي حُرم من رؤيتها عندما اضطر إلى السفر مع أسرته إلى سويسرا، فتدافعت الكلمات من فمه ما بين ولع مائج ونقد متغطرس.

استمع إليه نيولاند وقد عقد العجز لسانه. لم يكن الفتى عديم الإحساس أو متبلد الشعور، لكنه كان يملك الثقة التي تتأتّى من اعتبار القدر ندّك لا سيدك. فكر: "نعم... هذا هو بالضبط! إنهم يشعرون بأنهم مسيطرون على القدر... ويعرفون كيف يتحكمون في حياتهم". لقد أصبح ابنه في نظره المتحدث الرسمي باسم الجيل الجديد الذي اقتلع كل علامات الحياة كالسيل العرم، واقتلع معها إشارات التحذير وعلامات الخطر.

توقف دالاس فجأة وقبض ذراع أبيه هاتفًا:

-يا للروعة!

وصلا إلى ساحة رحبةٍ مزروعة بالأشجار أمام الإنفالاد،[1] وقد تعلّقت قبة مانزارت[2] فوق قمم الأشجار وأغصانها ذات البراعم وعلى واجهة المبنى الرمادية الطويلة تستجلب لنفسها كل أشعة شمس العصر، شامخةً في علوّها

(١) هو مبنى خصصه لويس الرابع عشر ليكون مصحة لجرحى الحروب

(٢) من أبرز المهندسين المعماريين في القرن السابع عشر

كرمز جلي لعظمة الأمة. كان نيولاند يعلم أن مدام أولنسكا تسكن في ميدانٍ قريب من إحدى الجادّات المتفرعة عن الإنفالاد، فتصوّر حيّها وديعًا غير لافتٍ للنظر، ناسيًا القبة الفخمة التي تنير المكان. أما الآن فقد رأى أن هذا البريق الذهبي الذي ينعكس عن القبة هو الضوء الذي ينير المكان أينما حلّت. لقد عاشت حياتها - التي لا يعرف عنها إلا النزر اليسير - لمدة ثلاثين سنة في هذه الدنيا الثرية المحفّزة للحواس. تخيّل المسارح التي ذهبت إليها، واللوحات التي نظرت إليها، والمنازل العتيقة الرائعة التي ارتادتها، والناس الذين تحدثت معهم، والحراك المستمر للأفكار والصور والعلاقات التي احتشدت في سباق اجتماعي في مكان ينتمي إلى غابر العصور، فتذكر على حين غرة الفرنسي الشاب الذي قال له ذات مرة: «آه.. ما أجمل الحوارات الممتعة! لا شيء يعدلها».

لم يرَ نيولاند مسيو ريفيير ولم يسمع عنه شيئًا منذ حوالي ثلاثين عامًا، وهذا دليل على مدى جهله بحياة مدام أولنسكا. إن ما يفصلهما من سنين يزيد عن نصف عمر، وقد أمضت حياتها مذ رآها لآخر مرة بين أناس لا يعرفهم، في مجتمع لا يدري له كنهًا، في ظروفٍ لن يفهمها أبدًا. بينما أمضى هو حياته محتضنًا صورة شبابها. لا يخامره أدنى شك أنها قد وجدت صحبة أخرى أكثر حميمية وقربًا، ولربما تكون هي أيضًا قد احتفظت بذكرياتها عنه في معزلٍ في إحدى حجرات ذاكرتها، كشيء مقدس في معبدٍ مظلمٍ مهجور لا تجد الوقت لتتعبد فيه كل يوم...

عبرا أمام الإنفالاد وسارا في شارع رئيسي متاخم للمبنى. كان ذلك الحي هادئًا رغم فخامته وتاريخه، ورمزًا للثروات التي انتهلت باريس من معينها. بدأت شمس اليوم بالغروب، وبقي أفق أحمر حالم من أثرها تخترقه ومضات صفراء في أماكن متفرقة. وكان المارّة قلة في الميدان الصغير الذي انعطفا إليه. توقف دالاس ثانيةً ونظر إلى الأعلى. دس ذراعه بذراع أبيه في حركةٍ ألفها نيولاند ولم يعد حياؤه يجفل منها، ولبثا برهة ينظران إلى المبنى، قال دالاس:

-لابد أن المنزل هنا.

كانت العمارة حديثة وبلا شخصية واضحة، بنوافذ كثيرة وشرفات جميلة موزعة في واجهتها العريضة المطلية بلون القشدة. وفي الشرفات العلوية المرتفعة فوق قمم أشجار الكستناء في الميدان، كانت المظلات ما زالت ممتدة كما لو الشمس لم تبرحها إلا منذ وقت قصير.

-يا ترى في أي طابق...؟

فكر دالاس بصوتٍ عالٍ وهو يتقدم نحو موقف العربات، فأدخل رأسه ليسأل الحارس، ثم عاد إلى حيث يقف أبيه وقال:

-الطابق الخامس. لابد أنه ذو الشرفات المظلّلة.

لم يتحرك نيولاند قيد أنملة. ظلّ يحدق في النوافذ العلوية كأنه حاجٌ وصل إلى مقصده. ولمّا طال وجومه ذكّره ابنه:

-لقد شارفت الساعة على السادسة.

تلفّت والده حوله، فوجد مقعدًا فارغًا تحت ظل الأشجار.

-أعتقد أنني سأجلس هنا لوهلة.

هتف ابنه:

-لماذا؟ أتشكو من شيء؟

-لا... لا. أنا بخير. لكني أرجوك أن تصعد دوني.

ظهرت الحيرة جليّة على وجه دالاس:

-لكن... أبي... أتقصد أنك لن تصعد أبدًا؟

قال نيولاند ببطء:

-لا أعلم.

-إن لم تصعد فلن تفهم ما منعك.

-اذهب يا بنيّ، وربما سألحق بك.

نظر إليه دالاس نظرةً طويلة بين خيوط الشفق.

-لكن ماذا أقول لها؟

ردّ أبوه مبتسمًا:
-لم يعجزك الكلام من قبل قط يا عزيزي.
-حسنٌ. سأقول إنك رجل من الزمن القديم، وإنك تفضل صعود السلم في مبنى ذي خمس طوابق لأنك لا تحب المصاعد.
ابتسم أبوه مرة ثانية وقال:
-قل لها إني رجل من الزمن القديم... هذا يكفي.
تفـرّس دالاس فيـه مرة أخرى غـير مصدقٍ، ثم اسـتدار ودخل مـن البوابة المقوّسـة. جلس نيو لاند على المقعد وعادت عينـاه تحدّقان في الشرفة المظلّلة. حسب الوقت الذي سيستغرقه ابنه للصعود إلى الطابق الخامس بالمصعد، ثم رنّ الجرس والدخول إلى البهو، ثم استقباله في غرفة الجلوس. وتخيّل دخول دالاس إلى الغرفـة بخطوته السريعة الواثقة وابتسـامته المرحة، وتسـاءل هل كان الناس صادقين عندما قالوا إن الولد نسخة عن أبيه؟
ثـم حاول أن يتخيل الأشـخاص الموجودين في الغرفة - ففي سـاعة الزيارة هذه لا شـك أن في المنزل أكثر من ضيف - وفي وسـطهم سـيدة شاحبة ذات شـعر أسود، وسـترفع رأسها وتنهض من مكانها لاسـتقبال ابنه، وستمدّ يدًا طويلـة نحيلة مزيّنة بثلاثة خواتم.... رآها تجلـس في أريكة في الزاوية بقرب المدفأة، وأزهار الأزالية تغطي طاولةً خلفها.
سمع نفسه يقول فجأة:
-ما أراه بعين الخيال أكثر واقعية مما سأراه لو صعدت.
وقد أبقاه الخوف من تلاشي آخر ظلال الحقيقة في مقعده، والدقائق تتسـارع واحـدةً تلو الأخرى. ظل جالسًـا لمدة طويلة في الغسـق المتثاقل، ولم تتحول عينـاه ولـو للحظة عن الشرفة. وبعـد حينٍ، ظهر نورٌ عـبر النوافذ، ثم خرج خادم إلى الشرفة، فرفع المظلات وأغلق الدرفات.
نهـض نيو لانـد آرتشر بتـأنٍ كأن تلك هي الإشـارة التـي كان ينتظرها، وعاد ماشيًا وحيدًا إلى فندقه.

فهرس المحتويات

الجزء الأول 5

الفصل الأول 7

الفصل الثاني 15

الفصل الثالث 22

الفصل الرابع 30

الفصل الخامس 36

الفصل السادس 47

الفصل السابع 56

الفصل الثامن 63

الفصل التاسع 71

الفصل العاشر 84

الفصل الحادي عشر 96

الفصل الثاني عشر 105

الفصل الرابع عشر 125

الفصل الخامس عشر 132

الفصل السادس عشر 143
الفصل السابع عشر 153
الفصل الثامن عشر 165
الجزء الثاني 179
الفصل التاسع عشر 181
الفصل العشرون 193
الفصل الحادي والعشرون 206
الفصل الثاني والعشرون 220
الفصل الثالث والعشرون 229
الفصل الرابع والعشرون 239
الفصل الخامس والعشرون 245
الفصل السادس والعشرون 254
الفصل السابع والعشرون 265
الفصل الثامن والعشرون 272
الفصل التاسع والعشرون 279
الفصل الثلاثون 287
الفصل الحادي والثلاثون 297

عصر البراءة

تملّكته رغبة جامحة لا توصف ولا تُكبح في أن يرى بعينه المكان الذي تنزل فيه، وأن يتابع بعيني خياله تحركات طيفها، كما رآها بعينيه واقفةً تحت المظلة. كان التوق يسيطر عليه ليلا نهارًا... شهوة ملحة أعياه تفسيرها، كاشتهاء المريض لطعام أو شراب ذاقه مرةً ونسي طعمه منذ دهر. لم يفكر إلى أبعد من هذه الرغبة، ولم يتخيل إلى أين ستقوده، لأنه لم يجد في نفسه أي رغبة في الحديث معها أو سماع صوتها. كل ما يعرفه هو أنه شعر أنه إن حمل معه صورة المكان الذي تطؤه قدماها، وشكله وهو مطوّق بالسماء والبحر فسوف يرى دنياه الخاوية تمتلئ ولو قليلا.

ISBN 978-9938-833-43-0

9 789938 833430

Cover Painting
George Romney

@darathar
#عصر_البراءة